

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ):
إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ: كِتَابَ اللَّهِ، وَعِترَتِي أَهْلَ
بَيْتِي، مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا، وَأَنْتَهُمَا لَنْ
يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ.

(صحيح مسلم، ج ٧، ص ١٢٢، سنن الدارمي، ج ٢،
ص ٤٣٢، مسند احمد، ج ٣، ص ١٤، ١٧، ٢٦، ٥٩، ج ٤،
ص ٣٦٦، ٣٧١، ج ٥، ص ١٨٢، مستدرک الحاکم، ج ٣،
ص ١٠٩، ١٤٨، ٥٣٣، وغيرها من المصادر).

تاريخ الاسلام

من العصر الجاهلي إلى وفاة النبي ١

تاريخ الاسلام

من العصر الجاهلي إلى وفاة النبي^١

مهدي بيشوائي

تعريب
خليل زامل العصامي

المجمع العالمي لأهل البيت^٢



❁ تاريخ الاسلام من العصر الجاهلي إلى وفاة النبي^١

تأليف: مهدي بيشوائي
ترجمة: خليل زامل العصامي
إعداد: المعاونة الثقافية، دائرة الترجمة
تصحيح: سعد المالكي
الناشر: المجمع العالمي لأهل البيت^٢
الطبعة: الأولى
سنة النشر: ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م
الكمية: ٣٠٠٠ نسخة
ردمك: ٩٦٤-٥٢٩-٠٩٠-٠٢

www.ahl-ul-bayt.org
info@ahl-ul-bayt.org

كلمة المجمع

إنّ تراث أهل البيت[^] الذي اختزنته مدرستهم وحفظه من الضياع أتباعهم، يعبر عن مدرسة جامعة لشتى فروع المعرفة الإسلامية. وقد استطاعت هذه المدرسة أن تربي النفوس المستعدة للاعتراف من هذا المعين، وتقدّم للأمة الإسلامية كبار العلماء المحتزين لخطي أهل البيت[^] الرسالية، مستوعبين إثارات وأسئلة شتى المذاهب والاتجاهات الفكرية من داخل الحاضرة الإسلامية وخارجها، مقدّمين لها امتن الأجوبة والحلول على مدى القرون المتتالية. وقد بادر المجمع العالمي لأهل البيت[^] — منطلقاً من مسؤولياته التي أخذها على عاتقه — للدفاع عن حريم الرسالة وحقائقها التي حاول تشويشها بعض أرباب الفرق والمذاهب وأصحاب الاتجاهات المناوئة للإسلام، مقتفياً خطي أهل البيت[^] والعلماء من أتباع مدرستهم الرشيدة التي حرصت على الاجابة عن التساؤلات والرد على الشبهات ومواجهة التحديات المستمرة للمنهج الاسلامي الاصيل، على مرّ العصور.

إنّ التجارب التي تختزنها كتب علماء مدرسة أهل البيت[^] في هذا المضمار فريدة في نوعها؛ لأنها ذات رصيد علمي يحتكم الى العقل والبرهان ويتجنّب الهوى والتعصب المذموم، ويخاطب العلماء والمفكرين من ذوي الاختصاص خطاباً يستسيغه العقل وتتقبله الفطرة السليمة.

وقد حاول المجمع العالمي لأهل البيت[^] أن يقدم لطلّاب الحقيقة مرحلة جديدة من هذه التجارب الغنية من خلال مجموعة من البحوث والمؤلفات التي يقوم بتصنيفها مؤلفون معاصرون من المنتمين لمدرسة أهل البيت[^]، أو من الذين أنعم الله عليهم بالالتحاق بهذه المدرسة الشريفة، فضلاً عن قيام المجمع بنشر وتحقيق ما يتوخى فيه الفائدة من مؤلفات علماء الشيعة الأعلام من القدامى، لتكون هذه المؤلفات منهلاً عذباً للنفوس الطالبة للحقّ، لتنتفع على الحقائق التي تقدّمها مدرسة أهل البيت الرسالية للعالم أجمع، في عصر تتكامل فيه العقول وتتلاقح الافكار باطراد يساوق التقدم الحاصل في مجال الاتصالات والمعلوماتية. نأمل من القراء الكرام ان لا يخلوا علينا بأرائهم ومقترحاتهم

القيّمة وانتقاداتهم البناءة في هذا المجال.
وباب المجمع مفتوح لجميع العلماء والكوادر المتخصصة والمؤسسات المعنية بمجالات
التأليف والترجمة، ليساهموا في نشر الثقافة الإسلامية.
نسأل الله تعالى أن يتقبل منّا هذا القليل ويوفقنا للمزيد في ظل عنايته الخاصة ورعاية
خليفته في الأرض الإمام المهدي #.
وننتقدم بالشكر الجزيل لسماحة الشيخ مهدي بيشوائي لتأليفه هذا الكتاب والأستاذ
خليل زامل العصامي الذي قام بترجمته من اللغة الفارسية، وكذلك جميع زملائنا الذين
ساهموا في انجاز هذا الأثر وبالأخص العاملين في قسم الترجمة.

المعاونة الثقافية

المجمع العالمي لأهل البيت^ع

تمهيد

يجد التاريخ معناه في الترابط مع الزمان والانسان. ولو شبَّهنا التاريخ بسجادة لكان يؤلّف ارضيّتها الزمان، ونقوشها ورسومها الحوادث، ولحمتها وسداها السنن وقوانين العلة والمعلول. ولا أحد ينكر ان الانسان بصفته الفنان البارع الذي يجول في هذا المراع، مدعو انطلاقاً مما يحظى به من كفاءات ومما يتوفر لديه من مؤهلات وقدرات، الى استكناه طبيعة الزمان، والاطلاع على الأدوات والقدرات والمستلزمات، وسير اغوار السنن، وإلقاء نظرة ثاقبة على القوانين والملايسات والتداخلات التي تُعزى اليها علل الظواهر، ولاسيما تلك الزاخرة بالعبر، بغية العثور على المغزى الأساسي للحياة البشرية (وهو ان يكون الانسان انساناً حقيقياً)؛ وذلك لأن تأثير التاريخ ومسار الزمن واضح بكل جلاء ليس على الفرد فحسب، بل وحتّى على الأقوام والشعوب، هذا من جهة؛ ومن جهة اخرى فان تاريخ أي شعب من الشعوب وما ينطوي عليه من عبر، ليس سلعة استهلاكية لها أمد معيّن تنتهي عنده. وعليه فالتاريخ يُكتب لأجل المستقبل، رغم انه يدور حول الماضي ومنه يستمد مادّته.

وقد ركّز الامام علي^٢ في كتابه الى مالك الاشر — من خلال الالتفات الى ظاهرة الزمان وعُنصر العبرة الكامن بين ثنايا التاريخ — على وجود نوع من التشابه التام بين الماضي والمستقبل، داعياً الى إمعان النظر والتأمّل وبالنتيجة الحكم على عمل الولاة. وعلى الرغم مما يوحي به ظاهر كلام الامام — اذ يبدو في الظاهر وكأنه موجه الى مالك الاشر على وجه الخصوص — ولكن أليس قوام عهد ازدهار أي شعب يتمثّل في ما يتّصف به ابناءؤه من بصيرة قادرة على استلهام العبر؟ أجل، ان التاريخ كتاب سميك ينطوي بين ثناياه على كلام لا غنى عنه لادراك معنى الحياة الفردية والاجتماعية وجعل ذلك أساساً وقاعدة في سبيل اتخاذ القرارات المعقولة والاجراءات المدروسة.

الكتاب الذي بين أيديكم خطّه يراع العالم الكريم حجة الإسلام والمسلمين الشيخ مهدي بيشوائي. وقد ربّبه في خمسة أبواب أساسية يتفرّع عنها ستة عشر فصلاً، ويتناول فيه تاريخ صدر الإسلام. وقد حاول المؤلّف في كتابه هذا ذكر مصادر متعددة

ومتنوعة لكل جانب ومفصلٍ من أحداث ووقائع العصر النبوي. والكتاب زاخر بشواهد واستدلالات من القرآن والحديث، وهذا ما أخرج الحوادث من صيغة السرد التاريخي المحض وأضفى عليها ما يناسب من تحليل وتمحيص من غير ان يتغاضى عن التطرّق الى الشبهات التي أثّرت وُثّار حول كل واحد من الموضوعات التي عرضها على بساط البحث.

يسر مركز التخطيط واعداد المناهج الدراسية، والجامعة الإسلامية الحرّة فرع آراك، ان يعربا عن جزيل الشكر والتقدير لجهود المؤلف الجليل، آملين ان يجود الطلاب والاساتذة والقراء الكرام بما لديهم من آراء لأجل تكامل هذا الأثر. وفي الختام نقدم شكرنا لكل من عاضدنا على انجاز هذا الكتاب.

ممثلة قائد الثورة في الجامعات
مركز التخطيط واعداد المناهج الدراسية
والجامعة الإسلامية الحرّة / فرع آراك

المقدمة

احمد الله حمداً لا يُحصى عدده ولا غاية لأمدته لما وفقني إليه من تدوين هذا الكتاب، والتحية والصلاة والسلام على نبي الأنام وعلى اوصيائه المنتجبين المعصومين وصحبه الصالحين.

الكتاب الذي بين أيديكم حصيلة ما يربو على عشر سنوات من التدريس في معاهد التعليم العالي وغيرها من المؤسسات العلمية الاخرى، وهو عمل يقترب عادة بالبحث وتدوين النصوص الدراسية، والرد على الشبهات والأسئلة التي تُثار في قاعة الدرس، وهو من جانب آخر حصيلة لولعي بتاريخ الإسلام وانكبابي على البحث والتحقيق في هذا المضمار.

أُخذت بنظر الاعتبار في تدوين هذا الكتاب مجموعة من الملاحظات التي أود ان ألفت إليها انظار القراء الكرام، وهي كالآتي:

١- تناولت مباحث الباب الاول من هذا الكتاب أحوال شبه جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام (المباحث التمهيدية) بشكل مفصل؛ وذلك لأن فهم وتحليل الكثير من حوادث تاريخ الإسلام يتعذر او يبقى ناقصاً على الاقل من غير المعرفة التامة بأوضاع جزيرة العرب في العهد الجاهلي. وبما ان الكثير من الحوادث لها جذور وامتدادات ضاربة في العهد، لذلك فان فهم اوضاع ما بعد ظهور الإسلام يستلزم فهم طبيعة الاوضاع التي كانت سائدة في جزيرة العرب في عهد ما قبل ظهور الإسلام. وهذا ما حدا بنا الى عرض موضوعات الباب الاول بمزيد من التفصيل لكي يتسنى استيعاب الترابط بين الاحداث، وكذلك ادراك مدى حجم التغيير الهائل الذي اجتاحت هذه المنطقة بظهور الإسلام. وفي مقابل ذلك حرصنا على انتهاج اقصى ما يمكن من الایجاز في الابواب اللاحقة، تاركين مهمة الخوض في الجزئيات والتفاصيل الى القارئ.

٢- جاءت كثرة المصادر في الهوامش انطلاقاً من الحرص على فسح المجال أمام القارئ لتقصي المزيد من التفاصيل حول حادثة معينة في المصادر المذكورة، وإن لم يكن بعضها متوفراً في متناول يده فهناك امل في توفر البعض الآخر منها. وفي مواضع اخرى جاءت كثرة الهوامش بدافع التأكيد على اثبات شهرة او تواتر قول أو حادثة معينة.

المقدمة

٣— الأسلوب المتعارف هو ان القضايا التاريخية التي تشتمل على تفاصيل وجزئيات متعددة، بعدما تُسرد، تُذكر مصادر لها؛ في حين ان تلك التفاصيل لم ترد كلّها في جميع تلك المصادر. وفي مثل هذه الحالة يحصل تصوّر عند القارئ بأن جميع هذه التفاصيل موجودة في كل تلك المصادر. وهذا الأسلوب ليس دقيقاً طبعاً، خاصة عندما تكون لبعض التفاصيل المعروضة على بساط البحث أهمية فائقة، أو اذا كانت موضع اختلاف وجدل. وقد اتبعنا في كتابنا هذا منهجاً مغايراً لهذا الأسلوب، اذ اننا ذكرنا مصادر كل جانب من تفاصيل تلك القضايا على حدة. فمثلاً فيما يتعلق بالحروب: اوردنا مصادر مستقلة لسبب نشوب الحرب، وتاريخ وقوعها، وعدد افراد جيشي الفريقين، وتفاصيل احداثها ووقائعها، وعدد ضحايا الفريقين، وكيفية تقسيم الغنائم، والافرازات والنتائج التي نجمت عنها، وما شابه ذلك؛ حيث يتسنى للقارئ عند قراءتها معرفة المصدر الذي ورد فيه ذلك الجانب من الوقائع، ليُتاح له الرجوع الى ما شاء منها عند الحاجة.

ومن الطبيعي ان اتّباع مثل هذا المنهج يبدو لي مهماً ودقيقاً وذا فوائد متعددة، ويتطلب مزيداً من الوقت والدقة، ويُلقِي على كاهل المؤلف متاعب اضافية وجهود جهيد.

٤— وردت في هذا الكتاب شواهد واستدلالات كثيرة قرآنية وحديثية، ولكننا ادرجنا قسماً منها في الهامش، وفق ما يقتضيه سياق البحث.

٥— في الحالات الضرورية — وحيثما استوجب البحث — عرضنا تحليلاً يتناسب مع طبيعة الموضوع، وقدمنا رداً على الشبهات، بشكل واضح وشفاف وخال من التعقيد. وقد اجتنبنا طرح وبحث وتحليل مواضيع اخرى، (كموضوع مشاركة النبي^١ في حرب الفجار، وشق صدره، ونذر عبد المطلب)؛ وذلك لأن الكتاب جُعل درساً عاماً ذا قسمين وهو ما لا يقتضي تفصيلاً أكثر، هذا من جهة؛ ومن جهة اخرى فان بعض المباحث ذات طابع تخصصي، وينبغي ان تُطرح في مظانها. وقد اشرنا اليها في الهامش ضمن تنبيه مقتضب الى اصل الموضوع ليتسنى لمن يشاء الرجوع اليها.

٦— اوردنا في الهوامش الموضوعات ذات الدرجة الثانوية، وموارد اختلاف الاقوال، والتفاصيل غير الضرورية، والتوضيحات الاضافية والتكميلية، وما شابه ذلك.

وعلى أي حال، فبالرغم من اننا بذلنا كل ما استطعنا من جهد في سبيل اثراء واتقان

١٢..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي ١

هذا الكتاب سواء من حيث الدقة في نقل المطالب، أم من حيث صواب التحليلات والاستنتاجات؛ إلا أننا لا نخله يخلو من نقص، بل لابد وأنه يحتاج الى الاصلاح والتكميل. كل ما يجود به القراء الكرام من ملاحظات سيُغتتم من اجل اصلاح وتكميل مواطن النقص والخلل.

وبحكم الوفاء والاخلاص فاني هنا ارى لزماً عليّ ان اشير باجلال وإكبار الى اسم صديق قديم راحل وهو الخطيب والكاتب البارز سماحة حجة الإسلام والمسلمين الحاج الشيخ غلام رضا كلسرخي الكاشاني الذي وُضِعَت اللُّبَنَات الأولى لهذا الكتاب بفضل همّته ومؤازرته؛ وأسأل الله تعالى ان يمنّ عليه بالرحمة وعلو الدرجات.

كما أودّ ان اعرب عن شكري لكل من السيّدین الفاضلين: الشيخ علي اكبر ناصح، وفرج الله فرج الله، اللذين عاضداني على تدوين المباحث التمهيدية وتنضيد الحروف وتحقيق الكتاب.

وفي الختام اقدم شكري لرئيس معهد اعداد المناهج الدراسية المحترم، ولزملائه الكرام، وكذلك لمديرية البحوث، وقسم تاريخ الإسلام، والجامعة الإسلامية الحرّة.

مهدي بيشواني

محرم الحرام عام ١٤٢٤هـ.

الباب الاول

بحوث تمهيدية

الفصل الاول: جزيرة العرب.. الموقع الجغرافي، والوضع الاجتماعي

والحضاري

الفصل الثاني: صفات وخصائص العرب

الفصل الثالث: الاديان والمذاهب في شبه الجزيرة العربية واطرافها

الفصل الاول

جزيرة العرب.. موقعها الجغرافي، والوضع الاجتماعي والحضاري

شبه جزيرة العرب التي تسمى أيضاً <جزيرة العرب> اكبر شبه جزيرة في العالم، وتقع في الجنوب الغربي من قارة آسيا.

تمتد شبه جزيرة العرب من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي على شكل متوازي مستطيلات غير منتظم^١. وتبلغ مساحتها ما يقارب ثلاثة ملايين ومائتي ألف كيلو متر مربع^٢. وتشكّل المملكة العربية السعودية الحالية ما يناهز أربعة أخماس شبه جزيرة العرب^٣. ويتألف القسم المتبقّي من ستة كيانات سياسية — حسب التقسيم السياسي في الوقت الحاضر — وهي: اليمن، وعمّان، والامارات العربية المتحدة، وقطر، والبحرين، والكويت. يحد جزيرة العرب من الجنوب خليج عدن ومضيق باب المندب والمحيط الهندي وبحر عمان، ويحدّها من الغرب البحر الأحمر، ومن الشرق خليج عمان والخليج الفارسي والعراق، وتتأخّضها من الشمال صحراء واسعة تنتهي بسهل الفرات من جهة وبالأراضي السورية من جهة أخرى. وبما ان هذه المنطقة خالية الحدود والتضاريس الطبيعية كالأنهار

١ - حسين قره چانلو، حرمين شريفين (طهران: دار نشر امير الكبير، الطبعة ١، ١٣٦٢هـ. ش)، ص ٩.

٢ - أي ما يعادل ثلث مساحة اوريا، وستة اضعاف مساحة فرنسا، وتسعة اضعاف مساحة المانيا بشقيها الشرقي والغربي، وعشرة اضعاف مساحة ايطاليا، وثمانين ضعفاً بقدر مساحة سويسرا، وضعفي مساحة ايران.

٣ - مؤسسه گيتاشناسی، گيتاشناسی كشورها (طهران: دار نشر گيتاشناسی، الطبعة ٤، ١٣٦٥هـ. ش)، ص ٢٠٥.

١٨..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

والجبال، فقد اختلف الجغرافيون منذ القدم حول الحدود الشمالية لشبه جزيرة العرب^١. ورغم وقوع شبه جزيرة العرب الى جوار الخليج الفارسي، وبحر عُمان، والبحر الاحمر، والبحر الابيض المتوسط، غير ان مناخها قاس، وهواءها جاف، وليس في طول البلاد وعرضها مياه — عدا الاقسام الجنوبية — ولا أنهار صالحة للملاحة. وكل ما هناك اودية مشتبكة تتدفق فيها السيول عندما تطغى.

يُعزى جفاف شبه جزيرة العرب الى وجود سلسلة جبال تمتد من شبه جزيرة سيناء في موازاة البحر الاحمر وكأها جدار عازل، وتلتف عند الزاوية الجنوبية الغربية، وتدور في موازاة الساحل الجنوبي والشرقي لجزيرة العرب. وهكذا فان جزيرة العرب محاطة بهذا الجدار الجبلي الشاهق من ثلاث جهات. وهذا الجدار هو الذي يصد رطوبة البحار ويمنعها من الوصول الى هذه المنطقة^٢.

الجزيرة العربية من اشد البلاد جفافاً وحرّاً؛ وعلى الرغم من وقوعها بين بحرين من الشرق والغرب فان مساحة هذين البحرين أضيق من ان تكفي لكسر حدة الجفاف المستمر في هذه الاقاليم الافريقية — الآسيوية العديمة المطر. ولئن كان المحيط الهندي في الجنوب يساعد على وقوع بعض المطر في اطراف الجزيرة، فان الرياح الموسمية المعروفة بالسموم التي تنتاب الجزيرة في مواسم معروفة تسلب الرطوبة من الهواء قبل ان يبلغ داخلية البلاد^٣.

تقسيمات جزيرة العرب

قسّم الجغرافيون العرب وغيرهم، جزيرة العرب حسب الوضع الطبيعي (المناخ) تارة،

١ - فيليب خليل حنّي، تاريخ العرب، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٤م، ص٤٣.

٢ - علي اكبر فياض، تاريخ اسلام (طهران: انتشارات جامعة طهران، الطبعة ٣، ١٣٦٧هـ. ش.)، ص٢؛ آلرماله وژول ايزاك، تاريخ قرون وسطى تا جنگ صد ساله، ترجمة ميرزا عبد الحسين هژير (طهران: دنيای كتاب، ١٣٦٢هـ. ش.)، ص٩٥.

٣ - فيليب حنّي، مصدر سابق، ص٢٤.

جزيرة العرب، وموقعها الجغرافي، والوضع الاجتماعي والحضاري

وعلى أساس الاقوام والأنساب تارة اخرى^١.

وقسمها بعض العلماء المعاصرين الى ثلاثة اقسام رئيسية وهي عبارة عما يلي:

١- القسم الوسطي الذي يُسمّى بالصحراء العربية.

٢- القسم الشمالي وهو ما يُعرف باسم الحجاز.

٣- القسم الجنوبي الذي يُعرف باسم اليمن^٢.

تقسيمها على أساس الظروف الطبيعية (الجنوب والشمال)

فضلاً عن هذه التقسيمات، اعتُمدت في السنوات الاخيرة تقسيمات اخرى تبدو اكثر انسجاماً مع طبيعة هذا الكتاب والغرض من تأليفه. ويقوم هذا التقسيم على الظروف المناخية التي تركت تأثيرها في أوضاع الناس، والحيوانات، والنباتات وقد برزت تأثيرات هذه الظروف في الخصائص الفردية والاجتماعية لاهالي هذه البلاد، وباتت منشأً لتحولات ظلت باقية الى حين ظهور الإسلام. بمعنى ان جزيرة العرب تمثل وجود ظاهرتين جغرافيتين متخالفتين والمؤشر الذي يميّز كل واحدة منهما هو وجود أو انعدام الماء. وقد تركت هذه الميزة اثرها في الوضع الاجتماعي لهذه المنطقة، وفصلت المنطقة الجنوبية من هذه البلاد أي اليمن عن المنطقة الشمالية والوسطى.

وضع جنوب جزيرة العرب (اليمن)

لو ألقينا نظرة على خارطة هذه البلاد، لوجدنا في اقصى الجنوب الغربي لشبه جزيرة العرب منطقة على شكل مثلث يؤلف ضلعه الشرقي ساحل بحر العرب، وضعله الغربي

١ - قال المقدسي - وهو من العلماء المسلمين في القرن الرابع - انها تقسم الى اربعة أقسام كبرى، وهي: الحجاز، واليمن، وعمان، وهجر (احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص١٠٢). بينما قسمها غيره إلى خمسة أقاليم وهي: تهامة، والحجاز، وبحد، واليمن والعروض (ابو الفداء، تقويم البلدان، ص١٠٩)؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، تحقيق محمد امين الخانجي الكتي (القاهرة: مطبعة السعادة، الطبعة ١، ١٣٢٤هـ)، ص١٠١ و٢١٩؛ السيد محمود شكري الآلوسي البغدادي، بلوغ الإرب في معرفة احوال العرب (بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة ١، ١٩٦٨م)، ج١، ص١٦٧.

٢ - يحيى نوري، اسلام وعقائد وآراء بشرى (جاهليت واسلام) (طهران: مطبوعاتي فراهاني، ١٣٤٦هـ. ش)، ص٢٣١ - ٢٣٤.

٢٠..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

ساحل البحر الاحمر. ولو رسمنا خطأ يمتد من الظهران (غرباً) الى وادي حضرموت (شرقاً) لظهر وكأنه الضلع الثالث لهذا المثلث. تقع ضمن هذه البقعة منطقة كانت تسمى منذ القدم بـ **<اليمن>**، تكثر فيها المياه وتهطل فيها الامطار بانتظام؛ ولهذا السبب كانت منطقة زراعية مزدهرة وتقطنها اعداد غفيرة من السكّان. ولهذا السبب فهي لا تكاد تُقارن على هذا الصعيد بشمال ووسط جزيرة العرب.

ومن الطبيعي ان كثرة السكان تتطلب وجود موطن دائم للسكنى، وهذا ما يستدعي بطبيعة الحال نشوء القرى والمدن. واجتماع الناس في تلك القرى والمدن يؤدي الى حدوث ما لا بد منه لمواصلة الحياة، ألا وهو الاحتكاك وتعارض المصالح. وهذا التعارض في المصالح يؤدي الى وضع القوانين والانظمة (وان كانت بدائية وبسيطة). ونحن نعلم ان هناك تلازم بين وجود القانون وتأسيس الحكومة. وعلى هذا الأساس فقد ظهرت في هذه المنطقة قبل ولادة المسيح × بمئات السنين دول وحضارات^١. والدول التي قامت في هذه المنطقة هي:

- ١- الدولة المعينية: حكمت هذه الدولة من عام ١٤٠٠ الى ٨٥٠ قبل الميلاد، وانقرضت بظهور الدولة السبئية.
- ٢- دولة حضرموت: استمرت هذه الدولة منذ عام ١٠٢٠ قبل الميلاد الى عام ٦٥ بعد الميلاد، وزالت مع تسلط سبأ.
- ٣- الدولة السبئية: استمر سلطانها منذ عام ٨٥٠ الى ١١٥ قبل الميلاد، وانقرضت عند قيام دولة حمير وسبأ وريدان.
- ٤- دولة قنبان: حكمت من عام ٨٦٥ الى ٥٤٠ قبل الميلاد وانقرضت على اثر استيلاء دولة سبأ عليها.
- ٥- دولة سبأ وريدان وحضرموت واطراف اليمن، وكان يسمى ملوكها **<تُبّع>** واستمر حكمها من عام ١١٥ قبل الميلاد إلى عام ٥٢٣ بعد الميلاد، وكانت عاصمتها

١ - السيد جعفر شهيدى، تاريخ تحليلي اسلام (طهران: مركز النشر الجامعي، الطبعة ٦، ١٣٦٥هـ. ش.)، ص ٣.

جزيرة العرب، وموقعها الجغرافي، والوضع الاجتماعي والحضاري

ظفار^١.

حضارة زاهرة في جنوب جزيرة العرب

أثنى المؤرخون كثيراً على الحضارة الزاهرة التي نشأت في اليمن، كما فعل المؤرخ اليوناني هيرودوتس الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد حين تحدث عن حضارة اليمن ووصف قصور سبأ بأنها قصور نضرة ذات ابواب مسجدية مرصعة بأنواع الجواهر، وفيها اواني من الفضة والذهب وأسرّة مصنوعة من معادن ثمينة^٢. وتحدث المؤرخون عن مساكن عامرة وقصور فاخرة في اليمن ومنها قصر عُمدان في صنعاء الذي كان يتألف من عشرين طبقة بعشرين سَقفاً بين كل سقفين عشرين ذراعاً وجعل فيه مائة مسكن، وفيه ما لا يوصف من الزخارف والصنائع الغريبة وكان أعلى غرفه مُمرّداً بالقوارير^٣.

وزار الرحالة الروماني الشهير (سترابون) أرض اليمن قبل قرن من الميلاد، ووصف هذه البلاد وحضارتها مثلما وصفها هيرودوتس قائلاً:

ان مأرب في زمانه كانت مدينة عجيبة، سقوف ابنتها مصفحة بالذهب والعاج والحجارة الكريمة. وفيها الآينة الثمينة المزخرفة مما يبهر العقول^٤.

وتحدث مؤرخون وجغرافيون مسلمون من امثال المسعودي (المتوفى عام ٣٤٦هـ)، وابن رُسْتة (من علماء القرن الثالث للهجرة) عن حياة الرخاء والازدهار التي كان ينعم بها

١ - احمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، الطبعة ٢، ١٣٨٤هـ)، ص ٥٣.

٢ - غوستاف لوبون، حضارة العرب (تعريب عادل زعيتر، الطبعة الرابعة، مطبعة عيسى البابي الحلبي)، ص ٩٤.

٣ - السيد محمود شكري الألوسي البغدادي، بلوغ الإرب في معرفة احوال العرب (القاهرة: دار الكتب الحديثة، الطبعة ٢)،

ج ١، ص ٢٠٤.

٤ - جرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، ج ١، ص ١٩.

٢٢..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

أهالي هذه البلاد وما انتشر فيها من العمران قبل ظهور الإسلام^١.
أدّت الدراسات والبحوث التي اجراها علماء الآثار في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، وكذلك: التحقيقات التي قام بها المؤرخون، الى تسليط الضوء على تاريخ هذه المنطقة، وقدمت وثائق وشواهد جديدة حول الحضارة العريقة الزاهرة لهذه البلاد، وتدل الاطلال والآثار المتبقية في ربوع عدن، وصنعاء، ومأرب، وحضرموت، على ما كان لدى عرب الجنوب من حضارة زاهرة انشأها أهالي اليمن والاقاليم المجاورة لها، وانما كانت على درجة من الرقي بحيث كانت تضاهي الحضارة الفينيقية والبابلية. ومن المظاهر البارزة لحضارة اليمن الكبرى سد مأرب التاريخي العظيم^٢، وهو سدّ مبني وفقاً لحسابات هندسية دقيقة ومعقدة، ويدل على مدى اطلاع صنّاعه على علم الهندسة، وكان هذا السد من عوامل ازدهار الزراعة هناك^٣.

كان أهل اليمن واسطة عقد التجارة بين الشرق والغرب لتوسط بلاد اليمن بين الممالك المتمدنة في ذلك الحين. فكانت تجارات الهند تُحمل في البحر الهندي إلى بلاد اليمن وحضرموت، فيحملها أهل اليمن إلى الحبشة ومصر وفينيقية وبلاد الأدوميين والعمالق وبلاد مدين وبلاد المغرب. وكذلك كان أهالي مكة ينقلون التجارة من اليمن وموانئ بحر العرب إلى بلاد الشام^٤.

كان أهالي اليمن يسيطرون على تجارة الشرق الأقصى لمدة طويلة^٥. وقد اضطرت سبأ

١ - المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد (دار الرضاء للطبع والنشر)، ج٢، ص٨٩؛ ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص١٣٢.

٢ - يقع سد مأرب على مسافة ١٩٢ كيلو متراً إلى الشرق من صنعاء عاصمة اليمن الحالية.

٣ - للاطلاع على مزيد من المعلومات حول الخصائص الفنية والتصميم العلمي لهذا السد، راجع: فرهنگ قصص قرآن (معجم ملحق بكتاب قصص القرآن)، صدر البلاغي، (طهران: دار نشر أمير الكبير، الطبعة ٣)، ص٨٢ و٨٨؛ احمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ص١٠٥؛ آلوسي، بلوغ الإرب، ج١، ص٢٠٣.

٤ - جرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، ج١، ص١٦.

٥ - ول ديورانت، قصة الحضارة، عصر الايمان، الباب الاول، ترجمة محمد بدران، (طبعة دار الفكر، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، ج٧، ص٢٢.

جزيرة العرب، وموقعها الجغرافي، والوضع الاجتماعي والحضاري

— بسبب ما يلازم الملاحة في الانحاء الشمالية من البحر الاحمر من آفات — إلى افتتاح خطوط برية بين اليمن والشام تحاذي ساحل الجزيرة الغربي ويؤدي إلى مكة والبتراء، ومنها تتشعب إلى مصر والشام وما بين النهرين^١.

انهيار سد مأرب

جاء انهيار هذا السد في حد ذاته نتيجة اهمال من جانب امّة آخذة في الانحطاط. وهذا الخراب الذي حلّ بأهل سبأ جاء تدريجياً قبل انهيار السد بزمان طويل بعدما تطاولت عليه الازمان وأهمله الملوك. وكان من اثر هذا الخراب والانحلال في تلك الدولة أن هاجر عدد كبير من أهلها^٢.

وقد اشار القرآن الكريم الى قوم سبأ في سورتين، احدهما بمناسبة ذكر ملكة سبأ وكتاب النبي سليمان إليها:

{مَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٌ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} ^٣
{لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْدَ الْعَرَمِ وَبَدَّلْنَاَهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي الْكَافِرِينَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمُ الْوَادِيَّ الْفَرَى الَّذِي بَارَكْنَا فِيهَا قَرْيَ ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِرُوا فِيهَا لَيَالِيًّ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاَهُمْ أَخَادِيثَ وَمَرَّقْنَاَهُمْ

١ - فيليب حتي، تاريخ العرب (دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع)، ص ٨٢؛ غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٩٤، احمد

حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ص ١٠٥؛ الألوسي، بلوغ الإرب، ج ١، ص ٢٠٣.

٢ - حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي، ج ١، ص ٣٢.

٣ - سورة النمل (٢٧)، الآيات ٢٢ - ٢٣.

٢٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

كُلُّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ^١.

ذكر حمزة الازصفهاني ان انهيار هذا السد كان قبل اربعمائة سنة من ظهور الإسلام^٢، بينما قال ابو ريجان البيروني انه وقع قبل خمسمائة سنة من ظهور الإسلام^٣. وذهب ياقوت الحموي الى القول بأنه حصل في عهد استيلاء الأحباش على اليمن^٤. وبما ان استيلاء الاحباش على اليمن كان في اواسط القرن السادس، فيترتب ان يكون انهيار السد قد وقع بعد سنة ٥٤٢ وقبل سنة ٥٧٠ م^٥.

وعلى اية حال يبدو ان اهدام السد حصل تدريجياً وفي اعقاب اعادة ترميمه مرّات عديدة. وقد اشار القرآن الكريم الى قوم تُبِعَ^٦ وعاقبة أمرهم في موضعين:

الاول: في قوله تعالى:

{أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ}^٧.

والثاني في قوله تعالى:

{كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ^٨ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ^٩ وَقَوْمٌ تُبِعَ كُلُّ

١ - سورة سبأ (٣٤)، الآيات ١٥ - ١٩.

٢ - حمزة الازصفهاني، تاريخ ملوك الأرض والانباء، ترجمة جعفر الشعار (طهران: دار نشر أمير الكبير، الطبعة ٢، ١٣٦٧ هـ. ش)، ص ١٢٠ و ١٣٢.

٣ - الآثار الباقية، ص ١٨١.

٤ - معجم البلدان، تحقيق محمد امين الخانجي الكبي (القاهرة: مطبعة السعادة، ١٣٢٤ هـ)، ج ٧، ص ٣٥٥.

٥ - فيليب خليل حنّي، تاريخ العرب، ص ١٠٠.

٦ - تُبِعَ (وجمعها تبابعة) لقب سلالة ملوك حمير في اليمن. وكانوا على طبقتين: الطبقة الاولى ملوك سبأ وريدان التي حكمت من عام ١١٥ قبل الميلاد إلى عام ٢٧٥ بعد الميلاد. والطبقة الثانية ملوك سبأ وريدان وحضرموت وشحر التي حكمت من عام ٢٧٥ إلى عام ٥٣٣ بعد الميلاد. (احمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ص ٩٠ - ٩٧).

٧ - سورة الدخان (٤٤)، الآية ٣٧.

٨ - القوم الذين كانوا يعيشون في اليمامة.

٩ - قوم شعيب.

جزيرة العرب، وموقعها الجغرافي، والوضع الاجتماعي والحضاري

كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ^١.

تأثير افول حضارات الجنوب على اوضاع شبه جزيرة العرب

أدى انخراط دول الجنوب وأفول الحضارات هناك وانحيار سد مأرب الى ايجاد تحولات في شبه جزيرة العرب؛ وذلك لأن تلك البلاد قد فقدت رونقها وازدهارها، وجفت الفياض الخضراء والمزارع بسبب انقطاع الماء عنها؛ وعلى اثر ذلك اضطرت جماعات من الاقوام التي كانت تسكن الى جوار مأرب الى الهجرة.

وكان من نتائج هذه الهجرة ان توجه رهط تنوخ من قبيلة الأزد اليمانية الى الحيرة (في العراق) وأسس دولة اللخمين هناك. وتوجه آل جفنة الى الشام وأسسوا لهم دولة في المنطقة المسماة شرق الاردن، وعرفوا بسلالة الغسانيين^٢.

وسارت قبيلتا الأوس والخزرج الى يثرب (المدينة المنورة)، بينما توجهت خزاعة الى مكة وما جاورها، وذهبت قبائل بجيلة وختعم وجماعات اخرى الى منطقة السراة وقطنوا هناك^٣، وكان كل واحد من هذه الجماعات سبباً لوقوع حوادث ووقائع.

وضع شمال جزيرة العرب (الحجاز)

الحجاز منطقة جافة يندم سقوط الامطار المنتظمة فيها، ومناخها قاس عدا المناطق الجبلية والشریط الساحلي؛ وهذا ما ترك تأثيره على نمط حياة سكنتها؛ وذلك لأن العرب في هذه المنطقة وخلافاً لما عليه أهالي المناطق الجنوبية، لم تتح تلك الظروف البيئية الصحراوية — حيث قلة المراعي وتشتتها في تلك المنطقة — سوى امكانية تربية المواشي القليلة والجمال القانعة بالقليل من العشب والماء، والذي يجد فيه العربي قوام طعامه ولباسه.

١ - سورة ق (٥٠)، الآيات ١٢ - ١٤.

٢ - حمزة الاصفهاني، تاريخ ملوك الأرض والانباء، ص ٩٩ و ١١٩؛ وكذلك راجع: حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي، ص ٤٤؛ ابو ربحان البيروني، الآثار الباقية، ص ١٨١ و ١٨٣.

٣ - كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ص ٥.

٢٦..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

واذ كانت العناية بهذا الحيوان لا تمكن الا بالترحال والضرب في المناطق النائية، فقد صار كتنظيم سياسي قائم على الاستقرار في السكنى امراً متعذراً على البدوي. وهذا طبعاً لا يشابه وضع القسم الجنوبي الذي كان أهاليه من المزارعين وسكنة المدن. أي ان القسم الشمالي كان يفتقد لأية صبغة حضارية ومدنية وأتاما كان الناس فيه من البدو الرحّل، ولم تكن لمدنه أهمية تذكر عدا مدينة مكّة التي كانت قد ازدهرت قبيل ظهور الإسلام لأسباب سندكرها في ما بعد.

وللحجاز شأن خاص، فقد بقي أهلها على بداهتهم لجذب ارضها وجفاف تربتها مع بعدها عن الاحتكاك بالدول المتحضرة، لتوسّطها في الصحراء ووعورة المسالك اليها، حتى امتنعت على الفاتحين العظام مثل رمسيس الثاني في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، والاسكندر الاكبر في القرن الرابع، وابليوس غالوس على عهد يوليوس قيصر في القرن الاول للميلاد. كما امتنعت أيضاً على ملوك الفرس في ابان دولتهم. قال امتناعهم هذا إلى اطمئنائهم وسكونهم^١.

وقد كتب احد المؤرخين في هذا المجال ما يلي:

وقال احد العلماء في وصف جزيرة العرب ما يلي:

وعندما وصل ديميتريوس — القائد اليوناني (بعد الاسكندر) — إلى البتراء قاصداً غزو جزيرة العرب، خاطبوه عند بلوغ ديارهم بما يأتي: لماذا تحاربنا ايها الملك ديميتريوس ونحن من سكان الصحارى التي لا تُسد فيها خلّة؛ ترانا نقطن في هذه البقاع القاحلة فراراً من العبودية، اقبل هديتنا وارجع إلى حيث كنت، سنكون من اوفى الاصدقاء لك. ولكنك اذا رغبت في حصرنا حرّمت كل هناة ورأيت عجزك عن اكرائنا على تبديل طرق حياتنا التي تعودناها منذ نعومة اظفارنا. وإذا قدرت على أسر بعضنا ايقنت انك لن تجد واحداً ممن أسرت يستطيع ان يألف حياة غير التي الفناها.

جزيرة العرب، وموقعها الجغرافي، والوضع الاجتماعي والحضاري

هناك رأى ديمتريوس ان يقبل هدية الانباط خاتماً بالسلم حرباً أبصرها مملوءة بالمتاعب^١.

وقال احد العلماء في وصف جزيرة العرب ما يلي:

تعتبر جزيرة العرب مثلاً للعلاقات التي لا تنقطع بين السكّان والتربة، وإذا كانت قد حصلت هجرات سابقة إلى هذه الجزيرة نتيجة لموجات المستعمرين المتعاقبة التي يدفع بعضها الآخر او يغمره — كما حدث في الهند واليونان وايطاليا والولايات المتحدة —، فان التاريخ لم يخلف لنا اثراً عن هذا في بلاد العرب، كما انا لسنا نعرف غازياً نجح في اختراق الحواجز الرملية لهذه الجزيرة وفي تثبيت قدميه في تلك البلاد^٢.

البدو

بما ان القسم الرئيسي من شمال جزيرة العرب (الحجاز) يتألف من صحراء قاحلة، لذلك كانت اكثر القبائل العربية في عصر ما قبل ظهور الاسلام تعيش حياة البداوة والرعي والترحال. وكان البدوي — بحكم تلك الطبيعة الصحراوية الجافة — محروماً، ومساكنه خيام من شعر الماعز ووبر الإبل <بيوت الشعر>. وهو يرفع غنمه وإبله على الطريقة القديمة نفسها وفي المراعي القديمة نفسها. وعنده أن تربية الأغنام والإبل أولاً، وتربية الخيل وتوليدها والصيد وشن الغارات ثانياً، هي أهم ما يشغله، وهي العمل الوحيد الذي يجدر بالانسان أن يقوم به. وتراه يزدرى الزراعة والصناعة وغيرهما من وجوه الحرف والاتجار ويحسبها مما يحط من قدره.

ولقد احتكر السلطة في البادية ثلوث استوت له السيطرة على كل ذي حياة في الصحراء، وهذا الثلوث هو البدوي والجمال والنخلة. وإذا أضفت إليها شيئاً رابعاً هو الرمال عرفت المثلث الأربعة العظام الذين يمثلون رواية الحياة في الصحراء في كيانها الأساسي. وما البادية في نظر بنينا موطناً فحسب بل هي بمثابة الحارس الأممي الأمين على تقاليدهم وشعائهم المقدسة. فهي تحمي نقاوة لغتهم ودمهم بل هي خط دفاعهم الأول ضد كل عدو

١ - غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص ٩٤.

٢ - فيليب حنّي، تاريخ العرب، ص ٣٥.

٢٨..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

مفاجئ. ولئن كانت قلة الماء وشدة الحر ومشقة السفر وآفة القحط كلها أعداء تآزرت على البدوي في أحواله العادية فإنها — في الوقت نفسه — إذا ما انتابه العدو أحلاف تقوم بمناصرته ونجده. فلا عجب إذن إذا رأينا البدوي يندر أن يطأطئ رأسه تحت نير أجنبي. وفي البدوي أثر واضح من حياة وطنه الصحراء المتسقة المطردة. ويتجلى هذا الأثر في تكوينه الجسمي والعقلي وطريقة تفكيره^١.

ويستخف الاعراب بسلاطان الحضارة ويفضّلون عليها عيش البادية. وهذه من المشاعر الموروثة عندهم^٢. هم نتيجة اقليم طليق؛ لا يصدّ هواءه بناء، ولا يحجب شمسّه غيم، ويجبس أمطاره وسيوله سد، كل شيء فيه حر على الفطرة، فهم كذلك أحرار كإقليمهم، لم يجبسهم زرع يتعهدونه، ولا صناعة يعكفون عليها، كذلك تحررت نفوسهم من قيود حكومة ونظام، اللهم إلا شيئين قيّد عقولهم ونفوسهم: قيد دينهم الوثني وما يتطلبه من شعائر وتكاليف، وقيد تقاليد القبيلة وما يستلزمه من واجبات شاقة، وقد كانوا لتقاليد قبيلتهم أشدّ إخلاصاً وأقوى إيماناً^٣.

يقول المستشرق البلجيكي لامنس ما يلي: ان العرب نموذج الديمقراطية ولكنها ديمقراطية مبالغ فيها إلى حد بعيد، وإن ثورتهم على كل سلطة — تحاول أن تحدد من حريتهم ولو كانت في مصلحتهم — هي السر الذي يفسر لنا سلسلة الجرائم والخianات التي شغلت أكبر جزء في تاريخ العرب^٤.

١ - فيليب خليل حنّي، تاريخ العرب، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٤م، ص٤٣.

٢ - غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص٧٤؛ ول ديورانت، قصة الحضارة، عصر الإيمان، الباب الاول، ترجمة محمد بدران، (طبعة دار الفكر، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) ج٧، ص٢٤.

٣ - احمد امين، فجر الاسلام، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة ٩، ١٩٦٤م)، ص٤٦.

٤ - احمد امين، فجر الاسلام، ص٣٣ - ٣٤. قال النعمان بن المنذر لكسرى حين سأله عن سبب عدم انقياد العرب لحكومة واحدة ونظام واحد: وأما تحاربهم واكل بعضهم بعضاً وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فانما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفاً وتخوفت فحوض عدوها اليها بالزحف، وإنه انما يكون في الممكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون اليهم أمورهم، وينقادون لهم بأزمته؛ وأما العرب فان ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين مع انفسهم من أداء الخراج والوظف. (الألوسي، بلوغ الإرب في معرفة احوال العرب، ج١، ص١٥٠).

جزيرة العرب، وموقعها الجغرافي، والوضع الاجتماعي والحضاري

النظام القبلي

لم يكن عرب الحجاز قبل ظهور الإسلام يخضعون لسلطة حكومة، وما كان لهم نظم ولا تشكيل سياسي؛ ولهذا السبب كانت حياتهم تختلف اختلافاً كلياً عما كانت عليه حياة المجتمعات في إيران وبلاد الروم. فهاتان الدولتان اللتان كانتا الى جوار شبه جزيرة العرب كانت فيهما حكومة مركزية واحدة تتولى ادارة شؤون الناس في كل ارجاء البلاد، وكانت قوانينها سارية المفعول في طول البلاد وعرضها. في حين لم يكن في بلاد الحجاز (خاصة القسم الشمالي والاقسام الوسطى من جزيرة العرب) حكومة وسلطة مركزية، وحتى المدن كانت تنعدم فيها مثل هذه السلطة. فأساس النظام الاجتماعي عند العرب هو القبيلة. ونظامهم السياسي والاجتماعي نظام قبلي، وكان هذا النظام ماثلاً في جميع شؤون وجوانب حياتهم. وهوية الافراد في ظل هذا النظام تتعین من خلال الانتماء الى احدى القبائل. ولا يقتصر نظام الحياة القبلية هذا على البدو فحسب، وانما كان يمتد بكل وضوح حتى في المدن أيضاً. وكانت كل قبيلة في تلك المنطقة وكأنها بلد مستقل، ويمكن تشبيه العلاقات بين القبائل يومذاك بالعلاقات الخارجية بين الدول في الوقت الحاضر.

رابطة الدم

كان عرب الجاهلية في الحجاز بدواً أو شبه بدو، فلم تكن لهم حكومة منظّمة ولا ملوك يمنعون من تعدّي بعضهم على بعض. بما لهم من قوّة تنفيذية، أنّما كانوا قبائل، اذا كثر عددها انقسموا الى بطون وافخاذ وعشائر، والرابطة بين افراد القبائل هي رابطة الدم؛ فكل من كانوا من دم واحد عُدوا كتلة واحدة^١.

والصلة الدموية وحدها هي التي تعيّن الفلك الذي تضطرب فيه حياة البدو؛ فهي تربط الأسر بالعشائر. والعشائر بالقبائل. وحتى الشعوب لا تزال تعيّن انسابها بواسطة قرابة دموية مزعومة تجمع الشعب كله في نظام نسبي يشبه نظام الانساب عند اليهود القدماء. لكن هذا الشعور الاجتماعي لا ينظم الشعب كله؛ أنّما يمتد من العشيرة التي تشمل الأسر

١ - احمد امين، فجر الاسلام، ص ٢٢٥؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، (القاهرة: الطبعة ٧، ١٩٨٢م)، ص ٤٨.

٣٠..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

القرية المتضاربة خيامها جنباً الى جنب، الى القبيلة التي تُعد بضعة آلاف نفس، وتجوب البراري معاً في طلب المرعى^١.

رئاسة القبيلة

كان رئيس القبيلة يُسمّى <الشيخ>^٢. وكان الشيخ عادة اكبر أفراد القبيلة سناً، وتفوّض اليه رئاسة القبيلة نتيجة لما يتصف به من شخصية بارزة، او لنضجه وعظيم تجربته، او بسبب شجاعته في الدفاع عن القبيلة، او احياناً بسبب كثرة ثروته^٣. وكان اهل الجاهلية لا يسوّدون إلّا اذا تكاملت فيه ست خصال: السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان^٤.

وليس الشيخ صاحب الأمر المطلق في الشؤون الشرعية والحربية وسواها، بل يُفرض عليه مشاورة مجلس القبيلة الذي يتألف من زعماء البطون والافخاذ. ويدوم تمتّعه بهذا المركز السامي مادام ولاء القبيلة حليفه^٥.

ولكن على اية حال فبحكم التقاليد القبلية يتعيّن على كل أفراد القبيلة طاعة رئيسها والنزول عند حكمه. ومن بعد وفاته كثيراً ما تنتقل هذه المرتبة من الأب الى الابن، أو ربّما اوكلت الى مسن آخر يتمتع بتلك الخصال او تتوفر فيه كفاءة وشخصية مميّزة.

لقد حارب الدين الإسلامي النظام القبلي وقضى عليه كلياً ولم ينظر بعين الاعتبار الى النسب والقراة اللذين يشكلان أساس هذا النظام، وبني المجتمع الإسلامي الجديد على اساس وحدة العقيدة والايمان الذي يعتبر أقوى الاواصر الاجتماعية، وجعل الايمان المشترك بديلاً عن الدم المشترك، وجعل المؤمنين كلهم اخوة، وهكذا فقد تبدّل النظام الاجتماعي

١ - كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ص١٦.

٢ - وكان يسمى ايضاً الرئيس، والأمير، والسيد. (عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، ص٤٩).

٣ - المصدر السابق.

٤ - الألوسي، بلوغ الإرب، تحقيق محمد بحجة الأثري (القاهرة: دار الكتب الحديثة، الطبعة ٣)، ج ٢، ص ١٨٧.

٥ - فيليب خليل حنّي، تاريخ العرب، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٤م، ص ٣٦.

جزيرة العرب، وموقعها الجغرافي، والوضع الاجتماعي والحضاري

عند العرب^١.

التعصب القبلي

العصبية القبلية تتطلب ولاءً مطلقاً لأفراد القبيلة كلّها. وهذا الولاء هو روح الفردية في البدوي مكبرة بحيث تشمل سائر أفراد العشيرة، والتعصب القبلي في الصحراء يشبه الوطنية المفرطة^٢. فكل ما يفعله الانسان المتمدن في سبيل بلده أو دينه أو قومه، يفعله العربي البدوي في سبيل عشيرته، وهو يقوم بكل ما يستطيع من أجلها حتى التضحية بنفسه^٣.

وافراد القبيلة متضامنون اشد ما يكون من تضامن، ينصرون أخاهم ظالماً أو مظلوماً يسعى بذمتهم ادناهم، وهم يد على من سواهم.

وأما معاملتهم للآخر وابن العم فكانوا ينصروهم أخطأوا أم أصابوا، بمعنى ان الرجل كان يصيبه العار اذا قعد عن نصرته اخيه او ابن عمه. فكان لزاماً عليه ان يقوم بنصره سواء كان ظالماً أو مظلوماً. وقد قال شاعرهم في هذا المعنى:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهاناً^٤

وعلى هذا الأساس فاذا ذلّ أحد افراد القبيلة لحق العار القبيلة بأسرها ويجب على كل افراد القبيلة العمل على محو ذلك العار^٥.

رفض الإسلام العصبية الجاهلية العمياء واعتبرها نوعاً من التوجه الجاهلي البعيد عن المنطق: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْخَمِيَّةَ خَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا

١ - ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ سورة الحجرات (٤٩)، الآية ١٠.

٢ - فيليب حتي، مصدر سابق، ص ٢٤.

٣ - ول ديورانت، قصة الحضارة، عصر الايمان، الباب الاول، ترجمة محمد بدران، (طبعة دار الفكر، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، ج ٧، ص ١٩.

٤ - احمد امين، مصدر سابق، ص ١٠.

٥ - حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي، ج ١، ص ٣٨.

٣٢..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا^١.

وقال رسول الله^٢: <من تعصب أو تعصب له فقد خلع ربطة الإسلام من عنقه>^٢

وقال^٣ أيضاً: <ليس منا من دعا الى عصبية، وليس منا من قال [على عصبية] وليس منا من مات على عصبية>^٣. وفي موضع آخر، عن انس قال، قال رسول الله^٤: <أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قالوا يا رسول الله هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ قال: تأخذ فوق يديه>^٤.

الثارات القبلية

لم يكن للعرب نوع من الحكومات المعروفة الآن، ولم يكن لهم قضاء يحتكمون إليه. أتما كان الشخص المعتدى عليه يثار لنفسه بنفسه، وعلى قبيلته ان تشد أزره. وإذا كان المعتدي من قبيلة اخرى كان يحق للمعتدى عليه أخذ الثأر من أي فرد من افراد تلك القبيلة. وكان هذا أمراً طبيعياً عند العرب^٥. وذلك لأن خطأ أي فرد يُحتسب على القبيلة كلها. وبما ان الجميع متساوون — ضمن اطار القبيلة — في الحقوق والواجبات التي تنبثق عن عصبية الدم، فالبدوي ملزم بأن ينصر أخاه في الملمات. وليس له ان يتساءل أظالم هو أو مظلوم. وليس من شك في ان هذا الواجب يقع — بادئ الأمر — على عاتق العشيرة التي يعينها الأمر، فلا تنبري القبيلة كلها لمناصرته الا اذا كانت العشيرة ضعيفة قليلة الحول. فاذا قُتل شخص وقعت مهمة الاخذ بثأره على عاتق اقرب الناس إليه^٦. وإذا كان المقتول من قبيلة اخرى تطبّق عند ذاك عادة الانتقام وهي ان يغدو كل واحد من افراد تلك القبيلة

١ - سورة الفتح (٤٨)، الآية ٢٦.

٢ - الصدوق، ثواب الاعمال وعقاب الأعمال. (طهران: مكتبة الصدوق)، ص٢٦٣؛ الكليني، الأصول من الكافي (طهران:

مكتبة الصدوق، الطبعة ٢، ١٣٨١هـ-). ج٢، ص٣٠٨.

٣ - سنن ابي داود (بيروت: دار الفكر)، ج٤، كتاب الأدب، باب في العصبية، ص٣٣٢، حديث ٥١٢١.

٤ - صحيح البخاري بحاشية السندي (بيروت: دار المعرفة)، ج٢، كتاب المظالم، ص٦٦؛ مسند احمد، ج٣، ص٢٠١.

٥ - حسن ابراهيم حسن، مصدر سابق، ص٣٨.

٦ - كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية، ص١٨.

جزيرة العرب، وموقعها الجغرافي، والوضع الاجتماعي والحضاري

معرضاً للقتل انتقاماً للمقتول؛ وذلك لأن تقاليد الصحراء كانت تقول بأن <الدم لا يغسله الا الدم> ولا ثمن للقتل الا الانتقام. وقد قيل لأعرابي: <ايسرك ان تدخل الجنة ولا تسيء الى من أساء اليك؟ قال: بل يسرنى ان ادرك الثار وادخل النار>^١.

التنافس والمآثر القبلية

كان العرب في الجاهلية في زمان فترة من الرسل والانبياء، فلم يكن لهم وقوف على غايات الامور والعواقب المحمودة وما يترتب عليها الثواب والعقاب من الفعل الحسن والقبیح، وكان غالب مفاخراتهم بالشجاعة والكرم والوفاء ونحو ذلك^٢. وقد كان المال والثروة والاولاد والقبيلة مما يتفاخر به عرب الجاهلية ويولونه الكثير من الأهمية ويعتبرونه مدعاة للأفضلية والشرف.

وقد بين القرآن الكريم حقيقة حالهم، واستنكر ذلك منهم بقوله:
{وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا^٣.

قال كسرى — ملك ايران — للنعمان بن المنذر يوماً: هل في العرب قبيلة تشرف على قبيلة؟ قال: نعم. قال: فبأي شيء؟ قال: من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء، ثم اتصل بكمال رابع فالبیت من قبيلته فيه وتُنسب إليه^٤.

كانت الاعراب في الجاهلية اذا تنازع الرجال منهم في الشرف تنافروا الى حكمائهم، فيفضلون الأشرف^٥. أي يحصون عدد افراد قبيلتهم ويدعون انهم اكثر عدداً من القبيلة الاخرى. وفي احد الأيام وقعت منافرة بين قبيلتين، فتنافرتا وتكاثرتا، وقالت احدهما: أفیکم مثل

١ - النويري، نهاية الإرب في فنون الأدب (وزارة الثقافة والأرشاد القومي المصرية)، ج٦، ص٦٧.

٢ - الألوسي البغدادي، بلوغ الإرب في معرفة احوال العرب، ج١، ص٢٨٠.

٣ - سورة سبأ (٣٤)، الآيات ٣٥ - ٣٧.

٤ - محمود شكري الألوسي، مصدر سابق، ج١، ص٢٨١.

٥ - نافر معناه حاكم في النسب؛ وسميت منافرة لانهم كانوا يقولون عند المفاخرة أنا اعز نفراً.

٣٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

فلان وفلان؟ وعدّوا أشرفهم من الاحياء، ثم قالوا نعد موتانا؛ فانطلقوا الى القبور، ثم جعلت احدى القبيلتين تقول: أفيكم مثل فلان وفلان؟ ويشيرون الى القبور، وفعل الآخرون مثل ذلك^١. وقد استقبح القرآن مثل هذه المنافسة والمفاخرة الجاهلية البعيدة عن العقل والمنطق، في قوله:

{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ} ^٢.

أهمية الانساب

كان من اهم ما يتنافر به عرب الجاهلية الانساب، اذ كانت لها عندهم أهمية قصوى واليها تعود سائر المفاخر والمناقب^٣.

كانت المفاخرات القبلية محتمدة بين العرب، وبرز مثال على ذلك المفاخرة في الانساب بين العدنانيين (عرب الشمال)، والقحطانيين (عرب الجنوب)^٤.

ولهذا السبب كان العرب يولون أهمية لحفظ ومعرفة الأنساب. وقد رد النعمان بن المنذر على كسرى حين سأله عن سبب تفاخر العرب بأنسابها بقوله:

فليس أمة من الأمم الا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها حتى إن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه دنيا فلا ينسبه ولا يعرفه. وليس أحد من العرب الا يسمى آباءه أب

١ - السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ٢٠، ص ٣٥٣؛ محمود شكري الألوسي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٧٩.

٢ - سورة التكاثر (١٠٢)، الآيات ١ - ٣.

٣ - نذكر على سبيل المثال اهم في تقاليد ذلك العصر كانوا يسمّون من أبوه عربي وامه اعجمية هجيناً، (وهذا من باب النيل منه والظعن عليه لعدم نقاء نسبه). واما اذا كانت امه عربية وابوه اعجمياً فكانوا يسمّونه مُدْرَع. وكانت العرب في الجاهلية لا تورث الهجين (ابن عبد ربه الاندلسي، العقد الفريد، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ.ق، ج ٦، ص ١٢٩). كما ينبغي ان يتزوج الرجل امرأة مثله (محمد بن حبيب، المخبر، بيروت: دار الافاق الجديدة، ص ٣١٠؛ الشهرستاني، الملل والنحل، قم: منشورات الرضى، الطبعة ٢، ص ٢٥٤). وفي عهد الاسلام سُئل رسول الله (ص) عن ذية الهجين فقال: المسلمون تتكافأ دماؤهم... (ابن شهر آشوب، المناقب، قم: المطبعة العلمية، ج ١، ص ١١٣).

٤ - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨م)، ج ١، ص ٤٩٣ فما بعدها؛ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص ٥٥.

جزيرة العرب، وموقعها الجغرافي، والوضع الاجتماعي والحضاري

فأب أحاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا به أنسابهم. فلا يدخل رجل في غير قومه، ولا ينتسب إلى غير نسبه، ولا يدعى إلى غير أبيه^١.

ولهذا السبب لا عجب لو كان علم الانساب عند العرب من العلوم القليلة التي كانت لها عندهم منزلة وتحظى لديهم بالتقدير، وكان للنسائين مكانة رفيعة بينهم.

قال الألوسي — من ذوي النظر في موضوع انساب العرب —:

والعرب في الجاهلية كان لهم مزيد اعتناء بضبطه ومعرفته [أي النسب] فانه احد اسباب الالفة والتناصر، وهم كانوا احوج شيء إلى ذلك حيث كانوا قبائل متفرقين واحزاباً مختلفين؛ لم تزل نيران الحروب متسعة بينهم، والغارات ثائرة فيهم، فاهم امتنعوا عن سلطان يقهرهم، ويكف الأذى عنهم فحفظوا انسابهم ليكونوا متظافرين على خصومهم ومتناصرين على من شاققهم^٢.

وقد رفض الإسلام أي نوع من انواع التفاضل العنصري. وعلى الرغم من نزول القرآن بين قريش والعرب، غير انه لم يوجه خطابه الى قريش والعرب وما شابه ذلك، بل وجه خطابه الى «الناس»، ووجه خطابه في حالة بيان الواجبات والتكاليف الى المسلمين وإلى المؤمنين. واعتبر القرآن الفوارق والاختلافات بين الامم والشعوب امراً طبيعياً، وبين ان الحكمة منها ان يتعارفوا، واستنكر التفاخر بالانساب والاحساب، مؤكداً ان المعيار في التفاضل بين الجميع هو معيار التقوى:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ
وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ
اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}٣.

١ - الألوسي، مصدر سابق، ج ١، ص ١٤٩. وقد وقع عمر بن الخطاب تحت تأثير هذه النزعة وعبر عن انزعاجه من انباط العراق الذين كانوا اذا سُئلوا عن نسبهم ينتسبون الى موضع سكناهم، قائلاً: تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا سُئل احدهم عن اصله قال من قرية كذا! (ابن خلدون، المقدمة، تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار، الفصل التاسع، ص ١٦٢؛ ابن عبد ربه الأندلسي، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣١٢).

٢ - محمود شكري الألوسي، بلوغ الأرب، ج ٣، ص ١٨٢؛ راجع أيضاً: الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج ١، ص ٤٦٦ - ٤٦٧.

٣ - سورة الحجرات (٤٩)، الآية ١٣. ورد في رواية منقولة عن الامام الصادق (ع) - واستناداً الى بعض التفسيرات - بأن المراد بالقبائل في الآية المذكورة هم العرب، والشعوب هم العجم (الطبرسي، مجمع البيان، تفسير سورة الحجرات، ذيل آية ١٣).

٣٦..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

ونهى رسول الله^١ عن التفاخر بالأنساب والاقوام. ونحن نستعرض بعض الامثلة على ذلك كالآتي:

قال في فتح مكة حين سقطت القلعة الأساسية لقريش (التي كانت تعتبر نفسها الاشرف من بين قبائل العرب):

ايها الناس ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها، ألا انكم من آدم× وآدم من طين، ألا ان خير عباد الله عبد اتقاه، ان العربية ليست بأب والد ولكنها لسان ناطق؛ فمن قصر به عمله لم يبلغه حسبه^١.

وقال في حجة الوداع في سياق خطبة مطولة له عرض فيها مواضيع أساسية ومهمّة:

<لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى>^٢.

وقال في تأييد قول سلمان الذي دخل يوماً في جدال مع قريش واستند الى القيم المعنوية في رفض افكاره الجاهلية السقيمة:

يا معشر قريش! ان حسب الرجل دينه، ومروءته خلقه، وأصله عقله^٣.

الحروب القبلية

كان عرب الجاهلية اذا وقع بينهم حادث قتل، كانت تُلقى مسؤوليته على اقارب القتال وأهله وعشيرته الأقربين. وبما ان عشيرة القتال كانت تهبّ عادة لحمايته فقد كان الانتقام يؤدّي الى حروب طاحنة. تلك الحروب — التي كانت تندلع عادة لأسباب تافهة — كانت تمتد لسنوات طويلة. وبرز مثال على ذلك حرب البسوس بين قبيلتي بني بكر وبني تغلب اللتين كانتا تشكّلان فرعين من قبيلة ربيعة. فهذه الحرب دامت اربعين سنة وكان سبب اندلاعها دخول جمل يعود لامرأة اسمها بسوس من بني بكر الى ارض زراعية

١ - الكليني، الروضة من الكافي (طهران: دار الكتب الإسلامية، الطبعة ٢) ص٢٤٦؛ المجلسي، بحار الانوار (طهران: دار الكتب

الإسلامية)، ج ٢١، ص١٣٧ و١٣٨؛ مع اختلاف ضئيل في الفاظ سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٥٤.

٢ - حسن بن علي بن شعبة الحرّاني، تحف العقول (مؤسسة النشر الاسلامي، الطبعة ٢، ١٣٦٣هـ.)، ص ٣٤

٣ - الكليني، مصدر سابق، ص ١٨١.

جزيرة العرب، وموقعها الجغرافي، والوضع الاجتماعي والحضاري

لرئيس قبيلة بني تغلب، وقتل ذلك الجمل^١.

وكذلك وقعت حرب داحس والغبراء بين قيس بن زهير — رئيس قبيلة بن عبس — وحذيفة بن بدر — رئيس قبيلة بني فزارة — بسبب مسابقة خيل، ودامت مدة طويلة. وداحس والغبراء اسم فرسين، الأول منهما لقيس، والثاني لحذيفة، حيث ادعى قيس ان فرسه غلبت في السباق، وادعى حذيفة ان فرسه هي التي غلبت. وقد اشتعل اوار تلك الحرب بسبب هذا الاختلاف البسيط، وأدت الى مقتل الكثير من افراد القبيلتين^٢. وقد اشتهرت امثال هذه الوقائع باسم **«أيام العرب»** وقد كتبت فيها كتب متعددة.

صحيح ان جريمة الدم قد يكفر عنها بالدييات التي يقدمها أهل القاتل جملاً ونيافاً الى أهل القتل، وصحيح ان من واجب الزعماء في القبيلة ان يعملوا على إيجاد تسوية بين المتخاصمين، من غير ان يملكوا حق فرضها عليهم، ولكن العشائر كثيراً ما لا تنتهي الى الأخذ بهذه التسويات الا بعد ان تكون قد تفانت ودقت بينها عطر منشم... أما اذا أُسْلِمَ القاتل، طوعاً لا كرهاً، الى الفريق الآخر لينزل فيه انتقامه، فعندئذ لا يبقى مجال للتأثر. ولكن مثل هذا العمل يُعتبر وصمة عار على العشيرة؛ فهي تفضل ان تقتل الجاني على ان تسلمه طوعاً ويلحق بها العار. ان حاسة الشرف السامية هذه التي تُسم جميع اعمال البدوي هي الأساس الذي ينهض عليه صرح الاخلاق عنده.

وكان هذا القانون الصحراوي نفسه موضع التنفيذ أيضاً — إلى حد — في مدن الحجاز: الطائف، ومكة، والمدينة. ففي هذه المدن كانت العشائر المختلفة، كما كان البدو في خيامهم، تعيش عيش الحرية والاستقلال، فلا تقر بالطاعة لأحد. وليس من شك في ان شعور الشرف الذي كان بالغ الحساسية في الصحراء، قد وجد في مكة ما يخفف من

١ - محمد احمد جاد المولى بك، علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم، ايام العرب في الجاهلية، (بيروت: دار احياء التراث العربي)، ص ١٤٢ - ١٦٨؛ راجع: ابن الاثير، الكامل في التاريخ (بيروت: دار صادر، ١٣٩٩هـ-)، ج ١، ص ٥٢٣ - ٥٣٩.

٢ - عبد الملك بن هشام، سيرة النبي، تحقيق: مصطفى السقاء (وآخرون) (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٥هـ-)، ج ١، ص ٣٠٧، ياقوت الحموي، معجم البلدان، (القاهرة: مطبعة السعادة، الطبعة ١، ١٣٢٣هـ-)، ج ١، ص ٢٦٨، كلمة >صاد>. وذكر كل من ابن الاثير وجاد المولى بك ان كلا الفرسين كانا لقيس (الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٥٦٦ - ٥٨٢؛ ايام العرب، ص ٢٤٦ - ٢٧٧).

٣٨..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

غلوائه بعض الشيء، بسبب من المصلحة العامة التي كانت للمكيين في الكعبة المقدسة، ومن التجارة التي كانت تعتمد على ازدهارها^١.

وقد نهي القرآن الكريم عن مثل هذه العصبية والانتقام، وجعل اساس التناصر الحق والعدالة، واكد بان المسلم ينبغي ان تكون غايته اقامة العدل حتى وان كان فيها ضرر عليه أو على ابيه وامه وذويه:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُوتُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}٢.

النهب والقتل

لم يكن العربي في العصر الجاهلي يحمل مشاعر ودية للناس الآخرين خارج اطار قبيلته، ولم تكن هذه العلاقة تتعدى افراد الاسرة والعشيرة المترابطة بوشائج قرى. وكان مدى فهم الاعرابي محدوداً ضمن الاطار الضيق لقبيلته. والبدوي اشبه ما يكون بانصار النزعة القومية المتطرفة ودعاة التمييز العنصري في عالم اليوم؛ اذ يريد الاستحواذ على كل شيء، وكل مشاعره وتوجهاته تنصب في المرحلة الاولى على مصلحة الذاتية ومصلحة ذويه. وهذا ما انعكس في قول احدهم حتى بعد دخوله في الإسلام: <اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا احداً>^٣.

ويعتذر الاعراب عن النهب بأنهم محرومون لفقر بلادهم، طيب العيش ووفرة الغلات والكأ مما لم تعرفه أمة اخرى، وبأنهم يزيلون هذا الحيف المقدّر بأسنة رماحهم معتقدين

١ - كارل بروكلمان، مصدر سابق، ص ١٩ - ٢٠.

٢ - سورة النساء (٤)، الآية ١٣٥.

٣ - صحيح البخاري، شرح وتحقيق: الشيخ قاسم الرفاعي، (بيروت: دار القلم)، ج ٨، كتاب الأدب، الباب ٥٤٩، ح ٨٩٣، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ بقليل من الاختلاف: سنن أبي داود، (بيروت: دار الفكر)، ج ٤، كتاب الأدب، باب <من ليست له غيبة>، ص ٢٧١.

جزيرة العرب، وموقعها الجغرافي، والوضع الاجتماعي والحضاري

ان من الحلال دهم القوافل وسلب ما بأيديهم تعويضاً لهم مما لم تقدر ان تجود عليهم به اراضيهم القاحلة، وبأنهم يعدّون قطع السابلة وسلب ما بأيدي الناس ضرباً من حقوق الفتح والفخر كندويخ مدينة أو ولاية^١.

ومن الطبيعي ان التنافس بين القبائل كان من اسباب الصراع والتناحر، ومن أهم ما كان يدفعهم الى الحروب هو التنافس على المراعي وموارد المياه، او ربّما كان الصراع يحدث احياناً انطلاقاً من الرغبة في حيازة الشرف والرئاسة؛ فاذا مات اكبر الاخوة نازع ابنه اعمامه. ولذلك نشبت الحروب بين القبائل المتقاربة في الانساب أو المتقاربة في الامكنة. ومما كان يزيد نار العداء تصدّي الشعراء لتعداد مفاخر قبائلهم وتأليب القبائل الاخرى. إذ كانوا يعيدون احياء الوقائع السابقة في الأذهان ويجعلون النفوس مستعدة للاضغان والاحقاد. وقد يكفي النزاع بين شخصين من قبيلتين مختلفتين ليؤدي الى قيام الحروب بين هاتين القبيلتين حتى ولو كان سبب هذا النزاع تافهاً^٢.

ومن الاسباب الاخرى التي كانت تدفعهم الى النهب والتدمير هو انهم امة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم، فصار لهم خُلُقاً وجبلة وكان عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن ربة الحكم وعدم الانقياد للسياسة. وهذه الطبيعة منافية لل عمران ومناقضة له. فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له. فالحجر مثلاً إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافي القدر فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ويعدونه لذلك، والخشب أيضاً إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الاوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذلك. فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو اصل العمران. هذا في حالهم على العموم، وأيضاً فطبيعتهم انتهاب ما في ايدي الناس وأن رزقهم في ظلال رماحهم وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه، بل كلّما امتدت اعينهم الى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه^٣.

١ - غوستاف لوبون، مصدر سابق، ص ٧٣.

٢ - حسن ابراهيم حسن، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٨.

٣ - مقدمة ابن خلدون، ج ١، ص ١٤٩.

٤٠..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

ونوع آخر اتخذوه وسيلة من وسائل العيش وهو الغارة والسلب، يغيرون على قبيلة معادية — وكثيراً ما تكون المعادة — فيأخذون جماعهم ويسبون نساءهم وأولادهم، وتتربص بهم القبيلة الاخرى ذلك فتفعل ما فعلوا. بل هم اذا لم يجدوا عدواً من غيرهم قاتلوا انفسهم. وللقطامي — وهو شاعر في العصر الاموي — اشعار تعبر عن هذا المعنى، يقول أحد ابياتها:

وأحياناً على بكر أخينا اذا ما لم نجد إلا أخاناً^٢

وفي تلك الأيام نشبت حروب دافعها النار والانتقام بين قبيلتي الأوس والخزرج في يثرب، واتسع مداها الى درجة ان احداً لا يستطيع الخروج من حدود مضارب قومه، ونكّدت تلك الحروب عليهم حياتهم وجعلتهم في حالة من الشقاء. فذكرهم الباري تعالى في القرآن الكريم بذلك الوضع المساوي مبيناً لهم فضل الله عليهم اذ منّ عليهم بوشائج الاخوة في الإسلام، قائلاً:

{وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}^٣

الأشهر الحرم

كانت العرب تحرّم هذه الأشهر الحرم (ذي القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب) وكان ذلك مما تمسكت به من ملة ابراهيم واسماعيل^٤.

فكانت العرب تمتنع تلقائياً عن القتال في هذه الأشهر تكريماً لها. وهذا ما كان يوفر لهم فرصة للسلم والاستقرار يستطيعون خلالها القيام بأعمال التجارة والبيع والشراء وزيارة الكعبة^٥.

١ - احمد امين، فجر الاسلام، ص ٩.

٢ - سورة آل عمران (٣)، الآية ١٠٣.

٣ - كانوا يدّعون اسماء هذه الأشهر ليحرروا من حرمة القتال فيها، وهو ما كان يُسمّى بالنسيء. فكانوا يتقاتلون حتى في شهر محرم. ولذلك قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُجْلُونَ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا

جزيرة العرب، وموقعها الجغرافي، والوضع الاجتماعي والحضاري

وكانوا اذا وقعت حرب في تلك الاشهر يسمونها حرب الفجار^١.

المرأة في المجتمع العربي

من ابرز مظاهر الاساطير والخرافات والجهل عند عرب الجاهلية هي نظرهم الى المرأة؛ فالمرأة كانت في مجتمع ذلك العصر محرومة من قيمتها الانسانية ومسلوبة الحقوق الاجتماعية ولا استقلال لها في الحياة. ونتيجة لبداهتهم وبعدهم عن الحضارة كانوا يرون في المرأة والبنات مدعاة للعار^٢.

كانوا يرون ان الفتيات غير جديرات بالارث، والجديرون بالارث هم من يذبون عن حياض القبيلة بالسيف^٣.

وجاء في رواية ان الناس كانوا قبل ان يُبعث النبي^٤ اذا كان للرجل زوجة ومات عنها، تزوّجها ابنه من بعده اذا لم تكن امه^٥.

هناك شواهد تشير الى انهم كانوا في الجاهلية اذا مات زوج المرأة يحق لابنه من امرأة غيرها ان يتزوّج امرأة ابيه، فيلقي عليها ثوبه فيرث نكاحها، ويتزوّجها ارثاً من غير مهر. واذا لم يكن راغباً في الزواج منها يحق له تزويجها لشخص آخر ويحصل هو على مهرها. واما اذا شاء يحق له حرمانها من الزواج بأي رجل آخر، لكي يتسنى له الاستحواذ على مالها من بعد موتها^٦. وهذا يعني انه لم يكن هناك ما يمنع من الزواج بامرأة الأب. ولذلك

^١ لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﴿سورة التوبة (٩)، الآية ٣٧.

١ - ابن واضح، تاريخ يعقوبي، (النجف: المكتبة الحيدرية، ١٣٨٤هـ.)، ج ٢، ص ١٢؛ الشهرستاني، الملل والنحل، (قم: منشورات الشريف الرضي، الطبعة ٢)، ج ٢، ص ٢٥٥.

٢ - السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن (قم: دار نشر اسماعيليان، الطبعة ٣، ١٣٩٣هـ.)، ج ٢، ص ٢٦٧.

٣ - ابو العباس المبرد، الكامل في اللغة والأدب، مع تعليقات نعيم زرزور وتغريد بيضون (بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة ١، ١٤٠٧هـ.)، ج ١، ص ٣٩٣؛ محمد بن حبيب، المحرر (بيروت: دار الآفاق الجديدة)، ص ٣٢٤.

٤ - الكليني، الفروع من الكافي (طهران: دار الكتب الاسلامية، الطبعة ٢، ١٣٦٢هـ.)، ج ٦، ص ٤٠٦.

٥ - الطباطبائي، مصدر سابق، ج ٤، ص ٢٥٤ - ٢٥٨؛ السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور (قم: مكتبة آية الله المرعشي النجفي، ١٤٠٤هـ.)، ج ٢، تفسير الآية ٢٢ من سورة النساء، ص ١٣١ - ١٣٢؛ الشهرستاني، الملل والنحل (قم: منشورات

٤٢..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

نهي القرآن عن مثل هذا العمل^١. ونقل المفسرون انه توفي في صدر الإسلام رجل اسمه ابو قيس بن الأسلت وعزم ابنه على الزواج بزوجة ابيه، فنزلت الآية: {لَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}^٢.

وكان تعدد الزوجات مباحاً في مجتمع ذلك العصر أيضاً من غير تحديد بعدد معين^٣.

مأساة المرأة

المشهور ان من اسوء عادات العرب في الجاهلية وأد البنات. وبما ان البنت لا تستطيع — في ذلك المجتمع الخالي من المدنية والثقافة وتسوده القسوة والعنف — ان تقا تل كما يقاتل الرجل وتدافع عن القبيلة، وانها قد تُسبي في المعارك القبلية فتلد من قوم آخرين فيكون ذلك عاراً على قبيلتها، لذلك كانوا يبدون بناهم^٤. كما ان قسماً منهم كانوا يبدون البنات بسبب الاوضاع الاقتصادية المتذبذبة وخوفاً من العيلة والفقرو^٥.

الشريف الرضي، الطبعة ٢، ج ٢، ص ٢٥٤؛ حسن، حقوق زن در اسلام و اورپا (الطبعة ٧، ١٣٥٧هـ. ش)، ص ٣٤. كانت العرب تقول للذي يخلف على امرأة ابيه <الضيزن>. (محمد بن حبيب، المحرر، ص ٣٢٥) وقد ذكر ابن قتيبة الدينوري اسماء عدد من امثال هؤلاء النساء اللواتي تزوجهن - بعد وفاة ازواجهن - ابناء ازواجهن. (المعارف، تحقيق: ثروة عكاشة، قم: منشورات الشريف الرضي، ص ١١٢).

١ - ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ (سورة النساء (٤)، الآية ٢٢).

٢ - الطباطبائي، مصدر سابق، ج ٤، ص ٢٥٨؛ الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن (بيروت: دار المعرفة، الطبعة ٢، ١٣٩٢هـ.)، ج ٤، ص ٢٠٧، ذيل تفسير الآية ١٩ من سورة النساء.

٣ - الطباطبائي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٦٧.

٤ - الشيخ عباس القمي، سفينة البحار (طهران: كتابخانه سنائي، ج ١) ص ١٩٧ (كلمة جهل)؛ ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم (القاهرة: دار احياء الكتب العربية، ١٩٦١م)، ج ١٣، ص ١٧٤؛ الكليني، الأصول في الكافي (طهران: دار الكتب الإسلامية)، ج ٢، باب <البر بالوالدين>، ح ١٨، ص ١٦٣؛ القرطبي، تفسير الجامع لأحكام القرآن (بيروت: دار الفكر)، ج ١٩، ص ٢٣٢.

٥ - سورة الانعام (٦)، الآية ١٥١؛ سورة الاسراء (١٧)، الآية ٣١؛ القرطبي، مصدر سابق، ص ٢٣٢.

جزيرة العرب، وموقعها الجغرافي، والوضع الاجتماعي والحضاري

وعلى العموم فقد كانت البنت في نظرهم كيان نحس. وقد عبّر القرآن الكريم عما كان شائعاً بينهم من تفكير مغلوط في هذا المجال على النحو التالي:

{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ} * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ^١.

كانت هذه النظرة الدونية الى المرأة بارزة الملامح في الأدب العربي يومذاك، وكان من الشائع بينهم ان كل من تولد له بنت يُقال له:

<آمنكم الله عارها، وكفاكم مؤنتها، وصا هرتم القبر!>.

وقال أحد شعرائهم في هذا المعنى:

لكل اب بنت يرجى بقاؤها ثلاثة اصهار اذا ذكر الصهر
فبيت يغطيها وبعل يصونها وقبر يواريهها وخيرهم القبر^٢

ويُقال ان رجلاً اسمه ابو حمزة انجبت له زوجته بنتاً فأغاضه ذلك وبقي بيت عند الجيران. فكانت امرأته تلاعب البنت وتنشد هذه الايات:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظلّ في البيت الذي يلينا
غضبنا الا نلد البنينا تالله ما ذلك في ايدينا
وانما نأخذ ما أعطينا ونحن كالارض لزارعينا
نبت ما قد زرعوه فينا^٣

والحقيقة هي ان كلام هذه الأم بمثابة دعوى قضائية ضد النظام الاجتماعي الذي كان سائداً يومذاك، وبيان للمأساة التي كانت تعيشها المرأة في ذلك الوسط الاجتماعي. ويقال ان اول من فعل ذلك؛ أي وأد البنات، هي قبيلة تميم.

١ - سورة النحل (١٦)، الآيات ٥٨ - ٥٩.

٢ - عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ، موسوعة آل النبي (بيروت: دار الكتب العربية، ١٣٨٧هـ، ص ٤٣٥)

٣ - الجاحظ، البيان والتبيين، بيروت: دار احياء التراث العربي، ١٩٦٨م، ج ١، ص ١٢٧ - ١٢٨؛ عائشة بنت الشاطئ، مصدر سابق، ص ٤٣٣ - ٤٣٤؛ الألويسي، بلوغ الإرب في معرفة احوال العرب، ج ٣، ص ٥١.

٤٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

وجاء ذلك في سياق قصّة نقلها عدد من المؤرخين وائمة المفسّرين وخلاصتها ان النعمان بن المنذر غار على تميم حين منعه الاتاوة، فحاربهم وسبى نساءهم. ولما ذهب قيس بن عاصم، شيخ تميم، ليسترد سبائهم، تخلّفت بنت له مؤثرة ان تبقى مع النعمان.

فعاد قيس وقد جنّ غضبه فوّد كل بناته. ثم مضى على ذلك، لا تولد له بنت الا وأدها. واقتدى به رجال تميم وغيرهم^١. وفعلت ذلك قبائل قيس، وأسد، وهذيل، وبكر بن وائل^٢.

ولم يكن هذا التقليد شائعاً بين عموم العرب، بل كانت هناك قبائل وشخصيات كبيرة لا ترتضي هذا العمل ومنهم عبد المطلب — جد رسول الله^٣ — وكان هناك اشخاص مثل زيد بن عمرو بن نفيل، وصعصعة بن ناجية يشترون البنات ممن يريد وأدهن مخافة الفقر، ويتكفّلونهم بمؤنتهن^٤.

وكانوا احياناً يدفعون جمالاً فدية لآباء من يريدون وأد بناتهم^٥.

ولكن هناك شواهد ودلالات تشير الى ان هذه العادة كانت شائعة بين العرب على نطاق واسع؛ وذلك للأسباب التالية:

١— ان صعصعة بن ناجية لما أتى الى رسول الله^٦ قال له انه افتدى في الجاهلية مائتين وثمانين بنتاً كانت على وشك ان تؤاد، وقد انقذها من الموت^٦.

١ - ابوالعباس المبرد، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٩٢؛ ابن ابي الحديد، مصدر سابق، ج ١٣، ص ١٧٩.

٢ - ابن ابي الحديد، مصدر سابق، ج ١٣، ص ١٧٤.

٣ - الآلوسي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٢٤؛ تاريخ يعقوبي (بيروت: دار صادر)، ج ٢، ص ١٠.

٤ - الآلوسي، مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٥؛ ابن هشام، سيرة النبي، تحقيق: مصطفى السقاء وآخرون (طهران: افست مكتبة الصدر)، ج ١، ص ٢٤٠.

٥ - محمد ابوالفضل ابراهيم وآخرون، قصص العرب (بيروت: دار احياء التراث العربي، الطبعة ٤)، ج ٢، ص ٣١؛ ابو العباس المبرد، مصدر سابق، ص ٣٩٤.

٦ - ابو العباس المبرد، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٩٤.

جزيرة العرب، وموقعها الجغرافي، والوضع الاجتماعي والحضاري

٢- قيس بن عاصم بعدما قرر قتل بناته، وأد اثني عشرة أو ثلاث عشرة بنتاً^١.

٣- جعل رسول الله^١ أحد بنود بيعة العقبة الاولى (في عام ١٢ للبعثة) التي ابرمها مع طائفة من أهالي يثرب، عدم وأد البنات^٢.

٤- بعد فتح مكة اشترط رسول الله^١ في البيعة التي عقدها بأمر الله تعالى للنساء المسلمات في هذه المدينة، ان لا يقتلن أولادهن^٣.

٥- ذم القرآن الكريم في مواضع متعددة هذه العادة.

وتدل هذه الشواهد على ان هذه الظاهرة كانت من المعضلات الاجتماعية الحادة يومذاك. وقد حذر القرآن الكريم من الاقدام على هذا العمل كما يلي:

{وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا}٤.
{وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُزِدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ}٥.
{قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ - قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}٦.

١ - ابن الاثير، أسد الغابة (طهران: المكتبة الاسلامية، ١٣٣٦هـ. ش)، ج ٤، ص ٢٢٠؛ جاء في ذكر سيرة قيس بن عاصم انه أسلم وجاء إلى النبي (ص) فقال: يا رسول الله! إني وأدت ثمان بنات كن لي في الجاهلية. قال: >فاعتق عن كل واحدة منهن رقبة>. قال: يا رسول الله اني صاحب ابل. قال: >فاهد عن كل واحدة منهن بدنة إن شئت>. (القرطبي، التفسير الجامع لأحكام القرآن، ج ١٩، ص ٢٢٣).

٢ - ابن هشام، مصدر سابق، ج ٢، ص ٧٥.

٣ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِيْهَتَانِ يَفْتَرَيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة الممتحنة (٦٠)، الآية ١٢).

٤ - سورة الاسراء (١٧)، الآية ٣١.

٥ - سورة الانعام (٦)، الآية ١٣٧.

٦ - سورة الانعام (٦)، الآية ١٤٠.

٤٦..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

{وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ} ^١.
{وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ} ^٢.

١ - سورة الانعام (٦)، الآية ١٥١.

٢ - سورة التكويد (٨١)، الآيات ٨ - ٩.

الفصل الثاني

صفات العرب وخصائصهم

الصفات المتناقضة

وعند العرب مساوئ لا يُغتفر مثلها لو لم يكن عندهم من الفضائل ما يُشَفِّعُ لهم به. ومن هذه الفضائل ان الاعرابي المحارب المتعطّش للنهب والانتقام والذي يفعل عند مَسِّ كرامته ما لم تسمع به اذن من ضروب القسوة، مضياف كريم أنيس، والذي يصبح في جواره يعد من افراد اسرته، فلا يستطيع احد بعدئذ ان يعتدي على حياته المقدسة التي يدافع عنها ذلك الاعرابي أكثر من ان يدافع عن نفسه، وان ظهر هذا الغريب من اعدائه الذين تمتّى زوالهم مائة مرّة^١.

ان الشجاعة الشخصية، والشهامة التي لا حد لها، والكرم الى حد الاسراف، والاخلاص التام للقبيلة، والقسوة في الانتقام، والأخذ بالتأثر ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل، هذه هي اصول الفضائل عند العرب الوثنيين في الجاهلية^٢.

منطلقات الفضائل عند العرب

وكما ذكرنا سابقاً فلئن كان التزاحم على الماء والمرعى الذي نشأت عنه معظم اسباب

١ - الدكتور غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص٧٣؛ وكتب ول ديورانت في هذا المجال ما يلي: <كان البدوي رحيماً وسفاكاً للدماء، كريماً وبخيلاً، غادراً وأميناً، حذراً وشجاعاً، ومهما يكن فقره فإنه يواجه العالم بمهابة وأنفة.> (قصة الحضارة، عصر الايمان، الباب الاول، ترجمة محمد بدران، طبعة دار الفكر، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ج٧، ص١٣).

٢ - احمد امين، فجر الاسلام (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة ٩، ١٩٦٤م)، ص٧٦.

٤٨ تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

القتال قد قضى ان ينشق سكان البادية قبائل يناوئ بعضها بعضاً، فان الشعور المشترك بضعفهم وعجزهم تجاه مشاق الطبيعة القاسية العنيدة انشأ فيهم الاحساس بحاجة ماسة مقدسة إلى الضيافة. وكيف يخل المرء على الضعيف بهذا الحق في بلاد لا تُعرف فيها الفنادق ولا النزل. ولقد تغنى شعراء الجاهلية وهم صحافيو يومهم بفضل الضيافة التي تُعتبر هي والحماسة والمروءة من اسمى السمائل التي تميز بها الشعب العربي^١.

ولكن ينبغي الالتفات الى ان الكثير من الصفات التي كانت فيهم مما لا يوجب مدحاً وليس في تلك الامور المنسوبة الى العرب ما يبرر تمدحهم من اجلها، لا من حيث المنطلقات والدوافع ولا من حيث الأهداف والغايات. فقد امتاز العرب بالكرم وحسن الضيافة وحماية الجار (وهو ما دعت إليه الشريعة الإسلامية لاحقاً) ولكن ذلك لم يكن بدافع القيم المعنوية والانسانية، بل كان الدافع اليها عوامل غير انسانية، فالشجاعة عند العرب — مثلاً — هو انهم يحكم بيئتهم وحياتهم في الصحراء يشعرون كل واحد منهم انه مسؤول عن حماية نفسه والدفاع عن ذاته، ويضاف الى تلك الدوافع الأمل بحسن الذكر او الطمع بزعمامة قبيلة، او لابعاد العار والتحرز من هجاء الشعراء حتى لا يسير ذكركم في البلاد في اللؤم والخسة. فهذه الامور هي التي كانت تدفع العرب الى البذل والجود، والوفاء بالعهد، وحماية المستجير وامثال ذلك. وكذا الحال في ما يخص المروءة والكرم وحسن الضيافة فهذه امور طبيعية في مجتمع يتفاخر بكثرة الاموال والاولاد والمقاتلين. فهذه تعتبر من المفاخر لهم. وهذا لا يخفى على المطلع على تاريخ الإسلام^٢.

الجهل والاساطير

غالباً ما يقضي البدوي من اهل الحجاز حياته في الصحراء، فكان بعيداً عن الثقافة ولا حظ له في المدينة، ويغلب عليه الجمود العقلي والفكري، ولا يدرك العلاقة بين اكثر الاشياء. فلم يكن قادراً على تحليل الظواهر برؤية منطقية، واستيعاب طبيعة العلاقة بين

١ - فيليب حتي، تاريخ العرب، ص ٥٤.

٢ - راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الاعظم (ق، ١٤٠٢ هـ)، ج ١، ص ٥٤ - ٥٠.

صفات العرب وخصائصهم

العلّة والمعلول. نذكر على سبيل المثال ان الشخص هناك كان يمرض ويتألم فيصفون له الدواء، ويدرك هو وجود علاقة بين الألم والدواء، ولكن هذا الادراك يخلو من الدقة والتحليل. فهو يعرف ان افراد قبيلته يستخدمون هذا الدواء ومعرفته لا تتعدى ذلك. نذكر على سبيل المثال انه يصدّق بكل سهولة ان دم شيخ القبيلة يشفي من داء الكلب (وهو داء يأتي عادة من عض الكلاب المسعورة) وكان يتصور ايضاً بأن المرض يحصل نتيجة لحلول روح خبيثة في جسم المريض. ولهذا السبب كان العلاج يتركّز على طرد تلك الروح من جسم المريض. وكان من عاداتهم انهم اذا خافوا على الرجل الجنون وتعرّض الارواح الخبيثة له نجسوه بتعليق الاقدار عليه كخرقة الحيز وعظام الموتى. وكانوا يعتقدون بوجود الغول وانها تظهر في الليل في الخلوات وفي البراري وتعرض طريق الناس وتوقع بهم الأذى. وكان من معتقداتهم أيضاً انهم اذا أوردوا البقر الماء فلم ترد ضربوا الثور ليتقحم البقر بعده، ويقولون ان الجن تصد البقر عن الماء وان الشيطان يركب قرني الثور^١. وكانت مثل هذه الاعمال المضحكة كثيرة الرواج بينهم.

وطالما كانت تلك الأفعال مقبولة وسارية المفعول عند القبيلة لم يكن العربي يشك في صحتها وصوابها، وذلك لأن الشك في الامور أتى نتيجة لدقّة النظر والقدرة على فهم وادراك المرض واسبابه واعراضه وسبل علاجه. في حين كان العرب يومذاك يعيشون حالة البداوة ولم يبلغوا تلك المرحلة من الفهم.

ومن الطبيعي انك قد تجد احياناً في اشعار الجاهلية أو امثالها أو قصصها ما يدل على فكر نير ومقدرة على استيعاب العلاقة بين العلّة والمعلول، ولكن حتى هذه تكون عادة سطحية وتفتقر الى العمق والتحليل. وهذا العجز عن تحليل الظواهر هو السبب في ظهور انواع شتى من الاوهام والاساطير التي اعتقد بها العرب يومذاك. وكتب تاريخ العرب والإسلام حافلة بانواع من هذه المعتقدات^٢.

١ - محمود شكري الألوسي، بلوغ الإرب في معرفة احوال العرب، تحقيق: محمد بهجة الأثري (القاهرة: دار الكتب الحديثة، الطبعة ٣)، ج ٢، ص ٣٠٣.

٢ - للاطلاع على مزيد من المعلومات حول الخرافات والاساطير التي كانت سائدة بين العرب في العصر الجاهلي، راجع: بلوغ

حظ العرب من العلم والفن

حاول بعض العلماء ان يثبتوا بأن العرب كانت لهم علوم كالطب والنجوم والقيافة^١. الا ان هذا الادعاء لا يخلو من مبالغة. فللبادية من اهل العمران طب يثبته في غالب الامر على تجربة قاصرة على بعض الاشخاص متوارثاً عن مشايخ الحي وعجائزه وربما يصح منه البعض، الا انه ليس على قانون طبيعي ولا على موافقة المزاج. وكان عند العرب من هذا الطب كثير، وكان فيهم اطباء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره^٢.

مجتمع أمي

كان مجتمع الحجاز حسب تعبير القرآن مجتمعاً أمياً. أي انهم كانوا على الحالة التي ولدتهم عليها امهاتهم، أميون لم يدرسوا ولم يتعلموا القراءة والكتابة. كتب البلاذري في هذا المجال ما يلي:

دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب، وفي الأوس والخزرج (من أهالي يثرب) احد عشر رجلاً يكتبون^٣.

هذا في حين كانت لقريش مكانة ممتازة في مكة وكان عملها في التجارة يتطلب اتقان القراءة والكتابة. وعلى هذا الأساس كيف لقوم في مثل هذه الدرجة من الجهل، ان تكون لهم مثل هذه العلوم التي زعمها البعض؟!

الشعر

الميزة الكبرى التي كانت للعرب في العصر الجاهلي براعتهم في الشعر والخطابة. وخاصة الشعر الذي بلغ حينذاك ذروة ازدهاره.

الإرب في معرفة احوال العرب، ج٢، ص٣٠٣ - ٣٦٧؛ ابن أبي الحديد، شرح فتح البلاغة، (القاهرة: دار احياء الكتب العربية)، ج١٩، ص٣٨٢ - ٤٢٩.

١ - الألويسي، مصدر سابق، ج٣، ص١٨٢، ٢٢٣، ٢٦١ و ٣٢٧.

٢ - مقدمة ابن خلدون، (دار احياء التراث العربي، الطبعة ٤)، ج١، ص٤٩٣.

٣ - فتوح البلدان، (قم: منشورات مكتبة أرومية، ١٤٠٤ هـ)، ص٤٥٧ - ٤٥٩.

صفات العرب وخصائصهم

فقد كان الشاعر العربي مؤرّخ العرب، وجامع أنسابهم، وهجّاءهم، والمتغنّي بفضائلهم، وناقل أخبارهم، وملهمهم، وداعيهم إلى القتال.^١

في ذلك العصر كان كبار شعراء العرب يجتمعون في اسواق موسمية مثل سوق عكاظ، وذي الحجاز، ومَجَنَّة^٢. كانت تلك الاسواق والمشاهد العامّة تُقام فصلياً وينشد فيها الشعراء أروع قصائدهم. وكان اختيار قصيدة أي شاعر بمثابة مفخرة عظيمة لقبيلته. وكانت تلك القصائد تعلق على جدار الكعبة. والمعلّقات السبعة هي أروع سبع قصائد نظمها اعظم سبع شعراء عرب مما لم يكن له نظير من قبل حتى ذلك الوقت. ولهذا السبب كانت تعلق على جدار الكعبة. وهذا هو وجه تسميتها بالمعلّقات.

وعلى الرغم مما يتصف به الشعر العربي من جمال لفظي الا انه يفتقر للمعاني الرفيعة وغزارة المحتوى بسبب افتقار اولئك القوم الى الحضارة والمدنية والثراء الفكري. ولم تكن مضامين تلك الاشعار تتعدى موضوعات الغزل، والشراب، والمرأة، والحماسة، ومفاخر القوم، ويقتصر جماله على جذابية الالفاظ والصور الفنيّة الدقيقة التي يرسمها.

العرب والمدنيات المجاورة

عند دراسة الحالة التي كان عليها العرب على صعيد العلم والفن، يتبادر الى الازهان سؤال وهو هل أخذ العرب شيئاً من حضارة وثقافة الدول المجاورة أي ايران والروم من خلال ما كانت لهم من علاقات تجارية معها؟ وهل أدّت تلك الوشائج والعلاقات الى ايجاد تحوّل في حياتهم؟

للاجابة عن هذا السؤال ينبغي التنبيه الى ان أهالي الحجاز كانوا بحكم الموقع الطبيعي والجغرافي الخاص بهذه المنطقة، بعيدين عن سلطة ونفوذ تلك الدول والحكومات، ليس على الصعيد السياسي فحسب بل على الصعيد الثقافي أيضاً. وكان تأثر العرب بالمدنيات والثقافات المجاورة متاحاً من خلال ثلاثة طرق، وهي: التجارة، والإمارات التي انشأها

١ - ول ديورانت، قصّة الحضارة، عصر الايمان، الباب الاول، ترجمة محمد بلران، (طبعة دار الفكر، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، ج٧، ص ٢٠.

٢ - للاطلاع على مزيد من المعلومات حول هذه الاسواق، راجع: بلوغ الإرب في معرفة احوال العرب، ج٢، ص ٢٦٤ - ٢٧٠.

الفرس والروم (المناذرة والغساسنة) وأهل الكتاب (اليهود والنصارى). ولكن ينبغي ملاحظة مدى ذلك التأثير. ويبدو ان الآراء التي سجلها قسم من المؤرخين في هذا المجال، لا تخلو من مبالغة. نذكر على سبيل المثال ان بعضهم كتب في هذا المجال ما يلي: وكان من اثر اتصال العرب بالفرس والبيزنطيين أمران: الأول نزول العرب في المدن الفارسية والرومانية للتجارة؛ وكان لذلك اثره في تثقيف عقول العرب الذين شاهدوا الفرق الشاسع بين مدتهم ومدن بلاد فارس والرومان، الأمر الذي نقف عليه في الشعر الجاهلي. وأما الثاني: انهم نقلوا الى العرب كثيراً من الالفاظ والقصص الفارسية والرومية. كما تسرّب عن طريقهم الكثير من اخبار الفرس والروم ومعتقداتهم^١.

ولكن لا بد من الالتفات الى ان أسفار تجار الحجاز الى هاتين الدولتين لم يكن لها تأثير بالغ في ارتقاء الثقافة والتطور الفكري عند العرب؛ وذلك لأن هذه المدينتان كانت تتسرّب من مجرى ضيق، وقد ينال التحريف ما ينقلونه عن غيرهم كالذي نراه في بعض امثال العرب المنقولة عن امثال سليمان، وفي بعض القصص المنقولة عن الفرس والروم. فلم يكن العرب يأخذون ممن حولهم علماً منظماً لأن هناك عوائق كانت تحول دون ذلك منها:

- ١- الحوائل الطبيعية بين العرب وغيرهم من بحار وجبال وصحراوات.
- ٢- ومنها البعد الكبير بين العرب والفرس والروم من حيث الحالة الاجتماعية والدرجة العقلية. واكثر ما يكون الاقتباس اذا تقاربت العقليتان.
- ٣- ومنها انتشار الامية بين العرب اذ ذاك، حتى ندر ان تجد فيهم القارئ الكاتب، انما كان المخالطون للفرس والروم ينقلون حكماً أو قصصاً أو امثالاً أو حوادث تاريخية مما يخف حمله على الناقل، ومما يستطيع البدوي ومن في حكمه ان يهضمه. وعلى هذا فقد كان سطحياً ولا يتصف بعمق وغزارة المغزى.

وبناءً على ذلك يمكن ان نستخلص بأنه كانت هناك علاقات بين العرب وغيرهم من

صفات العرب وخصائصهم

الامم اثرت في حياتهم المادية والأدبية^١.

وأما بالنسبة الى تأثير اليهود فينبغي القول بأن اليهود لجأوا إلى الحجاز منذ زمن النبي موسى × وما بعده وخصوصاً في القرون الاخيرة قبل الميلاد والاولى بعده فراراً من اضطهاد الحكام الرومانيين ولاسيما بعد خراب بيت المقدس. وكان لهم تأثير مشهود على الوضع الاجتماعي هناك؛ وتعلموا منهم بعض اقايصص التوراة والتلمود^٢.

هناك ثمة وثائق تشير الى ان اليهود كانوا في مستوى فكري وديني أرقى من العرب. وحتى بعد ظهور الإسلام كان بعض المسلمين يسألونهم أحياناً عن بعض القضايا الدينية^٣. ولكن بما ان اليهودية قد تعرضت لكثير من التحريف كما هو الحال بالنسبة الى الديانة المسيحية، لذلك فان الافكار التي كان العربي يتلقاها من اليهود كانت ممسوخة ومشوشة الى حد بعيد. فتعاليم اليهود لم تكن نافعة وليس فيها حلول مثالية لهم، لا بل كانت تزيدهم ضلالاً.

ضعف العرب في مقابل الفرس والروم

كما ذكرنا سابقاً، بما ان أهالي الحجاز كانوا يعيشون متفرقين على شكل قبائل وكانوا اكثر بداءة؛ فلم تكن هناك حكومة تجمعهم وتنظم امورهم، وكانوا على الدوام في حروب وخصومات قبلية فابتلوا بالضعف والهوان، ولم يكن لهم شأن يُذكر بين امم ذلك الزمان. كان العرب يومذاك يعيشون اشقياء ضمن دائرة ضيقة وهي القبيلة والعشيرة، وحياتهم تقتصر على الرعي والخيام، وتستولي عليهم القبيلة ويتقاذفهم الحرمان والتشتت. ولم يكن يدور في خلدهم قط شيء خارج جزيرة العرب، ولم تكن تراود ذهنهم فكرة الانتصار على الدول المجاورة، بل بالعكس كانوا يشعرون بالضعف في مقابل الفرس والروم. وقد وصف قتادة — وهو رجل من العرب — قومه آنذاك بقوله:

<كان هذا الحي من العرب معكومين على رأس حجر بين

١ - راجع: فجر الاسلام، ص ٢٩.

٢ - جرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، ج ١، ص ٣٢ - ٣٣، طبعة دار الهلال.

٣ - جرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، مع التلخيص.

الأسدين فارس والروم^٢.

ومما يؤيد هذا المعنى هو ان رسول الله^١ كان في سنوات دعوته في مكة يتحاور ذات يوم مع جماعة من وجوه العرب ويدعوهم الى الإسلام ويتلو عليهم آيات من القرآن الكريم مما يشتمل على تعاليم اخلاقية وفطرية، ف وقعت موقعها في انفسهم واثرت فيهم حتى ان كل واحد منهم انطلق بالثناء عليها، الا ان كبيرهم، وهو المثني بن حارثة، قال:

وانا ائتما نزلنا بين صريين، أما احدهما فطفوف البر وارض العرب، واما الآخر فارض فارس وانهار كسرى. وانما نحن نزلنا على عهد أخذنا علينا كسرى ان لا نحدث حدثاً، ولا نؤوي محدثاً. ولعل هذا الأمر الذي تدعوننا إليه مما تكرهه الملوك: فاما ما كان مما يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبول، واما ما كان يلي بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول^٢.

مفاخر وهمية

كتب المؤرخون عن شعور العرب بالضعف ما يلي: وفد حاجب بن زرارة على كسرى لما منع تميم من ريف العراق، فاستأذن عليه، فاوصل اليه فقال له كسرى: انكم معشر العرب غدر، فان اذنت لكم افسدتم البلاد واغترم على العباد، وأذيتوني. قال حاجب: فائي ضامن للملك ان لا يفعلوا. قال: فمن لي بأن تفي انت؟ قال: ارهناك قوسي (وكانت تعتبر مظهراً للشجاعة والبسالة والفروسية). فقبضها منه كسرى، واذن لهم ان يدخلوا الريف. وبعدما مات حاجب بن زرارة، ارتحل ابنه عطارذ بن حاجب الى كسرى يطلب قوس ابيه، فردّها عليه^٣. وبقيت قبيلة تميم تفتخر بهذا العمل سنوات طويلة^١.

١ - الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن (بيروت: دار المعرفة، الطبعة ٢، ١٣٩٢هـ-)، ج٤، ص٢٥ (تفسير الآية: وكنتم على شفا حفرة من النار...)؛ زاهية قلّورة، الشعوبية واثرا الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول (بيروت: دار الكتاب اللبناني، الطبعة ١، ١٩٧٢م)، ص٣٤؛ احمد امين، ضحى الاسلام (القاهرة: مكتبة النهضة، الطبعة ٧)، ج١، ص١٨.

٢ - محمد ابو الفضل ابراهيم (وآخرون)، قصص العرب (بيروت: دار احياء التراث العربي، ١٣٨٢ هـ-)، ج٢، ص٣٥٨؛ ابن الكثير، البداية والنهاية (بيروت: مكتبة المعارف، الطبعة ٢، ١٩٧٧م)، ج٣، ص١٤٤.

٣ - الألوسي، بلوغ الإرب، ج١، ص٣١٣ - ٣١١؛ محمد بن عبد ربه، العقد الفريد (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٣ هـ-).

صفات العرب وخصائصهم

وعلى صعيد آخر لما انتصرت قبيلة بني شيبان بمساعدة العجليين واليشكريين يوم ذي قار على كسرى^٢ أحسّ العرب بالفخر العظيم، ومع انه ليس بشيء ذي خطر، فكل أمة قد تتعرض للهزيمة ولكن احسوا بالفخر العظيم كأنهم ما كانوا يتوقعون ان يهزموا الفرس. وان العرب لما انتصروا يوم ذي قار، لم يتغنّوا بنصرة العرب على الفرس، انما تغنوا بنصرة القبائل التي اشتركت في الحرب. وبلغ تفاخرهم بذلك الانتصار درجة جعلت الشاعر ابو تمام^٣ يقول في مدح ابي دلف العجلي^٤، في مقابل تفاخر تميم برهن حاجب بن زرارة قوسه عند كسرى ووفاء ابنه بالعهد، ما يلي:

إذا افتخرت يوماً تميم بقوسها وزادت على ما وطدت من مناقب
فانتم بذئ قار أمالت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب^٥

العصر الجاهلي

عند بحثنا حول جزيرة العرب اطلقنا على مرحلة ما قبل ظهور الإسلام تسمية العصر

هـ)، ج ٢، ص ٢٠؛ ابن قتيبة، المعارف، تحقيق: ثروة عكاشة (قم: منشورات الشريف الرضي)، ص ٦٠٨.

١ - احمد امين، ضحى الاسلام، ج ١، ص ١٩.

٢ - وكان سبب هذه المعركة هي ان كسرى اراد الزواج من بنت النعمان بن المنذر حاكم الحيرة المعين من قبل كسرى. ولكن النعمان ألي ان يزوجه ابنته، فاستقدمه كسرى إلى عاصمة ملكه وسجنه ومات في السجن. وكان النعمان قد اودع امواله وعياله وبناته قبل المسير إلى كسرى، عند هاني بن مسعود الشيباني. فأرسل كسرى إلى هاني ان يسلم إليه اموال وعيال النعمان. ولكن هاني امتنع من تسليم تلك الأمانة. فجرد كسرى جيشاً لمحاربة بني شيبان (بطن من بطون بكر بن وائل). وانتهت المعركة بهزيمة جيش كسرى. (ابن الاثير، الكامل في التاريخ، بيروت: دار صادر، ١٣٩٩هـ. ج ١، ص ٤٨٥ - ٤٨٩؛ راجع: المقدسي، البدء والتاريخ (باريس: ١٩٠٣م)، ج ٣، ص ٢٦).

٣ - ابوتمام حبيب بن اوس الطائي.

٤ - ابو دلف قاسم بن عيسى العجلي.

٥ - احمد امين، ضحى الاسلام، ج ١، ص ١٩؛ المسعودي، التنبيه والأشراف، تحقيق: عبد الله اسماعيل الصاوي (قم: مؤسسة نشر المنابع الثقافية الإسلامية)، ص ٢٠٩؛ جلال الدين الهمامي، الشعبية (اصفهان: مكتبة صائب، ١٣٦٣هـ. ش)، ص ١١ - ١٢.

٥٦ تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

الجاهلي، واطلقنا على سكّان تلك البلاد تسمية عرب الجاهلية. ونود ان نشير هنا الى وجود شواهد دالة على ان هذا الاصطلاح — أي اصطلاح الجاهلية — قد ظهر بين المسلمين بعد ظهور الإسلام، حيث استلهموه من القرآن الكريم، واطلقوه على عصر ما قبل الإسلام وتبلور له مفهوم خاص حوله^١ وذهب بعض المؤرخين المعاصرين الى القول بأنّ هذه التسمية تُطلق على حقبة تناهز مائة وخمسين الى مائتي سنة قبل بعثة النبي محمد^٢.

ومع ان كلمة الجاهلية مشتقة من الجهل، الا ان الجهل هنا لا يقع في النقطة المقابلة للعلم، وانما يقع في النقطة المقابلة للعقل والمنطق^٣.

وصحيح ان مجتمع جزيرة العرب كان مجتمعاً امياً يفتقر الى العلم — كما ذكرنا — بيد ان الثقافة الإسلامية اذا كانت قد اطلقت كلمة جاهل على ذلك المجتمع، وعبارة العصر الجاهلي على ذلك العصر، فذلك لا يُعزى الى افتقارهم للعلم فحسب، وانما يُعزى الى رؤيتهم المغلوطة والبعيدة عن العقل والمنطق، وممارستهم لعادات وتقاليد خرافية والاتصاف بسجاياء مقيتة كالحقد، والغرور، والتفاخر، والتعصب الأعمى، وهي سجاياء حارها الإسلام بشدة^٤.

وربّما يمكن القول بأن المراد من كلمة الجهل هنا شيء قريب من معنى الحمق وهو ما

١ - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة ١)، ج ١، ص ٤٢ - ٤١.

٢ - عمر فروخ، تاريخ صدر الاسلام والدولة الأموية (بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة ٣، ١٩٧٦م)، ص ٣٩.

٣ - يقول عمر فروخ: فالجاهلية تدل على الجهل الذي هو ضد الحلم لا على الجهل الذي هو ضد العلم. (تاريخ صدر الاسلام، ص ٤٠).

٤ - راجع: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ١٥٥ - ١٥١؛ احمد امين، فجر الاسلام، ص ٧٤ - ٧٨؛ الآلوسي، بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، ج ١، ص ١٨ - ١٥؛ شوقي ضيف، تاريخ الادب العربي، ج ١، <العصر الجاهلي> (القاهرة: دار المعارف، الطبعة ٧)، ص ٣٩. والدليل على ذلك هو ان لدينا مجموعة من الاحاديث الشريفة التي تؤيد هذا المعنى وتجعل الجهل في مقابل العقل. وقد افردت كتب مثل كتاب اصول الكافي فصلاً لهذا الموضوع تحت عنوان: فصل العقل والجهل، ج ١، ص ١١، وجمعت فيه مثل هذه الاحاديث.

صفات العرب وخصائصهم

لا يقتصر بالضرورة بمعنى الامية، وإنما أكثر ما يراد به السفه والحمق والانفة^١.

استخدمت كلمة الجاهلية في عدة مواضع في القرآن الكريم بهذه المعاني والمفاهيم.

نشير في ما يلي الى أمثلة منها:

١- سُميت الآمال والأمانى المغلوطة لجماعة من أهل الكتاب ممن كانت قلوبهم تهوى

ان يحكم الرسول بما تشتهي انفسهم <حكم الجاهلية>^٢.

٢- وصف الباري تعالى في كتابه الكريم التعصب القبلي الاعمى للعرب من عبدة

الاوثان بصفة <الحمية الجاهلية>^٣.

٣- امر القرآن الكريم زوجات الرسول بعدم اتباع اساليب <تبرج الجاهلية

الاولى>^٤.

٤- ذم القرآن الكريم جماعة من المنافقين المترعزي الايمان الذين اُهارت معنوياتهم

وغلب عليهم الارتباك والتشاؤم في اعقاب هزيمة جيش المسلمين في معركة أحد؛ وذلك

لأنهم ظنوا بالله <ظن الجاهلية>^٥.

١ - يقول جواد علي: والرأي عندي ان الجاهلية من السفه والحمق والانفة والخفة والغضب وعدم الانقياد لحكم وشريعة واردة الهية وما الى ذلك من حالات انتقصها الاسلام. فهي في معنى <اذبح يا جاهل> نقولها لمن يتسفه ويتحرق وينطق بكلام لا يليق صدوره من رجل، فلا يبالي ادباً ولا يُراعي عرفاً. ولا يشترط بالطبع ان يكون ذلك الرجل امياً. (المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ج ١، ص ٤٠).

٢ - ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (سورة المائدة (٥)، الآية ٥٠).

٣ - ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (سورة الفتح (٤٨)، الآية ٢٦).

٤ - ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (سورة الاحزاب (٣٣)، الآية ٣٣).

٥ - ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ

٥٨ تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

٥- قصَّ الله تعالى من نبأ قوم موسى انه عندما أمرهم بذبح بقرة، فقالوا له اتخذنا هزواً فقال لهم موسى: {أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}^١.
ووصف امير المؤمنين علي × الحياة البائسة التي كان عليها العرب في عصر عبادة الاوثان بأنهم قد استخفَّتْهم الجاهلية^٢.

الصُّورِ ﴿سورة آل عمران (٣)، الآية ١٥٤﴾.

١ - ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة البقرة (٢)، الآية ٦٧).

٢ - واستخفَّتْهم الجاهلية الجهلاء. (ص) بحى الصالح، نهج البلاغة، الخطبة ٩٥).

الفصل الثالث

الاديان والمذاهب في شبه جزيرة العرب وما حولها

لم يكن سكان الجزيرة العربية جميعهم على دين واحد ابان ظهور الاسلام، ومع أن الديانة الغالبة حينذاك هي عبادة الاصنام فقد كان هناك أتباع ديانات اخرى كالمسيحية واليهودية والحنيفية والمناوية والصابئة يقطنون في بقاع شتى من الجزيرة. ولم يسلم أي من تلك الأديان من التشويش والتحريف الذي طرأ عليها عبر الزمن فانطوت على الكثير من المغالطات والتضليل مما جعل النفوس تنفر منها. وسنعرض في ما يلي شرحاً حول كل واحد من الأديان والمذاهب المعروفة المتبعة آنذاك:

الموحدون

الموحدون أو الحنفاء^١ هم الذين كانوا يرفضون عبادة الأصنام — خلافاً لما كان عليه أكثر الناس الذين كانوا مشركين — ويؤمنون بوحداية الله، ويؤمنون احياناً بالبعث والحساب يوم القيامة. كان قسم من هذه الجماعة من اتباع الديانة المسيحية، ولكن بعض المؤرخين عدّوهم في عداد الحنفاء، ويمكن ان نذكر منهم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن حويرث، وزيد بن عمر بن نفيل^٢،

١ - محمد بن حبيب، الخبّر (بيروت: دار الآفاق الجديدة)، ص ١٧١.

٢ - حنيف وجمعها أحناف تطلق هذه الكلمة عن من يتبع دين النبي ابراهيم. (الطبرسي، مجمع البيان، شركة المعارف، ج ١، ص ٢١٦).

٦٠ تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

والنابعة الجعدي (قيس بن عبد الله)، وامية بن ابي الصلت، وقُسَّ بن ساعدة الأيادي، وابو قيس صرمة بن ابي أنس، وزُهَيْر بن ابي سُلمى، وابو عامر الاوسي (عبد عمرو بن صيفي)، وعدَّاس (غلام عتبة بن ربيعة)، ورثاب الشني، وبحيرى الراهب^١. وكان قسم من هؤلاء من مشاهير الحكماء او الشعراء.

ومن الطبيعي ان نزوع هؤلاء الاشخاص الى التوحيد يمكن ان يُعزى الى سلامة فطرتهم واستنارة فكرهم وخواء الاديان الشائعة في ذلك العصر، ووجود فراغ ديني في ذلك المجتمع. حيث ادرك هؤلاء بفطرتهم السليمة وجود خالق مدبّر لشؤون هذا الكون، ولم يكن باستطاعتهم الاعتقاد بديانة سخيفة ومخافية للعقل مثل عبادة الأصنام. أما بالنسبة الى الديانتين المسيحية واليهودية فقد فقدتا اصلتهما مع تقدم القرون، وما كانتا قادرتين على بث السكينة في النفوس الثائرة لذوي العقول النيرة. ولذلك فقد ورد في وصف بعض الموحّدين الذين كانوا يبحثون عن الديانة الحقّة انهم كانوا يتحمّلون مشاق الاسفار للقاء علماء من النصرى واليهود واستبانة الحق منهم ومناقشتهم في الأمر^٢، والتحقق منهم حول العلامات الواردة في الكتب السماوية حول بعثة رسول الإسلام^٣. ولكنهم غالباً ما كانوا لا يصلون الى نتيجة مفيدة، ولهذا السبب كانوا يعتقدون بأصل التوحيد. وعلى كل الاحوال فليس من الواضح لدينا كيف كانوا يؤدون عباداتهم وشعائرتهم الدينية.

ولابد من الاشارة الى ان الاحناف — خلافاً لما يتصور البعض — لم يكن لهم أي تأثير في توجيه العرب وتحويلهم نحو التوحيد، بل صرّح المؤرخون بأنهم كانوا يعيشون في عزلة

١ - المسعودي، مروج الذهب، ج ١، ص ٦٠ - ٦٨؛ ابن هشام، سيرة النبي، تحقيق: مصطفى السقاء وآخرون، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٥هـ.)، ج ١، ص ٢٣٧؛ ابن كثير، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٨٤هـ.)، ج ١، ص ١٢٢ - ١٦٥؛ محمد بن اسحاق، السير والمغازي، تحقيق: الدكتور سهيل الزكار (بيروت: دار الفكر، الطبعة ٢، ١٤١٠هـ.)، ص ١١٥ - ١١٦؛ محمد بن حبيب البغدادي، المنق في اخبار قريش، تحقيق: خورشيد احمد فارق (بيروت: عالم الكتب، الطبعة ١، ١٤٠٥هـ.)، ص ١٥٢ - ١٥٣؛ محمد ابراهيم آيتي، تاريخ پیامبر اسلام (ص) (طهران: انتشارات جامعة طهران، الطبعة ٢، ١٣٦١ هـ. ش)، ص ١٠ - ١٣.

٢ - ابن كثير، مصدر سابق، ص ١٥٦؛ محمد ابو الفضل ابراهيم (وآخرون)، قصص العرب (القاهرة: دار احياء الكتب العربية، الطبعة ٥)، (قم: افست منشورات الشريف الرضي، ١٣٦٤ هـ. ش)، ج ١، ص ٧٢.

الأديان والمذاهب في شبه جزيرة العرب وما حولها

وفي حالة من التأمل والتفكير، ولم يتبلوروا على شكل جماعات أو فرقة منظمة، ولم يكن لهم دين أو مذهب له أحكام ثابتة ومعينة، بل اكتفوا بالابتعاد عن المجتمع واجتناب عبادة الأصنام. وكان حسب هؤلاء الأفراد أنهم ايقنوا بفساد معتقدات قومهم، من غير ان يكلفوا انفسهم عناء دعوة غيرهم الى ما يعتقدون به، أو التصريح بآرائهم. ولهذا السبب كانت علاقاتهم مع قومهم تسير بشكل طبيعي ولم يقع فيها أي تصادم أو تضارب^١.

المسيحية

انتشرت المسيحية في بعض اجزاء جزيرة العرب، فانتشرت في الجنوب عن طريق الحبشة، وفي الشمال عن طريق سورية (التي كانت تحت سيطرة الدولة الرومانية الشرقية) وشبه جزيرة سيناء، الا انها لم تجتذب اليها انصاراً كثيرين منهم^٢. وفي شمال جزيرة العرب انتشرت المسيحية في قبائل تغلب (بطن من بطون ربيعة)، وغسان وقُضاعة^٣. وكان من هؤلاء النصارى قس بن ساعدة، وحنظلة الطائي، وأمية بن أبي الصلت، وبعض هؤلاء فارق قومه ولبس المسوح ونسك ولزم العبادة في الجبال^٤.

المسيحية في اليمن

تغلغت المسيحية في اليمن منذ القرن الرابع للميلاد، وقد ذكر فيليب حنّي — وهو رجل مسيحي — ما يلي:

اول وفد مسيحي ذهب إلى جنوب شبه جزيرة العرب وخبره صحيح، هو الوفد الذي

١ - جواد علي، الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة ١، ١٩٦٨م)، ج ٦، ص ٤٤٩؛ الحسيني الطباطبائي،

حياتن در كزارش تاريخ (طهران: انتشارات جانش، ١٣٦٦هـ. ش)، ج ١، ص ١٢٠؛ ابن هشام، سيرة النبي، ج ١، ص ٢٣٧.

٢ - حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي، ج ١، ص ٦٤.

٣ - المصدر السابق، ص ٦٤؛ شهاب الدين الإشبهي، المستطرف في كل فن مستظرف (بيروت: دار احياء التراث العربي)، ج ٢،

ص ٨٨؛ ابن قتيبة، المعارف، تحقيق: ثروة عكاشة (دار الكتب: ١٩٦٠م)، ص ٦٢١؛ الأمير ابو سعيد الحميري، الحور العين،

تحقيق: كمال مصطفى (طهران: ١٩٧٢م)، ص ١٣٦.

٤ - احمد امين، فجر الاسلام (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة ٩، ١٩٦٤م)، ص ٢٧.

٦٢ تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

بعثه الامبراطور قسطنطينوس برئاسة ثيوفيليوس اندوس اريوس. وجاء ارسال ذلك الوفد في سياق التنافس الذي كانت تفرضه السياسة العالمية يومذاك بين امبراطورية فارس وامبراطورية الروم، على مناطق النفوذ في جنوب شبه جزيرة العرب. وقد بنى ثيوفيليوس كنيسة في عدن، وكنيستين أخريين في بلاد الحميريين. وقد اعتنق أهالي نجران الديانة الجديدة في عام ٥٠٠ للميلاد^١.

وعند ظهور الإسلام كان على دين النصرانية من أحياء العرب في اليمن طيء، ومُذحج، وبهراء، وسُلَيْح، وتنوخ، وغسان، ولخم^٢. وأهم مواطن النصرانية في جزيرة العرب كان نجران، وكانت مدينة خصبة عامرة بالسكان، تزرع وتصنع الأنسجة الحريرية، وتتاجر في الجلود وفي صنع الأسلحة، وكانت قريبة من الطريق التجاري الذي يمتد الى الحيرة^٣.

وبقيت الديانة النصرانية رائجة في اليمن الى ان حكم ذو نواس ارض اليمن فوقع بالنصارى وقتلهم لكي يرغمهم على ترك دينهم، وعندما رأى ثباتهم احرقهم في اخدود نار حفره لهم^٤. وقد استنجد النصارى بالحبشة فانجدوهم وغزوا بلاد العرب سنة ٥٢٥م وهزموا ذا نواس، وعاد المسيحيون الى الحكم من جديد^٥.

١ - تاريخ العرب، ذكروا ان نشوء النصرانية في اليمن كان في اعقاب مجيء قديس مسيحي من اهل الشام اسمه فيميون الى هذه المنطقة ودعوته الناس الى النصرانية. (ابن هشام، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٢ - ٣٥)؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، (بيروت: دار احياء التراث العربي)، ج ٥، ص ٢٦٦، ولكن هذه القصة لا تخلو من الطابع الاسطوري والخيالي. ولا يتماشى في ما نقلناه عن كتاب فيليب حني.

٢ - تاريخ اليعقوبي (النحف: المكتبة الحيدرية، ١٣٨٤ هـ)، ج ١، ص ٢٢٤.

٣ - احمد امين، مصدر سابق، ص ٢٦.

٤ - يروي بعض المفسرين ان الآيات ٤ - ٩ من سورة البروج نزلت في قتل النصارى، او ان هذه الواقعة مما تنطبق عليه هذه الآيات (الميزان في تفسير القرآن، ج ٢٠، ص ٢٥١ - ٢٥٧) حيث قال تعالى ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ*الَّذِينَ كَانُوا يَنْتَظِرُونَ أَهْلَ الْأُخْدُودِ*إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ*الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

٥ - احمد امين، مصدر سابق، ص ٢٧.

الأديان والمذاهب في شبه جزيرة العرب وما حولها

المسيحية في الحيرة

ومن المناطق الأخرى التي تسربت إليها الديانة النصرانية هي الحيرة الواقعة قرب الكوفة؛ ذلك ان الحكومة الفارسية في عهد هرمز الاول انشأت مستعمرات كوَّنتها من أسرى الحرب الرومانيين، ومن هؤلاء الأسرى من نزلوا الحيرة. ويظن بعضهم انهم هم منبع النصرانية فيها. وعلى كل حال فقد كان في الحيرة مبشرون بالنصرانية داعون إليها. حيث نشروا تعاليمهم في بلاد العرب وكانوا يتحدثون عن البعث والحساب والميزان. ولَبَّى الدعوة منهم هند زوج النعمان الخامس، وقد أنشأت ديراً سُمِّيَ بدير هند كان باقياً الى عهد الطبري. وكان حنظلة الطائي، وقس بن ساعدة، وامية بن أبي الصلت (وهي شخصيات ذكرناها سابقاً) من أهالي الحيرة^١.

ويذكرون ان النعمان بن المنذر ملك الحيرة استجاب لنصح عدي بن زيد واعتنق النصرانية^٢.

وقد وردت في القرآن الكريم عدّة آيات في ذكر النصارى وشرح افكارهم ومعتقداتهم وبيان مواطن الضعف والخطأ في معتقداتهم وأعمالهم (وخاصة قولهم في الوهية المسيح)^٣. وأهم دليل يشهد على وجود هذا الدين في زمن نزول القرآن في جزيرة العرب، هو مباهلة رسول الله^٤ — وهي واقعة معروفة في تاريخ الإسلام — مع قساوسة وفد نجران^٥. وكما سبقت الإشارة فان الديانة النصرانية كانت قد فقدت اصالتها وبريقها على مر الزمن، وطالتها يد التحريف. ولذلك فهي لم تكن قادرة على سد الفراغ الفكري والاعتقادي للناس في ذلك العصر، وبقيت عاجزة عن تلبية ما تتوق إليه أنفسهم من

١ - احمد امين، مصدر سابق، ص ١٨، ٢٥، ٢٦، ٢٨.

٢ - محمد ابو الفضل ابراهيم (وآخرون)، قصص العرب، ج ١، ص ٧٣؛ احمد امين، مصدر سابق، ص ٢٧.

٣ - سورة المائدة (٥): ١٨، ٧٢، ٧٣؛ سورة النساء (٤): ١٧١؛ سورة التوبة (٩): ٣٠، لكن القرآن الكريم وصف النصارى بأنهم الأقرب مودة للمسلمين، سورة المائدة (٥): ٨٢.

٤ - السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن (قم: مطبوعاتي اسماعيليان، الطبعة ٣، ١٣٩٣هـ)، ج ٣، ص ٢٢٨ و ٢٢٣، خلافاً لليهود الذين وصفهم بأنهم اشد الناس عداوة للذين آمنوا.

السكنية والطمأنينة.

الديانة اليهودية

انتشرت اليهودية في جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام لاسيما في يثرب التي عرفت لاحقاً باسم <المدينة> وكانت هناك مناطق يسكنها اليهود في تيماء^١ وفدك^٢ وخيبر^٣ حيث كانت تقطن هناك قبائل بني قريظة، وبني النضير، وبني قينقاع^٤. وكانت تسكن المدينة غير هذه القبائل اليهودية الثلاثة، قبيلتا الأوس والخزرج اللتان نزحتا الى يثرب من اليمن في حوالي القرن الثالث للميلاد وقطنتا فيها بعد ان سبقهم اليهود الى استعمارها.

كانت هاتان القبيلتان تعبدان الأصنام، وبسبب مجاورتهم اليهود تمّود عدد منهم. وقالوا انه كان في الطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ويثرب، فأقاموا بها للتجارة^٥. وقد اشتهر اليهود في جزيرة العرب حيث حلّوا بمهارتهم في الزراعة كما اشتروا في يثرب أيضاً بصناعاتهم المعدنية كالحداذة والصياغة وصنع الأسلحة^٦. وكان هناك اتباع

١ - ذكر ياقوت الحموي ان تيماء كانت بليداً بين الشام ووادي القرى (معجم البلدان، ج٢، ص٢٧)، ووادي القرى بين المدينة والشام من أعمال المدينة (المصدر السابق، ج٥، ص٣٤٥). وهذا يعني ان تيماء كانت بين المدينة والشام. وقد ذكر المقدسي - من العلماء المسلمين في القرن الرابع - <تيماء ووصفها بأنها مدينة قديمة واسعة البقعة كثيرة النخيل هائلة البساتين، غزيرة الماء مع خفة عجيبة وعين مليحة تخرج في شباك حديد إلى بركة ثم يتفرق في البساتين. وفيها آبار حلوة. وهي في سهلة الا ان اكثرها خرابات>. احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (دار احياء التراث العربي)، ص٢٠٦ - ٢٠٧.

٢ - فدك قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان وقيل ثلاثة (معجم البلدان، ج٤، ص٢٣٨).

٣ - خيبر ناحية على بعد ٩٦ ميلاً (١٩٢ كيلو متراً) من المدينة لمن يريد الشام. وتشمل هذه الولاية على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير (معجم البلدان، ج٢، ص٤٠٩، وذكر آخرون انها تبعد عن المدينة بأقل أو أكثر من هذه المسافة (ابو الفداء، تقويم البلدان، ص١٢٣).

٤ - حسن ابراهيم حسن، مصدر سابق، ص٦٤.

٥ - البلاذري، فتوح البلدان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ)، ص٦٧.

٦ - احمد امين، فجر الاسلام، ص٢٤.

الأديان والمذاهب في شبه جزيرة العرب وما حولها

للديانة اليهودية بين قبائل حمير، وبني كنانة، وبني الحارث بن كعب، وكندة^١، وغسان، وجذام^٢.

اليهود في اليمن

نشر اليهود في البلاد التي نزلوها في جزيرة العرب تعاليم التوراة وما جاء فيها حتى تقوم كثير من قبائل اليمن. ومن أشهر هؤلاء المتهودين ذو نواس — ملك اليمن — وقد اشتهر بتحمسه لليهودية واضطهاده لنصارى نجران، واعلانه اليهودية ديناً رسمياً. ويظن بعض المؤرخين أن حركة ذي نواس هذه كانت حركة وطنية، ذلك أن نصارى نجران كانوا على ولاء مع الحبشة، وكانت الحبشة تعد حامية النصرانية في نجران، وقد اتخذت النصرانية وسيلة للتدخل في شؤون اليمن، فأراد ذو نواس وقومه محو هذا النفوذ الحبشي؛ ولذلك لما قتل ذو نواس نصارى نجران استنجد بقيتهم بالحبشة فأجحدوهم، وكانت بينهم حروب، وكان عام الفيل مما لا محل لذكره هنا. وهزم ذو نواس في عام ٥٢٥م. وبقيت نجران الى بعثة رسول الله^١ مركزاً مهماً للنصرانية^٣.

الصابئة

يرى البعض ان تاريخ ظهور هذه الجماعة يعود الى عهد حكم طهمورث، ومؤسس هذه الديانة هو يوذاسف. وقد كتب ابو ريجان البيروني (٣٦٠ — ٤٤٠هـ) بعد بيانه لتاريخ ظهور هذه الديانة، ما يلي:

ونحن لا نعلم منهم الا اناس يوحّدون الله وينزهونه عن القبائح ويصفونه بالسلب لا

١ - ابن قتيبة، المعارف، تحقيق: ثروة عكاشة (قم: منشورات الشريف الرضي، الطبعة ١، ١٤١٥هـ.ق)، ص ٦٢١؛ الأمير ابو سعيد بن نشوار الحميري، الحور العين، تحقيق: كمال مصطفى (طهران: ١٩٧٢م)، ص ١٣٦. في كتاب المستطرف ج ٢، ص ٨٨، ورد اسم قبيلة حمير <غمر> ويبدو انه خطأ مطبعي.

٢ - تاريخ يعقوبي، ج ١، ص ٢٥٧.

٣ - احمد امين، مصدر سابق، ص ٢٣، ٢٤ و ٢٧؛ راجع: ابن هشام، سيرة النبي، ج ١، ص ٣٧؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٦٦.

٦٦ تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

الايجاب، كقولهم لا يُحد ولا يُرى ولا يظلم ولا يجور، ويسمونه بالأسماء الحسنى مجازاً اذ ليس عندهم صفة بالحقيقة. وينسبون التدبير إلى الفلك وأجرامه، ويقولون بجياها ونطقها وسمعها وبصرها ويعظمون الانوار. كانت لهم هياكل وأصنام باسماء الشمس معلومة الاشكال مثل هيكلك بعلبك لصنم الشمس، وهياكل في حرّان منسوبة إلى القمر، وصنم الزهرة في قرية اخرى^١.

كان مركز الصابئة مدينة حرّان^٢. وقد شاع هذا المذهب يوماً ما في اقطار الارض كالروم واليونان وبابل وغيرها^٣. وقد ذكرهم القرآن الكريم في ثلاثة مواضع^٤. وقد آل هذا المذهب في عصرنا هذا الى الانقراض، ولم يبق من اتباعه الا عدد قليل يقطنون^٥ في خوزستان^٦ والعراق^٧.

ديانة مانبي

كان منشأ الديانة الزرادشتية والمزدكية والمناوية هو ايران. وهناك اختلاف في الآراء حول انتشار أو عدم انتشار هذه الديانات في جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام. فقال

١ - الآثار الباقية، ابو الريحان محمد بن احمد البيروني الخوارزمي، (مطبعة المثنى ببغداد)، ص ٢٠٥.

٢ - حران مدينة عظيمة مشهورة كانت بين دجلة والفرات على طريق الموصل والشام والروم (في الحدود التقريبية للعراق الحالي). كانت في بداية ظهور الاسلام مدينة عامرة وقد ظهر منها علماء كبار (معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٣٥ - ٢٣٦؛ تقويم البلدان، ص ٣٠٣، ٣٠٧، ٣٠٩؛ محمد معين، فرهنگ فارسي، (طهران: دار نشر امير الكبير) ج ٥، ص ٤٥٧).

٣ - الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٠، ص ٢٧٩.

٤ - سورة البقرة (٢)، ٦٢؛ سورة المائدة (٥)، ٦٩؛ سورة الحج (٢٢)، ١٧.

٥ - للاطلاع على مزيد من المعلومات حول الجذر الذي اشتقت منه كلمة الصابئي، وهل هي كلمة عربية أم عبرية، وما معناها؟ وحقيقة معتقدات الصابئة، وهل هم اتباع أحد من الانبياء، راجع: الآلوسي، بلوغ الإرب، ج ٢، ص ٢٢٣ - ٢٢٨؛ يحيى نوري، اسلام وعقايد وآراء بشرى (طهران: مؤسسة مطبوعاتي فراهان، الطبعة ٢، ١٣٤٦ هـ. ش)، ص ٤٣١ - ٤٣٢؛ الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني (بيروت: دار المعرفة)، ج ١، ص ٢٣٠، ج ٢، ص ٥.

٦ - الى جانب نهر الكارون، الاهواز، خرمشهر، آبادان، شادكان ودشت ميشان.

٧ - في اطراف دجلة والفرات في بغداد، والحلة، والناصرية، والعمارة، والكوت، وديالى، وكركوك، والموصل، والرمادي، والسليمانية وكربلاء.

الأديان والمذاهب في شبه جزيرة العرب وما حولها

مؤرخون بوجود هذه الأديان في جزيرة العرب يومذاك. بيد ان الوثائق التاريخية تؤيد ان الديانة المانوية فقط هي التي كان لها وجود من بين هذه الديانات هناك.

وقد كتب اليعقوبي حول هذا الموضوع ما يلي:

دخل قوم من العرب في دين اليهود، ودخل آخرون في النصرانية، وتزندق قوم منهم فقالوا بالثنوية^١.

ورغم ان كلمة الزنديق تعني الملحد والمنكر لوجود الله، ولكن اصحاب النظر يرون ان الزندقة دين خاص من اديان الفرس، وتطلق على اتباع مذهب خاص من الثنوية ثم استعملت في الالحاد على العموم وصارت تشمل الكافر والدهري. وعلى هذا الأساس فان المصادر القديمة كانت إذا أطلقت كلمة الزندقة ارادت منها الديانة الثنوية^٢. ونعلم ان الثنوية مزيج من المسيحية والمجوسية^٣.

كتب جماعة من المؤرخين ان الزندقة في قريش اخذوها من الحيرة^٤. وأخذ هذه الديانة

١ - تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٢٦.

٢ - احمد امين، فجر الاسلام، ص ١٠٨؛ داود الهامي، ايران واسلام (قم: كانون نشر حديد)، ص ٣٩٢. ويُن البيروني بعدما اشار إلى ان المزدكيين سُموا زنادقة بسبب اتباعهم الزند؛ (وهو تفسير الاوستا)، ما يلي: يُطلقون على المانوية تسمية الزنادقة مجازاً، ويطلقون هذه التسمية على فرقة باطنية في الاسلام أيضاً؛ لأن هاتين الطائفتين تشبهان المزدكية في ما تذهب اليه من وصف الله ببعض الصفات، وكذلك في تأويل الظواهر. (الآثار الباقية، ص ٢٢٤). وكتب عبد الحسين زرّين كوب في هذا المجال ما يلي: كلمة زنديق مشتقة من زنديك البهلوية. وأضحى هذا المعنى أمراً مسلماً به اليوم. واما في العهد الاسلامي فقد كانت هذه الكلمة تطلق على المانوية، فضلاً عن ذلك كانت تُطلق على كل من يُتهم بنوع الإلحاد والشك واللا دينية. (نه شرقى، نه غربى، إنسان، ص ١١٠).

٣ - الشهرستاني، مصدر سابق، يقول أحد المستشرقين: ان كانت تعاليم ماني مزيج من الديانة النصرانية والزرادشتية، وتعد زرادشتية منصرة اقرب من ان تعد نصرانية مُزردشة. أحمد امين، فجر الاسلام، ص ١٠٤، ولغرض الاطلاع على مزيد من المعلومات حول ماني وديانته، راجع: عبد الحسين زرّين كوب؛ نه شرقى نه غربى، إنسان، ص ٧٢ - ٧٦.

٤ - ابن قتيبة، المعارف (قم: منشورات الشريف الرضي، الطبعة ١، ١٤١٥هـ). ص ٦٢١؛ الإبيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ج ٢، ص ٨٨؛ ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ٢٦٤؛ احمد امين، فجر الاسلام، ص ١٠٨. وذكر محمد بن حبيب البغدادي بأنه كان في عداد هذه الجماعة من قريش صخر بن حرب (= ابو سفيان)، وعقبة بن أبي معيط، وأبي بن خلف، وابو عزة (عمر بن عبد الله الجمحي)، والنضر بن الحارث، ونبيه ومنبه (ابنا الحجاج بن عامر السهمي)، والعاص بن وائل السهمي، والوليد بن المغيرة المخزومي. (المنق في اخبار قريش، ص ٢٨٨ - ٢٨٩؛ المخبر، ص ١٦١). ولكن ليس هناك ما يثبت صحة هذا

٦٨ تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

من الحيرة يدل على ان المراد منها هي الثنوية؛ وذلك لأن الحيرة كانت الى جوار بلاد فارس وتحت سلطتها، وكانت الديانات في فارس ثنوية وقد انتشرت هناك؛ أي في الحيرة وما جاورها.

عبادة الكواكب

في العصر الجاهلي كان جماعة من أهالي جزيرة العرب — كما هو الحال بالنسبة الى المناطق الاخرى — يعبدون الاجرام السماوية كالشمس والقمر وبعض الكواكب الاخرى، وكانوا يتوهمون ان لها قوة خارقة، فكانت خزاعة وحمير تعبدان الشعري وهو كوكب ثابت ومضيء. ومن كان يعبد الشعري أيضاً ابو كبشة أحد أجداد النبي^١ من جهة امه^٢. وبعض طيء عبدوا الثريا^٣. وكانت عبادة الأفلاك والكواكب شائعة الى حد كبير بحيث ظهر انعكاسها في آداب العرب واساطيرهم وخرافاتهم^٤. وعامة الوثنيين كانوا يعظمون الشمس والقمر وان لم يعبدهما غير الصابئين^٥.

وقد ذم القرآن الكريم عبادة الاجرام السماوية ونهى عنها، مؤكداً ان هذه الاجرام والكواكب من صنع الله خالق الكون، وهي مسخرة لأمره وارادته وخاضعة بين يديه. وانطلاقاً من ذلك ينبغي ان تكون دليلاً للانسان الى ربه (وليس إلهاً له)؛ وذلك لأنها تمثل

الرأي لا في اقوالهم ولا في مواقفهم في مقابل الاسلام، بل ان الشواهد والقرائن تؤيد عبادتهم للأصنام. وقد كتب عبد الحسين زرين كوب في بحث الزنديق والزنادقة ما يلي: <كان لفظ الزندقة يطلق - كما نقل عن ثعلب - على الدهرية أيضاً. والدهرية هم من ينكرون ارجاع الحوادث واحوال العالم إلى صانع مطلق. وأما زنادقة قريش الذين ذكر فيهم اسم ابي سفيان، وعقبة بن ابي معيط، والنظر بن الحارث، والعاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، فقد كانوا يحملون مثل هذه المعتقدات. ويُستفاد من الاخبار والاشعار التي قيلت في كبار ومشايخ قريش القدماء بأن ما نسب اليهم من الزندقة هو عبارة عن عدم الاعتقاد بالخالق وعدم الايمان بالحشر والحياة الآخرة...>. (نه شرقى، نه غربي، انسائي، ص١٠٧).

١ - الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٩، ص٤٩.

٢ - الآلوسي، بلوغ الإرب، ج٢، ص٢٤٠.

٣ - راجع: المصدر السابق، ص٢١٥، ٢٢٠، ٢٣٠، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤٠؛ اسلام وعقائد وآراء بشري، ص٢٩٥ - ٢٩٧.

٤ - الطباطبائي، مصدر سابق، ج١٧، ص٣٩٣.

الأديان والمذاهب في شبه جزيرة العرب وما حولها

دلالات على علم الله وقدرته، فقال تعالى في وصفها:

{وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}¹.
{وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا
تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ
إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}².
{أَلَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى...
وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعَرَى}³.

وتدل هذه الآيات على ان عبادة هذه الاجرام والكواكب كانت شائعة في عصر بعثة
الرسول محمد⁴.

عبادة الجن والملائكة

وفضلاً عن أتباع الديانات التي ذكرناها، كان قسم من أهالي جزيرة العرب يعبدون
الجن والملائكة، فكان عبد الله بن الزبيرى أحد زعماء مكة يقول: <سَلُوا مُحَمَّدًا:
أَكُلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي جَهَنَّمَ مَعَ مَنْ عُبِدَ؟ فَنَحْنُ
نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَالْيَهُودَ تَعْبُدُ عَزِيزاً، وَالنَّصَارَى تَعْبُدُ
عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ؟!>⁵.

وكانت بنو مليح — من خزاعة — يعبدون الجن⁶. وقيل ان اول من عبد الجن جماعة
من أهالي اليمن، ومن بعدهم قبيلة بني حنيفة، ثم انتشر ذلك تدريجياً بين العرب⁷.
وقال بعض المفسرين بأن هناك من كانوا يقولون بأن الله قد صاهر الجن فحدث بينهما

١ - سورة النحل (١٦)، الآية ١٢.

٢ - سورة فصلت (٤١)، الآية ٣٧.

٣ - سورة النجم (٥٣)، الآية ٤٩.

٤ - ابن هشام، سيرة النبي (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٥هـ-)، ج ١، ص ٣٨٥.

٥ - الأصنام، هشام بن محمد الكلبي، ص ٤٢.

٦ - الطبائباتي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٢.

٧٠ تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

الملائكة^١. وقد ذمَّ الباري تعالى في كتابه الكريم عبادة الجن والملائكة وكل التصورات والمعتقدات المغلوطة بشأنها، وذلك في قوله تعالى:

{وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ}^٢.

{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهؤلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ}^٣.

ومن الواضح ان هذا السؤال لا يحمل طابعاً استفهامياً ولا يرمي الى كشف مجهول، فالله تعالى عالم بكل شيء.

وانما الغاية من هذا السؤال هي بيان الحقائق على لسان الملائكة لكي يكون في ذلك خزي وعار على من يعبدونها.

ويتضح من جواب الملائكة انها لا ترضى ان تُعبد من قبل جماعة من الناس، لكن الجن كانوا يرضون ذلك.

وعلى اية حال فانَّ عبادة هذين النوعين من الكائنات التي لا تُرى بالعين غير بعيد الشبه عن المذاهب الثنوية؛ وذلك لأن المذاهب الثنوية تعتبر الجن مصدر الشر والظلام، والملائكة مصدر النور والرحمة والبركة. كان بعض العرب اذا أمسى الرجل منهم بقفر قال: <اعوذ بسيّد هذا الوادي من شر سفهاء قومه>^٤، اعتقاداً منهم بأنهم اذا قالوا هذا الكلام فسيحميهم كبير الجن من شر سفهاء الجن. ويؤيد هذا المعنى ما ورد في القرآن الكريم:

{أَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}^٥.

١ - الطبرسي، مجمع البيان، (شركة المعارف الإسلامية، ١٣٧٩هـ)، ج ٨، ص ٤٦.

٢ - سورة الانعام (٦)، الآية ١٠٠.

٣ - سورة سبأ (٣٤)، الآيات ٤٠ - ٤١.

٤ - الألوسي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٣٢.

٥ - سورة الجن (٧٢)، الآية ٦.

الأديان والمذاهب في شبه جزيرة العرب وما حولها

نشوء مدينة مكّة

يعود تاريخ مدينة مكّة الى عهد النبي ابراهيم الذي جاء بزوجه هاجر وطفله الرضيع اسماعيل من ارض الشام وأسكنهما في وادٍ غير ذي زرع^١، وبعد ظهور ماء زمزم بارادة الله لأجلهما^٢ نزلت هناك قبيلة جرهم^٣، وهي من قبائل الجنوب، وقد نزلت بسبب الجفاف وتوجهت الى الشمال. وبعدما بلغ اسماعيل وصار رجلاً تزوّج امرأة من جرهم^٤. وقد أمر ابراهيم من قبل الله تعالى أن يبني الكعبة بمساعدة ابنه اسماعيل^٥. وبعد بناء الكعبة تكوّن اساس مدينة مكّة وتكاثرت ذرية اسماعيل في مكّة بمرور الزمان.

بقايا ديانة ابراهيم (الحنيفية)

كان عدنان الجد الأعلى للعرب العدنانيين (عرب مكّة) والجد العشرين للنبي محمد^١ من ذرية اسماعيل^٢. وكان العدنانيون الذين سكنوا الحجاز ونجد وقحمة، وهم من ذرية اسماعيل، يتبعون شريعة ابراهيم، وقد قال اليعقوبي عنهم ما يلي:

كانت قريش وعامة ولد (معد) بن عدنان على بعض دين ابراهيم يحجّون البيت وقيمون المناسك ويقرون الضيف ويعظّمون الاشهر الحرم وينكرون الفواحش والتقاطع والتظالم ويعاقبون على الجرائم^٣.

وكان بقايا تعاليم وسنن ابراهيم رائجة بينهم الى حين ظهور الإسلام، كالاعتقاد بالله

١ - سورة ابراهيم (١٤)، الآية ٣٧.

٢ - ابن هشام، سيرة النبي، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٥هـ.)، ج ١، ص ٥٥ و ١١٦؛ الازرقعي، تاريخ مكّة، تحقيق: رشدي الصالح ملحق (قم: منشورات الشريف الرضي، ١٣٦٠ هـ. ش)، ج ١، ص ٥٥؛ تاريخ اليعقوبي، (النجف: المكتبة الحيدرية، ١٣٨٤ هـ.)، ج ١، ص ١٨؛ ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص ٥١.

٣ - الازرقعي، مصدر سابق، ص ٥٧؛ المسعودي، مروج الذهب (بيروت: دار الاندلس، الطبعة ١، ١٩٦٥م)، ج ٢، ص ٢٠.

٤ - تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ١٩ و ٩٣؛ الازرقعي، مصدر سابق، ص ٥٧.

٥ - سورة البقرة (٢)، الآية ١٢٧.

٦ - بناء على تفسير، فان عبارة > ملّة ايكم ابراهيم > في الآية ٧٨ من سورة > الحج > تشير إلى هذا المعنى. (الطبرسي، مجمع البيان، ج ٧، ص ٩٧).

٧ - تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٢٤.

٧٢ تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

وتحريم الامّهات والبنات. وكان في ايديهم الحج والتلبية والغسل من الجنابة^١ والختان وتكفين ودفن الموتى^٢. وكانوا يداومون على الكلمات العشر المتعلقة بنظافة البدن وازالة الشعر الزائد وما شابه ذلك^٣. وكانوا يحرمون الأشهر الحرم. وكان ذلك مما تمسكوا به من ملّة ابراهيم واسماعيل عليهما السلام^٤.

وأما سُمّوا الحرب التي كانت تقع في الأشهر الحرم بحرب الفجّار ويقولون قد فجرنا^٥. ويُفهم من كل هذا ان شرعة التوحيد كانت ذات قدم عريق بين العرب هناك. وأما عبادة الأصنام فقد تغلّغت في تلك الربوع لاحقاً وصارت سبباً لانحرافهم عن شريعة التوحيد.

ظهور عبادة الأصنام بين العرب

يُستدل من الوثائق والشواهد ان هناك سببين لظهور عبادة الأصنام بين العرب، وهما:
أ — ان شخصاً يدعى عمرو بن لُحي — وهو ابو خزاعة — وكان له في عصره نفوذ في مكّة وكانت له حجابة البيت^٦، كان قد سافر الى الشام وشاهد هناك جماعة من العمالقة^٧ يعبدون الأصنام، فسألهم: ما هذه؟ فقالوا: نستسقي بها المطر، ونستنصر بها على العدو، فسألهم ان يعطوه منها، فأعطوه <هبيل> فقدم بها مكّة، ونصبها حول الكعبة

-
- ١ - المجلسي، بحار الانوار (طهران: دار الكتب الإسلامية)، ج ١٥، ص ١٧٠؛ ابن هشام الكلبي، الأصنام، ص ٦
 - ٢ - الشيخ الحر العاملي، وسائل الشيعة (بيروت: دار احياء التراث العربي، الطبعة ٤) ج ١، كتاب الطهارة، ابواب الجنابة، الحديث ١٤، ص ٤٦٥؛ الطبرسي، الاحتجاج (النحف: المطبعة المرتضوية، ١٣٥٠هـ)، ص ١٨٩.
 - ٣ - الشهرستاني، الملل والنحل (قم: منشورات الشريف الرضي)، ج ٢، ص ٢٥٧.
 - ٤ - الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ج ٩، ص ٢٧٢.
 - ٥ - الشهرستاني، مصدر سابق، ص ٢٥٥؛ تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٢.
 - ٦ - الازرققي، مصدر سابق، ج ١، ص ٨٨، ١٠٠، ١٠١؛ محمود الألوسي، بلوغ الإرب في معرفة احوال العرب (القاهرة: دار الكتب الحديثة، الطبعة ٣)، ج ٢، ص ٢٠٠؛ علي بن برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية (بيروت: دار المعرفة)، ج ١، ص ١٦.
 - ٧ - جماعة من ولد نوح سُمّوا بهذا الاسم نسبة إلى جدّهم عملاق او عمليق (ابن هشام، سيرة النبي، ج ١، ص ٨ و ٧٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢، ص ١٨٨؛ علي بن برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية، ج ١، ص ١٧)

الأديان والمذاهب في شبه جزيرة العرب وما حولها
ودعا الناس الى عبادتها^١.

وبالإضافة الى ذلك فقد نصب صنمي <اساف>^٢ و<نائلة> الى جانب الكعبة ودعا الناس الى عبادتهما^٣. وهكذا فقد وضع اللبنة الاولى لعبادة الأصنام. ومما نقل عن رسول الله^٤ انه قال:

<رأيت عمرو بن لحي في النار وهو اول من غير دين اسماعيل ونصب الاوثان>^٥.

ب — ان اسماعيل بن ابراهيم صلى الله تعالى عليهما وسلم لما سكن مكة وولد له بها اولاد كثير حتى ملأوا مكة ونفوا من كان فيها من العماليق فضاقت عليهم مكة ووقعت بينهم الحروب والعداوات واخرج بعضهم بعضاً فتفستحوا في البلاد والتماس المعاش. وكان الذي سلخ بهم الى عبادة الاوثان والحجارة انه كان لا يظعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، فحيثما حلوا وضعوه وطفوا به كطوافهم بالكعبة صباية بها وحُباً، ثم سلخ ذلك بهم الى ان عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا

١ - الألويسي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٠١؛ الشهرستاني، مصدر سابق، ص ٢٤٣؛ علي بن برهان الدين الحلبي، مصدر سابق، ص ١٧؛ تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٢٢٤؛ شهاب الدين الإبيشي، المستطرف (بيروت: دار احياء التراث العربي)، ج ٢، ص ٨٨؛ المسعودي، مروج الذهب (بيروت دار الاندلس، الطبعة ١)، ج ٢، ص ٢٩؛ هشام الكلبي، الأصنام، ص ٦؛ محمد بن حبيب، المنطق في اخبار قریش، تحقيق: خورشيد احمد فارق (بيروت: عالم الكتب، الطبعة ١، ١٤٠٥ هـ)، ص ٣٢٨ ورد في بعض المصادر انه جلب هبل من العراق (الازرق، اخبار مكة، ج ١، ص ١١٧؛ ابن هشام، سيرة النبي، ج ١، ص ٧٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢، ص ١٨٨) ولكن جاء في رواية ان حجر صنم هبل أخذ من احجار المأزمين وهو مسلك ضيق بين عرفة والمشعر (محمد بن حسن الحر العاملي، وسائل الشيعة، بيروت: دار احياء التراث الاسلامي، ج ١٠، كتاب الحج، باب استحباب التكبير بين المأزمين، ص ٣٦، الحديث ١).

٢ - يفتح الهمزة أو بكسرهما. (ابن هشام، سيرة النبي، ج ١، ص ٨٤).

٣ - الازرق، مصدر سابق، ج ١، ص ٨٨؛ الشهرستاني، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٤٣ و ٣٤٧.

٤ - ابن هشام، مصدر سابق، ص ٧٩؛ علي بن برهان الدين، مصدر سابق، ص ١٧؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، (في حاشية الإصابة) ج ١، ص ١٢٠، سيرة أئمة بن جون الخرازي؛ ابن الاثير، اسد الغابة (طهران: المكتبة الإسلامية)، ج ٤، ص ٣٩٠؛ الشيخ محمد تقي التستري، الأوائل، الطبعة ١، ص ٢١٧؛ ابو الفدا اسماعيل بن كثير، السيرة النبوية (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٨٤ هـ)، ج ١، ص ٦٥؛ الازرق، مصدر سابق، ص ١١٦.

٧٤ تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

بدين ابراهيم واسماعيل غيره؛ فعبدوا الاوثان^١.

وكان هاذان العاملان منطلقاً لانتشار عبادة الأصنام في هذه المنطقة، وكان هناك الى جانبهما عوامل اخرى طبعاً مثل الجهل، والنزعة الحسيّة البشرية (وهي ميل الانسان الى ان يكون الهه محسوساً وملموساً)^٢.

وقد كانت الاختلافات القبلية والتنافس في ما بين القبائل (حيث كانت كل قبيلة تطمح الى ان يكون لها صنم مستقل)، وما كان يتصف به رؤساء القبائل من ميل الى الرئاسة (حيث يرغبون في ان يبقى الناس في حالة من الجهل لكي ينقادوا لهم بسهولة)، يُضاف الى ذلك التقليد الأعمى للأسلاف وهو ما ساعد على انتشار هذه الظاهرة (أي ظاهرة عبادة الأصنام). وهكذا ظهرت على مر الزمن انماط شتى من عبادة الأصنام وما يتفرّع عنها من تقاليد الدعاء، والنذر، والازلام، وطلب العون منها^٣. وكثرت الأصنام حتى كان لأهل دار من مكّة صنم يعبدونه؛ فاذا اراد احدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله انه يتمسّح به^٤. ولما فتح رسول الله^٥ مكّة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً.

هل كان عبدة الاصنام يؤمنون بالله؟

لم يكن عبدة الاصنام ينكرون وجود الله، اذ نقل القرآن عنهم انهم كانوا يعتقدون بان

١ - الآلوسي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٠٠؛ المستطرف، ج٢، ص٨٨؛ ابو الفداء اسماعيل بن كثير، السيرة النبوية، ج١، ص٦٢؛ البداية والنهاية (بيروت: مكتبة المعارف)، ج٢، ص١٨٨؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج١، ص٧٩؛ الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٠، ص٢٨٦.

٢ - الطباطبائي، المصدر السابق، ج١، ص٢٧٢.

٣ - سورة الانعام (٦)، الآيات ١٣٦، ١٣٨، ١٣٩؛ سورة المائدة (٥)، الآيات ٣، ٩٠، ١٠٣؛ هشام الكلبي، الأصنام، ص٢٨.

٤ - الكلبي، مصدر سابق، ص٣٢.

٥ - الشيخ الطوسي، الأمالي (قم: دار الثقافة، الطبعة ١، ١٤١٤هـ-)، ص٣٣٦؛ الآلوسي، بلوغ الإرب، ج٢، ص٢١١؛ الأزرق، مصدر سابق، ج١، ص١٢١؛ السيرة الحلبية، ج٣، ص٣٠؛ راجع: الميزان في تفسير القرآن، ج٢٦، ص٢٧١ على أساس رواية منقولة عن الامام الرضا (عليه السلام).

الأديان والمذاهب في شبه جزيرة العرب وما حولها

الله هو خالق السماوات والارض والعالم^١. ولكنهم وقعوا في خطئين عظيمين كانا هما سبب ضلالهم:

١- خطأهم في معرفة الله وصفاته؛ اذ كانوا يحملون صورة مغلوبة وغامضة عنه؛ والدليل على ذلك هو انهم كانوا يعتقدون بأن لله زوجة وابناء؛ وكانوا يظنون ان الملائكة بنات الله؛ أي انهم كانوا يتصورون ان لله — كما للانسان ولبقية المخلوقات — جسماً ومادة وله اولاد وبنين. وقد ذم الباري تعالى هذه المعتقدات المغلوبة في آيات عديدة، منها قوله تعالى:

{وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ}٢.
{إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنثَى}٣.

{قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ}٤.

{وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ} * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}٥.
{وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا}٦.

وقد ذم الله تعالى المشركين في عدة آيات لما نسبوه الى الله تعالى من الاناث التي كانوا يتصورون بأنها أمراً سلبياً ودونياً، فيما يعتبرون الذكور من نصيبهم هم:

١ - سورة لقمان (٣١)، الآية ٢٥؛ سورة الزمر (٣٩)، الآية ٣٨؛ سورة الزخرف (٤٣)، الآية ٩؛ سورة الزخرف (٤٣)، الآية

٨٧؛ سورة يونس (١٠)، الآية ٣١.

٢ - سورة الزخرف (٤٣)، الآية ١٩.

٣ - سورة النجم (٥٣)، الآية ٢٧.

٤ - سورة الانبياء (٢١)، الآية ٢٦.

٥ - سورة الانعام (٦)، الآيات ١٠٠ - ١٠١.

٦ - سورة الجن (٧٧)، الآية ٣.

{أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ}.^١
 {فَاسْتَفْتِهِمُ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا
 الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ}.^٢
 {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى *
 أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ
 هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ}.^٣
 {أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ}.^٤
 {وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ
 إِنَّهُمْ لَمُخْضَرُونَ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ}.^٥

ويُستفاد من أحد التفاسير بأن المراد من نسبة الجن الى الله هو قول الكفار بأن الله قد تزوج الجن، والملائكة بنات الله من الجن.^٦

٢- وصفهم الاصنام بالآلهة الصغيرة وانها عبارة عن واسطة بينهم وبين الله، وان عبادتها تقرهم الى الله وتكون مدعاة لنيل رضاه، بينما العبادة لله وحده وليس لأحد سواه. وعلى صعيد آخر لم يكونوا يعتبرون الأصنام هي الخالقة لهذا الكون ولكنهم كانوا في الوقت ذاته يرون لها نوعاً من مقام الربوبية والهيمنة، ويعتقدون بأن لها تأثيرها في تدبير شؤون الكون وتقرير مصير البشر، ولذلك فقد كانوا يلتجئون اليها طلباً لعونها في حل مشاكلهم ورفع العناء عنهم. بينما يقول الإسلام بأن خالق عالم الوجود هو الله، ومثلما هو خالق الكون فان تدبير شؤون الكون بيده أيضاً.^٧ (وهذا ما يُسمى بتوحيده في

١ - سورة الطور (٥٢)، الآية ٣٩.

٢ - سورة الطور (٥٢)، الآية ٣٩.

٣ - سورة الصافات (٣٧)، الآيتان ١٤٩ - ١٥٠.

٤ - سورة النجم (٥٣)، الآيات ١٩ و ٢٣. اللات والعزى ومناة كانت اسماء لثلاثة أصنام، ويبدو انهم كانوا يعتبرونها رمزاً لثلاث ملائكة اناث؛ لان هذه الاسماء الثلاثة كلها مؤنثة.

٥ - سورة الزحرف (٤٣)، الآية ١٦.

٦ - سورة الصافات (٣٧)، الآيتان ١٥٨ - ١٥٩.

٧ - السيوطي، الدر المنثور، ج٧، ص١٣٣؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٢٣؛ الطبرسي، مجمع البيان، ج٨، ص٢٦٠.

الأديان والمذاهب في شبه جزيرة العرب وما حولها

(الافعال) بينما الأصنام اشياء جامدة لا روح فيها ولا ارادة لها ولا ادراك. وقد صور القرآن أوهامهم في هذا المجال وذمها ودحضها على النحو التالي: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}¹. {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ}².

{وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا}³.

{وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ}⁴.

ولهذا السبب فقد اطلق القرآن الكريم تسمية المشركين على عبدة الاوثان الذين جعلوا الأصنام شركاء لله في العبادة، وفي تدبير امور الكون.

الوضع الديني المضطرب

وعلى أية حال فعند ظهور الإسلام كانت عبادة الاصنام بما فيها من تقاليد وشعائر واسعة، قد مسخت الحنيفية، وكان المشركون يعيشون وضعاً دينياً مضطرباً، فقد كانوا من جهة متمسكين بالأصنام وعبادة الأصنام وشعائرها وتقاليدها، وكانوا يؤدون بقايا دين ابراهيم كالحج والعمرة والذبح على نحو ناقص ومحرّف وتشوبه الخرافات ومظاهر الشرك. فهم مثلاً كانوا يعظمون الكعبة ولكنهم في الوقت ذاته بنوا معابد اخرى واحذوا يطوفون حولها مثل طوافهم حول الكعبة، وكانوا يقدمون لها النذور والهدايا ويدبحون الى جانبها

١ - ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾. الاسراء (١٧)، الآية ١١١، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنَزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. سورة آل عمران، الآية ٢٦.

٢ - سورة الزمر (٣٩)، الآية ٣.

٣ - سورة مريم (١٩)، الآية ٨١.

٤ - سورة يس (٣٦)، الآية ٧٤.

٧٨ تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

القرابين^١. وما كانت صلواتهم بجوار الكعبة سوى الصفير والتصفيق^٢. وكانت قريش تذكر اسماء آلهتها من الأصنام عند احرام الحج والتلبية^٣. وهكذا فقد مزجوا بالشرك الحج الإبراهيمي الذي يتضمن أسمى مظاهر التوحيد.

ولم يكن أحد اشد اعظاماً لصنم مناة من الأوس والخزرج، فانهم كانوا يحجّون فيقفون مع الناس المواقف كلّها ولا يخلقون رؤوسهم؛ فاذا نفروا أتوه فحلقوا رؤوسهم عنده^٤، واقاموا عنده^٥.

وكان المشركون يطوفون (رجالاً ونساءً) حول الكعبة عراة احياناً^٦. ومن الطبيعي ان مثل هذا المشهد يثير الاشتزاز في النفوس.

كانت قريش تلطّخ الأصنام التي حول الكعبة بالمسك والعنبر، وكانوا اذا دخلوا خرّوا سجّداً ولا ينحنون ثم يستديرون بحياهم ثم يُلبّون^٧.

وقد كانوا يعظّمون الأشهر الحرم ولكنهم رغم ذلك كانوا يُنسئون؛ أي يدلّون الاشهر

١ - ابو الغداء اسماعيل بن كثير، السيرة النبوية (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٨٤ هـ.)، ج ١، ص ٧؛ ابن هشام،

سيرة النبي، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٥ هـ.)، ج ١، ص ٨٥.

٢ - ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْلِيَةً﴾ سورة الانفال (٨)، الآية ٣٥.

٣ - لبيك اللهم لبيك، لا شريك لك لبيك الا شريك هو لك تملكه و ما ملك. (ابن هشام، مصدر سابق، ص ٨٠)؛ ابن كثير،

مصدر سابق، ص ٦٣؛ الشهرستاني، الملل والنحل، ج ٢، ص ٢٤٧؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢، ص ٨٨.

٤ - هشام بن محمد الكلبي، الأصنام، ص ١٣؛ ابن هشام، سيرة النبي، ج ١، ص ٨٨؛ الآلوسي، بلوغ الإرب في معرفة أحوال

العرب، ج ٢، ص ٢٠٢.

٥ - هشام الكلبي، مصدر سابق، ص ١٤.

٦ - الأزرق، أخبار مكة، ج ١، ص ١٧٨ و ١٨٢؛ الآلوسي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٤٤؛ صحيح مسلم بشرح النووي،

ج ١٨، كتاب التفسير، ص ١٦٢.

٧ - الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٤، ص ٤١٤.

الأديان والمذاهب في شبه جزيرة العرب وما حولها

الحرم ظاهرياً لكي يبيحوا لأنفسهم الحرب والقتال فيها^١.

التحول الأساسي في ظل ظهور الإسلام

ومع ظهور الإسلام وانتشاره حصل تغيير جذري وعميق في جميع شؤون حياة أهالي الحجاز، وشهدت حياتهم ثورة شاملة امتد تأثيرها تدريجياً إلى جميع أرجاء جزيرة العرب. وأدت الحرب التي شنها رسول الله ﷺ بلا هوادة ضد عبادة الأصنام، إلى اجتثاث هذه الظاهرة التي كانت سبباً في كل المآسي والمصائب التي عاشها الناس آنذاك. ففضى بذلك على عبادة الأصنام واستبدالها بنظام التوحيد. وفضى أيضاً على النظام القبلي والقومي وعلى العادات والتقاليد المغلوطة. فكافح التعصب القومي وأحل محلّه اتباع الحق والعدل. وحول ظاهرة الانتقام والنهب والحروب القبلية التي كانت تُشن بين الإخوة إلى سلام ومحبة، وجعل المسلمين إخوة في ما بينهم. وأنقذ المرأة من الاغلال والمآسي وجعل لها شخصية اجتماعية وإنسانية رفيعة. وحول المجتمع الجاهلي إلى أمة واعية.

لقد حول رسول الله ﷺ النظام القبلي إلى نظام الأمة والامامة، ووحد القبائل العربية المشتتة تحت لواء الامة الواحدة. وانتشلهم من قيود الحياة القبلية الضيقة إلى فكرة الحكومة العالمية. وفي ظل الإسلام اكتسب العرب — الذين كانوا حتى الأمس القريب يشعرون بالضعف امام امبراطوريتي الفرس والروم — قوة وعظمة زعزت اركان الحكم في هاتين الامبراطوريتين. وهذه الحقيقة على درجة عالية من الوضوح بحيث اعترف بها حتى غير المسلمين من العلماء المنصفين. نسوق في ما يلي على سبيل المثال آراء ثلاثة منهم (ممن لا يحتمل منهم التأييد المتعصب للإسلام):

قال الفرنسي غوستاف لوبون:

وجمع محمد قبل وفاته كلمة العرب، وخلق منهم امة واحدة خاضعة لدين واحد مطبوعة

١ - ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ عَمَّا وَبَحَرَّمُونَهُ عَمَّا لِيُؤْطُوا عِدَّةً مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلِلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ سورة التوبة (٩)، الآية ٣٧؛ الأزرق، اخبار مكة، ج ١، ص ١٨٣؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ١، ص ٤٥.

٨٠ تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

لزعيم واحد. فكان ذلك آيته الكبرى. ومما لا ريب فيه ان محمداً أصاب في بلاد العرب نتائج لم تُصَب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الاسلام ومنها اليهودية والنصرانية. ولذلك كان فضل محمد على العرب عظيماً... وإذا ما قيسَت قيمة الرجال بجليل أعمالهم كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ. ونحن نعد دينه الذي دعا الناس إلى الاعتقاد به من جزيل النعم على الشعوب التي اعتنقته^١.

وقال الانجليزي توماس كارليل:

لقد هدى الله العرب بالاسلام واخرجهم من الظلمات إلى النور، واحيى به اولئك القوم الذين كانوا يعيشون حالة من الخمود في تلك الارض الميتة. بينما كان العرب منذ بدء الخليقة ليس اكثر من جماعة تجوب الصحارى ولا يُكاد يُعرف لهم اسم، بل كانوا قوماً فقراء يعيشون في مجاهيل البادية، لا يُسمع لهم صوت ولا تُحس لهم حركة. وعندما بعث الله فيهم نبياً بنور الوحي والرسالة لهدايتهم، تحولت المجهولية والحمول إلى شهرة، والحيرة والضياح إلى وعي، والانحطاط إلى رفعة، والعجز إلى قدرة، والشرارة إلى بارقة، وشع نوره في كل مكان، وغمر ضياؤه كل موطن. واتصل شعاع هدايته من شمال العالم إلى جنوبه وامتد من شرق الارض إلى غربها بحيث لم يمض قرن على ظهور الاسلام حتى كان قدم الحكومة الاسلامية في الهند وقدمها الآخر في الاندلس^٢.

وكتب ويل ديورانت ما يلي:

لم يكن أحد في ذلك الوقت يحلم انه لن يمضي قرن من الزمان حتى يكون اولئك البدو قد فتحوا نصف أملاك الدولة البيزنطية في آسيا، وجميع بلاد الفرس، ومصر، ومعظم شمال افريقية، وساروا في طريقهم إلى اسبانيا. والحق ان ذلك الحادث الجلل الذي تمخّضت عنه جزيرة العرب، والذي أعقبه استيلاؤها على نصف عالم البحر المتوسط ونشر دينها الجديد في ربوعه، هو اعجب الظواهر الاجتماعية في العصور الوسطى^٣.

١ - غوستاف لوبون، حضارة العرب (تعريب عادل زعيتر، الطبعة ٤، مطبعة عيسى البابي الحلبي)، ص ١١٥ - ١١٦.

٢ - توماس كارليل، الأبطال، تعريب محمد السباعي (القاهرة: ط ٣، ١٣٤٩ هـ)، ص ٩.

٣ - ول ديورانت، قصّة الحضارة، ج ٤، عصر الايمان، الباب الاول، (طبعة دار الفكر، ١٤٠٨ - ١٩٨٨ م)، ج ٧، ص ٩.

الأديان والمذاهب في شبه جزيرة العرب وما حولها

تطور ومكانة مدينة مكة

ذكرنا سابقاً بأن معظم أهالي شبه جزيرة العرب كانوا في العصر الجاهلي بدواً يجوبون الصحاري. ولم تكن ظاهرة الحضر أو السكن في المدن شائعة بينهم يومذاك. وأما المناطق التي كانت تُسمّى مدناً فكانت في الواقع مدناً صغيرة لم يكن يقطنها كثير من السكان. وقال مؤرخون معاصرون بأن مجموع سكان الحضر يومذاك كان يبلغ سدس مجموع السكان^١. وقال آخرون بأنهم كانوا يشكلون ما مجموعه سبعة عشر بالمائة من مجموع السكان^٢. وليس هناك أسس واضحة لهذه الحسابات والأرقام، ولكن من المسلم به أن نسبتهم كانت ضئيلة بالمقارنة مع سكان المدن. وكانت مدينة مكة التي تقع في جنوب الحجاز (تبعد ما يقارب ٨٣ كيلو متراً من البحر الأحمر) أهم مدينة في تلك المنطقة. وكانت هذه المدينة قد اتسعت قبل عدة عقود من ظهور الإسلام واجتذبت إليها أعداداً من السكان. وكان هناك سببان لاتساع مكة، هما:

أ - الموقع التجاري

تقع مدينة مكة في أرض جرداء قاحلة وقليلة الماء، ولم تكن تتوفر فيها متطلبات الزراعة أو غيرها من النشاطات الانتاجية الأخرى، وكان أهاليها منذ القدم مضطرين إلى تأمين مستلزمات حياتهم عن طريق التجارة، ولكن تجارهم كانت محدودة لا تعدو مدينة مكة^٣. وكان التجار الأعاجم يتقدمون بسلعهم إلى مكة فيشتريها منهم تجار مكة، ثم يتبايعون بينهم ويبيعون من حولهم من العرب^٤.

أو ربّما كانوا يشاركون في الأسواق الموسمية التي كانت تُقام في شبه جزيرة العرب، إلى أن خرج هاشم — الجد الثاني للنبي محمد — إلى الشام فأخذ من قيصر ملك الروم

١ - ول ديورانت، مصدر سابق، ص ١٢.

٢ - فيليب حنّي، تاريخ العرب، ج ١، ص ١٢٥.

٣ - ابن واضح، تاريخ اليعقوبي (النحف: المكتبة الحيدرية، ١٣٨٤ هـ)، ج ١، ص ٢١٥.

٤ - محمد بن حبيب البغدادي، الممق في اخبار قريش، تحقيق: خورشيد أحمد فارق (بيروت: عالم الكتب، الطبعة ١، ١٤٠٥ هـ)، ص ٤٢.

٨٢ تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

عهداً لقريش ليتجروا في بلاده^١.

وبالإضافة الى ذلك فقد اتفق مع القبائل التي تقع على مسير الشام على عدم التعرض للقوافل التجارية لأهالي مكة^٢، وألفهم على ان تحمل قريش بضائعهم ولا كراء على أهل الطريق^٣.

وعقد عبد شمس، ونوفل، وعبد المطلب، عهداً مشاهمة مع النجاشي ملك الحبشة، وكسرى ملك فارس^٤، وملك اليمن على التوالي^٥.

وبعد توفير الأمان لتلك الطرق أوجد هاشم خطأً للقوافل التجارية بين اليمن والشام^٦ وكانت حلقة الوصل بينها مكة التي تقع في وسط الطريق الموصل بين هذين المركزين التجاريين^٧. وهكذا بدأت قريش تجارتها مع الخارج^٨. وابتداءً من ذلك التاريخ أخذ تجار مكة يشاركون في الاسواق الموسمية التي كانت تقام يومذاك، مثل سوق عكاظ، وذي الحجاز، والمجنة. وكانوا يتاجرون في الشتاء الى اليمن والحبشة، وفي الصيف الى الشام وغزة. وأهم ما كانوا يتاجرون به في هذه الاسفار الطيب والبخور الذي يكثر في الجنوب، اضافة الى المنسوجات الحريرية والجلود وغيرها مما كان يصل من الهند والصين والمناطق الاخرى الى اليمن، ويحمل من هناك عن طريق البر الى مكة في طول جزيرة العرب من حضرموت محاذياً للبحر الأحمر^٩. وتنقل من هناك الى غزة وبيت المقدس ودمشق والموانئ الواقعة على

١ - ابن واضح، مصدر سابق، ج ١، ص ٢١٤.

٢ - المصدر السابق، ص ٢١٣.

٣ - ابن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر)، ج ١، ص ٧٨.

٤ - ابن واضح، مصدر سابق، ج ١، ص ٢١٥.

٥ - محمد بن جرير الطبري، تاريخ الامم والملوك (بيروت: دار القاموس الحديث)، ج ٢، ص ١٨٠؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ (بيروت: دار صادر)، ج ٢، ص ١٦.

٦ - الطبري، مصدر سابق، ص ١٨٠؛ ابن هشام، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٥ هـ)، ج ١، ص ١٤٣.

٧ - احمد امين، فجر الاسلام (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة ٩، ١٩٦٤م)، ص ١٤ - ١٢؛ الدكتور شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، (العصر الجاهلي)، ج ١، ص ٤٩.

٨ - الطبري، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٨٠؛ ابن الاثير، مصدر سابق، ص ١٦.

٩ - احمد امين، مصدر سابق، ص ١٢؛ عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية)، ص ٧٩.

الأديان والمذاهب في شبه جزيرة العرب وما حولها

سواحل البحر الابيض المتوسط. وتحمل من اسواق الشام القمح والمصنوعات وزيت الزيتون والخشب. وعبروا البحر الاحمر الى الحبشة عن طريق ميناء جدّة (الذي يعد ما يقارب ثمانين كيلو متراً عن مكة) لنقل البضائع المحلية الى مواطن اخرى^١.

أدى فتح هذا الطريق التجاري الى تحويل مكة الى مركز تجاري يدر على أهله أرباحاً طائلة، وحدث تغييراً هائلاً في غط حياة هذه المدينة. وقد وصف الباري تعالى في كتابه الكريم هذه الاسفار والرحلات التجارية بأنّها من موجبات ثراء ابناء قريش:

{لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ * إِلَّا فِيهِمْ رَحْلَةُ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ *
فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ
وَأَمَّنَّهُمْ مِّنْ خَوْفٍ}^٢.

ب - وجود الكعبة

كان وجود الكعبة في مكة سبباً آخر من أسباب اتساع هذه المدينة وازدهار اقتصادها؛ وذلك لأن العرب كانوا يفدون على هذه المدينة مرتين في كل عام لاداء مناسك الحج. وكانت قبيلة قريش هي التي تتولى ادارة جميع الشؤون المتعلقة بالكعبة وتوفير متطلبات الحجاج كتوفير الماء والطعام. وعلى صعيد آخر كانت تجري على هامش مناسك الحج معاملات تجارية بين الحجاج وتجار مكة^٣. وقد ساعد هذان العاملان على نمو هذه المدينة وازدهار اقتصادها.

وكانت حرمة وقدسية بيت الله سبباً في استتباب الأمن في تلك الربوع، وكان لهذا العامل تأثيره الواضح في ازدهار التجارة في مكة. وهذا ما بيّنه الله عز وجل بقوله:
{أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِن لَّدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}^٤.

١ - حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي، ص ٥٦.

٢ - سورة قريش (١٠٦)، الآيات ١ - ٤.

٣ - عباس زرياب، سيرة رسول الله (ص) (طهران: سروش، الطبعة ١، ١٣٧٠هـ. ش)، ص ٦٦ - ٦٧.

٤ - سورة القصص (٢٧)، الآية ٥٧.

فبعد ان اسكن ابراهيم x زوجته وابنه الى جانب الكعبة دعا ربه بما يلي:
 {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ
 بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ
 النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
 يَشْكُرُونَ}¹.
 {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ
 الثَّمَرَاتِ}².

تجارة وسدانة قريش

أدى ازدهار التجارة ووجود الكعبة إلى اتساع مدينة مكة وازدياد أهميتها، وقد أدى
 هذان العاملان أيضاً إلى زيادة نفوذ وقوة قريش وذلك لأنها كانت تتحكم بعصب
 الاقتصاد من جهة، وتسيطر على الشؤون الدينية فيها من جهة أخرى:

١- حصلت قريش تدريجياً — عن طريق التجارة — على ثروات هائلة، وظهر أثرياء
 كبار في مكة كانت ارقام ثرواتهم تفوق الخيال. فقد بلغ سهم احدهم في أحد القوافل
 التجارية ما يربو على ثلاثين ألف دينار³. وكان لأشراف قريش بساتين ومصايف⁴ في
 منطقة معروفة بجمال طبيعتها واعتدال جوها وهي منطقة الطائف التي توصف بأنها جزء
 من بلاد الشام بسبب لطافة هوائها⁵. وكانت للعباس بن عبد المطلب ارض بالطائف وكان
 الزبيب يُحمل منها فينبد في السقاية للحاج⁶، وكان من كبار أصحاب الربا في مكة⁷. ولما

١ - سورة ابراهيم (١٤)، الآية ٣٧.

٢ - سورة البقرة (٢)، الآية ١٢٦.

٣ - جواد علي، المفصل في تاريخ العرب (بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة ١٩٦٨م)، ج ١، ص ١١٤.
 يبدو ان المراد من ذلك هو سعيد بن العاص (ابي أحيحة) الذي كان له السهم الأوفر في قافلة قريش التي انتهت عند عودها من
 الشام إلى وقوع معركة بدر - حسبما ذكر الواقدي - ولكن عبارة الواقدي ليست على هذه الدرجة من الصراحة.

٤ - فيليب حتي، مصدر سابق، ص ١٣٠.

٥ - الطبري، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٢١؛ البلاذري، فتوح البلدان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨ هـ)، ص ٦٨.

٦ - البلاذري، مصدر سابق، ص ٦٨.

٧ - ابن هشام، سيرة النبي، ج ٤، ص ٢٥١.

الأديان والمذاهب في شبه جزيرة العرب وما حولها

مات عبد المطلب لقوه في حلتين من حلال اليمن قيمتهما ألف مثقال ذهب^١. (وهذا ما يكشف عن مدى ثروة ورثته) وقيل ان ابنته — هند — اعتقت اربعين عبداً في يوم واحد^٢.

وكان للوليد بن المغيرة — شيخ قبيلة بني مخزوم — من الثروة والابناء ما كانت تتداوله الألسن^٣. ولكن ذمه القرآن لاحقاً بسبب ما كان يتصف به من الغرور والتكبر^٤. وكان عبد الله بن جدعان التيمي على درجة خيالية من الثراء والجود والكرم^٥. وكان الشعراء يمدحونه لنيل صلته^٦، حتى ان أحد الشعراء شبهه بقيصر ملك الروم^٧. ومما يذكر عنه انه حمل ألف رجل من بني كنانة على ألف بعير^٨. وبذل من ماله مائة درع، ومائة رمح، ومائة سيف^٩. وكان بائعاً للبيد والجواري^{١٠} ويشرب الماء في

١ - ابن واضح، مصدر سابق، ج ١، ص ١٠.

٢ - شوقي ضيف، مصدر سابق، ص ٥١؛ الجاحظ، المحاسن والأضداد (بيروت: دار مكتبة العرفان)، ص ٦٢. فصل محاسن السخاء.

٣ - يُستفاد من أحد التفاسير بأن المراد من الرجلين العظيمين اللذين ذكرتهما: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ سورة الزخرف (٤٣)، الآية ٣١، الوليد بن مغيرة في مكة، وعروة بن مسعود الثقفي في الطائف. وقد رشحهما المشركون لمنصب النبوة بسبب عظيم ثروتهما.

٤ - الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ٢، ص ٩٣؛ ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٤٤٢؛ تفسير سورة المدثر.

٥ - ابن كثير، البداية والنهاية (بيروت: مكتبة المعارف، الطبعة ٢، ١٩٧٧م)، ج ٢، ص ٢٢٩؛ الآلوسي، مصدر سابق، ج ١، ص ٨٩؛ محمد احمد جاد المولى بك (وآخرون)، ايام العرب في الجاهلية (بيروت: دار احياء التراث العربي)، ص ٢٤٨.

٦ - الآلوسي، مصدر سابق، ص ٨٧؛ ابن كثير، مصدر سابق، ص ٢٢٩.

٧ - يوم بن جدعان بجنب الخزورة كأنه قيصر او ذو الدسكرة (البكري، معجم ما استعجم، عالم الكتب، الطبعة ٣، ١٤٠٣هـ)، ج ٢، ص ٤٤٤، كلمة خزورة؛ شوقي ضيف، مصدر سابق، ص ٥١.

٨ - محمد احمد جاد المولى بك، مصدر سابق، ص ٣٣٤.

٩ - المصدر السابق، ص ٣٢٩.

١٠ - ابن قتيبة، المعارف، تحقيق: ثروة عكاشة (قم: منشورات الشريف الرضي، الطبعة ١٤١٥هـ)، ص ٥٧٦؛ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر (بيروت: دار الاندلس، الطبعة ١)، ج ٢، ص ٢٨٧؛ جواد علي، مصدر سابق، ص ٩٦.

٨٦ تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

آينة ذهب^١. وعندما توجه الرسول^٢ الى حنين بعد فتح مكة، اخذ من صفوان بن امية — وهو كافر — مائة درع عارية مؤداة^٣.

٢— وعلى صعيد آخر كانت قريش قد انتزعت منذ عهد قصي — الجد الرابع لرسول الله^٤ — حجابة الكعبة من قبيلة خزاعة^٥. وقُسمت مختلف الشؤون المتعلقة بالحج والزيارة والطواف كسقاية ورفادة الحاج وسدانة الكعبة وعمارتها وخدمتها بين رؤساء بطون قريش، وهكذا فقد جعلت لنفسها منزلة دينية بين عامة العرب.

والى جانب ذلك كانت لهم الشؤون الاجتماعية الاخرى التي كانت تتطلبها الحياة يومذاك، مثل اللواء والمشورة والاشناق والقبة والاعنة والمغرم، وكانت لهم السفارة؛ وذلك انهم كانت اذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوا منهم سفيراً^٦.

سلطة ونفوذ قريش

كانت قريش ذات يوم قبيلة صغيرة وفقيرة ولا تحظى بنفوذ أو اعتبار في موطن سكانها وهو جنوب الحجاز، ولكنها تحولت تدريجياً بفضل ثروتها الاقتصادية وسلطتها الدينية إلى قبيلة قوية ومشهورة وذات سمعة طيبة بين العرب. وصارت تعد ذاتها افضل من القبائل الاخرى من حيث الشرف والأهمية والاعتبار. وعلى حد تعبير احد المؤرخين المعاصرين ان قريشاً كان لها من المزايا والخصائص بين قبائل الحجاز مثلما كانت مكانة اللاويين بين

١ - الآلوسي، مصدر سابق، ص ٨٧ .

٢ - ابن هشام، مصدر سابق، ج ٤، ص ٨٣؛ الواقدي، المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، ج ٣، ص ٨٩٠؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر)، ج ٢، ص ١٥٠؛ الحلبي، السيرة الحلبية (بيروت: دار المعرفة)، ج ٣، ص ٦٣، كما أخذ رسول الله من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح. وهذه كلها مؤشرات على مدى ثرائهم.

٣ - الأزرق، اخبار مكة، تحقيق: رشدي الصالح ملحق (قم: منشورات الشريف الرضي، الطبعة ١، ١٤١١هـ)، ج ١، ص ١٠٧؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ١، ص ١٣٠.

٤ - ابن عبد ربه، العقد الفريد (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ)، ج ٣، ص ٣١٤؛ احمد امين، مصدر سابق، ص ٢٢٧؛ الآلوسي، مصدر سابق، ج ١، ص ١٤٥ - ١٥٠. وهذه الاعمال كانت ذات طابع بدائي وقبلي، ولم تأخذ صيغة الهيكلية الحكومية والادارية المتعارفة في الوقت الحاضر، كما صوّر ذلك مؤرخون مسيحيون من امثال جرجي زيدان ولامنس.

الأديان والمذاهب في شبه جزيرة العرب وما حولها

اليهود والقساوسة بين المسيحيين^١.

ولما أهلك الله ابرهة الحبشي صاحب الفيل وسلط عليه الطير الأبايل عظمت جميع العرب قريشاً التي كانت تتولى حجابة الكعبة^٢. واستغلت قريش تلك الحادثة وجيرتها لصالحها وقالت: نحن اهل الله، وجيران الله، وولاة البيت الحرام وسكان حرمه^٣. وبذلك رسخوا مكانتهم الدينية وابتدعوا عند ذاك احداثاً في دينهم اداروها بينهم، واتجهوا نتيجة لغرور السلطة نحو الفساد والاستحواذ على مقاليد الامور استثنائاً^٤. حتى انهم ابتدعوا في ذلك اموراً لم تكن وفرضوها على القبائل الاخرى؛ فكانت قريش — مثلاً — تتزوج من نساء القبائل الاخرى بلا قيد أو شرط، ولكنها كانت اذا انكحت عربياً امرأة منهم اشترطوا عليه ان كل من ولدت له فهو على بدعتهم في أداء مناسك الحج والطواف^٥. وكان يُعشر (تُفرض ضريبة) من دخل مكة سوى أهلها^٦، ويُسمون ذلك حق قريش^٧. وجعلوا مناسك الحج في يدهم، والزموا الحجاج باتباع ما وضعوه لهم، وبقيت افاضة الحجاج من منى ورمي الجمرات، بيد قريش^٨.

وشرعوا للحجاج ان يطوفوا طواف الافاضة بالبيت عراً او في ثوبي أحمسي، واذا طاف في ثوبيه لم يحل له ان يلبسهما^٩. (لكي يضطروا الى شراء الثياب من قريش)، ولا

١ - فيلپ حتّي، مصدر سابق، ص ١٣٠.

٢ - ابن هشام، مصدر سابق، ج ١، ص ٥٩؛ الازرقى، مصدر سابق، ج ١، ص ١٧٦.

٣ - ابن عبد ربه، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣١٣؛ الازرقى، مصدر سابق، ص ١٧٦.

٤ - الازرقى، مصدر سابق، ص ١٧٦.

٥ - المصدر السابق، ص ١٧٩؛ الآلوسي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٤٣.

٦ - ابن سعد، مصدر سابق، ج ١، ص ٧٠.

٧ - جواد علي، مصدر سابق، ج ٤، ص ٢١.

٨ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ٦٩؛ ابن هشام، مصدر سابق، ص ١٢٥ - ١٣٠؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ (بيروت: دار صادر)، ج ٢، ص ٢٠؛ الازرقى، مصدر سابق، ص ١٨٩.

٩ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ٧٢؛ الازرقى، مصدر سابق، ص ١٧٤، ١٧٨، ١٨٢ وهو طواف العرة الذي اشرنا إليه من قبل، وكذلك قصة المرأة التي كانت تطوف عارية وتقول:

٨٨ تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

ينبغي لهؤلاء الحجاج ان يأكلوا من طعام جاءوا به معهم في الحل، ولا يأكلون في الحرم إلا من طعام أهل الحرم^١. (فيضطرون الى شراء الطعام من اسواق قريش!).

وفي السنة التاسعة للهجرة حينما أرسل النبي^٢ علياً^٣ الى مكة لاعلان البراءة من المشركين، كان احد البنود التي نص عليها الاعلان الذي قرأه علي^٤ ضمن مراسيم عامة، منع طواف الحجاج عراة^٥.

تكمن أهمية الاطلاع على سلطة ونفوذ قريش في مكة في اننا نستطيع من خلال ذلك ادراك مدى حجم المشاكل التي واجهها رسول الله^٦ ومدى قوة العدو الذي كان يقف في مواجهته خاصة في عهد الدعوة في مكة، حيث كان يخوض صراعاً مريراً مع قريش في مهد قوتها وسلطانها من غير ان يتوفر لديه العدة والعدد الكافي من الانصار لخوض تلك المواجهة.

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

وهذا كله جاء بسبب تفرّد قريش بالاستحواذ على سدانة الكعبة.

١ - الازرقعي، مصدر سابق، ص ١٧٧.

٢ - ابن هشام، مصدر سابق، ج ٤، ص ١٩٠.

الباب الثاني

محمد ' من ولادته الى مبعثه

الفصل الاول: نسبه '

الفصل الثاني: طفولته وصباه '

الفصل الثالث: محمد ' في شبابه

الفصل الاول

نسبه^١

اجداده^١

نورد في ما يلي سرداً بأسماء اجداد النبي^١ الى الجد العشرين، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي، بن كلاب، بن مُرّة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مُدركة، بن الياس، بن مُضَر، بن نزار، بن مَعَد، بن عدنان^١.

وأما عدد وأسماء باقي اجداده إلى اسماعيل بن النبي ابراهيم فموضع اختلاف^٢. وقد روي ان النبي^١ كان اذا انتسب لم يجاوز نسبه معد بن عدنان ثم يمسك^٣. وأوصى الآخرين بذلك بقوله: <اذا بلغ نسي الى عدنان فأمسكوا>^٤. وقد

١ - الطبري، تاريخ الأمم والملوك (بيروت: دار القاموس الحديث)، ج ٢، ص ١٩١؛ ابن الاثير، أسد الغابة (طهران: المكتبة الإسلامية)، ج ١، ص ١٣؛ الطبرسي، اعلام الوري (طهران: دار الكتب الإسلامية، الطبعة ٣)، ص ٥ - ٦.

٢ - ابن الاثير، مصدر سابق، ص ١٣؛ ابوبكر احمد بن حسين البيهقي، دلائل النبوة، ص ١١٨؛ المسعودي، التنبيه والاشراف (القاهرة: دار الصاوي للطبع والنشر)، ص ١٩٥ - ١٩٦؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ (بيروت: دار صادر)، ج ٢، ص ٣٣؛ جمال الدين احمد بن عنبه، عمدة الطالب في انساب آل ابي طالب (قم: منشورات الشريف الرضي، الطبعة ٢)، ص ٢٨.

٣ - ابن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر)، ج ١، ص ٥٦؛ هشام بن محمد الكلبي، جمهرة النسب، تحقيق: ناجي حسن (بيروت: عالم الكتب، الطبعة ١)، ص ١٧.

٤ - ابن شهر آشوب، مناقب آل ابي طالب (قم: المطبعة العلمية)، ج ١، ص ١٥٥؛ الطبرسي، مصدر سابق، ص ٦؛ المجلسي، بحار الانوار (طهران: دار الكتب الإسلامية)، ج ١٥، ص ١٠٥.

٩٢..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

كذب رسول الله^١ ما ذكره النسابون من اسماء اجداده بين عدنان واسماعيل وقال:
<كذب النسابون>^١.

واستناداً الى التقسيم القبلي عند العرب، تُقسم العرب بشكل عام الى الشق
<القحطاني> و<العدناني>^٢. وتُعتبر قريش من العرب العدنانيين بسبب انتسابها الى
عدنان (الجد العشرون لرسول الله^١ وكل البطون من العدنانيين، التي ينتهي نسبها الى
النضر بن كنانة تُعتبر قرشية؛ وذلك لأن قريش كان اسماً أو لقباً له^٣.

كانت لقبيلة قريش^٤ عدّة بطون وأرهاط مثل: بني مخزوم، وبني زهرة، وبني امية،

١ - الكلبي، مصدر سابق، ص ١٧؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص ٥٦؛ ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ص ١٥٥؛ ابن عتبة،
مصدر سابق، ص ٢٨.

٢ - يُسمى الشق الأول اليماني (اليمني)، ويُسمى القسم الثاني المضري أو النزارى أو القيسي.

٣ - ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ص ١٥٤؛ ابن عتبة، مصدر سابق، ص ٢٦؛ الطبرسي، مصدر سابق، ص ٦؛ ابن قتيبة،
المعارف، تحقيق: ثروة عكاشة (قم: منشورات الشريف الرضي، ١٤١٥هـ)، ص ٦٧؛ الطبرسي، مجمع البيان (طهران: شركة
المعارف الإسلامية)، ج ١٠، ص ٥٤٥؛ ابن هشام، سيرة النبي (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٥هـ)، ج ١، ص ٩٦؛
ابن عبد ربه، العقد الفريد (دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ)، ج ٣، ص ٣١٢؛ ابن كثير، السيرة النبوية (القاهرة: مطبعة عيسى
البابي الحلبي)، ج ١، ص ٨٤؛ محمد امين البغدادي السويدي، سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب (بيروت: دار صعب)، ص ٦٢؛
ابن واضح، تاريخ يعقوبي (التحف: المكتبة الحيدرية، ١٣٨٣هـ)، ج ١، ص ٢٠٤.

ذهب بعض النسابة إلى اعتبار اولاد فهر بن مالك بن النضر من قريش. راجع: الكلبي، مصدر سابق، ص ٢١؛ ابن سعد، مصدر
سابق، ص ٥٥؛ ابن عتبة، مصدر سابق، ص ٢٦؛ ابن هشام، مصدر سابق، ص ٩٦؛ محمد امين البغدادي، مصدر سابق، ص ٦٢؛
ابن واضح، مصدر سابق، ص ٢٠٤؛ ابن حزم، جمهرة انساب العرب (بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة ١، ١٤٠٣هـ)،
ص ١٢؛ الحلبي، السيرة الحلبية، (انسان العيون) (بيروت: دار المعرفة)، ج ١، ص ٢٥ - ٢٦. وهناك اقوال اخرى في هذا الباب لا
نرى فائدة من ذكرها. راجع: السيرة الحلبية، ج ١، ص ٢٧.

٤ - تقسم الجماعات والقبائل العربية حسب صغرها وكبرها وتفرّعها - إلى فروع داخلية - إلى ما يلي على التوالي: الشعب،
القبيلة، العمارة، البطن، الفخذ، الفصيلة. يقال مثلاً خزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ،
وعباس فصيلة. (ابن حزم، العقد الفريد، ج ٣، ص ٣٣٠؛ الدكتور حسين مؤنسي، تاريخ قريش، (دار السعودية، الطبعة ١،
١٤٠٨هـ)، ص ٢١٥). وعلى هذا الأساس فقد عدّ بعض العلماء قريشاً قبيلة، بينما اعتبرها آخرون عمارة. ولكن لا بد من
التنبية إلى ان هذا التقسيم موضع جدل ولا يقره بعض الباحثين (تاريخ قريش، ص ٢١٥ - ٢١٦) وبغض النظر عن هذا التقسيم،
فقد سُمّينا قريشاً هنا قبيلة لسهولة الأمر.

نسبه^١.....

وبني سهم، وبني اسد، وبني هاشم^١. والنبي محمد^١ من الرهط الأخير؛ أي من رهط بني هاشم.

شخصية عبد المطلب

من أكثر اجداد النبي^١ الذين تتوفر لدينا معلومات عنهم هو جده الاول عبد المطلب لأنه كان اقربهم الى عصر الإسلام.

كان عبد المطلب محبوباً، جواداً، وسيد قريش كمالاً وفعالاً، وشريفاً في قومه، وكان إليه المفزع في النوائب^٢. وكان (كما هو حال الشخصيات الالهية الكبرى) أسمى من المجتمع الذي عاش بين اكتافه. وعلى الرغم من عمره المديد غير انه لم يتدنس بما كان سائداً بين اوساط مجتمع مكّة من أرجاس.

في ذلك العصر لم يكن هناك اعتقاد بالمعاد في اجواء مكّة أو ان مثل هذا الاعتقاد كان ضعيفاً جداً، الا ان عبد المطلب كان يؤمن بالمعاد وحتى انه كان يؤكد على وجود يوم للحساب والجزاء، ويقول: والله ان وراء هذه الدار دار يُجزى فيها المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته^٣.

ورغم ان ظاهرة العصبية القبلية كانت شائعة في شبه جزيرة العرب — وكما ذكرنا سابقاً فان افراد كل قبيلة كانوا ينصرون ابناء قبيلتهم سواء كانوا ظالمين او مظلومين — بيد ان عبد المطلب لم يكن من هذا الطراز من الناس، بل ترى انه اعتزل منادمة حرب ابن امية وقاطعه رغم انه كان من اصدقائه واقاربه، الى ان ارغمه على دفع ذية رجل يهودي كان قد قُتل بتحريض منه^٤.

١ - ذكر المسعودي ان قريشاً كانت تتألف من ٢٥ بطناً وقد سرد اسماءها. <مروج الذهب ومعادن الجوهر (بيروت: دار الاندلس، الطبعة ١، ١٩٦٥)، ج ٢، ص ٢٦٩>.

٢ - الحلبي، مصدر سابق، ص ٦.

٣ - المصدر السابق، ص ٦؛ محمود شكري الآلوسي، بلوغ الإرب في معرفة احوال العرب، تحقيق محمد بحجة الأثري، (القاهرة: دار الكتب الحديثة، الطبعة ٢)، ج ١، ص ٣٢٤.

٤ - الحلبي، مصدر سابق، ص ٦؛ الآلوسي، مصدر سابق، ص ٣٢٣؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٥؛ البلاذري،

٩٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

وكان ينهى أبنائه عن الظلم والبغي ودينات الامور ويحثهم على التحلي بمكارم الاخلاق^١. وتؤثر عن عبد المطلب سنن جاء القرآن بأكثرها وجاءت السنة بها، منها تحريم الخمر والزنا، وان لا تنكح ذات محرم، وقطع يد السارق، ونفي ذوات الرايات من مكة، والنهي عن وأد البنات، وان لا يطوف أحد بالبيت عرياناً، والوفاء بالنذور، وتعظيم الاشهر الحرم، والمباهلة^٢.
وروي ان عبد المطلب كان حجة الله وكان ابو طالب وصيه^٣.

سلالة التوحيد

كان آباء واجداد الرسول محمد^١ موحدين، ابتداءً من أبيه عبد الله الى آدم، ولم يكن فيهم مشرك، وهو ما يعتقد به علماء الامامية، وقد استدلوا على هذا الرأي بمجموعة من الآيات والروايات. فقد روي عنه^٢ انه قال: <لم يزل ينقلني الله من اصلاص الطاهرين الى ارحام المطهّرات حتى اخرجني في عالمكم هذا، لم يدنسني بدنس الجاهلية>^٤. ونحن نعلم انه لا دنس اقدر من دنس الشرك. ولو

انساب الأشراف، تحقيق: محمد حميد الله، (القاهرة: دار المعارف)، ج ١، ص ٧٣.

١ - الحلبي، مصدر سابق، ص ٧؛ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ١٠٩.

٢ - الآلوسي، مصدر سابق، ص ٣٢٤؛ ابن واضح، تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٧؛ راجع: السيرة الحلبية، ج ١، ص ٧؛ راجع: الصدوق، الخصال، باب الخمسة، ج ٢، ص ٣١٢ - ٣١٣.

٣ - الصدوق، الاعتقادات، ص ١٣٥؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ١٥، ص ١١٧؛ راجع: اصول الكافي، ج ١، ص ٤٤٥. من الموضوعات التي لها علاقة بعبد المطلب، نذره بذبح احد ابنائه في سبيل الله. وعلى الرغم من شهرة هذه القضية وهذا النذر ولكن هنالك مؤاخذات على نوع المصادر التاريخية التي نقلتها سواء من حيث السند أو من حيث المحتوى، وهذه القضية تتطلب مزيداً من البحث والتمحيص. (راجع: علي الدواني، تاريخ اسلام از آغاز تا هجرت، ص ٥٤ - ٥٩)؛ من لا يحضره الفقيه، تحقيق: علي اكبر الغفاري، ج ٣، ص ٨٩؛ باب الحكم بالقرعة، وقد أعرضنا عن طرح هذه القضية على بساط البحث تجنباً للاطالة.

٤ - الصدوق، مصدر سابق، ص ١٣٥؛ المجلسي، مصدر سابق، ص ١١٧؛ المفيد، اوائل المقالات، (قم: مكتبة الداوري)، ص ١٢؛ الطبرسي، مجمع البيان، ج ٤، ص ٣٢٢، تفسير الآية ٧٤ من سورة الانعام. فسر بعض العلماء المعاصرين هذا الحديث بطهارة المولد؛ أي الولادة عن طريق الزواج وليس عن طريق علاقة غير شرعية. وإذا اقررنا بصحة هذا التفسير فلن يكون هذا الحديث

نسبه^١.....

كان في آبائه كافر، لم يصف جميعهم بالطهارة.

ويعتقد علماء الامامية ان أبا طالب وآمنة بنت وهب كانا مُوحَّدين^١.

وقد روي عن علي× انه قال: <والله ما عبد أبي ولا جدي عبد
المطلب ولا هاشم ولا عبد مناف صنماً قط. قيل له: فما
كانوا يعبدون؟ قال: كانوا يصلون الى البيت على دين
ابراهيم متمسكين به>^٢.

دليلاً على ما نريد اثباته. (السيد هاشم رسولي المحلّقي، درس هاي از تاريخ تحليلي اسلام، ماهنامه پاسدار اسلام، ١٣٦٧ هـ. ش، ج ١، ص ٦٤).

١ - المفيد، مصدر سابق، ص ١٢؛ الصدوق، مصدر سابق. يتفق بعض علماء السنة البارزين مع الشيعة الامامية في هذا المجال، ونذكر منهم الفخر الرازي والسيوطي. راجع: بحار الانوار، ج ١٥، ص ١١٨ - ١٢٢، الهامش.

٢ - الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، تحقيق علي أكبر الغفاري، (قم: مؤسسة النشر الاسلامي، ١٣٦٣ هـ. ش)، ج ١، ص ١٧٥؛ الغدير، ج ٧، ص ٣٨٧.

الفصل الثاني

طفولته وصباه^١

ولادته^١

لم يكن لدى عرب الجاهلية تاريخ ثابت ومنظم، وإنما كانوا يتخذون بعض الوقائع والاحداث المهمة مبدءاً للتاريخ لمدة من الزمن كموت شخصية كبيرة ومشهورة او وقوع حرب دامية بين قبيلتين^١.

وكانت العرب قبل ظهور الإسلام تؤرّخ بتواريخ كثيرة. وكانت كل قبيلة من قبائل العرب تؤرّخ يوم من ايامها المشهورة في حروبها^٢.

لما قصد جيش الفيل بزعماء ابرهة ملك الحبشة مكة لهدم الكعبة^٣ وهزم ذلك الجيش بصورة خارقة للعادة وبقدرة غيبية إلهية، طغت هذه الحادثة على الحوادث الاخرى في ذلك الزمان واتخذ ذلك العام مبدءاً للتاريخ وظل هكذا مدة مديدة تحت عنوان عام الفيل*.

١ - للاطلاع على مزيد من المعلومات حول هذه الوقائع، راجع: المسعودي، التنبيه والأشراف، ص ١٨١ - ١٧٢؛ الدكتور محمد ابراهيم آيتي، تاريخ پیامبر اسلام، (الطبعة ٢، انتشارات جامعة طهران، ١٣٦١)، ص ٢٦ - ٢.

٢ - المسعودي، مصدر سابق، ص ٢٧.

٣ - الشيخ الطوسي، الأمالي (قم: دار الثقافة، الطبعة ١، ١٤١٤هـ.)، ص ٨٢ - ٨٠؛ البيهقي، مصدر سابق، ص ٩٤ - ٩٧؛ ابن هشام، مصدر سابق، ص ٥٥ - ٤٤؛ البلاذري، مصدر سابق، ص ٦٧ - ٦٩؛ محمد بن حبيب البغدادي، المنطق في اخبار قريش، تحقيق: خورشيد احمد فارق (بيروت: عالم الكتب، الطبعة، ١٤٠٥هـ.)، ص ٧٠ - ٧٧.

* - وكانت قريش تؤرّخ السنين بموت قصي بن كلاب لجلالة قصي، فلما كان عام الفيل أرخت به لاشتهار هذا العام (ابن واضح، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤).

٩٨..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

وكان مولد رسول الله^١ في ذلك العام في مكة^١.

وقعت هذه الحادثة في حدود عام ٥٦٩ — ٥٧٠ للميلاد حسب ما تفيد به الوقائع والشواهد ومنها هجرة النبي محمد^١ في عام ٦٢٢هـ، وكذا وفاته في عام ٦٣٢ للميلاد عن سن ٦٠ — ٦٣ سنة^٢.

١ - الكليني، اصول الكافي (طهران: دار الكتب الاسلامية، ١٣٨١ هـ.)، ج ١، ص ٤٣٩؛ ابن واضح، تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٤؛ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٢، ص ٢٧٤؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ١٥، ص ٢٥٠ - ٢٥٢؛ الحلبي، مصدر سابق، ص ٩٥؛ البيهقي، مصدر سابق، ص ٧٢ - ٧٣؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٠١؛ محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ١٠١؛ ابن اثير، اسد الغابة، ج ١، ص ١٤؛ ابن هشام، سيرة النبي، ج ١، ص ١٦٧؛ الشيخ عبد القادر بدران، تهذيب تاريخ دمشق (بيروت: دار احياء التراث العربي، الطبعة ٣، ١٤٠٧ هـ.)، ص ٢٨٢؛ ابن اسحاق السير والمغازي (طهران: انتشارات جامعة طهران، الطبعة ٣، ١٣٦٧ هـ. ش.)، ص ٦٢؛ عباس زرياب، سيرة رسول الله (الباب الاول: من البداية إلى الهجرة) (طهران: سروش، الطبعة ١، ١٣٧٠ هـ. ش.)، ص ٨٦ - ٨٧؛ السيد جعفر شهيدى، تاريخ تحليلي اسلام تا پايان امويان (طهران: مركز النشر الجامعي، الطبعة ١٠، ١٣٦٩ هـ. ش.)، ص ٣٧.

٢ - علي اكبر فياض، تاريخ اسلام (طهران: دار نشر جامعة طهران، الطبعة ٣، ١٣٦٧ هـ. ش.)، ص ٦٢؛ عباس زرياب، سيره رسول الله (الباب الاول: من البداية إلى الهجرة) (طهران: دار سروش، الطبعة ١، ١٣٧٠ هـ. ش.)، ص ٨٦ - ٨٧؛ السيد جعفر شهيدى، تاريخ تحليلي اسلام تا پايان امويان (طهران: مركز النشر الجامعي، الطبعة ١٠، ١٣٦٩ هـ. ش.)، ص ٣٧. ظهرت آراء واحتمالات اخرى حول ولادة النبي وهل كانت في عام الفيل على وجه الدقة، أم قبله أم بعده؟ وحول مدى تطابق عام الفيل مع السنوات الميلادية، ولكن لا ضرورة لنقلها في هذا الكتاب. ويمكن لمن يريد الاطلاع عليها وعلى معلومات اخرى في هذا المجال ان يراجع: محمد خاتم پیامبران، ج ١، ص ١٧٦، ١٧٧، مقالة السيد جعفر شهيدى؛ رسولي محلاتي، درس هاي از تاريخ تحليلي اسلام (قم: ماهنامه پاسدار اسلام، ١٤٠٥ هـ. ش.)، ج ١، ص ١٠٧؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٠٣؛ تهذيب تاريخ دمشق، ج ١، ص ٢٨١ - ٢٨٢؛ السيد حسن تقى زاده، از پرويز تا چنگيز (طهران: كتابفروشى فروغى، ١٣٤٩ هـ. ش.)، ص ١٥٣؛ حسين مؤنس، تاريخ قریش، (الدار السعودية، الطبعة ١، ١٤٠٨ هـ.)، ص ١٥٣ - ١٥٩. تجدر الاشارة إلى ان بعض المؤرخين الاوربيين اعتبروا غزو ابرهة - الذي ذكرت المصادر الاسلامية بأن الدافع وراءه كان دينياً وأنه جاء في سياق التنافس بين كنيسة القليس في اليمن، والكعبة في الحجاز - انه كان بدافع الغزو، وأما غزوه لبلاد فارس عن طريق شمال الجزيرة العربية، فقالوا انه جاء بتحريض من دولة الروم. (فياض، مصدر سابق، ص ٦٢؛ ابو القاسم بايندة، مقدمة الترجمة الفارسية للقرآن الكريم، ص لـ٣). وهذا يتطلب بحثاً على حدة، ولا يدخل ضمن موضوع هذا الكتاب.

طفولته وصباه^١.....

عهد الطفولة والرضاعة

وبعد شهرين من مولد الرسول^١ توفي أبوه عبد الله عند عودته من سفر تجارة من الشام، حيث توفي في يثرب ودفن فيها^٢. وقد بين القرآن الكريم يتمه كما يلي:

{ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى }^٣.

وكان أول لبن شربه بعد لبن امه^٤ هو لبن ثوية وهي جارية لأبي لهب اعتقها، وبقيت ثوية ترضعه مدة من الزمن^٥.

ثم أرسل الى البادية طبقاً للعادة التي كانت متبعة عند العرب^٦، حيث دفعه عبد المطلب

١ - الكليني، مصدر سابق، ص ٤٣٩؛ ابن واضح، مصدر سابق، ص ٦؛ ابو الفتح محمد بن علي الكراچكي، كنز الفوائد، (قم: دار الذخائر، الطبعة ١، ١٤١٠هـ)، ج ٢، ص ١٦٧. ذكروا ان عمر النبي محمد (ص) عندما توفي أبوه كان سبعة أشهر وثمانية وعشرين يوماً. (محمد بن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر، ج ١، ص ١٠٠)، بينما ذكر مؤرخون آخرون ان عبد الله توفي قبل ولادته (ص) (ابن سعد، مصدر سابق، ص ٩٩ - ١٠٠؛ ابن الاثير، اسد الغابة، ج ١، ص ١٣؛ ابن هشام، سيرة النبي، ج ١، ص ١٦٧؛ الشيخ عبد القادر بدران، تهذيب تاريخ دمشق، تأليف ابن عساكر (بيروت: دار احياء التراث العربي، الطبعة ٣، ١٤٠٧هـ، ج ١، ص ٢٧٤) ولكن هناك وثائق وشواهد تؤيد الرأي الأول، ومنها:

اوصيك يا عبد مناف بعدي بمفرد بعد ابيه فرد
فارقهُ وهو ضجيع المهدي فكنت كالأم له في المجد

تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٠؛ راجع: ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب (قم: المطبعة العلمية)، ج ١، ص ٣٦.

٢ - تهذيب تاريخ دمشق، ج ١٧، ص ٢٨٢؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج ١، ص ٩٩؛ المسعودي، التنبيه والاشراف، ص ١٩٦؛ محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك (بيروت: دار القاموس الحديث)، ج ٢، ص ١٧٦؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ (بيروت: دار صادر)، ج ٢، ص ١٠.

٣ - سورة الضحى (٩٣)، الآيات ٦ - ٨.

٤ - تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٦؛ الحلبي، مصدر سابق، ج ١، ص ١٤٣.

٥ - تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٦؛ الطبرسي، اعلام الوري، ص ٦؛ البيهقي، مصدر سابق، ص ١١٠؛ ابن الاثير، اسد الغابة، ج ١، ص ١٥؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ١٥، ص ٣٨٤.

٦ - الحلبي، مصدر سابق، ج ١، ص ١٤٦.

١٠٠..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

الى مرضعة في البادية اسمها حليلة السعدية من قبيلة بني سعد بن بكر^١. فارضته حليلة سنتين^٢. وردّوه الى جدّه عبد المطلب وله خمس سنين^٣.

ويبدو ان الغاية من دفعه الى مرضعة في البادية هي ان ينشأ في بيئة صحراوية نقية بعيداً عن وباء مكة^٤. وهناك سبب آخر يسوقه قسم من المؤرخين المعاصرين وهو تعلّم اللغة العربية الفصحى بين القبائل البدوية^٥.

ولعل قول رسول الله^٦: <أنا اعربكم؛ انا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر>^٦. يشير الى هذا المعنى ويمثّل شاهداً عليه.

وقد تحدثت بعض المصادر التاريخية عن كيفية اختيار حليلة لرضاعته؛ حيث رفضت

١ - تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٧؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج١، ص١٧١؛ محمد بن سعد، مصدر سابق، ص١١٠؛ المسعودي، التنبيه والاشراف، ص١٩٦؛ مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص٢٧٤؛ الطبرسي، اعلام الوري، ص٦؛ البيهقي، مصدر سابق، ص١٠١ - ١٠٢؛ ابن كثير، السيرة النبوية، ج١، ص٢٢٥؛ ابن اسحاق، السير والمغازي، تحقيق: سهيل زكار، الطبعة ١، ١٣٩٨هـ، ص٤٩.

٢ - البلاذري، انساب الأشراف، تحقيق: محمد حميد الله، (القاهرة: دار المعارف)، ج١، ص٩٤؛ المُقدّسي، البدء والتاريخ، الطبعة باريس، ١٩٠٣ م، ج٤، ص١٣١؛ المجلسي، بحار الانوار، ج١٥، ص٤٠١؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج١، ص١١٢.

٣ - تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٧؛ ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ج١، ص٣٣؛ البلاذري، مصدر سابق، ص٩٤؛ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص٢٧٥.

٤ - ابن ابي الحديد، شرح نفع البلاغة، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، (القاهرة: دار احياء الكتب العربية، ١٩٦١)، ج١٣، ص٢٠٣؛ المجلسي، مصدر سابق، ص٤٠١.

٥ - جعفر سبحاني، فروغ ابدیت، (قم: دار النشر في مكتب الاعلام الاسلامي في الحوزة العلمية بقم، الطبعة، ١٣٦٨)، ج١، ص١٥٩؛ السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم (قم: ١٤٠٠هـ)، ج١، ص٨١.

٦ - ابن هشام، سيرة النبي، ج١، ص١٧٦؛ وراجع: ابن سعد، مصدر سابق، ص١١٣؛ الخلي، مصدر سابق، ص١٤٦؛ ابو سعيد واعظ الخرگوشي، شرف النبي، ص١٩٦.

قيل ان محمد (ص) عندما كان عند حليلة السعدية في البادية حصلت له حادثة شق الصدر. غير ان المخلين والباحثين في تاريخ الاسلام يرفضون هذه الحادثة - استناداً إلى أدلة عديدة - ويعتبرونها من المجهولات. (راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الاعظم، ج١، ص٨٢؛ السيد هاشم رسولي المخلاتي، درسهائي از تاريخ اسلام، ج١، ص١٨٩ و ٢٠٤؛ الشيخ محمود ابو ربه، اضواء على السنة المحمدية، (مطبعة صور الحديثة، الطبعة ٢هـ)، ج١، ص١٧٥ - ١٧٧.

طفولته وصباه^١.....

سائر المرضعات قبوله لأنه كان يتيمًا بينما كانت المرضعات يرتجحن المعروف من أب الصبي، وأمّا حليلة فاتها لم تحصل على رضيع تأخذه وكرهت ان ترجع من غير رضيع، فاضطرت الى أخذ محمد رغم انه كان يتيمًا^١. غير ان عدم أخذ المرضعات محمدًا^٢ بسبب يتمه لا يبدو أمرًا مقبولاً وذلك للأسباب التالية:

- ١- سبق ان بينّا بأن عددًا من المصادر التاريخية ذكرت بأن عبد الله توفي بعد ولادة محمد^٣ بعدة أشهر. وهذا يدل على انه لم يكن يتيمًا حينذاك.
- ٢- نظرًا الى ما كان يتمتع به عبد المطلب من مكانة ممتازة في مكة وما كانت له من ثروة طائلة، فذلك يعني ان المرضعات يتنافسن بشدة على أخذ مثل هذا الصبي للرضاعة.
- ٣- تخلو الكثير من المصادر التاريخية التي نقلت هذه القضية، من الاشارة الى هذا المعنى^٤.

وفاة والدته وتكفل عبد المطلب له

بعدما أخذت آمنة بنت وهب طفلها من حليلة السعدية، سافرت برفقة طفلها وام إيمان جارية عبد الله — في قافلة الى يثرب للوقوف على قبر زوجها عبد الله ولزيارة أخواله^٥. وبعد شهر من مكثهم في يثرب، توفيت آمنة في طريق عودتها الى مكة في منزل يُسمى الابواء، ودُفنت هناك. كان عمر محمد آنذاك ست سنوات^٦. فحضنته أم إيمان وجاءت به الى جده عبد المطلب^٧. وقد كفله جده عبد المطلب واهتم بتربيته مادام على

١ - ابن هشام، مصدر سابق، ج ١، ص ١٧٢ - ١٧١؛ البلاذري، مصدر سابق، ص ٩٣؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص ١١٠ - ١١١.

٢ - نذكر منهم ابن شهر آشوب وهو من كبار المحدثين، وقد نقل هذه القضية ولكنه لم يُشر فيها الى يُتم محمد (ص) على النحو الذي ذكرته مصادر اخرى. (مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ٣٣).

٣ - سُلَمَى، ام عبدالمطلب كانت من أهل يثرب ومن قبيلة بني النجار(البیهقي، مصدر سابق، ج ١، ص (١٢)

٤ - ابن اسحاق، مصدر سابق، ص ٦٥؛ البلاذري، مصدر سابق، ص ٩٤؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص ١١٦؛ ابن هشام، مصدر سابق، ص ١٧٧؛ البيهقي، مصدر سابق، ص ١٢١؛ الطبرسي، مصدر سابق، ص ٩؛ الصدوق، كمال الدين وقام النعمة، تحقيق علي أكبر الغفاري (قم: مؤسسة النشر الإسلامي، ١٣٦٣هـ. ش)، ج ١، ص ١٧٢؛ تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٧؛ الشيخ عبد القادر بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج ١، ص ٢٨٣.

٥ - الحلبي، مصدر سابق، ج ١، ص ١٧٢.

١٠٢..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي

قيد الحياة، وكان يلاطفه ويقول: والله ان له شأنًا^١.

وفاة عبد المطلب ورعاية ابو طالب له

توفي عبد المطلب ورسول الله^١ ابن ثمانين سنين، فاوصى به عمه أبا طالب، وذلك لأن عبد الله أبا رسول الله^١ وأبا طالب اخوان لأم^٢. فكفل رسول الله^١ بعد وفاة عبد المطلب ابو طالب عمه؛ فكان خير كافل مع إملاقه^٣. وكان ابو طالب سيداً شريفاً مطاعاً مهيباً^٤. وكان سيد قومه في زمانه^٥. وكان يحبه حباً شديداً لا يجب ولده كذلك^٦.

وربته فاطمة بنت أسد بن هاشم امرأة ابي طالب وكانت تحبه كثيراً وتحنو عليه وتفضلّه على أبنائها؛ فلم ينسها وكان يصفها بأنها امه^٧.

سفره الى الشام ونبوءة الراهب

وفي احدى السنوات خرج ابو طالب الى الشام في ركب قافلة قريش تاجراً، ولما تهيأ للرحيل تعلق به رسول الله^١ — في ما يزعمون — وكان عمره حسب اختلاف

١ - ابن هشام، مصدر سابق، ج١، ص١٧٨؛ الصدوق، مصدر سابق، ج١، ص١٧١؛ المجلسي، مصدر سابق، ص٤٠٦؛ تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٩.

٢ - ابن هشام، مصدر سابق، ص١٨٩؛ المجلسي، مصدر سابق، ص٤٠٦؛ الطبري، مصدر سابق، ج٢، ص١٩٤.

٣ - تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١١؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج١، ص١١٩؛ المجلسي، مصدر سابق، ص٤٠٧؛ عبد الرحمن السهيلي، الروض الأنف، (القاهرة: مؤسسة المختار)، ج١، ص١٩٣.

٤ - تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١١؛ حواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، (بيروت: دار العلم للملايين، ط١، ١٩٦٨م)، ج٤، ص٨٢.

٥ - ابن ابي الحديد، شرح فتح البلاغة، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، (القاهرة: دار احياء الكتب العربية، ١٩٦٢م)، ج١٥، ص٢١٩.

٦ - ابن سعد، مصدر سابق، ج١، ص١١٩؛ ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ج١، ص٣٦؛ المجلسي، مصدر سابق، ص٤٠٧؛ الشيخ عبد القادر بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج١، ص٢٨٥.

٧ - تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١١؛ ابن ابي الحديد، مصدر سابق، ج١، ص١٤؛ مقدمة اصول الكافي، ج١، ص٤٥٣.

طفولته وصباه^١

المؤرخين ٨ أو ٩ أو ١٢ أو ١٣ سنة، فأخذه معه. فلما نزل الركب بصرى^١ اقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً من صومعة كان فيها راهب يُدعى بحيرى كان إليه علم أهل النصرانية، فرأى في الركب — حين اقبلوا — رسول الله^١ ورأى فيه بعض علامات النبوة. وبعدما تحدث مع محمد^١ وعرض عليه بعض الأسئلة، اقبل على عمه ابي طالب وأوصاه ان يحذر عليه من اليهود . ولا بد من عرض عدّة ملاحظات بشأن هذه الحادثة:

١ — ذكرت بعض المصادر التاريخية والحديثية هذه الحادثة بايجاز، بينما ذكرتها مصادر اخرى بكثير من الاطناب والتفصيل، ولكن ليس ثمة شك في أصل وقوعها؛ وذلك لأن القرآن الكريم نقل في عدة آيات ما تنبأ به الانبياء السابقون من بعثة النبي محمد^١ . وفي هذا تأكيد على معرفة علماء اهل الكتاب بعلاماته ومعرفتهم في هذا المجال^٢. وقد نُقلت في كتب التاريخ والحديث نبوءات متعددة لأهل الكتاب حول بعثة رسول الله^١ ^٣.

٢ — العلامات التي كانت عند علماء أهل الكتاب حول النبي محمد^١ ، كان البعض منها يختص بحياته الخاصة ووصافه الجسمية (مثل يتمه في طفولته، وملامحه، واسمه)، ويتعلّق بعضها الآخر بخصائصه العائلية والقبلية (مثل كونه عربياً، وزواجه من امرأة ذات شخصية مرموقة، وما شابه ذلك). ومن ابرز علاماته الجسمية خال ظاهر بين كتفيه يُسمى خال النبوة او خاتم النبوة^٤.

١ - قصة كورة حوران من اعمال دمشق. <ياقوت الحموي، معجم البلدان، (بيروت: دار احياء التراث العربي، ١٣٩٩هـ.)، ج١، ص٤٤١>.

٢ - سورة البقرة (٢)، الآيات ٤١، ٤٢، ٨٩، ١٤٦؛ سورة الاعراف (٧)، الآية ١٥٧؛ سورة الانعام (٦)، الآية ٢٠؛ سورة الصف (٦١)، الآية ٦.

٣ - راجع: جعفر سبحاني، راز بزرگ رسالت (طهران: مكتبة مسجد جامع طهران، ١٣٥٨)، ص٢٧٨-٢٦٢. هناك كتب مستقلة دوّنت في موضوع نبوءة الانبياء السابقين حول بعثة رسول الاسلام، نذكر هاهنا ثلاثة منها على سبيل المثال لا الحصر: محمد في التوراة والانجيل، تأليف البروفسور عبد الاحد داود؛ المدرسة السيّارة، تأليف محمد جواد البلاغي؛ انيس الاعلام، تأليف فخر الاسلام.

٤ - ابن هشام، مصدر سابق، ج١، ص١٩٣؛ البيهقي، مصدر سابق، ص١٩٥؛ سنن الترمذي، تحقيق: ابراهيم عطوة عوض،

١٠٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبيؐ

٣- ان نبوءة بحيرى كانت جديدة على أسماع أهل الركب فحسب، وانما كان ابو طالب وكل قرابة محمدؐ على معرفة بأنه سيكون له شأن عظيم^١.

تحريف التاريخ من قبل المسيحيين

عمد بعض المستشرقين الى تحريف التاريخ في ما يخص واقعة لقاء بحيرى بمحمدؐ؛ فزعموا ان محمداً أخذ عنه تعاليم التوراة والانجيل^٢.

وأشار ويل ديورانت الى هذا الزعم بطريقة اكثر اعتدالاً حيث قال:

اخذته عمه ابو طالب معه وهو في الثانية عشرة من عمره في قافلة إلى بصرى ببلاد الشام وليس يبعد ان يكون قد عرف في هذه الرحلة قليلاً من القصص الشعبية اليهودية والمسيحية^٣.

ولابد من الرد على هذا الاتهام وهذا التزييف للتاريخ بالقول:

١- باتفاق المؤرخين كان محمدؐ أمياً لا يجيد القراءة والكتابة.

٢- لم يكن سنّه يتجاوز حينذاك — كما ذكرنا — ثلاث عشرة سنة.

٣- كان هناك فاصل زمني طويل بين ذلك اللقاء ومبعثه.

٤- كان لقاءه ببخيرى قصيراً ولم يحصل فيه الا طرح اسئلة من قبل بحيرى والاجابة عنها من قبل محمدؐ.

فكيف نصدّق بأن صبياً أمياً قد تعلّم في لقاء قصير كل تعاليم التوراة والانجيل بحيث صاغها، في ما بعد، عندما بلغ سن الاربعين، على شكل شريعة كاملة؟!!

٥- لو كان محمدؐ قد أخذ شيئاً عن ذلك الراهب، لكانت قريش — بما كانت

(بيروت: دار احياء التراث العربي)، ج٥، المناقب، الباب ٣، ص٥٩٠؛ الحديث ٢٦٢٠؛ الشيخ عبد القادر بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج١، ص٢٧٨؛ ابن كثير، سيرة النبي، ج١، ص٢٤٥؛ صحيح البخاري، تحقيق: الشيخ قاسم الشماخي الرفاعي، ج٥، ص٢٨، الباب ٢٣، الحديث ٧١.

١ - تاريخ يعقوبي، ج٢، ص١١؛ البلاذري، انساب الأشراف، ج١، ص٨١؛ اصول الكافي، ج١، ص٤٤٧.

٢ - غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص١٠١؛ اجناس جلدزيهر، العقيدة والشريعة في الاسلام، (القاهرة: دار الكتب الحديثة، الطبعة ٢)، ص٢٥؛ محمد الغزالي، دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، ص٤٧؛ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب نبيه امين فارس، ومئير البعلبكي (بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة ١، ١٩٨٨م)، ص٣٤.

٣ - قصّة الحضارة، عصر الايمان، الباب الاول، ترجمة محمد بدران، (طبعة دار الفكر، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، ج٧، ص٢٢.

طفولته وصباه^١.....

تشبث به من ذرائع وحجج — قد اتخذته ذريعة للتشهير به، بينما لا يوجد في تاريخ الإسلام شيء من هذا القبيل. ولم يتطرق القرآن في معرض ردّه على تمّ وافتراعات قريش الى مثل هذا الموضوع.

٦— لو كان قد حصل مثل هذا الشيء لنقله من كان في ذلك الركب.

٧— لو صحّ مثل هذا الادعاء، فلماذا لم يزعم مسيحيّو الشام بأنهم معلومو

محمد^١؟

٨ — لو كان هذا الادعاء صحيحاً لكان ينبغي ان تكون تعاليم الإسلام مشابهة لتعاليم التوراة والانجيل. بينما لا يوجد مثل هذا التشابه، بل حتى ان القرآن الكريم قدّ الكثير من معتقدات اليهود والنصارى، ووصف في مواضع متعددة تعاليم التوراة والانجيل بالباطلان^١.

أتى عمر بن الخطاب رسول الله^١ فقال: انا نسمع احاديث من يهود تعجبنا، فترى ان نكتب بعضها؟ فقال: <امتهوكون انتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟ لقد جئكم بها بيضاء نقية. ولو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي> وقوله: متهوكون: متحيرون. أي هل انتم متحيرون في الإسلام لا تعرفون دينكم حتى تأخذوه من اليهود والنصارى^٢.

كان الرسول في المدينة (حيث كانت تعيش أعداد غفيرة من اليهود) يخالف الكثير من احكام وتعاليم اليهود^٣، حتى انهم قالوا:

<ما يريد هذا الرجل ان يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه>^٤.

ومن المسيحيين الذين اتخذوا هذه القضية ذريعة لبث سمومهم واختلاق الأكاذيب ضد الإسلام غونستان فيرجيل غيورغيو الذي نقل هذه القضية بشكل محرّف لا يتطابق مع أي

١ - سورة النساء (٤)، الآيات ٤٧، ٥١، ١٧١؛ سورة المائدة (٥)، الآيات ٧٢ - ٧٣؛ سورة التوبة (٩)، الآية ٣٠.

٢ - الشيخ عباس القمي، سفينة البحار، ج٢، ص٧٢٧، كلمة <هوك>؛ مجد الدين بن الاثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٥، ص٢٨٢، الكلمة نفسها مع اختلاف ضئيل.

٣ - السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، (قم: ١٤٠٣ هـ)، ج٢، ص١٠٦.

٤ - الحلبي، مصدر سابق، ج٢، ص٣٣٢.

١٠٦..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

معيار بل ولا ينسجم حتى مع مزاعم المسيحيين انفسهم، حيث كتب ما يلي:

<كتب المؤرخ العربي ابن هشام ما يلي: خلافاً لما كان يتصوره الناس لم يكن مجرة (?) نصرانياً، بل كان من اتباع شخص اسمه ماني كان قد ادعى النبوة في عهد سلطنة الساسانيين، وقد صلبه الملك الساساني بهرام الاول في عام ٢٧٦م في مقابل بوابة جنديسابور في خوزستان.

كان ماني - الذي ادعى النبوة - واتباعه ومنهم مجرة، يعتقدون بأن الله تعالى لا يخص امة دون سواها وانما هو لكل الامم في العالم، وذلك لأن كل الامم منه. ومتى ما شاء الله بعث في امة نبياً يكلم ابناءها بلسانهم>^١.

ويبدو ان مراده من <ابن هشام> عبد الملك بن هشام (م ١٣هـ). مؤلف الكتاب المعروف <السيرة النبوية> الذي يُعتبر من المصادر المهمة في تاريخ الإسلام.

ولكن كلمة ماني لا وجود لها في سيرة ابن هشام ولا في أي مصدر آخر من المصادر الإسلامية القديمة، ووردت سيرة هذا الشخص في التواريخ المسيحية (وفي اليهودية بندرة). ويفهم من خلال الموضوع انه كان على الديانة المسيحية.

ولا يسعنا هنا الا ان نتساءل: من اين جاء غيورغيو بهذه المعلومات؟! وفضلاً عن ذلك لم يكن هناك اتباع لديانة ماني في الشام. وكما ذكرنا في <بحث الاديان والمذاهب في جزيرة العرب> فإن ديانة ماني كانت تتركز في ايران.

وهنا ينبغي التساؤل - كما قال أحد الباحثين - هل ان الزعم بأن مجرى كان على ديانة ماني يراد منه القول بأن توحيد الله وعالمية الدين الإسلامي جاء تقليداً لما جاء به ماني؟! لقد رأينا امثال هذا كثيراً من المسيحيين في القرون الأخيرة؛ اذ ليس من المهم بالنسبة إليهم نسبة أسمى وانبل فكر الى أديان منسوخة؛ وذلك لانهم يعلمون بأن هذه

١ - محمد پیامبری که از نو باید شناخت [محمد، النبي الذي يجب ان يعرف من جديد]، ترجمه الى اللغة الفارسية ذبيح الله منصورى، ص ٥. هذا الكتاب تكتنفه الكثير من الاخطاء ونقاط الضعف، وفيه تحريفات كثيرة قللت من القيمة العلمية للكتاب إلى حد بعيد.

طفولته وصباه^١.....

الاديان ليس لها اتباع كثيرون ليكون مفخرة لها.

والإسلام هو الدين الوحيد الذي لازالت المسيحية تخشاه بعد مر عدّة قرون على الحروب الصليبية، وترى انه لابد لها من اللجوء حتى الى الكذب للنيل من هذا الدين والخط من عظمة تعاليمه^١.

١ - محمد خاتم بيايران [محمد خاتم الانبياء] (باللغة الفارسية)، ج ١، ص ١٨٨، مقالة السيد جعفر شهيدي. شكك بعض الباحثين المعاصرين بقصة لقاء محمد (ص) ببحري، واثاروا جدلاً حول صحتها، وهو أمر حدير بالنقاش من الناحية التاريخية. راجع في هذا المجال: نقد وبرسي منابع سيرة نبوي (مجموعة مقالات)، معهد دراسات الحوزة والجامعة ١٣٧٨ هـ.ش. رمضان محمدي؛ نقد وبرسي سفر بيايمبر اكرم (ص) به شام، ص ٣٢١ - ٣٣٠.

ولابد من الالتفات الى اننا لو نفينا هذه القضية - على سبيل الفرض - فان ذلك لا يقلل من عظمة رسول الاسلام؛ وذلك لأن التنبؤات والبشارات التي تحدثت عن بعثة النبي الموعود لا تنحصر بهذا المورد فقط، ولكن كما ذكرنا بما ان المستشرقين اتخذوا هذه الحادثة التي وردت في التواريخ الإسلامية ذريعة للدرس وتحريف تاريخ الاسلام، فاننا عرضناها على بساط البحث وفندنا اقوالهم.

الفصل الثالث

محمد^١ في شبابه

حلف الفضول^١

وهو اشرف حلف عقد بين زعماء عدد من بطون قريش^٢. وسبب هذا الحلف ان رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل من بني سهم، فحبس عنه حقه. فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف، فأبوا معونة الزبيدي على العاص بن وائل وانتهروه. وكما ذكرنا سابقاً فان جزيرة العرب كان يسودها النظام القبلي الذي كان يستدعي ان تدافع كل قبيلة عن مصالح افرادها، وكان اذا ظلم فيها غريب لا يجد ناصر بينهم ولا معين. وعندما رأى الزبيدي اجتماع زعماء قريش الى جانب الكعبة، صعد على أبي قبيس واستغاث منادياً بأعلى صوته:

يا أهل فھر المظلوم بضاعته	بيطن مكة نائي الأهل والنفر
ومُحرم اشعث لم يقضِ عمرته	يا آل فھر وبين الحجر والحجر
هل مخفر من بني سهم بخفرته	ام ذاهب من ضلال مال معتمر
ان الحرام لمن تمت حرامته	ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

١ - من الوقاع التي قيل ان محمداً الله^١ حضرها في شبابه وشارك فيها حرب الفجار التي وقعت قبل حلف الفضول وكان حينها يبلغ من العمر ١٤ الى ٢٠ سنة. ولكننا لا نستطيع ان نؤكد صحة ذلك، بل نشك فيه، وهناك ادلة وشواهد كثيرة تدحضه.

(الصحيح من سيرة النبي الأعظم)، ج ١، ص ٩٥ - ٩٧؛ درس هاي تحليلي از تاريخ اسلام، ج ١، ص ٣٠٣ - ٥٠٣.

٢ - ابن سعد، الطبقات الكبرى، (بيروت: دار صادر)، ج ١، ص ١٢٨؛ محمد بن حبيب، المنطق في اخبار قريش، تحقيق خورشيد احمد فاروق، (بيروت: عالم الكتب، الطبعة ١، ١٤٠٥هـ)، ص ٥٢.

١١٠..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

وعند سماع استغاثته دعا الزبير بن عبد المطلب، وكبار بني هاشم، وبنو عبد المطلب، وبنو زهرة، وبنو تميم، وبنو الحارث (وكانوا رهطاً طيب السمعة في قريش) الى اجتماع في دار عبد الله بن جدعان التيمي وتحالفوا على ان لا يُظلم غريب في مكة وان يؤخذ حق المظلوم من الظالم، سواء كان منهم او من غيرهم وسواء كان فقيراً ووضيعاً أو غنياً وشريفاً. ثم مشوا الى العاص وانتزعوا منه حق الرجل الذي استغاثهم^١ وكان عمر محمد^٢ يومذاك قد جاوز العشرين^٣ وقد حضر ذلك الحلف.

كانت مشاركة محمد^٤ في هذا الحلف عملاً نبيلاً ونوعاً من الدفاع عن حقوق الانسان في ذلك المجتمع الجاهلي. وتكمن أهمية هذه المشاركة في ان اترابه من ابناء مكة كانوا في ذلك الوقت منكبين على الشراب واللذائذ ومنغمسين في اللهو واللعب ولا يدركون معاني القيم الانسانية مثل نصرة المظلوم وتطهير المجتمع وتطبيق العدالة، بينما كان هو يحضر مثل هذا الحلف الى جانب اكابر رجال قريش. وقد اثني^٥ على هذا الحلف بعد بعثته وذكره بفخر قائلاً: ما أحبُّ أن لي بحلف حضرته في دار عبد الله بن جدعان حُمر النعم، ولو دُعيت به لأجبت^٦.

وقد سُمي هذا الحلف باسم حلف الفضول لأنه فضل على الاحلاف الاخرى^٧. وبقي هذا الحلف حصناً يلوذ به المظلومون، ووقعت في الازمنة اللاحقة عدّة احداث استعان فيها المظلومون بهذا الحلف، واستردوا بواسطته حقوقهم من قبضة اصحاب القوة

١ - محمد بن حبيب، مصدر سابق، ص ٥٣ - ٥٢؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٢٨؛ تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٣؛ ابن هشام، سيرة النبي، ج ١، ص ١٤٢؛ البلاذري، انساب الأشراف، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة ١، ١٣٩٤هـ.)، ج ٢، ص ١٢.

٢ - محمد بن سعد، مصدر سابق. وذكروا أيضاً ان سن النبي آنذاك كان اكبر مما ذكر، تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٣؛ المنقي في اخبار قريش، ص ٥٣؛ ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، (القاهرة: دار احياء الكتب العربية، ١٩٦٢م)، ج ١٥، ص ٢٢٥.

٣ - ابن هشام، مصدر سابق، ص ١٤٢؛ يعقوبي، مصدر سابق، ص ١٣؛ البلاذري، مصدر سابق، ص ١٦؛ محمد بن حبيب، مصدر سابق، ص ١٨٨.

٤ - محمد بن حبيب، مصدر سابق، ص ٥٥ - ٥٤.

محمد^١ في شبابه

والطول في مكة^١.

سفره الثاني الى الشام

كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء يجعله لهم^٢. ولما بلغ رسول الله^٣ خمساً وعشرين سنة^٤، قال له عمه ابو طالب: يا ابن اخي انا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان وألحت علينا سنون منكرا وليس لنا مادة ولا تجارة. وهذه غير قومك قد حضر خروجها الى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيراتها فيتجرون لها في مالها ويصييون منافع، فلو جئتها لأسرعت اليك وفضلتلك على غيرك.

ومن جانب آخر كان قد بلغ خديجة صدق محمد وامانته وكرم اخلاقه فأرسلت إليه وقالت له: اذا تكفلت بتجارتك فانا اعطيك ضعف ما اعطي رجلاً من قومك، وارسل معك غلامي ميسرة لمساعدتك. فوافق على ما عرضته عليه^٥.

وانطلق في ركب قريش وخرج معه غلامها ميسرة^٥. وربح في تجارته هذه أضعاف ما كان يربحه غيره^٦.

شاهد ميسرة في هذا السفر من رسول الله^٦ كرامات بعثت في نفسه الحيرة. حيث بشره في هذا السفر نسطور الراهب بالنبوة. ورأى ميسرة انه حصل بينه وبين رجل اختلاف في سلعة، فقال الرجل لرسول الله: إحلّف باللات والعزى. فقال النبي^٦: ما

١ - المصدر السابق؛ البلاذري، مصدر سابق، ج٢، ص١٣.

٢ - ابن هشام، مصدر سابق، ج١، ص١٩٩؛ ابن اسحاق، السير والمغازي، تحقيق سهيل زكار، (بيروت: دار الفكر، الطبعة ١، ١٣٩٨هـ)، ص٨١؛ قال سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص، ص٣٠١ كانت خديجة تستخدمهم بالمضاربة بأموالها. وقال ابن الاثير، في اسد الغابة، ج١، ص١٦. يقول: كانت اما تستأجره او تدفع له اموالها يضارب بها.

٣ - ابن سعد، مصدر سابق، ج١، ص١٢٩.

٤ - تدل الشواهد على انه كان يضارب باموال خديجة ولم يكن أجيراً لها (الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج١، ص١١٢).

٥ - ابن هشام، مصدر سابق، ص١٩٩؛ ابن اسحاق، مصدر سابق، ص٨١.

٦ - ابن سعد، مصدر سابق، ص١٣٠.

١١٢..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

حلفت بهما قط^١. وعند قدومهم الى مكة حدثها ميسرة بما رآه في هذا السفر من كرامات محمد^٢.

زواجه بخديجة

كانت خديجة من خيرة نساء قريش شرفاً^٣، واكثرهم مالاً، واحسنهن جمالاً، وكانت تُدعى في الجاهلية بالطاهرة^٤ ويُقال لها سيّدة قريش^٥ والمشهور انما كانت قد تزوجت قبل رسول الله^٦ برجلين وقد توفّي عنها^٧.

وكل قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك^٨.

وكان قد خطبها رجال معروفون مثل عقبة بن ابي معيط، وابو جهل، وابو سفيان،

١ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٣٠.

٢ - ابن اسحاق، مصدر سابق، ص ٨٢؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٣١؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، (بيروت: دار صادر)، ج ٢، ص ٣٩؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك (بيروت: دار القاموس الحديث)، ج ٢، ص ١٩٦؛ البيهقي، دلائل النبوة، ج ١، ص ٢١٥؛ ابن الاثير، اسد الغابة (طهران: المكتبة الإسلامية)، ج ٥، ص ٤٣٥؛ ابو بشر، محمد بن احمد الرازي الدولابي، الذرية الطاهرة، تحقيق السيد محمد جواد الحسيني الجلاي (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة ٢، ١٤٠٨هـ)، ص ٤٥ - ٤٦.

٣ - ابن هشام، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٠١ - ٢٠٠؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج ١، ص ١٣١؛ البيهقي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢١٥؛ الرازي الدولابي، مصدر سابق، ص ٤٦؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٣٩.

٤ - ابن الاثير، اسد الغابة، ج ٥، ص ٤٣٤؛ الحلبي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٢٤؛ العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، بيروت، دار احياء التراث العربي، ج ٤، ص ٢٨١؛ ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب (في حاشية الإصابة)، ج ٤، ص ٢٧٩.

٥ - الحلبي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٢٤.

٦ - وكانت قبل ذلك قد تزوّجت عتيق بن عائذ وأبا هالة هند بن النباش (ابن الاثير، اسد الغابة، ج ٥، ص ٤٣٤؛ ابن حجر، مصدر سابق، ص ٢٨١؛ ابن عبد البر، مصدر سابق، ص ٢٨٠؛ الحلبي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٢٩؛ ابو سعيد الخرگوشي، شرف النبي؛ الشيخ عبد القادر بدران، تهذيب تاريخ دمشق (بيروت: دار احياء التراث العربي، الطبعة ٣، ١٤٠٧هـ)، ج ١، ص ٣٠٢، تشير بعض الوثائق والأدلة التاريخية الى ان خديجة لم تتزوّج من قبل وان محمداً كان أول زوج لها. وهناك من الباحثين المعاصرين من يؤكد على هذا. (مرتضى العاملي، جعفر، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج ١، ص ١٢١).

٧ - ابن سعد، مصدر سابق؛ البيهقي، مصدر سابق، ص ٢١٥؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٩٧؛ الحلبي، مصدر سابق؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٤٠.

محمد^١ في شبابه

وخديجة لا ترغب في واحد منهم^١.

وعلى صعيد آخر كانت بين رسول الله^١ وبين خديجة قرابة؛ اذ ينتهي نسب كل منهما الى قصي بن كلاب، فضلاً عن ذلك كانت لديها معلومات عما سيكون عليه من عظيم الشأن^٢. وكانت ترغب في تزويج نفسها له^٣. وعرضت خديجة عليه ان يتزوجها، ووافق محمد^١ على ذلك العرض بموافقة أعمامها. وحصل الزواج في جمع عائلي^٤. وبناءً على القول المشهور كان عمر خديجة يومذاك أربعين سنة، وكان عمر الرسول خمساً وعشرين سنة^٥. وكانت خديجة اول امرأة تزوجها رسول الله^١^٦.

نصب الحجر الاسود

كان لمحمد من حسن الاخلاق والسلوك القويم والصدق والامانة ما جعل أهل مكة يحبونه ويسمونهم الامين^٧. وكانت له في قلوب الناس محبة بحيث ارتضوه حكماً في نصب

١ - المجلسي، بحار الانوار (طهران: دار الكتب الاسلامية)، ج١٦، ص٢٢.

٢ - المجلسي، مصدر سابق، ص٢١ - ٢٠؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج١، ص٢٠٣؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل ابي طالب، (قم: المطبعة العلمية)، ج١، ص٤١.

٣ - المجلسي، مصدر سابق، ص٢٣ - ٢١.

٤ - ابن اسحاق، مصدر سابق، ص٨٢؛ البلاذري، انساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله، (القاهرة: دار المعارف) ج١، ص٩٨؛ تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٦؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٤٠؛ الرازي الدولابي، مصدر سابق، ص٤٦؛ الحلبي، مصدر سابق، ص٢٢٧؛ ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ج١، ص٤٢؛ المجلسي، مصدر سابق، ج١٦، ص١٩.

٥ - البلاذري، مصدر سابق، ص٩٨؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج١، ص١٣٢؛ الطبري، مصدر سابق، ج٢، ص١٩٦؛ الحلبي، مصدر سابق، ص٢٢٨؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٤، ص٢٨٠؛ ابن الاثير، اسد الغاية، ج٥، ص٤٣٥؛ الكامل في التاريخ، ج٢، ص٣٩؛ وهناك اقوال اخرى حول سن خديجة اثناء زواجها بالنبي. راجع: امير مهنا الخيامي، زوجات النبي واولاده (بيروت: مؤسسة عز الدين، الطبعة ١، ١٤١١هـ)، ص٥٣ - ٥٤.

٦ - ابن هشام، مصدر سابق، ج١، ص٢٠١؛ الرازي الدولابي، مصدر سابق، ص٤٩؛ البيهقي، مصدر سابق، ج١، ص٢١٦؛ ابو سعيد الخردوشي، مصدر سابق، ص٢٠١؛ الشيخ عبد القادر بدران، تهذيب تاريخ دمشق، ج١، ص٣٠٢؛ ابن الاثير، اسد الغاية، ج٥، ص٤٣٤.

٧ - ابن سعد، مصدر سابق، ج١، ص١٢١؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج١، ص٢١٠؛ البيهقي، مصدر سابق، ج١، ص٢١١؛

١١٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبيؐ

الحجر الأسود^١. وتدبر الامر بحكمة وحل ما كان بينهم من الاختلاف. وملخص القصة هو كالاتي:

لما بلغ رسول اللهؐ خمساً وثلاثين سنة جاء سيل من جبال مكة وصدع جدران الكعبة. وكانت جدرانها قصيرة ولم يكن لها سقف. ولم تكن هناك ضرورة لبناء ما يحفظ الامتعة والهدايا التي تُهدى اليها. وعزمت قريش على ان تبني للكعبة سقفاً ولكن لم يتحقق ذلك. وبعد ذلك قرر وجهاء مكة هدم الكعبة وبناءها من جديد وبناء سقف لها.

ولما بلغ النبيان موضع الحجر الاسود اختصموا وصارت كل قبيلة تريد ان ترفعه الى موضعه دون الاخرى، وانبعثت عند ذاك المفاخر والمآثر القبلية وأطلت برأسها. فكانت كل قبيلة تريد ان يكون لها شرف رفع الحجر الاسود. حتى ان بعض القبائل تحالفت على الموت وادخلوا ايديهم في جفنة مليئة دماً لكي لا يتركوا هذه المنقبة تذهب الى قبيلة اخرى.

وفي الختام عرض عليهم اكبر قريش سناً ان يجعلوا بينهم في ما يختلفون فيه اول من يدخل من باب بني شيبه [او باب الصفا] ليقضي بينهم. فكان اول داخل منه رسول اللهؐ. فلما رآوه قالوا: هذا الامين رضينا؛ هذا محمد. فأمر بثوب وبسطه على الارض وأخذ الحجر الأسود ووضع فيه بيده الشريفة. ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب. ثم رفعوه جميعاً حتى بلغوا موضعه؛ فوضعه هو^٢. وهكذا زال بهذا التدبير

المجلسي، مصدر سابق، ج١٥، ص٣٦٩.

١ - هذا الحجر من اقدس اجزاء الكعبة. وجاء في الروايات انه من الجنة او من السماء، وقد جعله النبي ابراهيم بأمر الله تعالى ضمن بناء الكعبة >المجلسي، مصدر سابق، ج١٢، ص٨٤ و٩٩؛ الازرقعي، تاريخ مكة، تحقيق: رشدي الصالح ملحق (بيروت: دار الأندلس، الطبعة ٣، ١٤٠٣هـ-).، ج١، ص٦٢ - ٦٣ > والحجر الاسود موجود حتى الآن، وهو عبارة عن حجر بيضوي الشكل اسود اللون ضارب إلى الحمرة. وموقعه في الركن الشرقي من الكعبة على ارتفاع متر ونصف من الارض، ومنه يبدأ الطواف.

٢ - ابن سعد، مصدر سابق، ج١، ص١٤٦ - ١٤٥؛ تاريخ يعقوبي، ج٢، ص١٥ - ١٤؛ المجلسي، مصدر سابق، ج١٥، ص٣٨ - ٣٣٧؛ البلاذري، مصدر سابق، ج١، ص١٠٠ - ٩٩؛ المسعودي، مروج الذهب (بيروت: دار الأندلس، الطبعة ١، ١٩٦٥م)، ج٢، ص٢٧١ - ٢٧٢. ذكر بعض المؤرخين سبباً آخر لحراب الكعبة، ويُنو دافعاً آخر لاعادة بنائها. ولكنهم كلهم نقلوا ان النبي هو الذي قضى بين القوم. (راجع: السير والمغازي، ص١٠٣؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج١،

محمد^١ في شبابه

الحسن ما كان من اختلاف بين القبائل وحال بذلك دون وقوع حرب دامية بينها.

علي^٢ في مدرسة الرسول^٣

بعد سنوات من إعادة بناء الكعبة، وقبل بضعة سنوات من بعثة النبي محمد^١ جاء علي^٢ مكة فحط. وكان ابو طالب عم الرسول فقيراً وكثير العيال. فعرض محمد^١ علي^٢ عمه العباس — الذي كان من اغني أغنياء بني هاشم — ان يأخذ كل واحد منهما واحداً من ابناء ابي طالب تخفيفاً عما كان يعانيه من ضغوط مادية. فوافق العباس علي ذلك العرض. فانطلقا إليه وأعلماه ما أرادا. فقبل ما جاء لأجله. فأخذ العباس جعفرًا، وأخذ محمد^١ عليًا؛ فلم يزل علي عند النبي^١ حتى أرسله الله فاتبعه^١. وكان علي حينها ابن ست سنين^٢. أي انه كان في مرحلة حساسة تتبلور فيها الشخصية وتكون مستعدة لقبول التربية. ولعل محمد^١ اراد من تكفل وتربية أحد ابناء ابي طالب أن يعوّض عما تحمله هو وزوجته فاطمة بنت أسد من تعب ومشقة. وقد وجد انه أكثر ابنائهما استعداداً وأهلية للتربية وبعد ان تكفل بتربيته قال: <اخترت من اختار الله لي عليكم، علياً>^٣.

كان محمد^١ يحب علياً حباً جمًّا، ولم يتوان في تربيته.

كقال الفضل بن العباس (أحد أبناء عم علي): سألت أبي عن ولد رسول الله^١ الذكور، أيهم كان رسول الله^١ له أشد حباً؟ فقال: علي بن ابي طالب^٢. فقلت له: سألتك عن بنيه. فقال: انه كان احب إليه من بنيه جميعاً وأرأف، ما رأيناه زائله يوماً من الدهر منذ كان طفلاً الا ان يكون في سفر لخدمة، وما

ص ٢٠٥؛ البيهقي، دلائل النبوة، ج ١، ص ٢١٠.

١ - ابن هشام، سيرة النبي، (القاهرة: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥١هـ - ج ١، ص ٢٦٢؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، بيروت: دار القاموس الحديث)، ج ٢، ص ٢١٣؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ (بيروت: دار صادر، ١٣٩٩هـ -)، ج ٢، ص ٥٨؛ البلاذري، انساب الأشراف، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة ١، ١٣٩٤هـ -)، ج ٢، ص ٩٠؛ ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة (القاهرة: دار احياء الكتب العربية، ١٩٦٢م)، ج ١٣، ص ١١٩ ج ١، ص ١٥.

٢ - ابن ابي الحديد، مصدر سابق، ج ١، ص ١٥؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل ابي طالب، (قم: المطبعة العلمية)، ج ٢، ص ١٨٠.

٣ - ابو الفرج الاصفهاني، مقاتل الطالبين، (النجف: منشورات المكتبة الحيدرية)، ص ١٥.

١١٦..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

رأينا أباً ابر بابن منه لعلّي، ولا ابناً اطوع لأب من علي له^١.

اخذ محمد^١ بعد بعثته يهتم كثيراً بتعليم علي وبيان تعاليم الإسلام له. فكان اذا انزل عليه الوحي ليلاً فلا يصبح حتّى يعلمه علياً، واذا نزل نهاراً فلا يمسي حتّى يعلمه علياً.
<وقيل لعلّي: ما لك أكثر اصحاب رسول الله^١ حديثاً؟ فقال: اني كنت اذا سألته أنبأني، واذا سكّت ابتدأني>^٢. وقد وصف اثناء خلافته تلك الدورة التربوية التي قضاها مع رسول الله^١ كما يلي: وَ قَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ^١ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ وَيَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ وَيُمَسِّسُنِي حَسَدَهُ وَ يُشِمُّنِي عَرْفَهُ وَكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ وَمَا وَجَدَ لِي كَذِبَةً فِي قَوْلٍ وَلَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ^١ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْأَلُكَ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ وَ لَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ أَتْبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرُ أُمِّهِ يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْماً وَيَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْنَهُ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ^١ وَ خَدِيجَةَ وَأَنَا ثَلَاثُهُمَا أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ وَأَشْمُ رِيحَ الثُّبُوتِ وَلَقَدْ سَمِعْتُ رِثَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ^١ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الرِّثَّةُ فَقَالَ هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيْسَ مِنْ عِبَادَتِهِ إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وَ تَرَى مَا أَرَى إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ وَلَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ^٣.

ربّما ينطبق هذا الكلام على عبادة الرسول^١ في غار حراء بعد البعثة، ولكن بما ان عبادة الرسول في غار حراء غالباً ما كانت قبل البعثة، يمكن القول بأن هذا الموضوع يتعلّق بمرحلة ما قبل بعثة النبي محمد^١. وكان سماع رثّة الشيطان عند بعثة الرسول يعني نزول أول آيات القرآن. وعلى أية حال فإنّ طهارة روح علي^١ ومثابرة الرسول على تربيته

١ - ابن ابي الحديد، مصدر سابق، ج ١٣، ص ٢٠٠.

٢ - الشيخ الطوسي، الأمالي، (قم: دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة ١، ١٤١٤هـ-)، ص ٦٢٤.

٣ - السيوطي، تاريخ الخلفاء، (القاهرة: الطبعة ٣، ١٣٨٣هـ-)، ص ١٧٠.

٤ - فحج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، الخطبة ١٩٢، المُسمّاة بالقاصعة.

محمدؑ في شبابه

جعلته يتميز منذ صباه بحس مرهف، وبصيرة نافذة؛ واذن سامعة، جعلته قادراً على رؤية
ما لا يراه غيره، وسماع ما لا يسمعه سواه.

الباب الثالث

من البعثة الى الهجرة

الفصل الاول: البعثة والدعوة

الفصل الثاني: الدعوة العلنية وبدء المعارضة

الفصل الثالث: نتائج معارضة قريش

الفصل الاول

البعثة والدعوة

ارهاصات الرسالة

ذكرنا من قبل بأن آباء محمد^١ كانوا كلهم موحدين، وانه ينتمي الى رهط طاهر، وازضافة الى شرف النسب كان على درجة عالية من التربية وحسن الخلق، ولم يتدنس منذ نعومة اظفاره بعبادة الأصنام وفساد اخلاق اهل مكة^٢. وكان منذ صغره موضع رعاية الله. وقد تحدّث علي^٣ واصفاً هذه المرحلة من الإعداد التربوي على النحو التالي:

<ولقد قرن الله به من لدن ان كان فطيماً اعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن اخلاق العالم ليله ونهاره...>^٤.

وقال الامام محمد الباقر^٥:

<وكل الله بمحمد^٦ ملكاً عظيماً منذ ان فصل عن الرضاع يرشده الى الخيرات ومكارم الاخلاق ويصده عن الشر ومساوئ الاخلاق وهو الذي كان يناديه: <السلام عليك يا محمد يا رسول الله>، وهو شاب لم يبلغ درجة الرسالة بعد، فيظن ان ذلك من الحجر والارض فيتأمل فلا يرى شيئاً>^٧.

١ - علي بن برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية، (انسان العيون) (بيروت: دار المعرفة)، ج ١، ص ٢٠٤ - ١٩٩؛ ابو الفداء،

اسماعيل بن كثير، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي)، ج ١، ص ٢٥٠.

٢ - فحج البلاغة، الخطبة ١٩٢، المُسمّاة بالقاصعة.

٣ - ابن ابي الحديد، شرح فحج البلاغة، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، (القاهرة: دار احياء الكتب العربية، ١٩٦١م)، ج ١٣،

١٢٢..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

كان رسول الله^١ يحب الخلاء والانفراد عن قومه لما يراهم عليه من الضلال المبين من عبادة الاوثان والسجود للأصنام، وقويت محبته للخلو عند مقاربة ايجاء الله إليه^١. وبعدما بلغ السابعة والثلاثين بدأت تظهر له حالات روحانية وأخذ يشعر بأن هناك نافذة تنفتح عليه من عالم الغيب.

وغدا يتحقق كل ما كان قد سمعه عدة مرات من ابناء عشيرته وكذا من علماء اهل الكتاب مثل بحيرى ونسطور وغيرهم؛ اذ انه كان يرى نوراً خاصاً وأخذت تتكشف له اسرار، وطرق سمعه هاتف الغيب عدة مرات ولكنه ما كان يرى أحداً! وكان يرى في نومه كأن أتياً أتاه فيقول له: يا رسول الله. وكان يوماً بين الجبال يرعى غنماً لأبي طالب، فنظر الى شخص يقول: يا رسول الله. فقال له: من انت؟ قال: انا جبرائيل، أرسلني الله إليك ليتخذك رسولاً. فأخبر النبي^١ خديجة بذلك، فقالت: يا محمد أرجو ان يكون كذلك^٣.

كان محمد في هذه المرحلة يخلو بضعة أيام من السنة في جبل حراء، يقضيها بالعبادة

ص٢٠٧.

١ - ابن كثير، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٨٩.

٢ - الحلبي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٨١ - ٣٨٠؛ ابن هشام، سيرة النبي، تحقيق: مصطفى السقاء وآخرون، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٥هـ). ج ١، ص ٢٥٠؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك (بيروت: دار القاموس الحديث)، ج ٢، ص ٢٠٣ - ٢٠٤؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب (قم: المطبعة العلمية)، ج ١، ص ٤٣؛ المجلسي، بحار الانوار (طهران: دار الكتب الإسلامية)، ج ١٨، ص ١٨٤ و ١٩٣؛ راجع: تاريخ يعقوبي (النجف: المكتبة الحيدرية، ١٣٨٤هـ)، ج ١، ص ١٧.

٣ - ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ج ١، ص ٤٤؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ١٨، ص ١٩٤؛ الطبرسي، إعلام الوري بأعلام الهدى، (طهران: دار الكتب الإسلامية، الطبعة ٣)، ص ٣٦. وفي ضوء هذه الأدلة والشواهد - كما روى المرحوم الكليني - فإن محمداً (ص) قد كان في هذه المدة نبياً الا انه لم يكن قد بلغ مرحلة الرسالة. (الأصول من الكافي، طهران: مكتبة الصدوق، ١٣٨١هـ، ج ١، ص ١٧٦).

٤ - يقع جبل حراء في شمال شرق مكة، وأطلقت عليه تسمية جبل النور على اعتبار انه كان موضع بزوغ شمس الوحي. وقد كان هذا الجبل الى ما قبل عدة سنوات خلت بعيداً عن مدينة مكة، اما في الوقت الحالي فقد أدى اتساع مدينة مكة الى ان يصل بناء البيوت الى مقربة منه. يقع جبل حراء وسط سلسلة جبال متصلة ولكنه اعلى من الجبال المجاورة وقمته بارزة بين القمم المجاورة لها. وغار حراء الذي يقع في قمة هذا الجبل ليس غاراً في الحقيقة وانما عبارة عن صخرة عظيمة مستقرة على صخرتين كبيرتين، ويوجد

البعثة والدعوة

والدعاء^١ ومثل هذه العزلة والعبادة في حراء كان لها سابقة بين الموحدّين من قريش^٢. واول من سنَّ هذه السُنَّة عبد المطلب جد محمد^٣، كان اذا حلَّ شهر رمضان ذهب الى حراء واطعم الفقراء^٤.

بداية الرسالة

حينما بلغ الرسول^٥ الاربعين^٦، نزل عليه جبرائيل وهو قائم على حراء مثلما كان دأبه في ما خلا من السنين، وأنزل عليه اول آيات القرآن الكريم من الله تعالى^٧، وهي: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}^٨.

وقد صوّر الباري تعالى نزول الوحي (جبرائيل) على محمد^٩ وابلاغه الرسالة في موضع آخر من القرآن الكريم، على النحو التالي:

{وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ

بين هذه الصخور الثلاثة فراغ شبيه بالغار تقارب مساحته متراً ونصف المتر. مقدّمة هذا الغار واسعة ويمكن للإنسان العادي الدخول فيه والخروج منه بكل سهولة، الا ان نصفه الآخر ضيق وارتفاعه قليل، ولا يصل ضوء الشمس الى أكثر من نصف الغار.

١ - فتح البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، الخطبة ١٩٢، المُسمّاة بالقاصعة؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٥١.

٢ - ابن هشام، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٥١؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٠٦؛ ابن كثير، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٩٠؛ البلاذري، انساب الأشراف، تحقيق: محمد حميد الله (القاهرة: دار المعارف، الطبعة ٣)، ج ١، ص ١٠٥.

٣ - الحلبي، مصدر سابق، ص ٣٨٢.

٤ - ابن هشام، مصدر سابق، ص ٢٤٩؛ الطبري، مصدر سابق، ص ٢٠٩؛ البلاذري، مصدر سابق، ص ١١٥ - ١١٤؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، (بيروت: دار صادر)، ج ١، ص ١٩٠؛ المسعودي، التنبيه والاشراف (القاهرة: دار الصاوي للطباعة والنشر)، ص ١٩٨؛ الحلبي، مصدر سابق، ص ٣٦٣؛ المجلسي، مصدر سابق، ص ٢٠٤.

٥ - الطبرسي، مجمع البيان (طهران: شركة المعارف الاسلامية، ١٣٧٩ هـ)، ج ١٠، ص ٥١٤؛ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، (بيروت: دار الاندلس، الطبعة ١، ١٩٦٥ م)، ج ٢، ص ٢٧٦.

٦ - سورة العلق (٩٦)، الآيات ١ - ٥.

١٢٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١
عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ
عَلَىٰ مَا يَرَىٰ{^١.

وجاء وصف هذه الواقعة في موضع آخر من القرآن الكريم أيضاً. حيث قال تعالى:
{فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ * الْجَوَارِ الْكُنُوسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا
عَسَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي
قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ
بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى
الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ
تَذْهَبُونَ}{^٢.

خبر غير صحيح عن ظهور الوحي

وردت في بعض كتب التاريخ والحديث رواية غير صحيحة وخرافية عن كيفية بعثة
الرسول^١، ولا تتطابق مع معايير التاريخ والحديث. ونظراً الى شهرة هذه الرواية وتسربها
الى المناهج الدراسية في المدارس الايرانية، فقد ارتئينا ان نقلها بالنص ونعرضها على بساط
النقد والتمحيص:

كروي عن عائشة انها قالت: كان أول ما ابثدئ به
رسول الله^١ من الوحي الرؤيا الصادقة، كانت تحيى مثل
فلق الصبح؛ ثم حبب إليه الخلاء، فكان بغار مجراء
يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع الى
أهله، ثم يرجع الى أهله، فيتزود لمثلها، حتى فجأه
الحق، فأتاه، فقال: يا محمد، أنت رسول الله. قال رسول
الله^١: فجثوت لركبتي وأنا قائم، ثم زحفت ترجف بوادري،
ثم دخلت على خديجة، فقلت: زملوني، زملوني! حتى ذهب
عني الروع، ثم أتاني فقال: يا محمد، أنت رسول الله.
قال: فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق من جبل،
فتبدى لي حين هممت بذلك، فقال: يا محمد، أنا جبريل،
وأنت رسول الله. ثم قال: اقرأ. قلت: ما أقرأ. قال:

١ - سورة النجم (٥٣)، الآيات ١ - ١٢. قال العلماء المسلمون ان هذه الآيات تصور أو تتحدث عن بعثة رسول الله (ص)
وهناك أدلة وشواهد تؤيد ما ذهبوا إليه. (راجع: المجلسي، بحار الانوار، ج ١٨، ص ٢٤٧؛ محمد هادي معرفة، التمهيد في علوم
القرآن، ج ١، ص ٣٥؛ احمد بن محمد القسطلاني، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، تحقيق: صالح احمد الشامي (بيروت: المكتب
الاسلامي، طبعة ١٤١٢هـ-)، ج ٣، ص ٨٨ - ٨٩؛ ولكن هناك تفسير آخر لها يشير إلى أنها تتحدث عن المعراج.

٢ - سورة التكويد (٨١)، الآيات ١٥ - ٢٦.

فأخذني فغطني ثلاث مرات، حتى بلغ مني الجهد، ثم قال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق}، فقرأت، فأتيت خديجة. فقلت: لقد أشفقت على نفسي، فأخبرتها خبري، فقالت: أبشر، فوالله لا يجزيك الله أبدأ، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت بي إلى ورقة بن نوفل بن أسد، قالت: اسمع من ابن أخيك، فسألني؛ فأخبرته خبري. فقال: هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران، ليتني فيها جذع! ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك! قلت: أخرجني هم؟ قال: نعم^١.

نقد ودراسة

- 1— ان الذي نقل هذه الرواية عائشة، وقد ولدت في السنة الرابعة او الخامسة للبعثة^٢. اذاً فهي لم تكن في زمن وقوع الحادثة حتى تكون شاهد عيان. وبما انها لم تذكر اسم الراوي الأصلي الذي يُحتمل انها نقلت عنه، فروايتها فاقدة للسند، وهذا ما يُصلح عليه تسمية <الرواية المرسلة>، والرواية المرسلة غير معتبرة.
- 2— تفيد هذه الرواية ان ملك الوحي أمر محمداً^١ عدّة مرات بالقراءة، بينما يعلن له محمد^١ عدم قدرته على ذلك. في حين اذا كان المقصود من ذلك ان يقرأ كلام الله المكتوب على لوح، فان ذلك يبدو أمراً غير معقول؛ لأن الله عز وجل والملك يعلمان بأنه امي وغير قادر على القراءة. واذا كان المقصود اعادة قراءة الآيات بعد ان يقرأها ملك الوحي، فلم يكن هذا العمل أمراً صعباً ليعجز عنه محمد^١ (الذي كان معروفاً بالذكاء والعقل) في سنوات كماله العقلي والفكري!
- 3 — ما معنى الضغط المتكرر الذي مارسه ملك الوحي على رسول الله^١؟! في حين

١ - سورة العلق (٩٦)، الآية ١.

٢ - صحيح البخاري، شرح وتحقيق: الشيخ قاسم الشماخي الرفاعي (بيروت: دار القلم، الطبعة ١، ١٤٠٧هـ)، ج ١، ص ٥٩ - ٦٠، كتاب بدء الوحي؛ صحيح مسلم بشرح الامام النووي (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٣هـ)، ج ٢، ص ١٩٧ - ٢٠٤، باب بدء الوحي الى رسول الله (ص) الطبري، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

٣ - العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، (بيروت: دار احياء التراث العربي، الطبعة ١، ١٣٢٨هـ)، ج ٤، ص ٣٥٩.

١٢٦..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

اننا ندرى بأن التعلّم أمر ذهني وليس للضغط البدني تأثير فيه. واذا تصوّرنا ان هذا العمل لأجل ان تتكون لدى محمد^١ — بشكل مفاجئ — القدرة على القراءة بمشيئة الله تعالى، فكانت تكفي ارادة الله فقط في ايجاده، ولم يكن ثمة داع لهذه المقدمات. واذا كان الضغط المذكور يعود الى ارتباط النبي محمد^١ بمبدأ عالم الوجود وعالم الغيب (لأن النبي بكل عظمته كان له بُعد مادي وُثْرائي، وارتباط الانسان الترابي بمبدأ الوجود يتطلب مثل هذا الضغط!) فهذا العمل لا مبرر له أيضاً؛ وذلك لأن الله تعالى بيّن بصراحة في القرآن، ان ارتباط الانبياء بعالم الغيب كان بواحد من الطرق الثلاثة التالية:

1— الارتباط المباشر وتلقّي الوحي الالهي من غير واسطة؛

2— عن طريق سماع الصوت بدون رؤية المتكلم؛

3— عن طريق ملك الوحي^١.

كان الرسول يتحمل الضغط والعناء في حالة تلقي الوحي بشكل مباشر ومن غير واسطة فقط. وتفيد بعض الروايات ان وجهه كان يربد ويتفصّد جبينه عرقاً يسيل على وجهه كاللؤلؤ. ولكن كان اذا جاء الوحي بواسطة جبرائيل لا يصيبه شيء من تلك الحالات، وهو ما ذكره الامام الصادق[×] بقوله: >اذا أتاه الوحي من الله وكان بينهما جبرائيل[×] كان يقول وهو بحالة طبيعية —: قال لي جبرائيل، وهذا جبرائيل. اما اذا كان الوحي من الله إليه ليس بينهما جبرائيل، تصيبه تلك السببة ويغشاه ما يغشاه لثقل الوحي عليه من الله عز وجل>^٢.

بينما لم يكن يحصل للنبي — عند حضور جبرائيل حامل الوحي — أي شعور خاص من رؤيته، بل كان جبرائيل اذا أتى النبي^١ قعد بين يديه قعدة العبد، وكان لا يدخل حتى

١ - ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِلَاذِنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾. (سورة الشورى (٥١)، الآية ٤٢)، للاطلاع على مزيد من المعلومات في هذا المجال، راجع: بحار الانوار، ج٨، ص٢٤٦ و٢٥٤ و٢٥٧.

٢ - المجلسي، مصدر سابق، ص٢٦٨ و٢٧١؛ الصدوق، التوحيد (طهران: مكتبة الصدوق، ص١١٥)؛ راجع: كتاب مهر تابان، لقاءات آية الله السيد محمد حسين الحسيني الطهراني مع المرحوم العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي>، ص٢٠٧ - ٢١١.

البعثة والدعوة

يستأذنه^١.

وفي ضوء ما سبق ذكره، وبما ان المؤرخين متفقون على ان اولى آيات القرآن نزل بها جبرائيل على الرسول^١ في غار حراء، فانه لم يكن هناك أي مبرر لاستشعار الضغط والثقل، وهذا لا يعني طبعاً نفي شعوره بثقل المسؤولية والقلق من معارضة عبدة الأصنام.

4— نظراً الى الاستعدادات التي كانت لدى الرسول^١، وما كان يتلقاه من رسائل ومؤشرات غيبية، فلا معنى للقول بأنه قد فوجئ أو بوغت بنزول الوحي وأصابه الخوف والاضطراب. وفضلاً عن كل ذلك، فقد ورد في بعض المصادر بأن جبرائيل قد أتى الرسول ابتداءً ليلة السبت وليلة الأحد، ثم ظهر له بالرسالة يوم الاثنين^٢. إذاً لم يكن لقاءه بجبرائيل في حراء هو اللقاء الاول بحيث يصاب من جرائه بالخوف والاضطراب! ومن الطبيعي ان الشخص إن لم يكن مؤهلاً من جميع الجوانب لنيل السر الالهي (الرسالة)، فان الباري تعالى لا يمنحه مثل هذا المنصب العظيم.

٥— كيف يمكن القول بأن معلومات خديجة — وهي انسانية عادية — تفوق معلومات الرسول، وأنها بمجرد ان شاهدت عليه مثل ذلك الاضطراب أخذت تهدئ من روعه بتلك الكلمات؟!؟

٦— الاسوأ من كل ذلك هو ان نتصور بأن النبي الذي بُعث بالرسالة وألقيت عليه مسؤولية هداية الأمة، كان لا يدري، حتى تحظى رسالته بتأييد شيخ مسيحي أعمى، ويتأكد محمد^١ من حقيقة رسالته ويسكن ويطمئن قلبه استناداً الى اقواله. ان وهن هذا الكلام على درجة من الوضوح بحيث لا يحتاج الى أي دليل أو برهان.

٧— مما يسترعي الانتباه ان مثل هذا المشهد المقرف والخرافي لم يرد ذكره في أي من المصادر الإسلامية حول بعثة أي من الانبياء، رغم ان الظروف الزمانية والمكانية لبعثة

١ - الصدوق، كمال الدين وقام النعمة، (قم: مؤسسة النشر الاسلامي، ١٤٠٥ هـ.)، ج ١، ص ٨٥؛ علل الشرايع، (النجف:

المكتبة الحيدرية، ١٣٨٥ هـ.) الباب ٧، ص ٧.

٢ - الطبري، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٠٧؛ البلاذري، مصدر سابق، ج ١، ص ١٠٥؛ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر،

ج ٢، ص ٢٧٦؛ ابن واضح، تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٧.

١٢٨..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

بعضهم (كما هو الحال بالنسبة الى النبي موسى) كانت تقتضي حصول مثل هذه الحالة.

٨ — ان الشك والترديد الذي نسبته هذه الرواية الى الرسول لا ينسجم مع مفاد الآية

الشريفة: {مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى}.

قال العالم والمفسر الشيعي المعروف، الطبرسي ما يلي:

ان الله تعالى لا يوحى الى رسوله الا بالبراهين النيرة، والآيات البينة الدالة على ان ما

يُوحى إليه انما هو من الله تعالى، فلا يحتاج الى شيء سواها، ولا يفرع، ولا يفرق.^٢

قال الامام الصادق × في جواب أحد أصحابه عندما سأله: كيف لم يخف رسول

الله^١ في ما يأتيه من قبل الله ان يكون ذلك مما ينزغ به الشيطان؟ فقال: ان الله اذا اتخذ

عبداً رسولاً انزل عليه السكينة والوقار، فكان يأتيه من قبل الله عز وجل مثل الذي يراه

بعينه^٣.

رغم ان شرّاح كتاب صحيح مسلم وصحيح البخاري (اللذين نقلوا رواية عائشة)

كانوا من العلماء البارزين، ولكن بما انهم سلّموا بأصل الرواية، فقد وقعوا في الخبط عند

توضيحهم لمعناها، وعرضوا لها تبريرات وتوجيهات واهية لا تستند الى أساس متين. وهذا

مما يدعو الى الدهشة طبعاً^٤.

وقد نقلت حول بعثة الرسول روايات اخرى مشابهة عن طريق رواة مثل عبد الله بن

١ - سورة النجم (٥٣)، الآية ١١.

٢ - مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٨٤، تفسير الآية >يا ايها المدثر...<.

٣ - المجلسي، بحار الانوار، ج ١٨، ص ٢٦٢؛ محمد هادي معرفة، التمهيد في علوم القرآن، مركز إدارة الحوزة العلمية في قم، ج ١، ص ٤٩.

٤ - حسب علمنا ان اول من التفقت الى ضعف هذه الرواية وعدم اعتبارها هو المرحوم السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي

(١٢٩٠ - ١٣٧٧هـ) وهو من علماء الشيعة البارزين في جبل عامل، وقد وضع هذه الرواية موضع النقد والتمحيص في رسالة

بعثها الى >المجمع العلمي العربي بدمشق<، وفي كتاب النص والاجتهاد، ص ٣١٩ - ٣٢٢. ومن بعده وضعها الباحثون والعلماء

موضع بحث ونقاش موسّع (ونخص بالذكر منهم العالم الجليل الشيخ علي الدواني) في الكتب المدرجة ادناه، واستكملوا الجوانب

الاخرى منها، وقد اخذنا من شروحهم شيئاً مما سطرناه في بحثنا هذا: شعاع وحى برفراز حراء، ص ٧٠ - ١٠٨؛ تاريخ اسلام

از آغاز تا هجرت، ص ٩٨ - ١١٠؛ نقش ائمه در احياء دين، ج ٤، ص ٤٤؛ الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج ١،

ص ٢١٦ - ٢٣٢؛ خيانت در گزارش تاريخ، ج ٢، ص ١٣ - ٢٣؛ التمهيد في علوم القرآن، ج ١، ص ٥٢ - ٥٦؛ درس هايي

تحليلي از تاريخ اسلام، ج ٢، ص ١٩٦ - ٢٣٦.

البعثة والدعوة

شداد، وعبيد بن عمير، وعروة بن الزبير، وهي روايات يتضح زيفها وعدم صحتها من خلال التوضيحات التي عرضناها، ولا داعي لذكرها هنا^١. وقد تسربت هذه الرواية الموضوعة الى كتب المسيحيين أيضاً، واتخذها البعض ذريعة لنفث ما لديه من سموم ووساوس ضد رسولنا الكريم^٢. ويتكشف من خلال نقدنا لهذه الرواية، وهن وخواء ما ذهبوا إليه.

الدعوة السرية

أقام رسول الله بمكة ثلاث سنين يكتُم أمره^٣ وهو يدعو الى توحيد الله عز وجل؛ وذلك لأن اجواء مكة لم تكن في تلك الظروف مناسبة للمجاهرة بالدعوة علناً. فكان خلال هذه الثلاث سنوات يدعو سراً كل من يرى فيه استعداداً لقبول دعوته، ويدعوهم الى توحيد الله والاقرار بنبوته. وفي هذه المدة تناهى خبره الى اسماع قريش، فكان اذا مر بملأ من

١ - السيد مرتضى العسكري، نقش ائمه در احياء دين، دار نشر المجمع العلمي الاسلامي، ج٤، ص١٢.

٢ - راجع: دائرة المعارف الاسلامية، نقلها الى العربية محمد ثابت الفندي وآخرون، ج٣، ص٣٩٨) كلمة بحري. مونتغمري واط، رئيس القسم العربي في جامعة ادنبرة ممن نفثوا سمومهم وتكلموا بكلام لا أساس له من الصحة، حيث قال: >من المثير للدهشة ان يحصل لشخص يعيش في القرن السابع في مدينة نائية مثل مكة هذا الإيمان وهو انه مبعوث من الله بالنبوة. اذاً لا نستغرب لو سمعنا بانه استولى عليه الخوف والشبهة. وهناك في هذا المجال شواهد في القرآن [!] والحديث حول حياته. وليس من الواضح متى حصل لديه اطمئنان بان الله لم ينسه [...]!. وكان الخوف الآخر الذي استخوذ عليه هو خوفه من الجنون؛ وذلك لأن العرب في ذلك الوقت كانوا يعتقدون بأن مثل هؤلاء الاشخاص يخضعون لسيطرة الأرواح أو الجن. وقد فسّر عدد من أهالي مكة إلهامات على هذا النحو من التفسير. وكان هو يشك أحياناً هل ان الحق مع الناس أم لا؟ [...] >محمد پیامبر و سیاستمدار، ترجمة اسماعيل والي زاده (طهران: كتابفروشي اسلاميه، ١٣٤٤)، ص٢٦ - ٢٧.

٣ - ابن هشام، مصدر سابق، ج١، ص٢٨٠؛ الطبري، مصدر سابق، ج٢، ص٢١٦؛ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص٢٧٦ - ٢٧٥؛ البلاذري، مصدر سابق، ج١، ص١١٦؛ ابن واضح، تاريخ يعقوبي، ج٢، ص١٩؛ الحلبي، مصدر سابق، ج١، ص٤٥٦؛ الطوسي، الغيبة (طهران: مكتبة نينوى الحديثة)، ص٢٠٢؛ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة (قم: مؤسسة النشر الاسلامي، ١٣٦٣هـ)، ج٢، ص٣٤٤، الحديث ٢٩.

١٣٠..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

قريش قالوا: ان فتى ابن عبد المطلب ليكلّم من السماء^١ ولكن بما انه لم يكن يجاهر بدعوته في الوسط العام، لذلك لم يكونوا على علم بفحوى دعوته، وبالنتيجة لم يصدر منهم أي رد فعل تجاهه.

وفي هذه المدة آمن بدعوته عدد من الاشخاص. ثم ان احد هؤلاء المسلمين الاوائل وهو الأرقم وضع داره — التي كانت تقع عند قاعدة جبل الصفا — تحت تصرّف الرسول^١. فجعل منها الرسول بمثابة مقر لهم كانوا يجتمعون فيها ويقيمون اثناء مدة الاستخفاء الى ان جاء أمر الله بان يصدع بالدعوة^٢.

أول من أسلم من النساء ومن الرجال

يتفق المؤرخون على ان خديجة اول امرأة آمنت^٣ برسالة النبي^٤، لأنه من الطبيعي ان الرسول^١ حينما كان يعود من غار حراء، كان يطلع اول الأمر خديجة التي كانت زوجته، وعلياً الذي كان عضواً في تلك الأسرة وتربى فيها، على ما ينزل عليه من الوحي. فصدّقه وآمنا به لما يعرفانه عنه اكثر من أي شخص آخر من النزاهة والصدق والصلاح وما ظهر عليه من علائم النبوة.

١ - تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٩؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص١٩٩؛ البلاذري، مصدر سابق، ج١، ص١١٥.

٢ - الحلبي، مصدر سابق، ج١، ص٤٥٦ - ٤٥٧.

٣ - نقل ابن هشام اسماء المسلمين الاوائل إلى الشخص الثامن كما يلي: <علي، زيد بن حارثة، ابو بكر، عثمان بن عفّان، الزبير بن العوّام، عبد الرحمن بن عوف، سعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله> (سيرة النبي، ج١، ص٢٦٢ - ٣٦٩).

٤ - كما ذكرنا سابقاً بما ان علياً كان منذ طفولته موحّداً ولم يسجد لصنم قط، فان اسلامه ليس بمعنى الكف عن عبادة الأصنام (بينما يصدق هذا المعنى على سائر صحابة النبي)، بل انه آمن بالاسلام كرسالة سماوية قائمة على مبدأ التوحيد. وقد كتب زيني دحلان ما يلي: <لم يتقدّم من علي (رض) شرك ابداً؛ لأنه كان مع رسول الله (ص) في كفّالته كأحد اولاده، تبعه في جميع اموره. وجاء في الحديث: ثلاثة ما كفروا بالله قط، مؤمن من آل ياسين، وعلي بن ابي طالب، وآسية امرأة فرعون>. (سيرة النبي، ج١، ص٩٢). وروى ابن سعد حول علي (ع) بأنه لم يعبد الأصنام قط لصغره. (الطبقات الكبرى، ج٣، ص٢١). وقال ابن حجر الميمني المكي (م ٩٧٤) بعد نقل هذه الجملة عن ابن سعد: ومن ثمّ يُقال فيه كرم الله وجهه. (الصواعق المحرقة، الباب التاسع، ص١٢٠). في ما يخص سن علي عند اسلامه، راجع: شرح نهج البلاغة، ابن ابي الحديد، (طبعة مصر)، ج١٣، ص٢٣٤، ٢٣٥.

الادلة على اسبقية علي

لو لم يكن هناك أي سند حديثي أو تاريخي يثبت ما ذكرناه آنفاً من سبق علي إلى الإسلام وأنه كان أول رجل آمن بدعوة الرسول، فليس من الصعب اثبات ذلك، إذ توجد وثائق وشواهد أخرى تثبته.

نعرض في ما يلي عدداً من هذه الوثائق والشواهد على سبيل المثال:

١- صرح رسول الله ﷺ بسبق علي إلى الإسلام، وقال في جماعة من المسلمين: <اولكم وروداً عليّ الخوض، أولكم اسلاماً؛ عليّ بن ابي طالب>^١.

٢- نقل كبار العلماء والمحدثين ما يلي:

<استنبي النبي يوم الاثنين وصلى عليّ يوم الثلاثاء>^٢.

٣- وقال عليّ: <لم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما، ارى نور الوحي والرسالة واشمّ ريح النبوة>^٣.

١ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب، (في حاشية الإصابة) (بيروت: داراحياء التراث العربي، الطبعة ١، ١٣٢٨هـ.)، ج ٣، ص ٢٨؛ ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج ١٣، ص ٢٢٩؛ راجع: الحاكم النيسابوري، المستدرک علی الصحیحین، تحقيق: عبد الرحمن المرعشي (بيروت: دار المعرفة، الطبعة ١، ١٤٠٦هـ.)، ج ٣، ص ١٧؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد (بيروت: دار الكتاب العربي)، ج ٢، ص ٨١؛ الحلبي، مصدر سابق، ج ١، ص ٤٣٢، وجاء في بعض الروايات بالشكل التالي: أول هذه الأمة وروداً عليّ الخوض أولها اسلاماً علي بن ابي طالب رضي الله تعالى عنه. (الحلبي، مصدر سابق، ص ٤٣٢).

٢ - ابن عبد البر، مصدر سابق، ص ٣٢؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (بيروت: دار صادر، ١٣٩٩)، ج ٢، ص ٥٧، نقل الحاكم النيسابوري هذا الحديث من طريقين: الاول <كُتِبَ رسول الله... وأُوحِيَ [إلى] رسول الله يوم الاثنين...> (مصدر سابق، ج ٣، ص ١١٢). وجاء في بعض الروايات كالأتي: استنبي النبي (ص) يوم الاثنين وأسلم علي يوم الثلاثاء. (ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ص ٢٢٩؛ الجويني الخراساني، فرائد السمطين (بيروت: مؤسسة المحمودي للطباعة والنشر، الطبعة ١، ج ١، ص ٢٤٤). وقد أكد علي (ع) هذا المعنى بقوله: بُعث رسول الله (ص) يوم الاثنين وأُسْلِمْتُ يوم الثلاثاء. (السيوطي، تاريخ الخلفاء، (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة ٣، ١٣٨٣هـ.)، ص ١٦٦؛ الشيخ محمد الصبان، اسعاف الراغبين، في حاشية نور الأبصار، ص ١٤٨؛ احمد بن حجر الميمني المكي، الصواعق المحرقة (القاهرة: الطبعة ٢، ١٣٨٥هـ. ١٢٠).
٣ - فتح البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح، الخطبة ١٩٢، المُسمّاة بالقاصعة.

١٣٢..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

٤- وتحدث امير المؤمنين X في موضع آخر عن سبقه الى الإسلام، قائلاً: <اللهم اني اول من أناب، وسمع وأجاب، لم يسبقني الا رسول الله بالصلاة>^١.

٥- وقال أيضاً: <انا عبد الله واخو رسوله وانا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدى الا كاذب مفتر. صليت مع رسول الله قبل الناس سبع سنين>^٢.

٦- قال عفيف بن قيس: كنت في زمن الجاهلية تاجر عطر، فجئت الى مكة فنزلت على العباس بن عبد المطلب [احد تجار مكة وعم الرسول] قال: فلما طلعت الشمس وحلقت في السماء وأنا أنظر إلى الكعبة، أقبل شاب، فرمى ببصره إلى السماء، ثم استقبل الكعبة، فقام مستقبلها، فلم يلبث حتى جاء غلام، فقام عن يمينه. قال: فلم يلبث حتى جاءت امرأة، فقامت خلفهما، فرقع الشاب، فرقع الغلام والمرأة، فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة، فخر الشاب ساجداً فسجداً معه، فعجبت حين رأيت هذا المشهد، ونظرت هؤلاء الثلاثة في مركز عبادة الاصنام يمارسون شعائر دين آخر غير عبادة الأصنام، فقلت: يا عباس، أمر عظيم! فقال: أمر عظيم! أتدري من هذا؟ فقلت: لا، قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ابن أخي. أتدري من هذا معه؟ قلت: لا. قال: هذا علي بن أبي طالب بن عبد المطلب، ابن أخي. أتدري من هذه المرأة التي خلفهما؟ قلت: لا، قال: هذه خديجة بنت خويلد، زوجة ابن أخي، وهذا حدثني أن ربك رب السماء، أمرهم بهذا الذي تراهم عليه، وإيم الله ما أعلم على ظهر الأرض كلها أحداً على الدين غير هؤلاء الثلاثة^٣.

١ - المصدر السابق، الخطبة ١٣١.

٢ - الطبري، مصدر سابق، ج٢، ص٢١٢؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٥٧. وجاء له قول بهذا المضمون في المستدرک على الصحيحين، ج٣، ص١١٢؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٣، ص٢٠٠ و٢٢٨؛ راجع: مناقب علي بن أبي طالب، ابو بكر احمد بن موسى مردويه الاصفهاني، جمع وترتيب ومقدمة عبد الرزاق محمد حسين حرز الدين (قم: دار الحديث، الطبعة ١، ١٤٢٢هـ)، ص٤٧ - ٤٨.

٣ - الطبري، مصدر سابق، ج٢، ص٢١٢؛ ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج١٣، ص٢٢٦. نقل ابن أبي الحديد هذه القضية عن عبد الله بن مسعود، بأنه شاهد في سفره إلى مكة مثل هذا المشهد. (الحلي، السيرة الحلبية، ج١، ص٤٣٦. وأيضاً راجع: ابن عبد

البعثة والدعوة

وهذه القضية تظهر بكل جلاء انه في بداية دعوة الرسول^١ لم يؤمن بدعوته سوى زوجته خديجة، إلا علي.

ان سبق الى الإسلام أفضلية اكد عليها القرآن الكريم معلناً:

{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ}¹.

بلغ اهتمام القرآن بالاسبقية الى اعتناق الإسلام والايمان بالرسالة الى حد ان جعل من آمنوا قبل فتح مكة وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، أعلى درجة ممن آمنوا بعد الفتح وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم:

{لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى}².

يكمن سر أهمية ايمان من آمنوا قبل فتح مكة (الذي وقع في السنة الثامنة للهجرة) في انهم آمنوا في وقت لم يكن فيه للإسلام قوة في شبه جزيرة العرب، وكانت قاعدة عبدة الأصنام — أي مدينة مكة — لازالت باقية كقلعة لا تُهزم، وكانت هناك أخطار تهدد ارواح المسلمين واموالهم من كل صوب. وبطبيعة الحال احرز المسلمون درجة من التقدم وحصلوا على شيء من الأمان وانتصروا في كثير من الوقائع العسكرية في اعقاب هجرهم الى المدينة وانضمام قبيلتي الاوس والخزرج والقبائل المجاورة للمدينة الى الإسلام، غير ان الاخطار كانت لاتزال تهدد بهم. فاذا كان للايمان بالإسلام وبذل الاموال والأنفس في مثل تلك الظروف مثل هذه الأهمية، فمن المؤكد ان لهذا العمل أهمية اكبر وأفضلية أعظم في بداية دعوة الرسول حيث لم تكن هناك قوة سوى قوة قريش ولا سلطة الا سلطتها.

البر، الاستيعاب، (في حاشية الإصابة) ج ٣، ص ١٦٥، سيرة عفيف بن قيس الكندي، ص ٣٣، سيرة علي (ع)، مع اختلاف ضئيل في اللفظ. >محمد بن اسحاق، السير والمغازي، تحقيق: الدكتور سهيل زكار، (بيروت: دار المعرفة، الطبعة ١، ١٣٩٨هـ). ص ١٣٧ - ١٣٨، ابو الفتح الكراچكي، كنز الفوائد، (قم: دار الذخائر، الطبعة ١، ١٤١٠هـ)، ج ١، ص ٢٦٢. للاطلاع على مزيد من المعلومات في هذا المجال، حول سبق علي إلى الاسلام، راجع: الغدير، ج ٢، ص ٣١٤؛ ج ٣، ص ٢٢٠ - ٢٢٤.

١ - سورة الواقعة (٥٦)، الآيات ١٠ - ١١.

٢ - سورة الحديد (٥٧)، الآية ١٠.

١٣٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

ولهذا السبب كان السبق الى الإسلام من المناقب المهمة بين الصحابة. وفي ضوء ما سبق ذكره تتضح لنا مدى أهمية سبق علي^٢ في الإسلام.

الجماعات السَّابِّقة في دخول الإسلام

كانت هناك جماعتان سَبَّاقَتان الى دخول الإسلام من بين الشرائح والمكوّنات الاجتماعية آنذاك، وهما:

أ - الشباب

يظهر لنا من خلال استطلاع قائمة المسلمين الاوائل وملاحظة الشواهد الاخرى أنّ معظم المسلمين الاوائل كانوا من الشباب. اما الشيوخ وكبار السن فقد كانوا من المحافظين وكانت ثقافة عبادة الأصنام متجذرة في افكارهم. في حين ان الشباب — بحكم شباهم — كانت عقولهم واذهانهم مستعدة لقبول الافكار والمعتقدات الجديدة. وهذا المعنى يصدق الى حد ما على الثورات الفكرية والدينية. ويتبيّن من إحدى الروايات التاريخية ان مجموعة من الشباب والضعفاء اعتنقت الإسلام في مرحلة الدعوة السرية للرسول^٣.

عندما بدأ الرسول يصدع بالدعوة ويجاهر بالرسالة وكثر عدد اتباعه، جزعت قريش من ذلك ومشوا الى ابي طالب وقالوا: كف عنا ابن اخيك، فانه قد سفّه أحلامنا، وسبّ آلهتنا، وأفسد شبابنا وعييدنا...^٤.

وعندما ذهب الى الطائف لدعوة اهلها الى الإسلام أقام هناك عشرة أيام لا يدع احداً من اشرافهم الا جاءه وكلمه، فلم يجيبوه، وخافوا على احداثهم، وقالوا يا محمد اخرج من بلدنا^٥. وبعد هجرة المسلمين الى الحبشة، عندما دخل مبعوثا قريش على النجاشي ليكلّماه

١ - ابن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر)، ج ١، ص ١٩٩.

٢ - البلاذري، انساب الاشراف، تحقيق: محمد حميد الله، (القاهرة: دار المعارف، الطبعة ٣)، ج ١، ص ٢٢٩؛ راجع: بخار الانوار، ج ١٨، ص ١٨٥.

٣ - ابن سعد، مصدر سابق، ج ١، ص ٢١٢.

البعثة والدعوة

في رد المهاجرين الى قومهم، شكوا إليه — ضمن حوارهم معه — ميل شبّان مكّة الى الإسلام^١.

وروي ان رجلاً من هذيل دخل مكّة، فرآه النبي^٢ فدعاه الى الإسلام واخبره بالحق. فقام إليه ابو جهل فقال: انظر إلى ما يقول لك، فاباك ان تركزن الى قوله. فقال له الهذلي: ولماذا لا تخرجوه من دياركم؟ قال ابو جهل: لو اخرجناه وسمع الفتيان حلاوة كلامه لاتبعوه، وربما يغزونا بهم^٣.

وشكا عتبة — احد اشراف قريش — في لقائه اسعد بن زرارة — احد كبار بني الخزرج في يثرب — شكاً إليه ميل الشباب الى رسول الله^٤.

يتضح عند تصفّح قائمة المسلمين الاوائل ان اكثرهم كانوا عند دخولهم في الإسلام لا تربو اعمارهم عن ثلاثين سنة. نذكر منهم على سبيل المثال سعد بن ابي وقاص الذي كان عمره ١٧^٥، أو ١٩ سنة^٦، والزيير بن العوام ١٥^٧ أو ١٦ سنة^٨، وكان عمر عبد الرحمن بن عوف ٣٠ سنة؛ لأنه ولد بعد عام الفيل بعشر سنين^٩. وكان سنّ مصعب بن عمير يناهز ٢٥ سنة؛ لأنه كان يبلغ ٤٠ سنة^{١٠} عند استشهاده في معركة احد (في السنة الثالثة للهجرة). وأما الارقم الذي وضع داره تحت تصرف الرسول^{١١} فقد كان بين ٢٠ و ٣٠ سنة من العمر؛ وذلك لأنه عندما توفي — في عام ٥٥هـ — كان يبلغ من العمر ثمانين

١ - ابن هشام، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٥٨؛ الطبرسي، إعلام الوری (طهران: دار الكتب الاسلامية، الطبعة ٣)، ص ٤٤؛ سبط

ابن الجوزي، تذكرة الخواص (النجف: المكتبة الحيدرية، ١٣٨٣هـ)، ص ١٨٦.

٢ - البلاذري، مصدر سابق، ص ١٢٨.

٣ - الطبرسي، مصدر سابق، ص ٥٦.

٤ - ابن سعد، مصدر سابق، ج ٣، ص ١٣٩.

٥ - الحلبي، السيرة الحلبية (بيروت: دار المعرفة)، ج ١، ص ٤٤٦.

٦ - الحلبي، مصدر سابق، ج ١، ص ٤٣٤.

٧ - ابن سعد، مصدر سابق، ج ٣، ص ١٠٢.

٨ - المصدر السابق، ص ١٢٤.

٩ - ابن سعد، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٢٢.

ب - المحرومون والمظلومون

المراد من هذه الجماعة التي ذكرت في المصادر الإسلامية باسم <الضعفاء> و<المستضعفون> هم العبيد او المعتوقون الذين يبقون — حسب التقاليد العربية — على علاقة مع اسيادهم السابقين ويُطلق عليهم اصطلاحاً <الموالي>. والقسم الآخر من المستضعفين هم الغرباء الذين وفدوا من مناطق اخرى وسكنوا مكّة. وبما انهم كانوا يفتقرون الى العلاقات القبلية، فقد كان عليهم الانضمام الى قبيلة اخرى قوية والانضواء تحت لوائها للحفاظ على انفسهم واموالهم. بيد ان هؤلاء الافراد لم يكونوا على قدم المساواة مع افراد قبيلة قريش، وانما كانوا يصنّفون ضمن طبقة اجتماعية ادنى.

وهذه الجماعة قوم مستضعفون لا عشائر لهم بمكّة وليست لهم منعة ولا قوّة^٢. وكانوا سبّاقين الى دخول الإسلام. وقد شقّ على المشركين اسلامهم واتخذوا ذلك ذريعة مناسبة لتحقير المسلمين. وقد جاء في رواية ان الملاء من قريش مرّوا على رسول الله^٣ وهو جالس في المسجد وعنده جماعة من ضعفاء المسلمين مثل: عمار بن ياسر، والخباب بن الأثر، وصهيب بن سنان، وبلال بن رباح، وابو فكيهة، وعامر بن فهيرة. فقالوا: يا محمد! ارضيت هؤلاء من قومك. أهؤلاء الذين من الله عليهم [بأن آمنوا واهتدوا]^٤.

وذات يوم مرّ جماعة من اشراف قريش على مجلس للنبي^٥ فوجدوه قاعداً مع صهيب، والخباب، وبلال، وعمار وامثالهم. فقالوا له: يا محمد! ارضيت هؤلاء من قومك؟ افنحن نكون تبعاً لهم؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم [وهدهم]؟ اطردهم عنك، فلعلّك ان طردتهم

١ - ابن سعد، مصدر سابق، ج٣، ص٢٤٤؛ ألف الكاتب المصري عبد المتعال الصعيدي كتاباً تحت عنوان شباب قريش في بدء الاسلام سرد فيه أسماء شباب قريش الاوائل الذين بادروا إلى اعتناق الاسلام قبل غيرهم. وقد رتبهم تبعاً لأعمارهم. وجاء على رأس القائمة اسم علي (ع). (ص ٣٣ - ٣٤).

٢ - البلاذري، مصدر سابق، ج١، ص١٥٦ و١٨١؛ راجع: الطبقات الكبرى، ج٣، ص٢٤٨.

٣ - المصدر السابق.

..... البعثة والدعوة

تبعناك! فأنزل الله تعالى الآيتان ٥٢ و ٥٣ من سورة الانعام^١:

{وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ}٢.

في السنوات الاولى من رسالة الرسول اوفدت قريش مبعوثين الى يهود يثرب وقالوا لهم: سلوهم عن محمد. فقدموا المدينة فقالوا: اتيناكم لأمر حدث فينا غلام يتيم حقيق يقول قولاً عظيماً؛ يزعم انه رسول الرحمن ولا نعرف الرحمن الا رحمان اليمامة. قالوا: صفوا لنا صفته. فوصفوه لهم. قالوا: فمن تبعه منكم؟ قالوا: سفلتنا. فضحك خبر منهم وقال: هذا هو النبي الذي نجد نعته، ونجد قومه اشد الناس له عداوة^٣.

ان الانحياز السريع للمستضعفين الى صف الإسلام لا يعني ابداً ان الإسلام نظام مصلحي، او معني بالدفاع عن المصالح الطبقية، وانما كان يتسم برفضه للتسلط وسلطة الانسان على اخيه الانسان، والدعوة الى الايمان بسيادة الله. وهذا ما كان يهدد القوة الاجتماعية للمستكبرين والسلطويين اكثر من أي شيء آخر ويستثير معارضتهم، مثلما حصل في زمن الانبياء السابقين:

{فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْفِرُوا بِآيِ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ}٤.
{قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنْ صَلَحَ مُرْسَلٌ مِّنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ

١ - الطبرسي، مجمع البيان، ج٢، ص٣٠٥.

٢ - سورة الانعام (٦)، الآيات ٥٢ - ٥٣.

٣ - ابن سعد، مصدر سابق، ج١، ص١٦٥؛ الحلي، مصدر سابق، ج١، ص٤٩٩.

٤ - سورة هود (١١)، الآية ٢٧.

١٣٨..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي^١

اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ^٢.

دعوة عشيرته

بعد ثلاث سنوات من بدء الدعوة، نزل ملك الوحي يحمل أمر الله عز وجل الى النبي لينذر عشيرته الأقربين: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْضَعْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ^٢}.^١

لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله^١ علياً^٢ فأمره ان يصنع طعاماً ويدعو له بني عبد المطلب ليكلّمهم ويبلغهم. فصنع علي الطعام ثم دعاهم وهم يومئذ اربعون رجلاً يزيدون رجلاً او ينقصونه، وفيهم اعمامه ابو طالب، وحمة، وابو لهب. وكان الطعام قليلاً ولا يكفي لهذا العدد في الظروف العادية، ولكن القوم أكلوا حتى شبعوا جميعاً. فقام ابو لهب وقال: لقد سحركم صاحبكم.

وعندما اطلق ابو لهب هذه الجملة ذهبت الأجواء التي كانت معدّة لطرح تلك الدعوة وانفض القوم ولم يكلّمهم الرسول^١.

وفي اليوم التالي أمر الرسول^١ علياً ان يفعل كما فعل آنفاً. وبعد ان اكلوا وشربوا. ثم تكلم رسول الله^١ فقال: اني والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به؛ اني جئتكم بخير الدنيا والآخرة. وقد امرني الله عز وجل ان ادعوكم إليه؛ فأياكم يؤمن بي ويؤازرني على أمري فيكون اخي ووصيي وخليفتي؟

فأمسك القوم واحجموا عنها جميعاً. فقام علي^١ وكان أصغرهم سناً فقال: <انا ياني الله اكون وزيرك على ما بعثك الله به>. فأخذ رسول الله^١ بيده ثم قال: <ان هذا اخي ووصيي ووزير

١ - سورة الاعراف (٧)، الآيات ٧٥ - ٧٦.

٢ - سورة الشعراء (٢٦)، الآيات ٢١٤ - ٢١٦.

البعثة والدعوة

وخليفتي فيكم . فاسمعوا له وأطيعوا^١.

هذه القضية تنتهي بنا الى مطلب أساسي وهو ان <النبوة> و<الامامة> يمثلان مبدأً متماسكاً لا يقبل التجزئة؛ وذلك لأن النبي^١ قد طرح قضية الامامة والقيادة المستقبلية للمسلمين منذ السنوات الاولى لرسالته، ومنذ اليوم الذي صرح به بنبوته.

وعلى صعيد آخر، ينبغي ان لا يُظن بأن النبي^١ قد طرح قضية امامة علي^٢ مرة واحدة فقط — في غدير خم (في الأشهر الاخيرة من عمره) — بل انه قد طرح هذه القضية — فضلاً عن مجلس عشيرته الاقربين — في مواقف اخرى أيضاً (كحديث المنزلة). ولاشك طبعاً في ان الحديث كان اكثر هذه المواقف تفضيلاً، واكثرها شهود عيان.

وفي ضوء ترتيب نزول السور يمكن الاستنباط بأن دعوة عشيرته جاءت قبل الدعوة العلنية بمدة^٢.

١- هذه القضية معروفة بين علماء المسلمين باسم <بدء الدعوة>، <يوم الدار>، <يوم الانذار>. وقد نقلها عدد كبير من المفسرين والمؤرخين مع اختلاف ضئيل في اللفاظ، نذكر منهم: محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢١٧؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٦٣؛ ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٣، ص٢١١؛ البيهقي، دلائل النبوة، ج١، ص٢٧٨؛ الطبرسي، مجمع البيان، ج٧، ص٢٠٦؛ الشيخ المفيد، الارشاد، ص٢٩؛ علي بن موسى بن طاووس، الطوائف في معرفة مذاهب الطوائف، ج١، ص٢٠؛ الحلبي، السيرة الحلبية (انسان العيون)، ج١، ص٤٦١؛ المجلسي، بحار الانوار، ج١٨، ص١٧٨؛ ١٨١، ١٩١، ٢١٤؛ العلامة الاميني، الغدير، ج٢، ص٢٧٨-٢٨٩؛ السيد مرتضى العسكري، نقش ائمه در احياء دين، ج٢، ص٨٦؛ ج٦، ص١٧-١٨؛ احمد بن حنبل، المسند، ج١، ص١٥٩.

تجدر الإشارة - كما تبّه الى ذلك المرحوم العلامة الأميني - الى ان الطبري ذكر هذه القضية في تاريخه بالنحو الذي ذكرناه آنفاً، ولكنه في تفسيره (جامع البيان، ج١٩، ص٧٥) بتر كلام رسول الله الذي يقول فيه في موضعين (وصي وخليفتي)، واستخدم بدلاً منه عبارة <كذا وكذا> وذكره هكذا: فايكم يؤازري على هذا الأمر على ان يكون اخي وكذا وكذا، ثم قال: ان هذا اخي وكذا وكذا فاسمعوا له واطيعوه>. وتبعه على هذا النهج اسماعيل بن كثير الشامي في كتبه الثلاثة: التفسير، ج٣، ص٣٥١؛ البداية والنهاية، ج٣، ص٤٠، سيرة النبي، ج١، ص٤٣٩. ونظراً الى طبيعة الفكر الذي يحمله هذان الشخصان، فليس من الصعب ادراك دافعهما من وراء هذا العمل.

٢ - نزلت سورة الشعراء التي فيها آيات الانذار، بعد سورة الواقعة، ثم نزلت بعدها سور: النمل، والقصاص، والاسراء، وهود،

١٤٠..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى وفاة النبي ١

الفصل الثاني

الدعوة العلنية وبدء المعارضة

بداية الدعوة العلنية

بعدة مدة من بدء الرسول^١ للدعوة السرية الى الإسلام، تلقى امراً من الله تعالى بالمجاهرة بالدعوة وعدم الخوف من المشركين: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ^١}.
فأظهر أمره وأقام بالأبطح^٢ فقال:

<اني رسول الله ادعوكم الى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر ولا تخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت>^٣.

ومنذ ذلك الوقت دخلت دعوة الرسول^١ مرحلة جديدة اذ أخذ يدعو الى التوحيد في

١ - سورة الحجرات (٩٤)، الآيتان ٩٤ - ٩٥.

٢ - الابطح: مسيل كان قرب منى (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٧٤). ويبدو ان هذا الموقف حصل اثناء الحج وعند اجتماع الحجاج.

٣ - تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ١٩. نقلت الدعوة العلنية للرسول بصور اخرى أيضاً. ويبدو انه كان يدعو عبدة الاوثان بكلمات مشابهة خلال فواصل زمنية قصيرة. راجع: تاريخ يعقوبي، مصدر سابق، ص ١٩؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢١٦؛ البلاذري، انساب الاشراف، ج ١، ص ١٢١؛ البيهقي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٧٩؛ الطبرسي، اعلام الوري، (طهران: دار الكتب الإسلامية، الطبعة ٣)، ص ٣٩؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ١٨، ص ١٨٥؛ الخلي، مصدر سابق، ج ١، ص ٤٦١.

التجمّعات وفي موسم الحج، في منى وبين القبائل المجاورة لمكة.

محاولات قريش

في بداية الدعوة العلنية للرسول^١، لم يبعد منه قومه ولم يردّوا عليه بعض الرد، ولكن بعد ما ذكر آلهتهم وعابها ناكروه وأجمعوا على خلافه وعداوته^٢. وبما ان النظام القبلي الذي كان سائداً في مكة كان يعني انهم لو تعرضوا لمحمد^٣ لواجهوا خطر الانتقام من بني هاشم. وبعدما قلب اشراف قريش وجوه الامر توصلوا الى نتيجة مفادها ان افضل طريقة لكف محمد^٤ عن مواصلة دعوته هي ان يستغلوا نفوذ عمّه ابي طالب وما كان يكتنه من احترام لعمّه، لكي يمنع ابن اخيه عن الاستمرار على هذا النهج. وبناءً على ذلك عقدوا عدّة لقاءات مع ابي طالب وطلبوا منه في ضوء ماله من كريم النسب، والشرف والسن، والمكانة المرموقة ان ينهى ابن اخيه عن سب آلهتهم وتقييح ديانتهم ووصفهم بالجهل ووصف آبائهم بالضلال. وكانوا خلال تلك اللقاءات يتعاملون مع ابي طالب بالتهديد تارة، وبعرض المال والثروة والرئاسة تارة اخرى. وبعدما يتسوا من الحصول على النتيجة المطلوبة عرضوا على ابي طالب ان يعطوه عمارة بن الوليد — وكان اجمل واقوى واشعر فتى في قريش — وان يسلمهم في مقابل ذلك محمداً^٥ ليقتلوه — وجاءوه مرّة وهددوه بالقتل هو وابن اخيه، فما كان من رسول الله^٦ إلا أن قال:

والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان أترك هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فيه، ما تركته^٧.

١ - الطبري، مصدر سابق، ج٢، ص٢١٨؛ ابن هشام، سيرة النبي، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٥ هـ.)، ج١،

ص٢٨٢؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص١٩٩؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٦٣.

٢ - الطبري، مصدر سابق، ج٢، ص٢٢٠ - ٢١٨؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج١، ص٢٨٢ - ٢٨٧ و٣١٣، ٣١٦؛ البيهقي،

مصدر سابق، ج١، ص٢٨٢؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج١، ص٢٠٢ - ٢٠٣؛ البلاذري، مصدر سابق، ج١، ص٢٣١ -

٢٣٢؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٦٣ - ٦٥؛ الحلبي، مصدر سابق، ج١، ص٤٦٢ - ٤٦٣؛ ابن كثير، السيرة

النبوية (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٣٨٣ هـ.)، ج١، ص٤٧٩؛ المجلسي، مصدر سابق، ج١٨، ص١٨٥.

وفقاً لهذا الخبر لا يبدو هناك تناسب في الظاهر بين تهديد قريش وجواب الرسول بالشمس والقمر، وهناك جدل حول سند هذا

الدعوة العلنية وبدء المعارضة

اعلان حماية ابي طالب

في اعقاب التهديدات التي اطلقتها قريش، اعلن ابو طالب (تحت ذريعة القرابة) مساندته لرسول الله، واستنفر بني هاشم المسلم منهم والكافر للدفع عن الرسول والقيام بدوره. ووجه انذاراً لقريش إتهم إن تعرضوا لابن اخيه بسوء فسيواجهون رداً قاسياً من بني هاشم^١. وبما ان الحروب القبلية كانت عملاً خطيراً وتنجم عنه عواقب وخيمة، ولم يكن قادة قريش على استعداد لمجابهة مثل هذا الخطر، لذلك لم يتمكنوا من تنفيذ تهديداتهم، وتحملوا الخيبة والفشل. وكان الشخص الوحيد من بني هاشم الذي وقف الى صف الاعداء هو ابو لهب.

اسباب ودوافع معارضة قريش

والسؤال الذي يُثار هنا هو: لماذا رفعت قريش عقيرة المعارضة والمخالفة منذ السنوات الاولى للدعوة العلنية للرسول^١ في وقت لم يكن قد نزل من تعاليم الإسلام واحكام القرآن إلا الشيء اليسير؟ وما الخطر الذي استشعره هؤلاء القوم من الآيات التي نزلت في السنوات الاولى لرسالة النبي؟ وهل جاء اصطفاؤهم في ذلك الخندق الواحد نتيجة لتمسكهم بالاصنام وعبادتها، أم كانت هناك عوامل اخرى؟ (الكلام يدور هنا هو دوافع اشراف وزعماء قريش، وأما عموم الناس فكانوا تبعاً لزعماء قبائلهم، ولم يكن من الصعب اثاره مشاعرهم واستنفارهم ضد الدين الجديد؛ وذلك لأنهم كانوا شديدي التمسك

الخبر. ولكن هناك مصادر اخرى ذكرت رداً يتناسب مع تهديد قريش، وهو ان رسول الله (ص) بعد ان سمع تهديد قريش على لسان عمه حلق بيصره الى السماء فقال: >والله ما أنا بأقدر ان ادع ما يُعْتَبُ به من ان يشعل احدكم من هذه الشمس شعلة من نار>. وهنا قال ابو طالب لمبعوثي قريش: والله ما كذب ابن اخي قط، ارجعوا راشدين! (الحافظ نور الدين الهيثمي، مجمع الزوائد، بيروت، دار الكتب، ج٦، ص١٥. نقلاً عن المعجم الاوسط والكبير للطبراني، ومسند ابي يعلى). وقد وصف الهيثمي سند رواية ابي يعلى بانه سند صحيح. وراجع أيضاً: فقه السيرة، محمد الغزالي، عالم المعرفة، ص١١٤ - ١١٥.

١ - ابن هشام، مصدر سابق، ص٢٨٧؛ الطبري، مصدر سابق، ص٢٢٠؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل ابي طالب (قم: المطبعة العلمية)، ج١، ص٥٩؛ ابن الاثير، مصدر سابق، ص٦٥؛ ابن كثير، مصدر سابق، ص٤٧٧؛ الحلي، مصدر سابق، ص٤٦٣.

١٤٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي

معتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم بحيث انهم كانوا يجاهون أي دين جديد...^١.
ونظراً الى ما كانت تتمتع به قريش من سلطة ونفوذ ومكانة في مكة، فرمما لن يكون من الصعب ادراك سبب مخالفتهم، اذ ان هذه القبيلة — وكما بينا في بحثنا حول تجارة قريش وسدانة الكعبة — قد استحوذت على المقدّرات الاقتصادية والاجتماعية في مكة، ولم تكن مستعدة لقبول ظهور أي منافس لها، ولم تكن تسمح لأحد بعمل شيء من غير موافقتها وخلافاً لمشيئتها. فهذه القبيلة كانت تفرض الجباية على القبائل الاخرى وتتبع اساليب التمييز معها وتفرض سياستها على حجاج بيت الله.
وفي ضوء ذلك يبدو من الطبيعي ان لا يرتضي اشراف قريش هذا الدين الجديد الذي جاء به رسول الله^١، اذ انهم ادركوا منذ اوائل كلامه ان دينه يتعارض مع الدين الذي ارتضوه؛ وعلاوة على ذلك كانوا يتوقعون ان تؤمن جماعة بهذا الدين وستكون له شهرة. وهذا ما يتعارض طبعاً مع كبرياء قريش.
ومع كل ذلك ومن خلال استقراء السور والآيات المكية الاولى، وغيرها من الوثائق والشواهد، يمكننا استنتاج مجموعة من أهم الأسباب والعوامل التي دعتهم الى معارضة النبي منذ السنوات الاولى للدعوة.

١- الخشية من انهيار النظام الاجتماعي

بما ان النظام الاجتماعي السائد في مكة كان نظاماً قَبلياً وكانت قريش تحظى في ظله بامتيازات هائلة، فهذا يعني ان هذه المدينة كان يسودها حكم اشراف ونبلاء قريش. وقد أَلَفَ سادة قريش هذا النظام وكان من المزعج لهم ان يحصل أي مساس به. في حين كان اوائل المنضمين الى النبي^١ هم الشباب، والضعفاء، والمحرومون، والعيبد. يُضاف الى ذلك انه هو أيضاً لم يكن من الأشراف، وانما كان في صغره يتيماً، وفي شبابه مُعَدماً، ويُعد

١ - ذكر الله تعالى في عدة مواضع من كتابه الكريم تعصبهم الديني وتبعيتهم لأسلافهم وتمسكهم بالعادات والتقاليد الموروثة، وذم هذه الصفة فيهم، ومن الامثلة على ذلك: سورة البقرة (٢)، الآية ١٧٠؛ سورة المائدة (٥)، الآية ١٠٤؛ سورة يونس (١٠)، الآية ٧٨؛ سورة لقمان (٣١)، الآية ٢١؛ سورة الزخرف (٤٣)، الآيتان ٢٢ - ٢٣.

الدعوة العلنية وبدء المعارضة

ضمن التصنيف القبلي من افراد الدرجة الثانية من بني هاشم. وكان عمه ابو طالب رغم شرف نسبه قليل ذات اليد. وكانت كل هذه المؤشرات بمثابة تحذيرات ونذر لزعماء قريش بأن دعوة الرسول محمد^١ تهدد بزعزعة اسس نظامهم الاجتماعي. ولاحظنا كيف انهم عبروا عن تذمرهم وسخطهم ازاء نزوع الشباب والمحرومين والعبيد نحو هذه الدعوة الجديدة. فالمبعوثون الذين اوفدتهم قريش الى الحبشة لاستعادة من هاجر اليها من المسلمين، عرفوا انفسهم في بلاط النجاشي بالقول: <وقد بعثنا فيهم اشراف قومهم>^١.

وقد كشف القرآن الكريم عن تفكيرهم النبلائي هذا عند اعتراضهم على بعثة الرسول^٢ وقولهم: لماذا لم يبعثه الله من بين اشراف مكة أو الطائف:

{وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْثَيْنِ عَظِيمٍ}^٣.

ويقيد أحد التفاسير أن المراد من الرجل العظيم الوليد بن المغيرة رئيس قبيلة بني مخزوم، وعروة بن مسعود الثقفي (وكان ذا اموال عظيمة) من الطائف^٤. وقد كتبوا في شأن نزول هذه الآية ما يلي: ان الوليد بن المغيرة قال: أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأُتْرِكَ، وأنا كبير قريش وسيدها^٥!

إذا فقريش حاربت دعوة النبي^٦ ابتداءً بسبب ما رآته فيها من تهديد لنظامها الاجتماعي وليس باعتبارها ديناً جديداً.

٢. المخاوف الاقتصادية

يرى بعض الباحثين المعاصرين ان الدافع الاقتصادي كان من العوامل القوية لمقاومة قريش لدعوة الرسول؛ وذلك لوجود مجموعة من الآيات المكية التي تدم بشدة أصحاب

١ - ابن هشام، سيرة النبي، ج ١، ص ٣٥٨.

٢ - سورة الزحرف (٤٣)، الآية ٣١.

٣ - الطبرسي، مجمع البيان، ج ٩، ص ٤٦.

٤ - ابن هشام، سيرة النبي، ج ١، ص ٣٨٧؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ٥٠.

١٤٦..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

الثروة والمال. فكبار الاثرياء وأصحاب رؤوس الاموال في مكة — الذين اطلعنا على الثروات الهائلة للبعض منهم في بحث تجارة وسدانة قريش — استشعروا الخطر عند سماع هذه الآيات، ورأوا ان نجاح هذه الدعوة سيكون بمثابة تهديد لمصالحهم الاقتصادية. ومن الأمثلة على تلك الآيات:

{ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا *
وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ
* كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا^١.
{سَاطِئِهِ سَقَر * وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَقَر * لَا تُبْقِي وَلَا
تَذَر * لَوَاحِةً لِّلْبَشَر^٢.
{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا
كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ^٣.
{وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ *
يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا
أَذْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطْلِعُ
عَلَى الْفَاقِدَةِ^٤.
{فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ
لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى *
فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى^٥.

يفهم من خلال التدقيق في نصوص هذه الآيات ومن دراسة شأن نزولها، يبدو لنا أنها نزلت في اعقاب ما بان منهم من معارضة لدعوة النبي^١ (لم يكن سبب ذلك المعارضة

١ - سورة المدثر (٧٤)، الآيات ١١ - ١٦.

٢ - سورة المدثر (٧٤)، الآيات ٢٦ - ٢٩. اعتُبرت سورة المدثر السورة الرابعة في ترتيب النزول (التمهيد في علوم القرآن، ج١، ص١٠٤).

٣ - سورة المسد (١١١)، الآيات ١ - ٣. اعتُبرت سورة المسد السورة السادسة في ترتيب النزول (التمهيد في علوم القرآن، ج١، ص١٠٤).

٤ - سورة الهمة (١٠٤)، الآيات ١ - ٧.

٥ - سورة الليل (٩٣)، الآيات ٥ - ١١. اعتُبرت هذه السورة التاسعة في ترتيب النزول (التمهيد في علوم القرآن، ج١، ص١٠٤).

الدعوة العلنية وبدء المعارضة

المبدئية). ولعلّها كانت ذات تأثير في تكريس تلك المعارضة والعداء وزيادة عدد الخصوم. وعلى أية حال فقد كان كبار تجار مكّة واصحاب رؤوس الاموال فيها على رأس الخصوم والمعارضين للنبي^١.

ورد في احد النصوص التاريخية ما يلي:

فان رسول الله^٢ لما دعا قومه لما بعثه الله من الهدى والنور الذي أنزل عليه، لم يبعدوا منه اول ما دعاهم، وكادوا يسمعون له، حتى ذكر طواغيتهم. وقدم ناس من الطائف^٣ من قريش لهم اموال، انكروا ذلك عليه، واشتدوا عليه وكرهوا ما قال، وأغروا به من اطاعهم؛ فانصفق عنه عامة الناس فتركوه^٤.

٣- الخوف من القوى المجاورة

نقل القرآن الكريم اقوالهم التي اعرّبوا فيها عن تخوفهم من هجوم الدول والقوى المجاورة فيما لو انهم دخلوا مع الرسول في الإسلام، وقد تلك المخاوف معتبراً انها بعيدة عن الواقع:

١ - يبدو ان هؤلاء كانوا يستثمرون اموالهم في الطائف، وكان لهم - اضافة الى مكة - مركز تجاري هناك.

٢ - الطبري، تاريخ الأمم والملوك (بيروت: دار القاموس الحديث)، ج ٢، ص ٢٢١.

الذين ينظرون الى حياة الانسان وتطور المجتمع من زاوية مادية فقط، يعزّون معارضة قريش للإسلام الى دوافع اقتصادية صرفة، ويعبرون لهذا الجانب أهمية تفوق الحد الطبيعي. والحقيقة هي انهم ينظرون الى القضية من بُعد واحد فحسب. ويمكن اعتبار تحليل وتقييم العالم الروسي بطروشفسكي - المتخصص بشؤون الاسلام وايران والاستاذ في كلية الاستشراق في جامعة لينينغراد - نموذجاً واضحاً لهذا النمط من التفكير في هذا المجال. حيث كتب ما يلي:

>... كان اشراف مكة من كبار المراءين وتجار الرقيق، وكانت لهم نظرة عدائية الى دعوة محمد [صولاً يمكن القول بأن التعصب الديني كان هو السبب الكامن وراء ذلك العداء، بل كانت دعوة محمد ضد عبادة الاصنام خطراً على المصالح التجارية والسياسية لمكّة؛ وذلك لأنه كان من المحتمل ان تؤدّي دعوته الى سقوط عبادة الكعبة (!!) وأصنامها!! ومثل هذا الوضع كان كفيلاً بايقاف تدفق الزوّار الى هناك، ويجلب على سوق مكّة الكساد ويؤدّي الى تدهور علاقاتها التجارية مع الاماكن الاخرى، وليس هذا فحسب بل كان من المحتمل أيضاً ان يؤدّي الى انهيار النفوذ السياسي لمكّة.

ولهذا السبب رأى اشراف مكّة في دعوة محمد خطراً على مصالحهم وابدوا العداء له. (اسلام در ايران، ترجمة كريم كشاورز، الطبعة ٧، طهران: دار نشر پیام، ١٣٦٣، ص ٢٦). وفي ضوء التعليقات التي عرضناها آنفاً في المتن لا تبقى ثمة حاجة لتوضيح وهن نظرية بطروشفسكي.

١٤٨..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

{وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطُفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ
نُتَمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا
مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}¹.

ونقل ان الحارث بن نوفل بن عبد مناف قال للنبي^١ : انا لنعلم ان قولك حق ولكن
يمنعنا ان نتبع الهدى معك ونؤمن بك مخافة ان يتخطفنا العرب من ارضنا ولا طاقة لنا
بالعرب^٢.

ويلاحظ من بين ثنايا كلامهم خشيتهم من سخط ملوك ايران وقياصرة الروم^٣. وهذا
ما يدل على شعور العرب بالضعف في مقابل الدول المجاورة. وهذا ما حصل يوماً حينما
دعا الرسول جماعة من وجهاء العرب الى الإسلام وتلا عليهم آيات من القرآن الكريم فيها
تعاليم اخلاقية وفطرية. فوقع في انفسهم موقعاً حسناً واعرب كل واحد منهم عن
استحسانه لها بأسلوب معين، ولكن كبيرهم وهو المشني بن حارثة قال:

وانا انزلنا بين صريين، أما احدهما فطفوف البر وارض العرب، وأما الآخر فأرض فارس
وانهار كسرى. وانما نزلنا على عهد اخذه علينا كسرى ان لا نحدث حدثاً ولا نؤوي
محدثاً. ولعل هذا الأمر الذي تدعونا إليه مما تكرهه الملوك. فأما مما كان يلي بلاد العرب
فذنبت صاحبه مغفور وعذره مقبول؛ واما ما كان يلي بلاد فارس فذنبت صاحبه غير
مغفور، وعذره غير مقبول^٤.

٤. التنافس والحسد القبلي

احدى النتائج التي تتمخض عن النظام القبلي، التفاخر والتنافس الحاد على مناقب ومآثر
كانت لها مكانتها بين القبائل آنذاك. ولما كان رسول الله^١ من رهط بني هاشم، فقد

١ - سورة القصص (٢٨)، الآية ٥٧.

٢ - الطبرسي، مجمع البيان، ج٧، ص٢٦٠؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل ابي طالب، (قم؛ المطبعة العلمية)، ج١، ص٥١.

٣ - مناقب آل ابي طالب، ج١، ص٥٩.

٤ - محمد ابو الفضل ابراهيم (وآخرون)، قصص العرب (بيروت: دار احياء التراث العربي، ١٣٨٢ هـ . ق)، ج٢، ص٢٥٨؛

ابن كثير، البداية والنهاية (بيروت: مكتبة المعارف، الطبعة ٢، ١٩٧٧م)، ج٣، ص١٤٤.

الدعوة العلنية وبدء المعارضة

أعرض زعماء البطون الأخرى عن الإيمان بنبوته انطلاقاً من التنافس والتحاسد القبلي (اذ ان نبوته سيكون فيها شرف وفخر لبني هاشم). وقد صرّح ابو جهل — الذي كان من بني مخزوم، وهو من اثرى واكثر بطون قريش نفوذاً وسلطة — بهذه الهواجس حين قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؛ اطعموا فاطعمنا، وحملوا فحملنا، واعطوا فأعطينا، حتى اذا تجاذبنا على الركب وكُنّا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذا؟! والله لا نؤمن به ابداً ولا نصدّقه^١.

وكان امية بن ابي الصلت أحد الاشراف والشعراء الكبار في الطائف. وكان في ما سبق من الحنفاء^٢. وهو لم يؤمن بالإسلام، انطلاقاً من هذا الواقع أيضاً. فهو كان لسنوات طويلة ينتظر النبي الموعود، ولكنه كان الى حد ما يتوقع ان يكون هو. ولما بلغه خبر مبعث النبي امتنع عن اتباعه استحياءً من نساء ثقيف وقال: <اني كنت احدثهنّ اني هو، ثم يريني تابعاً لغلام من بني عبد مناف>^٣.

١ - ابن هشام، مصدر سابق، ج١، ص٣٣٧؛ ابن شهر آشوب، ج١، ص٥٠؛ ابن كثير، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد

الواحد، (القاهرة: ١٣٨٤ هـ). ج١، ص٥٠٦ - ٥٠٧.

٢ - راجع: باب الأديان والمذاهب في جزيرة العرب وما جاورها - في هذا الكتاب -، موضوع الاحناف.

٣ - ابن كثير، السيرة النبوية، ج١، ص١٣٠.

الفصل الثالث

تداعيات معارضة قريش والإجراءات التي اتخذتها

إيذاء المسلمين وتعذيبهم

لما رأت قريش ان عدد المسلمين غدا يزداد يوماً بعد آخر، وانها لم تحصل على نتيجة من حوارها مع ابي طالب، وان بني هاشم قد نهضوا للدفع عن الرسول، ووجدت نفسها حينذاك عاجزة عن النيل منه، وثبت كل قبيلة على من فيها من اصحاب رسول الله الذي آمنوا معه، يعذبونهم أملاً في ان يردّوهم عن دينهم^١.

فالمشكلة التي واجهتها قريش هي ان الذين آمنوا بالرسول لم يكونوا من قبيلة واحدة او قبيلتين ليتسنى لهم ايقافهم عند حدّهم، ولكن كان هناك عدة افراد من كل قبيلة آمنوا بهذا الدين الجديد. وعند إلقاء نظرة على قائمة اسماء مهاجري الحبشة الذين اضطروا الى مغادرة مكة في اعقاب ما تعرضوا له من الضغوط والأذى على يد المشركين، يتبيّن انهم كانوا مجموعة من النساء والرجال الذين ينتمون الى قبائل شتى مثل: بني عبد شمس، وبني أسد، وبني عبد الدار، وبني زهرة، وبني مخزوم، وبني جمح، وبني عدي، وبني الحارث، وبني عامر، وبني أمية. وهذا ما دفع المشركين الى اتخاذ قرار بأن تعذب كل قبيلة من فيها من المسلمين، وان لا يتدخل في هذا العمل افراد من القبائل لكيلا يؤدي ذلك الى اثاره العصبية والقيام بأعمال معادية.

١ - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، (بيروت: دار القاموس الحديث)، ج ٢، ص ٢٢١.

١٥٢..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي

واكثر ما أصاب التعذيب الذين سبقوا الى الإسلام ولا عشائر لهم تمنعهم ولا قوة لهم يمنعون بها؛ ومنهم ياسر وابنه عمّار، وبلال بن رباح، والخباب بن الأرت، وابو فكيهة، وعامر بن فهيرة، وصهيب بن سنان؛ ومن النساء والحواري: سُمَيَّة، وام عُبَيْس (أو أم عُبَيْس)، وزَيْنِرة، وَلَبِيبة (أو لُبَيْنة)، وَهَدِيَّة^٢ ممن عذبوا بشكل أو آخر. فمنهم من عُدِّب بالجوع والعطش، أو السجن، أو الضرب، أو إلقائه على الرمال في شدة حرارة الرمضاء، أو يوضع عليه درع من حديد برمضاء مكّة اذا اشتد الحر، أو يربط من رقبته بحبل ويجرّه الصبيان.

الهجرة الى الحبشة

كان رسول الله^١ يجد نفسه تحت حماية ابي طالب وبني هاشم ولا سبيل لقريش الى النيل منه. ولكنه لما رأى ازدياد تعذيب وايداء الضعفاء من المسلمين أمرهم بالهجرة الى ارض الحبشة (كحل مؤقت) وقال لهم: **كَلُوا خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَإِنَّ بِهَا مَلَكًا لَا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ^٣**. ففي ذلك الوقت كانت الحبشة هي المكان الوحيد المناسب لهجرة المسلمين. وكان من المحتمل ان لا يُقبل المسلمون في بلاد فارس والروم والمناطق الخاضعة لنفوذهما مثل الشام واليمن أو ربّما سيواجهون مشاكل في اعقاب الهجرة، سواء كان ذلك بتحريض من قريش او انطلاقاً من مقتضيات السياسة الخاصة لكل واحد من هاذين البلدين؛ اضافة الى ان ارض الحبشة كانت معروفة للمسلمين لأنها كانت متجراً لقريش يتجرون فيها^٤. فضلاً عن ذلك فقد كان اهل الحبشة مسيحيين ويشتركون مع المسلمين في عقيدة التوحيد. ويذكر ان مسيحيي الحبشة كانوا من طائفة

١ - البلاذري، انساب الاشراف، تحقيق: الدكتور محمد حميد الله، (القاهرة: دار المعارف، ط ٣)، ج ١، ص ١٩٧؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، (بيروت، دار صادر)، ج ٢، ص ٦٦.

٢ - البلاذري، مصدر سابق، ج ١، ص ١٥٦ - ١٩٦؛ ابن الاثير، مصدر سابق، ج ٢، ص ٧٠ - ٦٦.

٣ - ابن هشام، سيرة النبي، ج ١، ص ٣٤٤؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٢، ص ٢٢٢؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٧٦.

٤ - الطبري، مصدر سابق، ص ٢٢١.

تداعيات معارضة قريش والاجراءات التي اتخذتها

اليعاقبة التي كانت تعتبر الله ذا ماهية واحدة <اقنوم واحد>. ولم يكونوا من المعتقدين بالتثليث، وكانت عقيدتهم قريية من التوحيد الإسلامي في هذا الجانب^١. وعلى اية حال فقد غادرت مكة سرّاً جماعة من المسلمين في السنة الخامسة للبعثة^٢ — وكان عددها ١٥ شخصاً^٣ — الى ارض الحبشة، ووصلوا الى هناك عن طريق ميناء الشعيبة بعد عبور عرض البحر الاحمر. وبعد أن اقاموا مدّة شهرين او ثلاثة أشهر في الحبشة بلغهم خبر ان قريشاً قد أسلمت، فعادوا الى مكّة^٤.

واشتدت قريش بالاذى والعذاب على المسلمين، ولما رأى المسلمون الذين رجعوا من الحبشة ذلك عادوا على ادراجهم مهاجرين الى الحبشة ثانياً وسلكوا نفس الطريق الذي سلّكوه أولاً. وكان عدد من هاجر هذه المرة مائة وواحد (من الرجال والنساء)^٥، وعلى رأسهم جعفر بن ابي طالب. وبعد مدّة شعرت قريش بالخطر من الاستقرار والأمان الذي يعيش فيه المهاجرون في الحبشة؛ فارسلت مبعوثين عنها الى بلات النجاشي ليستردوا منه من هاجر اليه من المسلمين.

فلما تناهى خبر تلك المؤامرة الى اسماع ابي طالب كتب الى النجاشي كتاباً يحضّه على حسن حوارهم والدفع عنهم^٦.

١ - عمر فروخ، تاريخ صدر الاسلام والدولة الأموية (بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة ٣، ١٩٧٦م)، ص٥٤؛ الدكتور عباس زرياب، سيره رسول الله، طهران؛ سروش، الطبعة ١، (١٣٧٠)، ص١٦٩.

٢ - ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص٢٠٤؛ البلاذري، انساب الاشراف، ج١، ص٢٢٨؛ ابن الاثير، مصدر سابق، ص٧٧.

٣ - ابن سعد، مصدر سابق، ص٢٠٤؛ ابن هشام، مصدر سابق، ص٣٤٤؛ الطبري، مصدر سابق، ص٢٢٢ - ٢٢١.

٤ - البلاذري، مصدر سابق، ص٢٢٧.

٥ - ابن سعد، مصدر سابق، ص٢٠٧. وذكروا أيضاً ان عدد المهاجرين كان اقل من هذا. ولكن عدد اسماء المهاجرين الذي سجّله كتب التاريخ يؤيد صحّة الرقم الأول. راجع: ابن هشام، مصدر سابق، ص٣٤٦ - ٣٥٣؛ الدكتور محمد ابراهيم آيتي، تاريخ پیامبر اسلام، (دار نشر جامعة طهران، الطبعة ٢، ١٣٦١)، ص١٢٢ - ١٣٢.

٦ - ابن هشام، مصدر سابق، ج١، ص٣٥٧؛ المجلسي، بحار الانوار، ج١٨، ص٤١٨. استناداً إلى ما نقله الطبرسي، كتب ابو طالب في كتابه الايات التالية:

١٥٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

وبعد ان تكلم مبعوثو قريش وعرضوا ادعاءاتهم في بلاط النجاشي، قام جعفر بن ابي طالب وتكلم بكلام بليغ دافع فيه عن قيم الإسلام ومبادئه؛ فلقي كلامه موقعاً حسناً عند النجاشي. ورفض النجاشي عند ذاك اعادة المسلمين الى قريش، واعلن عن حمايته لهم^١ ولم يكن كل المهاجرين الى الحبشة ممن عُذِّبوا واودوا، بل كان فيهم افراد من قبائل قوية ولم يتجرأ الكفار على ايذائهم. ولكن على اية حال كانت اجواء مكّة اجواء ضغط وكتب. ولعل هدف الرسول من وراء هذا العمل — فضلاً عن ابعاد المسلمين عن اجواء الضغط والتعذيب في مكّة — هو تأسيس قاعدة في الحبشة للإسلام ومواجهة خصوم هذا الدين. وكما نعلم فان اقامة المهاجرين في الحبشة لم تكن خالية من التأثير الاعلامي. فقد قبل النجاشي — ملك الحبشة — الإسلام، وأقام علاقات مع الرسول^٢. ويبدو ان قلق قريش كان سببه من هذه الناحية أكثر من غيرها وهو ما دفعها الى ايفاد المبعوثين الى الحبشة.

وتفيد بعض الوثائق والشواهد ان رسول الله^٣ كان يتابع اوضاع واخبار المهاجرين ويتضح ذلك من موافاته بخبر ارتداد ووفاة عبيد الله بن جحش (أحد المهاجرين) هناك^٣. وفي هذه المرة طالت اقامة المهاجرين في الحبشة، وتوفي منهم في هذه المدة احد عشر نفرًا في ذلك البلد، وعاد ٣٩ منهم الى مكّة قبل هجرة الرسول^٤ منها، وعاد ٢٦ رجلاً وعدد من النساء الى المدينة بعد هجرة النبي اليها وبعد معركة بدر. ورجعت المجموعة الاخيرة منهم برئاسة جعفر بن ابي طالب في السنة السابعة للهجرة، بعد انتهاء معركة بدر

تعلم	ملك الحبش	ان محمداً	نبيّ	كموسى	والمسيح	بن مريم
اتي	بالهدى	مثل الذي	اتيا به	وكل	بأمر الله	يهدى ويعصم
وانكم	تتلونه	في	كتابكم	بصدق	حديث	لا حديث مرجّم
فلا	تجعلوا	الله	نداً	وأسلموا	فان طريق الحق	ليس بمظلم

(اعلام الوري، ص ٤٥).

١ - الطبرسي، مصدر سابق، ص ٤٣ - ٤٤؛ ابن هشام، مصدر سابق، ص ٣٦٠ - ٣٥٦؛ ابن الأثير، مصدر سابق، ج ٢، ص ٨١ - ٧٩.

٢ - جاء في بعض المصادر ان جعفر بن ابي طالب حين رجع من الحبشة كان معه سبعون نفرًا قدموا من هناك، وبعدما كلمهم الرسول (ص) آمنوا بالإسلام (مجمع البيان، ج ٣، ص ٢٣٤).

٣ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ٢٠٨.

تداعيات معارضة قريش والاجراءات التي اتخذتها

ووافوه في ذلك الموضع^١.

ولادة فاطمة الزهراء عليها السلام

استناداً الى اشهر الاقوال عند مؤرخي الشيعة فان السيدة فاطمة قد ولدت في السنة الخامسة للبعثة في مكة^٢. وكانت أصغر اولاد الرسول^٣ من زوجته خديجة. وبعد الهجرة تزوجت من علي^٤ في المدينة. كانت فاطمة قد شهدت — منذ صغر سنّها — جهاد ابيها المشركين وصراعه معهم، وبقيت تستذكر عناء ذلك العهد ومصابه.

الاسراء والمعراج

أسري بالرسول ليلاً من مكّة الى بيت المقدس بمعجزة خارقة للعادة (الاسراء). ثم عُرج به من هناك إلى السماوات بقدرّة الله (المعراج). وكلا هاتين الحادثتين وقعتا اثناء ما كان في مكّة؛ اذ نقلتا في الآيات والصور المكية. ولكن هناك اختلاف في سنة وقوعهما. وكان الهدف من هذين السفرين (الاسراء والمعراج) مشاهدة علائم وآيات عظمة الله في الكواكب والسماوات، ولقاء الملائكة وارواح الانبياء، ورؤية مشاهد الجنة والنار ودرجات اهل الجنة وأهل النار وما شابه ذلك. وقد وصف الله عز وجل <الاسراء> كما يلي:

{سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}^٥.

وقال في <المعراج> بعد بيان المراحل التي مرّ بها الرسول^٦ في هذا السفر ما يلي:

{لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى}^٧.

قال الامام موسى بن جعفر^٨ — لمن سأله: لأيّ علّة عرج الله بنبيّه^٩ الى السماء والله لا

١ - ابن سعد، مصدر سابق، ج ٨، ص ٩٧؛ ابن هشام، مصدر سابق، ص ٢٣٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية (بيروت: مكتبة المعارف، الطبعة ١، ١٩٦٦م)، ج ٤، ص ١٤٣؛ الدكتور محمد ابراهيم آيتي، مصدر سابق، ص ١٣٢.

٢ - المجلسي، بحار الانوار، ج ٤٣، ص ٧ فما بعدها. ولكن المشهور عند علماء أهل السنّة أنّها ولدت في السنة الخامسة قبل البعثة. >السيد جعفر شهيدى، زندكي فاطمه زهرا عليها السلام، (طهران: مكتب نشر الثقافة الاسلامية، ١٣٦٥، الطبعة ٧)، ص ٢٤ - ٣٢.

٣ - سورة الاسراء (١٧)، الآية ١.

٤ - سورة النجم (٥٣)، الآية ١٨.

١٥٦..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

يوصف. يمكن؟ —: ان الله لا يوصف. يمكن ولا يجري عليه زمان؛ ولكنه عز وجل اراد ان يشرف به ملائكته وسكان سماواته ويكرمهم بمشاهدته، ويريه من عجائب عظمتة ما يخبر به بعد هبوطه، وليس ذلك على ما يقوله المشبهون، سبحانه الله وتعالى عما يصفون^١.

تقويم روايات المعراج

وردت روايات كثيرة حول عروج الرسول الى السماء. وقد قسم المفسر الكبير الطبرسي هذه الروايات الى اربعة مجموعات، وبوّها كما يلي:

- ١— ما يقطع بصحته لتواتر الاخبار به، مثل أصل قصة المعراج.
 - ٢— ما ورد في ذلك مما تجوّزه العقول ولا تأباه الاصول، مثل سير الرسول في السماوات ومشاهدته الانبياء والجنّة والنار وما شابه ذلك.
 - ٣— ما يكون في ظاهره مخالفاً لبعض الاصول الا انه يمكن تأويلها على وجه يوافق المعقول، فالاولى ان نأوله على ما يطابق الحق والدليل، كالروايات التي تقول بأنه قد شاهد جماعة من اهل النار في جهنم، وجماعة من اصحاب الجنة في الجنة؛ اذ ينبغي القول بأن هذه المشاهد عبارة عن نوع من التمثيل والتجسيم للجنة والنار الحقيقيتين.
 - ٤— ما لا يصح ظاهره ولا يمكن تأويله الا على التعسف البعيد، نحو ما روي انه صلى الله عليه وآله وسلم كلم الله سبحانه جهرة، وراه وقعد معه على سريره، وما شابه ذلك. وهذا باطل ولا أساس له^٢.
- ومن الجدير بالاشارة أن علماء الامامية يعتقدون ان معراج النبي كان جسمانياً؛ أي انه عرج بجسمه وروحه^٣.

وبناءً على ما جاء في الروايات فان الصلوات اليومية الخمسة قد فرضت في المعراج^٤.

١ - البحراني، تفسير البرهان (قم: دار الكتب العلمية، ١٣٩٣ هـ)، ج ٢، ص ٤٠٠.

٢ - مجمع البيان (طهران: شركة المعارف)، ج ٦، ص ٣٩٥، تفسير الآية الاولى من سورة الاسراء.

٣ - المجلسي، مصدر سابق، ج ١٨، ص ٢٩٠؛ تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ١٢، ص ١٧ فما بعدها.

٤ - الكليني، الفروع من الكافي، (طهران: دار الكتب الاسلامية، ط ٢، ١٣٦٢)، ج ٣، ص ٤٨٧ - ٤٨٢؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢١٣؛ صحيح البخاري، تحقيق: الشيخ قاسم الشماخي الرفاعي، (بيروت: دار القلم، الطبعة ١، ١٤٠٧ هـ)،

تداعيات معارضة قريش والاجراءات التي اتخذتها

واذا كان قد شوهد أو نقل ان النبي^١ أو الامام علي^٢ كانا يصلّيان قبل المعراج، فلا بد انهما كانت صلاة غير واجبة او انهما كانت لا تنطبق عليها شروط وخصائص الصلوات الخمس^٣.

الحصار الاقتصادي والاجتماعي ضد بني هاشم

لما رأى زعماء قريش انهم لم يحصلوا على نتيجة من مداولاتهم مع ابي طالب، وقد فشلوا في استعادة من هاجر الى الحبشة من المسلمين، ولاحظوا — من جهة اخرى — ان هناك شخصيات مهمة اخذت تدخل في الإسلام، وراح الإسلام ينتشر بين القبائل، اضطروا الى اتخاذ اساليب واجراءات جديدة يمارسون خلالها ضغوطاً اقتصادية واجتماعية على بني هاشم وبني عبد المطلب ليرغموهم على الكف عن مساندة رسول الله وتسليمه إليهم. وفي ضوء هذا القرار كتبوا كتاباً تعاقدوا فيه على ان لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم^٤.

سبق ان ذكرنا أن أهالي مكة كانوا يعتاشون عن طريق التجارة، وكانت عجلة الاقتصاد والتجارة تدار بيد قريش. وهذا يعني انهم لو فرضوا حصاراً على أحد أو على جماعة فذلك يعني حرمانه كلياً. وبناءً على ذلك فقد كانوا يرون ان هذا الإجراء مؤثر تماماً، لذلك كانوا يتوقعون ان يستسلم بنو هاشم سريعاً.

وكان حظر الزواج يعني قطع العلاقات الاجتماعية معهم، وهو ما ذكرته بعض المصادر باعتباره واحداً من البنود التي تعاقدت عليها قريش^٥، حيث كان هدفهم عزل بني هاشم

ج ٥، مناقب الأنصار، الباب ١٠٤، ص ١٣٢ - ١٣٤؛ الشيخ محمد بن الحسن الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، (بيروت: دار احياء التراث العربي، الطبعة ٤)، ج ٣، كتاب الصلاة، ص ٧، الحديث ٥، ص ٣٥، الحديث ١٤، ص ٦٠، الحديث ٦؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ١٨، ص ٣٤٨؛ السيد هاشم البحراني، مصدر سابق، ج ٢، ص ٩٣٣.

١ - العلامة الأميني، الغدير، ج ٣، ص ٢٤٢.

٢ - ابن هشام، سيرة النبي، ج ١، ص ٣٧٥؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٢٥؛ البلاذري، انساب الاشراف، تحقيق: محمد حميد الله، (القاهرة: دار المعارف، ط ٣)، ج ١، ص ١٤٣.

٣ - البلاذري، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٣٤؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٠٩؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة،

والضغط عليهم اجتماعياً.

وفي اعقاب ابرام هذا العقد، انحاز جميع افراد بني هاشم المسلم منهم والكافر^١ باقتراح من ابي طالب^٢، واجتمعوا في شعب أبي طالب^٣، عدا أبا لهب^٤. وبقوا هناك مدة ثلاث سنوات^٥، وهي المدة التي استمر فيها فرض الحصار.

ورغم ان ما تحالفت عليه كان يقتصر على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية فحسب، ولكن حقد قريش وغضبها على الرسول وبني هاشم كان قد بلغ ذروته، وعلنوا ان السبيل الوحيد لتوافقهم مع بني هاشم قتل محمد. وهذا ما جعل ابو طالب يخشى على النبي وبني هاشم، فجمعهم في ذلك الشعب لكي تسهل عليهم حراستهم وحمايتهم لأنفسهم.

ج١٤، ص٥٨.

١ - ابن ابي الحديد، شرح فحج البلاغة، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، (القاهرة: دار احياء الكتب العربية، ١٩٦١م)، ج١٤، ص٦٤؛ فتال النيسابوري، روضة الواعظين (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة ١، ١٤٠٦هـ)، ص٦٣. البلاذري، مصدر سابق، ص٢٣٠؛ ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ج١، ص٦٣؛ ابن اسحاق، السير والمغازي.

٢ - تحقيق: سهيل زكار (بيروت: دار الفكر، الطبعة ١، ١٣٩٨هـ)، ص١٥٩؛ المجلسي، بحار الانوار، ج١٩، ص١٨.

٣ - الشعب. بمعنى الوادي أو مسيل الماء في بطن من الارض. وشعب ابي طالب الذي عرف لاحقاً باسم شعب أبي يوسف، كان لعبد المطلب وقد قُسم بين بنيه حين ضعف بصره. وكان النبي (ص) أخذ حظ أبيه. وهو كان منزل بني هاشم ومساكنهم (ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص٣٤٧). وتفيد الدراسات التي اجريت حديثاً ان شعب ابي طالب - وخلافاً لما يتصوره البعض - لا يقع في الحجون التي تُسمى اليوم بين اهل مكة باسم حنة المغلاة، وتُعرف عند الايرانيين باسم مقبرة ابي طالب، وانما يقع قرب المسجد الحرام الى جانب جبل الصفا والامتداد الشمالي لجبل ابي قبيس. وكانت ولادة النبي، وكذلك دار السيدة خديجة في هذا الوادي، وبقي رسول الله (ص) يسكن تلك الدار الى حين هجرته. وبعد هجرة الرسول الى المدينة استولى عليها عقيل بن ابي طالب. ثم اشتراها محمد بن يوسف الثقفي - اخو الحجاج - من أبناء عقيل، وضمها الى داره. ويبدو ان اسمه تبدل منذ ذلك الوقت الى شعب ابي يوسف، وذكره المؤرخون القدماء بهذا الاسم.

كان مسقط رأس النبي معروفاً في هذا الموضع. وفي عهد الملك عبد العزيز بن سعود حوِّله مدير بلدية مكة الى مكتبة، وزال اثره من الوجود في عام ١٣٩٩هـ. عند تنفيذ مشروع تعريض شارع غزة (بحلّة ميقات الحج، الرقم ٣، ربيع ١٣٧٢، مقالة السيد علي قاضي عسكر، بحث حول شعب ابي طالب، ص١٤٩ - ١٧١).

٤ - أول شهر محرم من السنة السابعة للبعثة، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص٢٠٩.

٥ - ابن سعد، مصدر سابق، ص٢٠٩؛ البلاذري، مصدر سابق، ص٢٣٤ - ٢٣٣؛ ابن واضح، تاريخ يعقوبي، ج٢، ص٢٥؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، (بيروت: دار صادر)، ج٢، ص٨٧؛ فتال النيسابوري، مصدر سابق، ص٦٣ - ٦٤.

تداعيات معارضة قريش والاجراءات التي اتخذتها

واستنفر ابو طالب بني هاشم وكانوا اربعين رجلاً^١ لحراسة الشعب.
وكان النبي^٢ اذا اخذ مضجعه ونامت العيون، جاء ابو طالب فأثمهضه عن مضجعه
وأضجع علياً مكانه^٣ لكي يحميه من أي هجوم أو محاولة اغتيال قد تقوم بها قريش.
في هذه المدة كانت قريش تقطع الميرة عن شيعب ابي طالب، وتمنع على بني هاشم أي
عمل تجاري حتى غدو في اشد عسر وفاقة. وكانوا لا يخرجون الا في موسم الحج والعمرة
فيشترون ويبيعون فيهما^٤.

وحتى في هذين الموسمين أيضاً كان هناك افراد من قريش يخرجون الى الطرقات فمن
رأوا معه ميرة فهو ان يبيع من بني هاشم شيئاً ويحذرونه ان هو فعل ذلك فستكون سلعته
عرضة للنهب^٥. واذا اراد رجل من بني هاشم شراء شيء كانوا يزيدون عليه لكي لا
يتمكن من شرائه^٦.

واحياناً كان ابو العاص بن الربيع^٧ وحكيم بن حزام^٨ يحملون الطعام الى الشعب بعيداً
عن اعين قريش. وكان علي^٩ يخرج ليلاً من الشعب متخفياً ليحمل الى بني هاشم على
ظهره الطعام^{١٠}.

١ - ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ج ١، ص ٦٣؛ الطبرسي، إعلام الوري (طهران: دار الكتب الاسلامية، ط ٣)، ص ٩٤.

٢ - قتال النيسابوري، روضة الواعظين، (بيروت: مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، الطبعة ١، ١٤٠٦هـ)، ص ٦٤؛ ابن شهر
آشوب، مصدر سابق، ص ٦٤؛ الطبرسي، مصدر سابق، ص ٥٠؛ ابن ابي الحديد، مصدر سابق، ج ١٤، ص ٦٤، راجع: ابن
اسحاق، مصدر سابق، ص ١٦٠.

٣ - ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ص ٦٥؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص ٢٠٩؛ البلاذري، مصدر سابق، ص ٢٣٤؛ ابن
اسحاق، مصدر سابق، ص ١٥٩.

٤ - الطبرسي، مصدر سابق، ص ٥٠.

٥ - المجلسي، مصدر سابق، ج ١٩، ص ١٩؛ ابن اسحاق، مصدر سابق، ص ١٥٩.

٦ - ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ص ٦٥؛ الطبرسي، مصدر سابق، ص ٥١.

٧ - ابن اسحاق، مصدر سابق، ص ١٦١؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٧٩؛ البلاذري، مصدر سابق، ص ٢٣٥؛
المجلسي، مصدر سابق، ص ١٩.

٨ - ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١٣، ص ٢٥٤.

١٦٠..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

وفي هذه المدة أنفق رسول الله ماله، وأنفق ابو طالب ماله، وأنفقت خديجة ماله^١.
وانفقت خديجة على النبي^٢ في الشعب مالا كثيرا^٣.
وبعد مضي ثلاث سنوات عندما اخبرهم الرسول^٤ بواسطة ابي طالب ان الصحيفة قد
اكلتها الأرضية^٥، اضافة الى ان بعض الموقعين على الصحيفة تلاوموا على ما صنعوا ببني
هاشم^٦ فاعلنوا براءتهم منها وبادروا الى إلغائها^٧. وخرج بنو هاشم الى مساكنهم^٨.
وقد كتب الامام علي^٩ في احد كتبه الى معاوية يصف فيه ذلك الدور المليء
بالمصاعب والآلام كما يلي:

كَفَارَادَ قَوْمُنَا قَتَلَ نَبِيَّنَا وَاجْتِيَا حَ أَضْلَيْنَا وَهَمُّوا
بِنَا الْهُمُومَ وَفَعَلُوا بِنَا الْأَفَاعِيلَ وَمَنَعُونَا الْعَذَبَ وَ
أَخْلَسُونَا الْخَوْفَ وَاضْطَرُّوْنَا إِلَى جَبَلٍ وَغَيْرَ وَ أَوْقَدُوا لَنَا
نَارَ الْحَرْبِ فَعَزَمَ اللَّهُ لَنَا عَلَى الدَّبِّ عَنْ حُورَّتِهِ وَ
الرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِهِ مُؤْمِنُنَا يَبْغِي بِذَلِكَ الْأَجْرَ وَ
كَافِرُنَا يُحَامِي عَنِ الْأَصْلِ>.

وفاة خديجة وابي طالب

وفي السنة العاشرة للبعثة، وبعد خروج بني هاشم من الشعب بمدة قصيرة توفيت
خديجة، وبعدها بمدة قصيرة توفي ابو طالب^{١٠}. فعظم ذلك على رسول الله واشتد جزعه^{١١}.

١ - ابن واضح، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٥؛ الطبرسي، إعلام الوري، ص٥٠.

٢ - الطبرسي، مصدر سابق، ص٥٠؛ ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ج١، ص٦٤.

٣ - ابن اسحاق، مصدر سابق، ص١٦١؛ البلاذري، مصدر سابق، ج١، ص٢٣٤؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج١، ص٢١٠؛
ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ج١، ص٦٥.

٤ - ابن اسحاق، مصدر سابق، ص١٦٢، ١٦٥، ١٦٦؛ البلاذري، مصدر سابق، ص٢٣٦؛ ابن ابي الحديد، مصدر سابق،
ج١٤، ص٥٩؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٨٨؛ المجلسي، بحار الانوار، ج١٩، ص١٩.

٥ - في السنة العاشرة للبعثة (ابن سعد، مصدر سابق، ج١، ص٢١٠؛ البلاذري، مصدر سابق، ج١، ص٢٣٦).

٦ - الطبرسي، مصدر سابق، ص٥٢ - ٥١.

٧ - البلاذري، مصدر سابق، ج١، ص٢٣٦؛ ابن الاثير، مصدر سابق، ج٢، ص٩٠.

٨ - ابن واضح، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٩. سَمَّى رسول الله (ص) ذلك العام <عام الحزن>. المجلسي، بحار الانوار،
ج١٩، ص٢٥.

تداعيات معارضة قريش والاجراءات التي اتخذتها

وبوفاة هذين الشخصين اللذين كانا له عضداً وحرزاً وناصراً تتابعت عليه المصائب^١.

دور خديجة

كان من الطبيعي ان يترك فقدان هاتين الشخصيتين الكبيرتين تأثيراً سلبياً في حياة الرسول؛ وذلك لأن خديجة — رغم انها لم تقم بدور الحماية والدفاع عن الرسول^٢ على صعيد مكّة — كانت ضمن نطاق البيت والأسرة الزوجة الوحيدة الحنون والمضحية والحريصة، وكانت وزيرة صدق على الإسلام وكان يسكن إليها^٣. وبقي رسول الله الى آخر عمره يكرم مثواها^٤. ولا ينسى سبقها في الإسلام وما تحملته من مشقة ومكابدة في سبيل الدين. حتى انه ذات يوم قال لعائشة:

«ما أبدلني الله خيراً من خديجة؛ لقد آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذّبني الناس، وواستني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله منها اولاداً»^٥.

دور ابي طالب

كما ذكرنا سابقاً، ان ابا طالب هو الذي تولّى رعاية محمد^٦ في طفولته وصباه، بل وكان الذاب والمدافع عنه حتى في عهد رسالته، فكان يقف كالسد العظيم امام احقاد المشركين وعدوانهم. وفي زمن حياة ابي طالب كانت قريش نادراً ما تتجرأ على ابدائه. وروي ان اكابر قريش أغروا غلاماً فالفى النبي^٧ السلى والفرث وهو يصلي في المسجد الحرام، فانصرف فأتى أبا طالب وأعلمه بما جرى. فأقبل ابو طالب مشتماً على السيف يتبعه حمزة وهو يحمل ذلك السلى، وأمر حمزة ان يمسخ السلى على وجوههم^٨.

١ - ابن اسحاق، مصدر سابق، ص ٢٤٣؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٢، ص ٥٧؛ الطبرسي، إعلام الوری، ص ٥٣

٢ - ابن اسحاق، مصدر سابق، ص ٢٤٣؛ ابن هشام، مصدر سابق، ص ٥٧.

٣ - امير مهنا الخيامي، زوجات النبي واولاده، (بيروت: مؤسسة عزّ الدين، ط ١، ١٤١١هـ). ص ٦٢ - ٦٣؛ ابو بشر الدولابي، الذرية الطاهرة (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة ٢)، ص ٦٣ - ٦٤.

٤ - ابن عبد البر، الاستيعاب (في حاشية الإصابة، ج ٤، ص ٢٨٧؛ الدولابي، مصدر سابق، ص ٥١).

٥ - الكليني، الأصول من الكافي (طهران: دار الكتب الاسلامية، ١٣٨١هـ). ج ١، ص ٤٤٩؛ العلّامة الأميني، الغدير، ج ٧،

١٦٢..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

ولما توفي ابو طالب نالت قريش من رسول الله^١ واجترأوا عليه حتى نثر بعضهم التراب على رأسه^١. وكان يقول: <ما نالت قريش مني شيئاً اكرهه حتى مات ابو طالب>^٢.

ايمان ابي طالب

يرى عموم علماء الشيعة ان ابا طالب قد أسلم^٣، ولكنه ما كان يظهر اسلامه ليتسنى له حماية رسول الله. وبما ان عصبية الدم والقراية كانت سائدة في ذلك المجتمع، فقد اتخذها ابو طالب غطاءً ظاهرياً لحماية الرسول^٤. قال الامام جعفر بن محمد الصادق^٥:
<ان مثل ابي طالب كمثّل اصحاب الكهف اسرّوا الايمان واظهروا الشرك فاتّاهم الله أجّره مرتين>^٥.

وقد انكر جماعة من مؤرخي أهل السنة إيمان ابي طالب وادعوا بأنه لم يؤمن حتى وفاته وخرج من الدنيا كافراً. بيد أن هناك شواهد وادلة كثيرة تثبت عكس ذلك، وتدلل على اعتقاد ابي طالب بالإسلام وإيمانه بنبوة محمد^٦، نذكر هنا اثنين منها بإيجاز:
١- أشعاره وكلماته: وصلتنا اشعار وكلمات كثيرة من ابي طالب يذكر في قسم منها

٣٩٣؛ المجلسي، بحار الانوار، ج١٨، ص١٨٧؛ راجع: الغدير، ج٧، ص٣٥٩، ٣٨٨، ٣٩٣؛ تاريخ يعقوبي، ج٢، ص٢٠.

١ - ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج١، ص٢١١؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٢٩؛ البيهقي، دلائل النبوة، ج٢، ص٨٠؛ ابن الاثير، مصدر سابق، ج٢، ص٩١.

٢ - ابن اسحاق، السير والمغازي، ص٢٣٩؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج٢، ص٥٨؛ الطبري، مصدر سابق، ص٢٢٩؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل ابي طالب، ج١، ص٦٧؛ ابن الاثير، مصدر سابق، ص٩١؛ البيهقي، مصدر سابق، ص٨٠؛ سبط ابن الجوزي، تذكرة الخواص (النحف الاشرف: المكتبة الحيدرية، ١٣٨٣هـ-)، ص٩.

٣ - الشيخ المفيد، اوائل المقالات (قم: مكتبة الداوري، ص١٣؛ فتال النيسابوري، مصدر سابق، ص١٥٥؛ ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص٦٥؛ الطبرسي، مجمع البيان، ج٣، ص٢٨٧؛ تفسير آية ٢٦ من سورة الانعام؛ علي بن طائوس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف (قم: مطبعة الخيام، ١٤٠٠هـ-)، ص٢٩٨.

٤ - الطبرسي، مصدر سابق، ج٧، ص٢٦٠؛ تفسير الآية ٥٦ من سورة القصص.

٥ - الكليني، مصدر سابق، ج١، ص٤٤٨؛ الصدوق، الامالي (قم: مطبعة الحكمة)، ص٣٦٦ (المجلد ٨٩)؛ فتال النيسابوري، مصدر سابق، ص١٥٦؛ العلامة الأميني، الغدير، ج٧، ص٣٩٠؛ المفيد، الاختصاص (قم: منشورات جماعة المدرسين)، ص٢٤١.

تداعيات معارضة قريش والاجراءات التي اتخذتها

— بصراحة — نبوة الرسول وحقانيته^١، وهذا دليل واضح على ايمانه نورد بالإسلام.
في ما يلي مقتطفات من اشعاره:

تعلم مليك الحبش ان محمداً نبيّ كموسى والمسيح بن مريم
اتى بالهدى مثل الذي اتينا به وكل بامر الله يهدى ويعصم^٢

ألم تعلموا أنّا وجدنا محمداً رسولاً كموسى خطّ في اول الكتب^٣
ولقد علمتُ ان دين محمدٍ من خير اديان البريّة ديناً^٤

دفاعه عن الرسول^١

استمر ابو طالب يدافع ويساند رسول الله مدّة سبع سنوات من غير كلل أو ملل، ووقف طيلة تلك المدّة بوجه قريش وتحمل الكثير من المضاعب والآلام. وهذا يمثل دليلاً واضحاً على ايمانه واعتقاده. اما الذين ينكرون ايمانه فيرون بأن الدافع من وراء كل هذه الجهود هو دافع القراية. في حين ان دافع القراية لا يمكن ان يشكل حافزاً يحدو بالانسان

١ - كان لأبي طالب ديوان شعر جمعه اللغوي ابو نعيم علي بن حمزة البصري التميمي (م ٣٧٥هـ) في صقلية. ورأى الشيخ الآقا بزرگ الطهراني نسخة منه في مكتبة آل السيد عيسى العطار في بغداد (الذريعة، ج ٩، القسم الاول، ص ٤٢ - ٤٣). وكذلك كان لأبي هفان عبد الله بن احمد العبيدي من بني مهزم - وكان من شيعة البصرة وشاعراً واديباً مشهوراً - كتاب عنوانه: شعر ابي طالب بن عبد المطلب واخباره. (رجال النجاشي، تحقيق: محمد جواد النائيني، بيروت، الطبعة ١، ١٤٠٨هـ)، ج ٢، ص ١٦، الرقم ٥٦٨٠). وكان امير المؤمنين (ع) يعجبه ان يُروى شعر ابي طالب وان يدوّن، وقال: تعلّموه وعلموه اولادكم فانه كان على دين الله وفيه علم كثير (الغدیر، ج ٧، ص ٣٩٣).

٢ - الطبرسي، إعلام الوری، ص ٤٥؛ مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٨٨؛ العلامة الأميني، الغدير، ج ٧، ص ٣٣١.

٣ - الكليني، مصدر سابق، ج ١، ص ٤٤٩؛ الطبرسي، مجمع البيان، ج ٤، ص ٢٨٧؛ ابن هشام، سيرة النبي، ج ١، ص ٣٧٧؛ ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج ١٤، ص ٧٢؛ الشيخ ابو الفتح الكراچكي، كنز الفوائد، تحقيق: الشيخ عبد الله نعمه، (قم: دار الذخائر، الطبعة ١، ١٤١٠هـ)، ج ١، ص ١٨١؛ الاميني، الغدير، ج ٧، ص ٣٣٢.

٤ - ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ص ٥٥؛ العلامة الأميني، مصدر سابق، ص ٣٣٤؛ العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، (بيروت: دار احياء التراث العربي، ج ٤، ص ١١٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، (بيروت: مكتبة المعارف، الطبعة ٢، ١٩٧٧م)، ج ٣، ص ٤٢).

١٦٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

الى بذل كل هذه التضحيات وتحمل كل هذه المتاعب المضنية ومجاجة كل هذه المخاطر. ولا بد من وجود ركيزة إيمانية واعتقادية لتقدم مثل هذه التضحيات.

واذا كان دافع ابي طالب الى اتخاذ تلك المواقف هو دافع القرابة فحسب، فلماذا لم يفعل أعمامه الآخرون — كالعباس وابي لهب — مثلما فعل ابو طالب^١.

يرى بعض الباحثين أن المساعي المحمومة التي بذلها البعض من اجل اثبات كفر ابي طالب تقف وراءها دوافع سياسية ويُعزى سببها الى بعض انواع التعصب؛ وذلك لأن كبار اصحاب رسول الله^١ — الذين أصبحوا في ما بعد منافسين سياسيين للإمام علي^٢ — كانت لهم على العموم سابقة في عبادة الاصنام، والإمام علي^٢ هو الوحيد الذي لم يسجد لصنم، وترعرع منذ صغره في مدرسة الرسول. وقد اضطر من اراد الانتقاص من مكانة علي وخفض مرتبته الى الأدنى لكي يتساوى مع من هم ادنى منه مرتبة، اضطر الى السعي لاثبات كفر ابيه، لكي يشتوا ولادته من أب كان عابداً للأصنام. والحقيقة هي ان أبا طالب لا جريرة له سوى انه والد علي. ولو لم يكن له ابن كعلي، لما الصقوا به مثل هذه التهمة!

ينبغي عدم تجاهل دور الامويين والعباسيين في هذه المحاولات الجائرة؛ وذلك لأن جد أي منهم لم يكن في مصاف علي ولا في مرتبته ومنزلته، ولم يكن لأحد منهم مثل سبقه في الإسلام. وانطلاقاً من هذه الدوافع حاولوا اثبات كفر ابيه، لكي يحطوا بهذا الاسلوب من منزلته!

ان التهمة التي الصقوها بأبي طالب تنسجم وتناسب مع وضع العباس بن عبد المطلب (عم الرسول وعلي، وجد سلالة الخلفاء العباسيين)، اكثر مما تناسب مع وضع ابي طالب؛ لأن العباس بقي في مكة حتى عام الفتح (أي في السنة الثامنة للهجرة)، وشارك في معركة

١ - كُتبت حول إيمان ابي طالب كتب متعددة، ذكر قسماً منها الشيخ الآقا بزرگ الطهراني في كتاب الذريعة، ج٢، ص ٥١٠ -

٥١٤. وبحث المرحوم العلامة الاميني في كتاب الغدير، ج٧، ص ٣٣٠ - ٤٠٣ حول هذا الموضوع بشكل موسّع، وعرض عناوين تسعة عشر كتاباً ألفها علماء مسلمون كبار حول اثبات إيمان ابي طالب وحسن عاقبته، ونقل اربعين حديثاً في اثبات إيمانه. وفُتد في بداية المجلد الثامن الشبهات والاشكالات التي اثارها المخالفون في هذا المجال.

تداعيات معارضة قريش والاجراءات التي اتخذتها

بدر في صف المشركين وأسر وأطلق بفدية. وفي فتح مكة انضم الى جيش المسلمين عندما كان متوجهاً الى مكة وعاد برفقتهم الى مكة. وسعى كثير عند الرسول للحصول على أمان لأبي سفيان — رئيس المشركين — ورغم كل ذلك لم يقل احد ان العباس كان كافراً. فهل يبدو مثل هذا الحكم بشأن هذين الشخصين أمراً طبيعياً؟ ومن هنا يذهب الباحثون الى اعتبار الاحاديث التي ذكرت كفر أبي طالب، احاديث موضوعة^١.

زوجات الرسول

لم يتزوج رسول الله^١ امرأة اخرى على خديجة حتى ماتت^٢. وبعد وفاتها تزوج عدة نساء أحر كلهن ثيبات عدا عائشة. وكانت اولهن سودة، وكانت قبل ذلك تحت السكران بن عمرو وهو ممن هاجروا الى الحبشة وتوفي هناك، فبقيت من غير معيل. ذهب بعض المستشرقين الى اتخاذ زواجات الرسول ذريعة للإساءة إليه والنيل منه، وعللوا بدوافع من الشهوة وحب النساء^٣. في حين تكشف النظرة المنصفة الى هذه القضية بان الدافع وراء تلك الزيجات لم يكن دافعاً عادياً وانما كانت له غايات سياسية واجتماعية تصب في مصلحة الاسلام. فبعض النساء كنّ ارامل من غير معيل فجعل النبي الزواج منهن طريقاً للتكفل بهن واعالتهن. وكان البعض منهن ينتمين الى قبائل كبيرة وقوية وكان هدف الرسول من الزواج بهن استمالة تلك القبائل. وكانت الغاية من زواجه في حالات اخرى محاربة بعض التقاليد الجاهلية المغلوطة.

وهناك شواهد وقرائن تؤيد صحة ما ذهبنا إليه، نورد قسماً منها كالآتي:

١ — ذكرنا في ما سبق ان رسول الله^١ تزوج وهو في سن الخامسة والعشرين — أي عندما كان في عنفوان شبابه — بخديجة التي كانت — بناءً على القول المشهور — تكبره بفارق سنّي كبير، وكانت قد قضت عنفوان شبابهما في اسرتها السابقة، وقضى معها خمساً

١ - الدكتور عباس زرياب، سيره رسول الله، (طهران: سروش، الطبعة ١، ١٣٧٠)، ص ١٧٨ و ١٧٩.

٢ - ابن عبد البر، الاستيعاب (في حاشية الإصابة)، ج ٤، ص ٢٨٢؛ صحيح مسلم، بشرح الامام النووي (بيروت: دار الفكر)، ج ١٥، ص ٢٠١.

٣ - محمد حسين هيكل، حياة محمد، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة ٨، ١٩٦٣م)، ص ٣١٥، ٣١٦، ٣٢٥.

وعشرين سنة.

٢— طالما كانت خديجة على قيد الحياة لم يتزوج امرأة اخرى، رغم ان تعدد الزوجات كان يومذاك أمراً شائعاً في شبه جزيرة العرب.

٣— كانت الزيجات التالية للرسول بعدما تجاوز الخمسين من عمره (قبل الهجرة بقليل، ووقع معظمها بعد الهجرة). فهي إذا وقعت في سنوات شيخوخته من جهة، وجاءت في وقت كان يكابد فيه أقسى المشكلات والمعضلات السياسية والاجتماعية والعسكرية من جهة اخرى. فهل يُعقل بأن من يعيش في مثل هذا الوضع يعير أهمية للجنس والشهوة؟

وهل كانت تتوفر للنبي أصلاً فرصة للاهتمام بمثل هذه القضايا في المدينة؟

٤— هل العيش مع نساء متباينات في السلوك والطباع (وحتى ان بعضهن آذين الرسول وأسخطنه بسوء طبائعهن وما يتصفن به من شقاق وتحاسد نسوي)^١ يتوافق مع طلب الشهوة واللذة؟

٥— كانت كل واحدة من زوجات الرسول^١ من قبيلة، ولم يكن بينهم أي علاقات قري. فهل الزواج من قبائل مختلفة كان مجرد صدفة؟

٦— بعد هجرة الرسول الى يثرب، انتشر الإسلام وازداد النفوذ المعنوي للرسول في القلوب وازدادت — تبعاً لذلك — مكانته الاجتماعية والسياسية. وكان زعماء القبائل يتفاخرون فيما لو تزوج الرسول بناتهم. بينما كانت النساء اللواتي تزوجهن من المستات، والارامل اللواتي لا معيل لهن ولا كفيل. في حين كان هو يبحث الرجال على الزواج بالأبكار. نقدم في ما يلي نبذة عن عدد من زوجات الرسول:

١- أمّ حبيبة

بنت ابي سفيان — الذي كان العدو اللدود للإسلام — وكانت في من هاجر الى ارض الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش، ابن عمه النبي. ولكن زوجها عبيد الله تنصّر هناك،

١ - للاطلاع على مزيد من المعلومات في هذا المجال، راجع تفسير الآيات ١ - ٥ من سورة التحريم.

تداعيات معارضة قريش والاجراءات التي اتخذتها

ومات بسبب إسرافه في شرب الخمر^١. ولما تنهى الخبر الى رسول الله^٢ بعث في السنة السادسة للهجرة^٣ عمرو بن أمية الضمري الى الحبشة، فقدم على النجاشي وخطب منه ام حبيبة لرسول الله^٤ فزوجها إياه. ومكثت في الحبشة سنة اخرى، وفي السنة السابعة رجعت من الحبشة الى المدينة مع آخر مجموعة من المهاجرين^٥. وكان عمرها يومذاك ثلاثين ونيف من السنين^٦.

ومن الواضح ان مبادرة الرسول الى الزواج من هذه المرأة المسلمة جاءت من باب العطف عليها والمواساة لها، وذلك لأنها تركت أباه وقومها الذين كانوا يعبدون الأصنام وهاجرت برفقة زوجها الى الحبشة، ثم فقدت زوجها وشريك حياتها في بلاد الغربة. ولم يكن هناك شيء افضل لها من نيل مفخرة الزواج بالرسول^٧.

واذا افترضنا جدلاً صحة ما ذهب إليه المستشرقون المسيحيون، فكيف يُعقل ان يتزوج شخص امرأة تُقيم في بلد آخر ولا يعلم متى تسمح الظروف بعودتها؟

٢- أم سلمة

هند بنت أبي أمية المخزومي، كانت زوج ابن عمّها ابو سلمة (عبد الله) المخزومي^٨، ابن عمّة رسول الله^٩، فولدت له اربعة اسم احدهم سلمة، ولهذا سُمّي **أم سلمة** و**أبو سلمة**^{١٠}.

اصيب ابو سلمة في معركة بدر واستشهد على اثر ذلك في جمادى الثانية في السنة

١ - محمد بن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر)، ج٧، ص٩٧؛ الشيخ عباس القمي، سفينة البحار، ج١، كلمة حب، ص٢٠٤.

٢ - ابن الاثير، أسد الغابة، ج٥، ص٤٥٨؛ المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر (بيروت: دار الاندلس)، ج٢، ص٢٨٩؛ حمد الله المستوفي، تاريخ كزیده، باهتمام الامام عبد الحسين النوائي (طهران: دار أمير الكبير، ١٣٦٢)، ص١٦١.

٣ - ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، ص١٤٤؛ حمد الله المستوفي، مصدر سابق، ص١٦١.

٤ - ابن سعد، مصدر سابق، ص٩٩؛ الشيخ عباس القمي، مصدر سابق، ص٢٠٤.

٥ - العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج٤، ص٤٥٨؛ ابن الاثير، اسد الغابة، ج٥، ص٥٨٨.

٦ - ابن الاثير، مصدر سابق، ص٢١٨.

٧ - المصدر السابق، ص٥٨٨؛ ابن هشام، سيرة النبي، ج٤، ص٢٩٤؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج٨، ص٨.

١٦٨..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

الثالثة للهجرة^١. ويبدو انه لم يكن هناك أحد في المدينة من قبيلة ام سلمة وزوجها (بني مخزوم)؛ لانها قالت عندما مات ابو سلمة: غريب وفي أرض غربة؟! لأبكيته بكاءً يُتحدّث عنه^٢.

تزوجها النبي في السنة الرابعة للهجرة^٣. وكانت حينذاك قد أسنت وأدبر منها العمر، وكانت ترضع اصغر اولادها^٤.

ومن الواضح ان هدف الرسول من وراء هذا الزواج هو النهوض باعالة وكفالة هذه المرأة واولادها اليتامى. ألم يكن الزواج من ارملة مسنة وتربية اولادها اليتامى الاربعة يمثل نوعاً من الرياضة الاخلاقية؟!

كانت ام سلمة من حيث التقوى والفضيلة من بعد السيدة خديجة^٥، وكانت على علاقة وثيقة بأهل البيت وكثيراً ما كانوا يستودعونها علوم واسرار الولاية^٦.

٣ - زينب بنت جحش

بنت عمّة رسول الله^١. وكانت قبله زوجة ابنه بالتبني زيد بن حارثة^٢. وبعد طلاقها من زيد تزوجها النبي^٣.

كان زيد مولى لخديجة، ووهبته للنبي بعد زواجها منه. وقبل البعثة أعتقه الرسول وتبّاه. ومنذ ذلك اليوم صاروا يسمّونه زيد بن محمد^٤.

١ - ابن عبد البر، الاستيعاب، ج٤، ص٨٢.

٢ - امير مهنا الخيامي، زوجات النبي واولاده (بيروت: مؤسسة عز الدين، الطبعة ١، ١٤١١هـ)، ص١٩٩.

٣ - ابن حجر، مصدر سابق، ص٤٥٨؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج٨، ص٨٧.

٤ - ابن سعد، مصدر سابق، ص٩٠، ٩١؛ محمد بن حبيب الغدادي، المخير (بيروت: دار الافاق الجديدة)، ص٨٤.

٥ - ابن حجر، مصدر سابق، ص٤٥٨؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص٩١.

٦ - المامقاني، تنقيح المقال، ج٣، (فصل النساء)، ص٧٢.

٧ - المامقاني، مصدر سابق؛ الشيخ محمد تقي التستري، قاموس الرجال (طهران: مركز نشر الكتاب، ١٣٨٩هـ)، ج١٠، ص٣٩٦.

٨ - ابن سعد، مصدر سابق، ج٨، ص١٠١؛ ابن الاثير، اسد الغابة، ج٢، ص٢٢٦؛ ابن حجر، الإصابة، ج٤، ص٥٦٤.

٩ - ابن سعد، مصدر سابق؛ ابن الاثير، مصدر سابق، ج٢، ص٢٢٤؛ ابن حجر، مصدر سابق، ص٥٦٣.

تداعيات معارضة قريش والاجراءات التي اتخذتها

وبعد البعثة ابطل الله عادة التبنّي، في قوله تعالى:

{مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ
أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تَظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ
أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ
الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ * ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ
عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ
وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَّا
تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}¹.

وبعد نزول هذه الآيات قال الرسول لزيد: أنت زيد بن حارثة. وصار يُعرف منذ ذلك
اليوم بمولى رسول الله². وقد خطب له رسول الله³ زينب لكنها رفضت الزواج به في اول
الامر على اعتبار انها ذات نسب وشرف وحفيدة عبد المطلب ومن قبيلة قريش المعروفة،
وأما زيد فلم يكن قرشياً وانما كان مولىً واعتق.

ولكنها وافقت في نهاية الامر بعدما لاحظت رغبة الرسول العميقة في ان يتم
هذا الزواج.

وكان هذا الزواج مثلاً لالغاء الامتيازات الطبقية والعنصرية، وكان هذا هو السر
الكامن وراء رغبة الرسول في انجازه. ولكن كثيراً ما كانت تقع بينهما خلافات بسبب
عدم انسجامهما حتى أوشكا على الطلاق. وحاول زيد عدة مرات طلاقها الا ان النبي⁴
دعاهما الى التصالح قائلاً له: امسك عليك زوجك⁵. وفي الختام طلقها زيد. وبعد ذلك أمر
الرسول من قبل الله تعالى بالزواج من زينب؛ لكي لا يكون من العسير على المسلمين
الزواج بمطلقات ادعيائهم، وليكسر بذلك سُنّة مغلوبة كانت شائعة في الجاهلية؛ وذلك
لأنهم كانوا يعتبرون الأدعياء ابناءً حقيقيين بمعنى الكلمة، ولذلك كانوا يحرمون مطلقاتهم.

وقد بين القرآن الكريم الغاية من هذا الزواج كما يلي:

{وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ
عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي مَا فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ

١ - سورة الاحزاب (٣٣)، الآيتان ٤ - ٥.

٢ - الألوسي، تفسير روح المعاني (بيروت: دار احياء التراث العربي)، ج ٢١، ص ١٤٧.

٣ - ابن سعد، مصدر سابق، ج ٨، ص ١٠٣.

١٧٠..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

مُبْدِيهِ وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا بِكَيِّ لَّا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا^٢.

وتكلم المنافقون في ذلك وقالوا: ان محمداً تزوج امرأة ابنه زيد^٣. فرد عليهم الله تعالى بقوله: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا^٤.

وقد صور بعض المستشرقين المسيحيين هذا الزواج على شكل قصّة حب ذات شجون وفروع وأضفوا عليها الكثير من الخيال^٥. الا ان هذا الادعاء لا ينسجم مع نبوة وعصمة الرسول، فضلاً عن ذلك فقد لاحظنا ان القضية كانت على نحو آخر وهي مدونة في

١ - ذهب اهل التحقيق من المفسرين الى ان المراد مما كان يخفيه الرسول في نفسه هو ما أوحى الله تعالى به إليه ان زينب سيطلقها زيد ويتزوجها هو بعده، ويلغي هذه السُّنة المغلوطة، ولكن النبي ما كان يظهر ذلك خوفاً من اعتراضهم. وهذا المعنى منقول عن الامام علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما. (الآلوسي، مصدر سابق، ج ٢٢، ص ٢٤؛ الطبرسي، مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٦٠).

٢ - سورة الاحزاب (٣٣)، الآية ٣٧.

٣ - ابن الأثير، مصدر سابق، ج ٧، ص ٤٩٤؛ الطبرسي، مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٣٧؛ القسطلاني، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، تحقيق: صالح احمد الشامى (بيروت: المكتب الاسلامي، الطبعة ١، ١٤١٢ هـ)، ج ٢، ص ٨٧.

٤ - سورة الاحزاب (٣٣)، الآية ٤٠.

٥ - دائرة المعارف الاسلامية، تعريب أحمد الشنتناوي وآخرون، ج ١١، ص ٢٩، كلمة زينب؛ محمد حسين هيكل، حياة محمد، ص ٣١٦، ٣٢٣. وملخص كلام المستشرقين هو أن رسول الله (ص) ذهب في أحد الايام إلى دار زيد، ولم يكن زيد في حينها هناك، فرأى زينب فبهره حسننها وجمالها. وعندما عرف زيد رغبة رسول الله فيها، طلقها! بينما كانت زينب في واقع الحال ابنة عمّة الرسول وكان على معرفة تامة بما يحاسنها ومساوئها. ومما يدعو إلى اشد الاسف ان المستشرقين اعتمدوا في رواياتهم على أخبار غير معتبرة وردت في بعض كتب الحديث والسيرة مثل (تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٤٢؛ الطبقات الكبرى، ج ٨، ص ١٠١)، وأخذ عنهم المؤلفون الآخرون من غير التفات منهم إلى خطورة مثل هذا النقل. وقد لاحظنا ان القرآن طرح القضية على نحو آخر، وكذلك صرح العلماء المسلمون بأن هذا الخبر غير مقبول، ومنهم السيد مرتضى علم الهدى العالم الشيعي المعروف (م ٤٣٦ هـ)، حيث سَمَّى هذه الرواية بالرواية الخبيثة (تنزيه الأنبياء، ص ١٤)، واعتبر الآلوسي البغدادي هذا الكلام مرفوضاً وهو من وضع اصحاب الاساطير، ونقل عن شارح المواقف قوله بأنه ينبغي تنزيه الانبياء عن مثل هذه التلفيقات. (روح المعاني، ج ٢٢، ص ٢٤ - ٢٥)

تداعيات معارضة قريش والاجراءات التي اتخذتها

صفحات التاريخ من جهة، وقد بينها القرآن بشكل صريح من جهة اخرى.
يبدو ان هذه النبذة التي ذكرناها عن حياة عدد من زوجات الرسول تكفي للكشف
عن سبب تعدد زوجاته. ولا ضرورة لتقديم نبذة عن الباقي منهن لأن اوضاعهن مشابهة
لهذا الوضع تقريباً.

جذابة القرآن

عندما كان الرسول^١ يدعو الناس الى الإسلام كان نادراً ما يتحدث من عند نفسه.
وكانت افضل وسيلة لدعوته آيات القرآن الكريم التي كان لها تأثير سحري وجذاب في
اسماع العرب. فالقرآن معجزة الرسول^١؛ معجزة في الفصاحة والبلاغة. والفاظ القرآن
وكلماته، وتركيب جملة، وانتقاء كلماته، والسجع الذي تتميز به آياته في غاية الجمالية
والسحر والجادبية، وهو مما يتعذر على البشر الاتيان بمثله او صياغة نظير له. ومن هنا فقد
تحدى القرآن المنكرين ودعاهم — إن كانوا في شك منه — ان يأتوا بسورة ماثلة لواحدة
من سوره^١.

لقد كان عرب الحجاز شعراء وذوي خبرة وتبحر بالشعر، ولكن فصاحة القرآن وجمال
آياته قد بهرتهم وجذبتهم. فكلمات الوحي كانت من اروع الكلمات في اسماعهم، وإيقاعه
من اجمل ما يتناهى الى الأذن من إيقاع ونغم، حتى انهم كانوا احياناً ييقنون مبهورين
وغارقين في امواج من عذوبة البيان بسبب شدة تأثير القرآن وسحر بيانه في اعماق
وجودهم.

ومما يذكر في هذا المجال ان عدداً من وجهاء قريش خرجوا ذات ليلة ليستمعوا من
رسول الله^١ وهو يصلي ليلاً في بيته. فأخذ كل رجل مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم
بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. فجمعهم الطريق، فتلاوموا،
وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم
انصرفوا. ومع ذلك فقد تكرر منهم هذا العمل ثلاث ليال، وهم في كل مرة يقررون ان لا

يعودوا إلى مثلها^١.

اتهامه بالسحر

كان موسم الحج فرصة مناسبة ينتهزها الرسول^١ لدعوة الناس الى الإسلام، وذلك لأن القبائل كانت تفد الى مكة لاداء مناسك الحج. وفي هذا الموسم كان باستطاعة الرسول ايصال نداء التوحيد الى جميع سكان شبه جزيرة العرب. ولهذا السبب كان موسم الحج خطراً تخشاه قريش.

وقبيل حلول موسم الحج اجتمع نفر من قريش الى الوليد بن المغيرة وكان ذا سنٍ فيهم ورئيس قبيلة بني مخزوم، وقد حضر الموسم فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً. قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فقل وأقم لنا رأياً نقول به، قال: بل أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول كاهن. قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزممة الكاهن ولا سجعته. قالوا: فنقول مجنون. قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنفة ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول ساحر. قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة. وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته.

فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره^٢.

١ - ابن هشام، سيرة النبي، ج ١، ص ٣٣٧.

٢ - ابن هشام، مصدر سابق، ص ٢٨٨ - ٢٨٩.

تداعيات معارضة قريش والاجراءات التي اتخذتها

ان ما سَمَّاهُ وجهاء قريش <سحراً> ما هو الا آيات القرآن الكريم التي تأخذ بمجامع القلوب، وتحتذب قلب كل سامع، وتستميله الى ما فيها من روعة البيان. وقد بلغ تحذير قريش من سماع القرآن حداً جعل زعماء قريش يوصون شخصية كبيرة مثل اسعد بن زرارة الذي قدم من يثرب الى مكة، ان يضع في اذنيه القطن اثناء الطواف لكي لا يسحره سماع كلام محمد^١.

سفره الى الطائف للدعوة

تقع الطائف على بعد اثني عشر فرسخاً (حوالي ٧٢ كيلو متراً) من مكة. وهي طيبة الهواء وكانت تشتهر بمزارع العنب^٢. وكان للمتمولين من قريش فيها مزارع وعقارات. وكان اهل الطائف اغنياء ويعرفون بالربا. وكانت تسكنها في ذلك الوقت قبيلة قوية هي قبيلة ثقيف.

بعد وفاة خديجة وابي طالب اشتد أذى قريش لرسول الله^٣، حتى غدا من الصعب عليه مواصلة الدعوة في مكة. وعلى صعيد آخر كان يرى بانه لا ينبغي التوقف عن دعوة الناس الى الاسلام. ولذلك عزم على التوجه الى الطائف لدعوة أهلها الى الاسلام، لعله يلتبس منهم النصر والمنعة. وكان معه في سفره هذا زيد بن حارثة^٤، وعلي بن ابي طالب^٥.

ولما انتهى رسول الله^٦ الى الطائف، عمد الى ثلاثة اخوة من ثقيف — وهم يومئذ سادات ثقيف واشرافهم، وكانت زوجة أحدهم من قريش من بني جُمَح^٧ — فدعاهم

١ - الطبرسي، إعلام الوري، ص ٥٦.

٢ - ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٩.

٣ - الطبري، تاريخ الأمم والملوك (بيروت: دار القاموس الحديث)، ج ٢، ص ٢٣٠؛ البلاذري، انساب الاشراف، تحقيق: محمد حميد الله، (القاهرة: دار المعارف)، ج ١، ص ٢٣٧.

٤ - ابن ابي الحديد، شرح فتح البلاغة، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، (القاهرة: دار احياء الكتب العربية، ١٩٦١م)، ج ١٤، ص ٩٧ وج ٤، ص ١٢٧ - ١٢٨ نقلًا عن المدائني.

٥ - الطبري، مصدر سابق، ص ٢٣٠؛ ابن هشام، سيرة النبي، ج ٢، ص ٦٠.

١٧٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي

الى الله، وكلمهم لنصرتهم وللقيام معه على من خالفه. فرفضوا ما عرضه عليهم، وكلموه بغلظة.

فقال لهم رسول الله ان يكتموا عليه أمره لئلا يبلغ ذلك قريشاً فيستكلبوا عليه. ولكنهم لم يكتموا أمره.

وقصد رسول الله رجالاً آخرين من اشراف ثقيف، فلم يجيبوه وخافوا على أحدائهم. واغروا به سفهاءهم فجعلوا يرمونه بالحجارة حتى ان رجلي رسول الله لتدميان وزيد بن حارثة يقيه بنفسه، حتى شج رأس زيد.

ولما وصل الى حائط لعتبة وشيبة (من اشراف قريش)، عمد الى ظل حبله من عنب فجلس فيه، واخذ يناجي ربه ويدعوه.

ولما رأى عتبة وشيبة ما لقي رسول الله، تحركت له رحمهما، فدعيا غلاماً لهما نصرانياً من اهل نينوى اسمه عداس وأمره ان يأخذ له عنباً في طبق. فلما وضع رسول الله يده قال <بسم الله> ثم أكل. فنظر عداس الى وجهه مستغرباً هذا الأمر. ودار بينهما حوار وعرض عليه رسول الله رسالته. فأكب عداس على رسول الله يقبل رأسه ويديه ورجليه^٢، وأسلم^٣.

وبعد عشرة ايام من الاقامة بالطائف^٤ انصرف رسول الله راجعاً الى مكة حين يئس من ايمان ثقيف ونصرتها.

هل استجار الرسول بأحد

يقال ان رسول الله استجار عند عودته الى مكة بمطعم بن عدي، ودخل مكة في جواره

١ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ٢١٢.

٢ - الطبري، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٣٠؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٢.

٣ - ابن واضح، تاريخ البعوثي، ج ٢، ص ٣٠.

٤ - ابن سعد، مصدر سابق، ج ١، ص ٢١٢؛ ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج ١٤، ص ٩١؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ١٩، ص ٢٢. وأشارت مصادر اخرى إلى أن النبي (ص) مكث في الطائف أكثر من هذه المدة.

تداعيات معارضة قريش والاجراءات التي اتخذتها

وحمايته. ولكن هناك مجموعة من الأدلة والشواهد التي تفيد بأن الخبر بعيد وهي:

١— كيف يُعقل ان يتحمل الرسول مذلة الاستجارة بمشرك، بعد عشر سنوات من الدعوة ومجاهدة المشركين، وهو الذي لم يتقبل يوماً فضلاً أو مئاً من أحد؟

٢— إن كان ابو طالب قد توفي يومذاك، فبقية بني هاشم كانوا في الوجود وفيهم من الشجعان من تهاب قريش سطوته مثل حمزة. والشاهد على ذلك ان خطة اغتيال الرسول في ليلة الهجرة تحالفت عليها عدّة قبائل تلافياً لثأر بني هاشم.

٣— جاء في بعض المصادر التاريخية ان زيداً كان برفقته. ونقل مؤرخون آخرون ان علي X كان معه أيضاً (ومن المستبعد ان لا يرافق الامام علي الرسول في مثل هذا السفر). وهذا يعني انهم كانوا مجموعة مؤلفة من ثلاثة اشخاص. وهذه المجموعة تستطيع الدفاع عن نفسها ولا تحتاج الى مجير.

٤— كان رسول الله من شجعان العرب ولا ينبغي الظن بأنه كان شخصاً عاجزاً وضعيفاً بحيث ينال منه كل من يريد النيل منه. فها هو امير المؤمنين X يصور شجاعته في ساحة المعركة على النحو التالي:

«كُنَّا إِذَا أَحْمَرَّ الْبَأْسَ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ^١ فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ»^٢.

٥— كان رسول الله يحارب النظام القبلي الذي كان سبباً للكثير من مشاكل الناس يومذاك، فكيف يُعقل ان يلجأ هو الى سُنّة الاستجارة التي تُعتبر من افرازات النظام القبلي، ويضفي عليها صفة القبول والتأييد؟

٦— ورد في ما نقله البلاذري^٣ وابن سعد^٤ ان خروجه الى الطائف كان في الايام الاخيرة من شهر شوال. فان صح ذلك واخذ بنظر الاعتبار مدّة اقامته في الطائف، فذلك

١ - فتح البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح، ص ٥٣٠، غريب كلامه، الرقم ٩٥.

٢ - انساب الاشراف، ج ١، ص ٢٣٧.

٣ - الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢١٠.

١٧٦..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

يعني ان عودته الى مكة صادفت في أحد الأشهر الحرم. وكان من المتعارف يومذاك الامتناع عن اراقة الدماء والتعرض للأفراد في الأشهر الحرم. وبناءً على ما مر ذكره لم يكن هناك ما يخشاه ويستجير منه.

ويمكن في ضوء القرائن السالف ذكرها ان نستنبط بأن عودته من الطائف — حيث يقال بأنّه مكث ليلة في نخلة^١ ومرّ به نفر من الجن وسمعوه يتلو القرآن^٢ — كانت عن طريق وادي نخلة^٣.

دعوته القبائل العربية الى الإسلام

كان رسول الله يدعو قبائل العرب الى الإسلام سواءً في مكّة أو في ما جاورها من البلاد؛ فأتى منازل كندة، وكلباء، وبنو حنيفة، وبنو عامر بن صعصعة، وعرض عليهم نفسه ودعاهم الى الإسلام. وكان ابو لهب يسير خلفه ويحذّر الناس من الاستماع إليه والتصديق به^٤.

وعندما كان في منازل بني عامر يدعوهم الى الإسلام، قال له رجل من كبراءهم: <أرأيت ان نحن بايعناك على أمرك، ثم اظهرك الله على من خالفك، أ يكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمر الى الله، يجعله حيث يشاء. فرد عليه الرجل: أفتهدف نحورنا للعرب دونك، فاذا اظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك>^٥.

١ - نخلة: وادي بين الطائف ومكّة على بعد ليلة من مكّة. (ابن هشام، سيرة النبي، ج٢، ص٦٣، الهامش).

٢ - الطبري، مصدر سابق، ص٢٣١؛ ابن هشام، مصدر سابق، ص٦٣.

٣ - راجع: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج٢، ص١٦٨ - ١٦٧.

٤ - ابن هشام، مصدر سابق، ج٢، ص٦٦ - ٦٥؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك (بيروت: دار القاموس الحديث)، ج٢، ص٢٣٣ - ٢٣٢؛ البلاذري، انساب الاشراف، ج١، ص٢٣٧ - ٢٣٨؛ ابن اسحاق، السير والمغازي، تحقيق: سهيل زكار، ص٢٣٢. وكذلك دعا قبائل: بني فزارة، وغسان، وبني مرة، وبني سليم، وبني عيس، وبني الحارث، وبني غنّدة، والحضارمة، وبني النضر، وبني بكاء، الى الاسلام، إلا ان أياً من هذه القبائل لم تستجب لدعوته. (ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت: دار صادر، ج١، ص٢١٦ - ٢١٧).

٥ - ابن هشام، مصدر سابق، ج٢، ص٦٦؛ الحلي، السيرة الحلبية (بيروت: دار المعرفة)، ج٢، ص١٥٤؛ زيني دحلان، السيرة

تداعيات معارضة قريش والاجراءات التي اتخذتها

ونقل أيضاً بأن مثل هذا الموقف وهذا الاقتراح كان من قبل قبيلة كندة، وكان جواب الرسول لهم هو ذات الجواب الآنف ذكره^١.

وهذا الجواب وهذا الموقف الذي اتخذته الرسول^١ يثير الاهتمام ويستحق التأمل لسببين:
الأول: تأكيد ان أمر خلافته لله، يدل ان منصب الخلافة يأتي عن طريق التعيين والتنصيب؛ أي ان هذا المنصب منصب إلهي، والانتخاب يأتي من الله وليس من الناس.
الثاني: ان رسول الله^١ لم يستخدم اساليب غير اخلاقية في دعوته، خلافاً للساسة الذين يتبعون منطق <الغاية تبرر الوسيلة> ويستخدمون كل وسيلة متاحة لتحقيق مآربهم.
وان رسول الله^١ لم يقطع عهداً لا يستطيع الوفاء به، رغم ان اسلام قبيلة كبيرة كانت له أهمية بالغة يومذاك.

وعلى اية حال، ففي موسم الحج والعمرة حيث كان الأمن يستتب تكريماً للأشهر الحرم ويفد الناس الى مكة ومنى او الى الاسواق المجاورة لمكة مثل عكاظ ومجنة وذو الحجاز^٢، كان رسول الله^١ يوسع نشاطه هناك ويتبع الحاج في منازلهم. فان لم يؤمن به الحجاج والمسافرون، فاهم على الأقل سينشرون خبر بعثته في منازل سكنهم. وهذه بحذ ذاتها خطوة مهمة باتجاه تحقيق رسالته.

النبوية والآثار الحمديّة (بيروت: دار المعرفة، الطبعة ٢)، ج ١، ص ١٤٧؛ السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج ٢، ص ١٧٥ - ١٧٦.

١ - ابن كثير، البداية والنهاية، (بيروت: مكتبة المعارف، الطبعة ١، ١٩٦٦م)، ج ٣، ص ١٤٠.

٢ - ابن سعد، مصدر سابق، ج ١، ص ٢١٦.

الباب الرابع

من الهجرة الى الدعوة العالمية

الفصل الاول: الهجرة الى يثرب

الفصل الثاني: الاعمال الاساسية للرسول في المدينة

الفصل الثالث: مؤامرات اليهود

الفصل الرابع: تشكيل القوة القتالية الإسلامية

الفصل الاول

الهجرة الى يثرب

عوامل انتشار الإسلام في يثرب

وادي القُرى: وادٍ بين المدينة والشام من اعمال المدينة كثير القرى، وبها سُمِّي وادي القُرى، يمر به التجار الذين يسرون من اليمن الى الشام ويكون مسيرهم فيه بعد العبور من جانب مكّة. كانت فيه ذات ماء وعلف وزرع^١. وكانت تنتفع منه القوافل التي تمر من هناك. وكانت تقع في احدى هذه الواحات على بعد خمسمائة كيلو متر الى الشمال من مكّة، مدينة قديمة (يثرب) تبدّل اسمها بعد هجرة الرسول إليها الى <مدينة الرسول> ثم <المدينة>.

كان أهالي هذه المدينة يشتغلون بالاراضي والزراعة خلافاً لأهالي مكّة الذين كانوا يعملون بالتجارة. وكانت المكونات السكانية والوضع الاجتماعي في يثرب يختلف اختلافاً كلياً عما عليه الحال في مكّة. فكان يقطن في هذه المدينة ثلاث قبائل يهودية كبيرة، وهي بنو النضير، وبنو قينقاع، وبنو قريظة. وإلى جانب اليهود كانت تسكنها قبيلتا الأوس والخزرج، وهما في الأصل من اليمن من الفرع القحطاني، وهاجرتا من الجنوب على اثر انهيار سد مأرب^٢.

١ - ياقوت الحموي، معجم البلدان، (بيروت: دار احياء التراث العربي، ١٣٩٩هـ-)، ج٤، ص٣٣٨.

٢ - المصدر السابق، ج٥، ص٣٦. بحثنا حول سد مأرب وتاريخ انهياره في الباب الاول من هذا الكتاب.

..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

في السنوات التي كان فيها الرسول يدعو قومه الى الإسلام في مكة، وقعت في يثرب حوادث أدّت الى تمهيد الظروف لهجرة الرسول الى هناك وتحويل هذه المدينة الى قاعدة للدعوة ونشر الإسلام. ونذكر من تلك الحوادث ما يلي:

١— كانت الاراضي الخصبة في المناطق المجاورة للمدينة بيد اليهود، وقد غرسوا في بساينها النخيل، وكانوا يتمتعون بوضع اقتصادي أفضل^١. وبين الحين والآخر كانت تقع منازعات بينهم وبين الأوس والخزرج، فكان اليهود يقولون لهم: <ان نبياً مبعوث الآن، قد أظلم زمانه، فنتبّعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم>^٢. وكان اليهود أهل كتاب وعلم، والمشركون ينظرون إليهم بعين الاحترام ويصدّقون ما يقولونه لهم حول هذا الأمر. ونتيجة لتكرار هذه التهديدات فقد رسخت الفكرة في اذهان بني الاوس والخزرج، وكانت الأرضية مهيئة في اذهان أهالي يثرب لظهور النبي.

٢— منذ سنوات مضت وقعت عدّة حروب بين قبيلتي الأوس والخزرج أريقّت فيها الكثير من الدماء وكانت آخرها حرب بُعاث. وفي هذه المعارك ذهب من الفريقين الكثير من الخسائر والتضحيات، حتى ضاق الفريقان بما ذرعاً، وكانا يرغبان في الصلح، ولكن لم يكن هناك من شخص وجيه يُصلح ما بينهما. وكان عبد الله بن أبي شريقاً في الخزرج وقد وقف على الحياد في حرب بُعاث، وحاول مصالحة القبيلتين. وقد كان الأوس والخزرج

١ - مونتغمري واط، محمد في المدينة، تعريب: شعبان بركات (بيروت: منشورات المكتبة العصرية)، ص٢٩٤. يقال ان يهود كانوا ثيافاً وعشرين قبيلة. وكانت آطامهم تسعة وخمسين اطماً. وللعرب النازلين عليهم قبل الانصار ثلاثة عشر اطماً، قبل قدوم الاوس والخزرج (مصدر سابق، ص٢٩٣؛ وفاء الوفاء، ج١، ص١٦٥).

٢ - ابن هشام، مصدر سابق، ج٢، ص٧٠؛ الطبري، مصدر سابق، ج٢، ص٢٣٤؛ البيهقي، دلائل النبوة، ج٢، ص١٢٨؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج١، ص٥١؛ الطبرسي، اعلام الوری، ص٥٦. اليهود الذين كانوا يصرّحون بمثل هذه العلام عن ظهور الرسول هبوا لمعاداته بعد بعثته. ولهذا السبب توجه اليهم القرآن باللوم والتقريع كما يلي:

﴿وَلَمَّا حَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (سورة البقرة (٢)، الآية ٨٩).

الهجرة الى يثرب

اجتمعوا على ان يملّكوه عليهم لشرفه وقد اتخذوا لذلك اكليلاً لتتويجه بالرياسة^١. ولكن بعد لقاء الأوس والخزرج بالرسول^٢ في مكة (وهو ما سنشرحه في الصفحات الآتية) تبدّل مسار الأحداث وفقد عبد الله بن أبي مكانته.

أول جماعة اسلمت في يثرب

منذ السنوات الاولى للدعوة العلنية للرسول^٣ في مكّة، تناهت اخبار بعثته الى أسماع أهالي يثرب بواسطة المسافرين وزوار مكّة. وكان البعض منهم قد قابله في مكّة وأسلم، ولكنهم ماتوا أو قتلوا بعد مدّة^٤، ولم تتوفر لهم الظروف لنشر الإسلام هناك. وفي السنة الحادية عشرة للبعثة التقى رسول الله بستّة من اشراف الخزرج في موسم الحج في منى ودعاهم الى الإسلام، فقال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا والله انه النبي الذي كان يوعدكم به اليهود، فلا يسبقنكم اليه احد. فأجابوه وقالوا له: انا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم العداوة والشر مثلما بينهم، فعسى ان يجمع الله بينهم بك. فتقدّم عليهم وتدعوهم إلى أمرك. وكانوا ستة نفر. قال: فلما قدموا المدينة فاحبروا قومهم بالخبر، فما دار حول الا وفيها حديث رسول الله^٥.

بيعة العقبة الاولى

وفي السنة الثانية عشرة للبعثة اجتمع اثنا عشر من أهالي يثرب عند عقبة منى^٦، وبايعوا رسول الله^٧. كان من هذه الجماعة عشرة من الخزرج واثان من الأوس. وهذا يمثّل

١ - الطبرسي، مصدر سابق، ص ٥٧.

٢ - ابن هشام، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٧ - ٧٠؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٣٣؛ البلاذري، انساب الاشراف، ج ١، ص ٢٣٨؛ البيهقي، مصدر سابق، ج ٢، ص ١١٨.

٣ - ابن هشام، مصدر سابق، ص ٧٠ - ٧٣؛ الطبري، مصدر سابق، ص ٢٣٥ - ٢٣٤؛ البيهقي، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٢٨؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ١٩، ص ٢٥.

٤ - العقبة بمعنى الطريق الضيق، ويراد بها العقبة التي تقع عند نهاية منى إلى يمين مكّة.

٥ - خمسة ممن بايعوه في السنة الماضية، وسبعة آخر.

..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

دليلاً على ان هاتين القبيلتين قد تناسيتا اضعافهما السابقة وتكاتفتا في ظل لواء الإسلام. وقد بايعوا الرسول على ان لا يشركوا بالله، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا اولادهم، ولا يأتوا ببهتان، ولا يعصوا النبي في معروف^١.

ووعدهم الرسول انهم اذا تمسكوا بهذه البيعة فان لهم على الله الجنة^٢. وبعد انقضاء موسم الحج عادوا الى يثرب وسألوا الرسول ان يرسل الى يثرب من يعلم أهلها القرآن فبعث اليهم رسول الله مصعب بن عمير^٣. فازداد عدد المسلمين هناك بفعل النشاطات والجهود التي بذلها مصعب. وكما لاحظنا ان الاكابر من اهالي مكة هم الذين رفعوا لواء معارضة الدين، بينما اقبل عليه الشبان والمحرومون منهم، الا ان الوضع كان على خلاف ذلك في يثرب؛ أي ان الأشراف منهم كان لهم السبق في دخول الإسلام، ودخله سائر الناس تبعاً لهم. وكان هذا من عوامل انتشار الإسلام بسرعة في هذه المدينة.

بيعة العقبة الثانية

وفي السنة الثالثة عشر للبعثة دخل مكة خمس وسبعون، كان أحد عشر منهم من الأوس (والباقون من الخزرج) وامرأتان* قادمين برفقة قافلة الحجاج الوافدين من يثرب. وفي الثاني عشر من ذي الحجة بايعوا الرسول عند عقبة منى ببيعة العقبة الثانية (مع الالتزام بالكتمان طبعاً). وقد عاهدوه في هذه البيعة على ان ينصروه — اذا هاجر الى مدينتهم —

١ - لم يطرح في هذه البيعة موضوع الحرب والجهاد، لذلك سُميت ببيعة النساء، وجاءت على غرار بيعة الرسول مع النساء المسلمات من هذه المدينة في اعقاب فتح مكة، وهي بهذا المضمون أيضاً. وأشارت اليها الآية ١٢ من سورة الممتحنة على النحو التالي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَإِيَّاهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٢ - المصدر السابق ؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٢٠.

٣ - مصعب بن عمير احد شباب قريش من بني عبد الدار، وكان من اسرة ذات غنى ورفاه. كان من فضلاء الصحابة وخيارهم ومن السابقين الى الاسلام، أسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الارقم وكنم اسلامه خوفاً من امه وقومه. ومع ان ابويه كانا يحبانه حباً جماً الا انه بعد ان اسلم طردها وحرماه من الفروة، وكان ممن هاجروا المهجرتين الى الحبشة. (ابن الاثير، أسد الغابة، ج ٤، ص ٣٦٨ - ٣٧٠).

* - وردت اسماء اعضاء هذه البيعة في الكتب الموسعة للتاريخ الاسلامي.

الهجرة الى يثرب

ويمنعون عنه كما يمنعون عن نسائهم واولادهم، وان يحاربوا من يحاربه ولهذا السبب سميت هذه البيعة باسم بيعة الحرب.

ثم ان النبي أمرهم ان يختاروا منهم اثني عشر نقيباً، فاختاروا اثني عشر نقيباً وخرجوهم له، ليكونوا على قومهم كفلاء، الى حين هجرة رسول الله^١. وهذه دلالة على السلوك التنظيمي للرسول وسعيه الى تنظيم القوى الموجودة.

بداية الهجرة الى يثرب

رغم كل التكنم الذي اتبعه الرسول وأهل يثرب، الا ان قريش علمت بهذه البيعة، وعزمت على القاء القبض على المبايعين، ولكن القوم حزموا امرهم وعجلوا بالخروج من مكة، ولم يمسكوا الا بشخص واحد منهم.

وبعد مغادرة افراد تلك المجموعة مكة واطلاع قريش على ان الرسول وجد له انصاراً وحماة، اشتدت عليهم قريش عند ذاك وازدادوا في تعذيبهم بقصد ان يفتنوه ويردوهم عن دينهم، حتى مرت عليهم فتنة اخرى كالفتنة التي اضطرتهم للهجرة الى الحبشة^٢.

وعلى اثر ذلك اذن الرسول للمسلمين بالهجرة الى المدينة وقال لهم:

<ان الله عز وجل قد جعل لكم اخواناً وداراً تأمنون بها>.

واخذ المسلمون يتوجهون الى يثرب تدريجياً على مدى شهرين ونصف (من منتصف ذي الحجة الى آخر صفر)^٣ رغم كل المشاكل والعراقيل التي وضعتها قريش أمامهم. ولم يبق من المسلمين في مكة سوى النبي وعلي وابو بكر وبضعة اشخاص آخرين. وفي تاريخ الإسلام سُمي من هاجروا من مكة الى يثرب <المهاجرون>، وسُمي مسلمو يثرب

١ - البيهقي، مصدر سابق، ص ١٤٠ - ١٣٢؛ ابن هشام، مصدر سابق، ص ٩٠ - ٨١؛ البلاذري، مصدر سابق، ص ٢٥٤ - ٢٤٠؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص ٢٢٣ - ٢٢١؛ الطبري، مصدر سابق، ص ٢٣٧؛ الطبرسي، اعلام الوري، ص ٥٩ - ٦٠؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ١٩، ص ٢٥ - ٢٦.

٢ - البلاذري، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٥٧؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٤١ - ٢٤٠؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٢٦؛ المجلسي، مصدر سابق، ص ٢٦.

٣ - الحلبي، السيرة الحلبية، (انسان العيون) (بيروت: دار المعرفة)، ج ٢، ص ١٨٩.

..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

الذين نصرروا الرسول باسم <الانصار>.

مؤامرة لقتل الرسول^١

بعد هجرة المسلمين الى يثرب واستقرارهم فيها، ادركت قريش بأن يثرب غدت قاعدة منيعة وملاذاً للرسول ومن آمن معه، وان أهلها متأهبون لمناصرته على من عاداه وخالفه. وهذا ما جعلهم يحشون هجرة النبي^١ الى هناك. لانه لو هاجر الى يثرب فستكون هناك عدّة مخاطر تحيط بقريش، وهي:

١— ان المسلمين سيخرجون عن سيطرتهم ونفوذهم؛ وذلك لأن يثرب مدينة مستقلة ولا تملك قريش أية وسيلة للضغط عليها. وهذا يعني أن قريش ستكون في ظل الوضع الجديد غير قادرة على التنبؤ بمسار الاحداث او التأثير فيها.

٢— بما ان أهالي يثرب قد بايعوا الرسول ببيعة الحرب، فكان من المحتمل ان يستعين بهم ويهجم على مكّة لغرض الانتقام.^١

٣— وحتى على فرض عدم نشوب الحرب بينهما، يبقى هناك ثمة خطر بارز يهددهم وهو ان يثرب كانت سوقاً تدر الارباح لتجار قريش، ولو خرجت هذه المدينة من ايديهم فسيلحق بهم ضرر اقتصادي بالغ.

٤— تقع يثرب الى جوار الطريق التجاري بين مكّة والشام، وباستطاعة المسلمين تهديد هذا الطريق وايجاد خلل في عملهم التجاري.

هذه المخاوف دفعت وجهاء قريش الى ان يدخلوا دار الندوة (وهي دار المداولات والمشاورات وكانت من قبل دار قصي بن كلاب) ويتشاوروا فيها لمعالجة المواقف المستجدة. وقدّم كل واحد منهم مقترحاً في ما يتعلّق بوضع الرسول وكيفية التعامل معه. فمنهم من قال: انفوه أو احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً. ولكن هذين المقترحين رُفِضا لعدّة أسباب. ثم استقر رأيهم على قتل محمد^١، الا ان قتله لم يكن عملاً سهلاً، اذ لا بد وان بني هاشم سيثأرون لمقتله، وهذا ما دفعهم الى التفكير على نحو آخر وهو ان يأخذوا

الهجرة الى يثرب

من كل قبيلة فتى شاباً ثم يعمدون إليه فيهمجون عليه ليلاً ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فأنهم ان فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل كلها ولا يقدر بنو هاشم على الثأر من كل القبائل التي شاركت في قتله. وقرروا الليلة الاولى من ربيع الاول موعداً لتنفيذ هذه الخطة.

وقد ذكر الله عز وجل هذه المؤامرة بالشكل التالي:

{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}¹.

هجرة الرسول

اطلع النبي على مؤامرة دار الندوة عن طريق الوحي، وجاءه الأمر من الله بمغادرة مكة. فأخبر النبي علي بن ابي طالب بما عزم عليه وقاله له: <نم على فراشي واتشح ببردي الحضرمي الأخضر>. وسارع علي الى تنفيذ ما أمره به النبي .

في تلك الليلة غادر النبي برفقة ابي بكر متوجهين الى غار ثور في جنوب مكة (في الاتجاه المعاكس لطريق يثرب) وبقي في الغار ثلاثة ايام حتى تياس قريش من العثور عليه وتأمين السبل ويتسنى له عند ذاك مواصلة هجرته الى يثرب. وقد ذكر القرآن الكريم وحدة الرسول وانعدام الناصر والمعين، وانه لم يكن معه سوى رفيق واحد، ثم ان هذا الرفيق اعتراه الخوف. ورغم ان قريشاً قد جندت كل قواها للعثور على النبي، ولكنها بقدرة الله لم تعثر عليه:

{إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْرُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}².

التضحية الكبرى

١ - سورة الانفال (٨)، الآية ٣٠.

٢ - سورة التوبة (٩)، الآية ٤٠.

..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

في تلك الليلة نام عليّ على فراش النبي^١ ، وحاصر رجال قريش بسيفهم دار النبي^١ . وعند الصباح هجموا على الدار بالسيوف، فقام علي عن الفراش. كانوا حتى تلك اللحظة يظنون ان خطتهم تسير وفقاً لما رسموه لها تماماً. ولكنهم لما رأوا علياً يهتوا وهجموا عليه، ولكنه انتضى سيفه وتصدّى لهم. ولما سألوه: أين محمد؟ قال: لا ادري^١.

كل من يبيت تلك الليلة على فراش النبي كان احتمال بقاءه على قيد الحياة ضئيلاً جداً، بل يكاد يبلغ حد الصفر. لكن علياً الذي طالما كان ينام في موضع الرسول في شعب ابي طالب، جعل من نفسه درعاً هذه المرة أيضاً وبرز الى مجابهة الخطر فدأ للرسول^١ . وقد ذكر البارقي تعالى هذه التضحية الكبرى على النحو التالي:

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ}^٢.

قال: المفسرون والمحدثون ان هذه الآية نزلت بشأن التضحية الكبرى لعلي^٣ في ليلة المبيت^٣.

١ - وردت حادثة دار الندوة وليلة المبيت مع اختلاف في العبارات والالفاظ، ومن حيث الایجاز والاطناب في الكتب والمصادر التالية: تاريخ الامم والملوك، ج٢، ص٢٤٢ - ٢٤٥؛ السيرة النبوية، ج٢، ص١٢٤ - ١٢٨؛ الطبقات الكبرى، ج١، ص٢٢٧ - ٢٢٨؛ دلائل النبوة، ج٢، ص١٤٧ - ١٤٩؛ انساب الاشراف، ج١، ص٢٥٩ - ٢٦٠؛ الكامل في التاريخ، ج٢، ص١٠١ - ١٠٣؛ تاريخ يعقوبي، ج٢، ص٣٢؛ اعلام الوری، ص٦١؛ امالي الشيخ الطوسي، ص٤٤٥ - ٤٤٧؛ ٤٦٣ - ٤٧١؛ مناقب ابن شهر آشوب، ج١، ص١٨٢ - ١٨٣؛ مناقب الخوارزمي، ص٧٣؛ كنز الفوائد للكرجكي، ج٢، ص٥٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج٣، ص١٧٥ - ١٨٠؛ السيرة النبوية، ج٢، ص١٨٩ - ٢٠٦؛ تاريخ بغداد، ج١٣، ص١٩١ - ١٩٢؛ بحار الانوار، ج١٩، ص٤٧ - ٦٥.

٢ - سورة البقرة (٢)، الآية ٢٠٧.

٣ - - فتال النيسابوري، روضة الواعظین (بيروت: مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، الطبعة ١، ١٤٠٦هـ.)، ص١١٧؛ ابن الاثير، اسد الغابة، ج٤، ص٢٥؛ مؤمن الشبلنجي، نور الأبصار (القاهرة: مكتبة المشهد الحسيني)، ص٨٦؛ الطبرسي، مجمع البيان، ج١، ص٣٠١؛ ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم (القاهرة: دار احياء الكتب العربية، ١٩٦١م)، ج١٣، ص٢٦٢؛ سبط ابن الجوزي، تذكرة الخواص (النجف: المكتبة الحيدرية، ١٣٨٣هـ.)، ص٣٥؛ تقي الدين ابو بكر الحموي، ثمرات الأوراق (في حاشية المستطرف)، ص٢٠؛ عبد الحسين الاميني، الغدير، ج٢، ص٤٨، نقلاً عن مصادر متعددة؛ الشيخ محمد حسن المظفر، دلائل الصديق (قم، مكتبة بصيرتي)، ج٢، ص٨٠، نقل المرحوم المظفر عن المفسرين والعلماء البارزين من اهل السنة مثل الثعلبي، القندوزي، الحاكم النيسابوري، احمد بن حنبل، ابو السعادات، الغزالي، الفخر الرازي،

الهجرة الى يثرب

وقد بين علي في كلمة له — بعد تسليط الضوء على مؤامرة الاغتيال التي خططت لها قريش — حالته في تلك الليلة الخطيرة، بالشكل التالي:

<... فأمرني رسول الله^١ ان أضطجع في مضجعه وأقيه بنفسي، فأسرعت إلى ذلك مطيعاً له مسروراً لنفسي بأن اقتل دونه، فمضى عليه السلام لوجهه واضطجعت في مضجعه وأقبلت رجالا قريش موقنة في أنفسها أن تقتل النبي صلى الله عليه وآله فلما استوى بي وبهم البيت الذي أنا فيه ناهضتهم بسيفي فدفعتهم عن نفسي بما قد علمه الله والناس >^١.

وصول الرسول الى قبا

أخبر رسول الله^١ علياً بخروجه، وأمره ان يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عن رسول الله^١ الودائع التي كانت عنده للناس^٢، وأمره ان يهتئ مستلزمات هجرة ابنته فاطمة ÷ وعدد آخر آخر من النساء والرجال من بني هاشم، ممن لم يهاجروا حتى ذلك اليوم^٣. وغادر النبي محمد^٤ الغار قاصداً يثرب في الرابع من ربيع الاول (في السنة الرابعة عشر للمبعث)^٥، ووصل في الثاني عشر من الشهر نفسه الى منطقة قباء على مقربة من يثرب، وهي منازل قبيلة بني عمرو بن عوف^٥، وتوقف في قباء بضعة أيام في انتظار قدوم علي^٦ *

وكلهم قالوا بأن هذه الآية نزلت في علي بن ابي طالب (عليه السلام).

١ - الصدوق، الخصال (قم: منشورات جامعة المدرسين)، ج ٢، ص ٣٦٧، باب السبعة؛ المفيد، الاختصاص (قم: منشورات جماعة المدرسين)، ص ١٦٥.

٢ - ابن هشام، سيرة النبي، ج ٢، ص ١٢٩؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٤٧؛ البلاذري، انساب الاشراف، ج ١، ص ٢٦١؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل ابي طالب، ج ١، ص ١٨٣.

٣ - الشيخ الطوسي، الأمالي (قم: دار الثقافة، الطبعة ١، ١٤١٤هـ)، ص ٤٦٨؛ راجع: المفيد، الاختصاص، ص ١٤٧؛ تاريخ الخلفاء، ص ١٦٦.

٤ - محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٣٢؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ١٩، ص ٨٧.

٥ - ابن هشام، مصدر سابق، ص ١٣٧؛ الطبري، مصدر سابق، ص ٢٤٨؛ الطبرسي، إعلام الوري بأعلام الهدى، ص ٦٤؛

..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

وبنى في هذه المدة مسجداً هناك^١.

وبعد هجرة الرسول أقام علي بن ابي طالب بمكة ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عن رسول الله الودائع التي كانت عنده للناس^٢، ثم أخذ أمه فاطمة بنت اسد، وفاطمة بنت رسول الله، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب مع شخصين آخرين والتحق بالرسول^٣ في قُباء^٣.

وصول الرسول الى يثرب

وبعد وصول علي بن ابي طالب × الى قُباء، توجه الرسول وبرفقته جماعة من بني النجار (أحوال عبد المطلب) صوب يثرب، وصلى أول صلاة جمعة في منازل قبيلة بني سالم بن عوف. وعند وصوله الى يثرب استقبله الناس بفرح وسرور بالغ. وكان الرسول لا يمر بحي من الاحياء الا وقام وجوه القبائل واشرافها واخذوا بزمام ناقته طالبين منه النزول عليهم، ورسول الله يقول: <خَلُّوا سَبِيلَهَا فَانْهَآ مَأْمُورَةٌ وَانِي أَنْزَلَ حَيْثُمَا بَرَكْتُ>. ويبدو ان رسول الله^٤ اراد بهذا التدبير (كما حصل في قضائه في نصب الحجر الأسود) ان لا تفخر قبيلة على اخرى بشرف استضافته، مما قد يؤدي الى حصول مشكلة في المستقبل.

وفي نهاية الأمر بركت الناقة في حي بني النجار عند ارض ليتيمين (وهي الارض التي بُني عليها مسجد النبي في ما بعد) قرب دار ابي ايوب الانصاري (خالد بن زيد الخزرجي). فلما نزل اجتمع عليه الناس وكل واحد منهم يطلب منه النزول عنده.

البلاذري، مصدر سابق، ص ٢٦٣؛ البيهقي، دلائل النبوة، ج ٢، ص ١٧٢.

* - هناك اختلاف بين المؤرخين حول مدة بقاء النبي في قُباء.

١ - ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ج ١، ص ١٨٥؛ البيهقي، مصدر سابق، ص ١٦٦ و ١٧٢؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٤٩.

٢ - ابن هشام، مصدر سابق، ص ١٣٨؛ الطبري، مصدر سابق، ص ٢٤٩.

٣ - ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ص ١٨٣؛ راجع: اعلام الوري، ص ٦٦؛ تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٣٤.

الهجرة الى يثرب

وبادر ابو ايوب الى الرحل فحلّه وادخله الى بيته، فعند ذاك قال الرسول: المرء مع رحله. ونزل دار ابي ايوب الانصاري^١.

بداية التاريخ الهجري

كانت الهجرة نقطة تحوّل ومنعطفاً مهماً في تاريخ الإسلام؛ اذ اتيح للمسلمين في ظلها الاعتناق من اجواء الضغط والكبت، والانطلاق الى اجواء حرّة، والتجمع في منطقة يتمتعون فيها بالحرية. وكانت هذه الحالة تمثل في تلك الظروف العصبية نصراً ساحقاً. ولولا الهجرة لوئد الإسلام في مكّة ولما وجد فرصة للانتشار. وبعد الهجرة صارت للمسلمين تنظيمات سياسية وعسكرية وانتشر الإسلام في جزيرة العرب. انطلاقاً من هذه الرؤية غدت الهجرة مبدأً لتاريخ الإسلام والمسلمين. ولكن من الذي اسس هذا الأساس لأول مرّة؟ ومنذ متى شاع هذا التاريخ وعُمِل به؟

المشهور هو ان هذا التاريخ وضع في عهد خلافة عمر بن الخطاب، وهو الذي عمل به بعد التشاور مع اصحاب النبي^٢. ولكن التحقيقات التي اجراها بعض الباحثين والمحللين في تاريخ الإسلام تظهر ان اول من اتخذ التاريخ الهجري هو الرسول نفسه. فقد كتب جماعة من المؤرخين المسلمين الكبار ان رسول الله أمر بعد هجرته الى يثرب في ربيع الأول ان يؤرخوا ابتداءً من هذا الشهر^٣. ومن الشواهد المؤيدة لهذا الرأي هناك عدد من رسائل النبي ووثائقه وكتبه، التي وصلت إلينا من المصادر التاريخية، قد دوّن عليها تاريخ كتابتها من

١ - المصدر السابق.

٢ - ابن واضح، تاريخ يعقوبي، (النجف: المكتبة الحيدرية، ١٣٨٤هـ.)، ج ٢، ص ١٣٥؛ المسعودي، التنبيه والاشراف (القاهرة: دار الصاوي للطباعة والنشر)، ص ٢٥٢؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ (بيروت: دار صادر)، ج ١، ص ١٠؛ الشيخ عبد القادر بدران، تهذيب تاريخ دمشق (تأليف الحافظ ابن عساكر) (بيروت: دار احياء التراث العربي، الطبعة ٣، ١٤٠٧هـ.)، ج ١، ص ٢٣ - ٢٤.

٣ - الطبري، تاريخ الأمم والملوك (بيروت: دار القاموس الحديث)، ج ٢، ص ٢٥٢؛ نور الدين السمهودي، وفاء الوفا باخبار دار المصطفى، (بيروت: دار احياء التراث العربي، الطبعة ٣، ١٤٠١هـ.)، ج ١، ص ٢٤٨؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ٤٠، ص ٢١٨ نقل من ابن شهر آشوب.

..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

مبدأ الهجرة، نورد في ما يلي مثالين على ذلك:

١— جاء في آخر المعاهدة التي ابرمها الرسول مع يهود مُقنا ما يلي: وكتب علي بن ابو طالب في سنة تسع^١.

٢— جاء في المعاهدة التي ابرمها الرسول مع مسيحيي نجران ما يلي:

أمر الرسول علياً أن يكتب فيها: كتبت هذه المعاهدة في السنة الخامسة للهجرة^٢.
وهناك شواهد وقرائن تفيد بأن تدوين الوقائع والحوادث كان يجري حتى السنة الخامسة على أساس الهجرة مع حساب الأشهر.

ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

١— قال ابو سعيد الخدري:

«فُرِضَ صَوْمُ رَمَضَانَ بَعْدَ مَا حَوَّلَتِ الْقِبْلَةُ إِلَى الْكَعْبَةِ
بِشَهْرِ فِي شَعْبَانَ عَلَى رَأْسِ ثَمَانِيَةِ عَشَرَ شَهْرًا مِنْ مَهَاجِرِ
رَسُولِ اللَّهِ»^٣.

٢— ويتحدث عبد الله بن انيس عن سريته الى سفيان بن خالد فيقول:

«خَرَجْتُ مِنَ الْمَدِينَةِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ خَمْسَ خُلُونٍ مِنَ الْحَرَمِ عَلَى
رَأْسِ اَرْبَعَةٍ وَخَمْسِينَ شَهْرًا»^٤.

٣— قال محمد بن مسلمة حول المعركة مع القرطاء:

«خَرَجْتُ لِعَشْرِ لَيَالٍ خُلُونٍ مِنَ الْحَرَمِ فَغَبَتِ عَشْرِينَ لَيْلَةً
إِلَّا لَيْلَةً، وَقَدِمْتُ الْمَدِينَةَ لَلَيْلَةِ بَقِيتَ مِنَ الْحَرَمِ عَلَى
رَأْسِ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ شَهْرًا مِنَ الْهَجْرَةِ»^٥.

١ - البلاذري، فتوح البلدان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣٩٨ هـ)، ص ٧٢-٧١. ورد في النص الاصلي لهذه الوثيقة اسم علي بن ابو طالب، وقد بيّنت الكتب سبب ذلك.

٢ - الشيخ عبد الحي الكتّاني، التراتيب الإدارية (بيروت: دار احياء التراث العربي)، ج ١، ص ١٨١.

٣ - الشيخ حسين الديار بكري، تاريخ الخميس (بيروت: مؤسسة شعبان)، ج ١، ص ٣٦٨.

٤ - الواقدي، المغازي، تحقيق: مارسدن جونز (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ج ٢، ص ٥٣١.

٥ - رهط من قبيلة بني بكر.

٦ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٥٣٤.

الهجرة الى يثرب

ويُتّضح لنا في ضوء ما سبق ذكره ان أول من بدأ التقويم الهجري هو رسول الله. ولكن يُحتمل انه لم يكن قد اشتهر بين الناس في تلك المدة^١.

وقد وقعت في عهد عمر بن الخطاب اختلافات في زمن الحوادث وتاريخ بعض الكتب والوثائق^٢.

وان ما حدث في زمن عمر هو فقط جعل مبدأ السنة الهجرية شهر محرم، بدلاً من ربيع الأول^٣.

١ - السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج٣، ص٥٥.

٢ - الطبري، مصدر سابق، ص٢٥٢؛ ابن كثير، البداية والنهاية، (بيروت: مكتبة المعارف، الطبعة ٢، ١٣٩٤هـ.)،

ج٧، ص٧٤ - ٧٣؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق:

محمد ابو الفضل ابراهيم (القاهرة: دار احياء الكتب العربية، ١٩٦١م)، ج١٢، ص٧٤؛ بن الاثير، الكامل في التاريخ،

ج١، ص١٠ - ١١.

٣ - ابن شهر آشوب، مناقب آل ابي طالب، ج١، ص١٧٥؛ الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج٣، ص٣٥. للاطلاع على مزيد من المعلومات في هذا المجال، راجع: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج٣، ص٣٢ و٥٦.

الفصل الثاني

الاعمال الاساسية للرسول في المدينة

بناء المسجد

بعد استقرار رسول الله ﷺ في يثرب^١ رأى انه لابد من بناء مسجد ليكون بمثابة مدرسة لتعليم وتربية المسلمين، وموضعاً لاجتماعهم لصلاة الجمعة والجماعة. فاشترى الارض التي بركت عندها ناقته في اليوم الاول — وكانت لبيّمين — اشتراها من وليّهما، وبنى عليها مسجداً بمساعدة المسلمين^٢، وهو المسجد الذي عُرف باسمه؛ أي مسجد النبي، وكان هذا أول عمل اجتماعي أقدم عليه الرسول ﷺ بعد الهجرة.

وبعد اتمام بناء المسجد بُنيت الى جانبه حجرتان لتكون مساكن لرسول الله ﷺ وزوجاته^٣، ثم انتقل الى مساكنه من بيت ابي ايوب^٤، وبقي يسكن تلك الحجرة الى آخر عمره.

١ - ياقوت الحموي، معجم البلدان (بيروت: دار احياء التراث العربي، ١٣٩٩هـ.)، ج٥، ص٤٣٠، (كلمة يثرب).

٢ - محمد بن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر)، ج١، ص٢٣٩؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك (بيروت: دار القاموس الحديث)، ج٢، ص٢٥٦؛ البيهقي، دلائل النبوة، ج٢، ص١٨٧؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل ابي طالب (قم: المطبعة العلمية)، ج١، ص١٨٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية (بيروت: مكتبة المعارف، الطبعة ٢، ١٩٧٧م)، ج٣، ص٢١٥؛ الدين الحلي، السيرة الحلبية (انسان العيون) (بيروت: دار المعرفة، ج٢، ص٢٥٢؛ المجلسي، بحار الانوار، طهران: دار الكتب الإسلامية)، ج١٩، ص١٢٤.

٣ - حجرة لسودة، وحجرة لعائشة (محمد بن سعد، مصدر سابق، ص٢٤٠؛ الحلي، مصدر سابق، ص٢٧٣).

٤ - ابن هشام، سيرة النبي، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٥هـ.)، ج٢، ص١٤٣؛ ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ص١٨٦.

اصحاب الصُّفَّة

بعد قدوم مهاجري مكّة الى يثرب، نزلوا في منازل الانصار، وواساهم الانصار بالديار والاموال^١.

وأما أصحاب الصُّفَّة فهم جماعة من الفقراء الذين لم تكن لهم مساكن بالمدينة ولا عشائر. فكانوا ينامون في المسجد (كسكن مؤقت) حيث بُني لهم عند نهاية المسجد ظل يستظلّون فيه وما لهم مأوى غيره. فكان رسول الله يدعوهم بالليل اذا تعشّى فيفرّقهم على أصحابه وتتعشّى طائفة منهم مع رسول الله.

وكان أيضاً يحث الاغنياء من الانصار على الاحسان اليهم. وقد عُرفت هذه الجماعة من المسلمين من أهل الايمان والفضيلة بأصحاب الصُّفَّة^٢.

كان الرجل اذا قدم على النبي^٣ وكان له عريف بالمدينة نزل عليه، واذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة.

وكان عدد اصحاب الصفة يختلف حسب اختلاف الاوقات والاحوال؛ فربّما تفرّق عنها وانتقص طارقوها من الغرباء والقادمين فيقل عددهم. وربّما يجتمع فيها وارادوها من الوراد والوفود فينضم اليهم فيكثرون^٣.

١ - ابن واضح، تاريخ اليعقوبي، (النحف: المكتبة الحيدرية، ١٣٨٤هـ.)، ج ٢، ص ٣٤.

٢ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ٢٥٥؛ نور الدين السمهودي، وفاء الوفا باخبار دار المصطفى (بيروت: دار احياء التراث العربي، الطبعة ٣، ١٤٠١هـ.)، ج ٢، ص ٤٥٣ - ٤٥٨؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ١٧، ص ٨١، ج ٢٢، ص ٦٦، ١١٨، ٣١٠، ج ٧٠، ص ١٢٨ - ١٢٩، ج ٧٢، ص ٣٨؛ راجع: مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٨٦، تفسير الآية: ﴿الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ سورة البقرة (٢)، الآية ٢٧٣ وعبد الحي الكتاني، التراتيب الادارية، ج ١، ص ٤٧٣ - ٤٨٠.

٣ - ابو نعيم الاصفهاني، حلية الأولياء (بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة ٢، ١٣٨٧هـ.)، ج ١، ص ٣٤٠ - ٣٣٩. سجّل ابو نعيم الاصفهاني شرحاً وصف فيه اوضاع اصحاب الصُّفَّة بالتفصيل (حلية الاولياء، ج ١، ص ٣٤٧ - ٣٥٠) وذكر فيه ان عدد افراد هذه الجماعة كان واحداً وخمسين شخصاً. وقدم نبذة عن كل واحدٍ منهم (ويلاحظ بين الاسماء اسم امرأة). ولكنه بيّن ان قسماً منهم ليسوا من اصحاب الصفة. ومن الذين اعتبرهم ابو نعيم من اصحاب الصُّفَّة نذكر الاشخاص التالية اسمائهم: بلال، البراء بن مالك، جند بن جنادة، حذيفة بن يمان، خباب بن الارت، ذو البجادين (عبد الله)، سلمان، سعد بن ابي وقاص، سعد بن مالك (ابو سعيد الخدري)، سالم (مولا ابي حذيفة) وعبد الله بن مسعود.

وثيقة المدينة

بعد ان استقر الرسول^١ في المدينة رأى من اللازم تنظيم الوضع الاجتماعي لأهلها؛ وذلك لأن تحقيق أهدافه على المدى البعيد يتطلب استقرار الأوضاع فيها. ولابد من الإشارة إلى أن التركيبة السكانية فيها كانت غير متكافئة ولا متجانسة. فقد كان يقطن هذه المدينة يومذاك جماعات ينتمي كل واحد منهم إلى إحدى قبيلتين كبيرتين هما الأوس والخزرج. وكان يعيش في داخل المدينة وحولها اقوام من اليهود، وفي الوضع الجديد أضيف اليهم أيضاً المهاجرون القادمون من مكة. وكان هذا الوضع يندر بالمخاطر. وفي ضوء هذا الواقع ابتكر الرسول فكرة وهي انه كتب ميثاقاً وُصف بأنه <اول دستور> أو <أعظم عقد وسند تاريخي في الإسلام>. وقد بين هذا العقد حقوق مختلف المكونات الساكنة في يثرب، وضمن لهم حياة سليمة لأهاليها مع اقرار النظم والعدالة فيها، اضافة الى تفادي حصول أي نوع من التوتر بين الجماعات السكانية هناك. ومن البنود المهمة التي تضمنها هذا الميثاق نذكر ما يلي:

- ١— المسلمون واليهود^١ امة واحدة.
- ٢— للمسلمين واليهود الحرية في اتباع دينهم.
- ٣— يقيم المهاجرون من قريش على عادتهم السابقة وعلى ربعتهم يتعاملون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ٤— بنو عمرو بن عوف (قبيلة من الانصار) وسائر البطون على ربعتهم يتعاملون معاقلهم الاولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.
- ٥— لا يحق لأحد ان يجبر عبداً أو ولداً أو أي من اعضاء اسرة شخص آخر من غير اذنه.
- ٦— يتولى الموقعون على هذا الميثاق الدفاع المشترك عن المدينة.
- ٧— يثرب مدينة مقدسة تُحرم اراقة الدماء فيها.

١ - المراد باليهود هنا يهود بني عمر بن عوف وسائر اليهود من أهالي يثرب. واما القبائل اليهودية الثلاثة: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، فقد وقعت عهوداً على حدة مع الرسول، وسيأتي شرحها لاحقاً.

٨ — كل ما يقع من حدث يخاف فساد به أهل هذه الصحيفة فان مرده الى الله عز وجل، والى محمد رسول الله^١.

ويُستدل من سير الاحداث بأن هذا الميثاق (الذي صدر في الأشهر الاولى لدخول الرسول الى المدينة)^٢ كان مؤثراً في حفظ الاستقرار في المدينة؛ اذ لم تقع اية نزاعات بين أهل المدينة حتى السنة الثانية للهجرة؛ أي الى ما بعد معركة بدر حيث وقعت معركة مع بني قينقاع بسبب ما قامت به هذه القبيلة من اثاره للفتنة.

المؤاخاة بين المهاجرين والانصار

العمل الاجتماعي المهم الآخر الذي أقدم عليه الرسول^١ في السنة الاولى للهجرة^٢ هو المؤاخاة بين المهاجرين والانصار. فقد وقعت بين هاتين الجماعتين المسلمتين حالات من التنافس بسبب اختلافهم في العمل والانساب؛ وذلك لأن الانصار كانوا من مهاجرة الجنوب (اليمن) ومن الشق القحطاني. بينما كان المهاجرون من عرب الشمال ومن الشق العدناني. وكان هناك تنافس شديد في الجاهلية بين العدنانيين والقحطانيين.

وعلى صعيد آخر كان الانصار يعملون بالزراعة والبساتين، بينما كان أهالي مكة تجاراً ويعتبرون الزراعة عملاً دنيئاً. وفضلاً عن ذلك فكل واحدة من هاتين الجماعتين نشأت في بيئة تختلف عن بيئة الاخرى، وقد أضحوا اليوم في ظل الإسلام اخوة في الدين^٤، وتركز وجودهم في المدينة. وكانت هناك مخاوف من ان تكون تأثيرات الثقافة والفكر الماضي قد رسبت في عقول جماعة منهم، وقد تؤدي الى اثاره غيرة من التناحر والجدل بين هذين

١ - ابن هشام، مصدر سابق، ج٢، ص١٤٧ - ١٥٠. للاطلاع على مزيد من التفاصيل حول هذه الوثيقة وبنودها، راجع: فروغ ابديت، ج١، ص٤٦٢ - ٤٦٥.

٢ - نقل المؤرخون المسلمون ان هذا الميثاق اعلن بعد اول خطبة للرسول (ص) في المدينة. وهذا يدل على ان عقد هذا الميثاق كان من ضمن الاعمال الاولى للنبي (ص) في المدينة.

٣ - خمسة او ثمانية أشهر بعد الهجرة. (السمهودي، مصدر سابق، ج١، ص٢٦٧؛ المجلسي، بحار الانوار، ج١٩، ص١٣٠، بالهامش، نقلاً عن المقرئ).

٤ - ﴿أَتَمَّا الْمُؤْمِنُونَ أَخَوَةٌ﴾ (سورة الحجرات (٤٩)، الآية ١٠).

الفريقين المسلمين.

ولهذا السبب آخى الرسول بينهم، وآخى كل مهاجر مع أحد الانصار^١، وأخذ بيد علي بن أبي طالب وقال: هذا أخي^٢.

ومن الطبيعي ان عقد الاخوة كان على أساس المشكلة والمماثلة بين كل اثنين في الدرجات النفسية بين المهاجري والانصاري^٣. وجاءت المؤاخاة بين الرسول^٤ والامام علي في ضوء هذه الرؤية، على اعتبار انهما كلاهما مهاجران.

أدى هذا الميثاق الى مزيد من التلاحم بين المهاجرين والأنصار، اذ اظهر الانصار ميلاً أكثر مما سبق لدعم المهاجرين مالياً، اذ تنازلوا لصالح المهاجرين عن الغنائم التي حصلوا عليها في غزوة بني النضير^٥.

وكانت رعايتهم وحسن ضيافتهم مدعاة لإطلاق لسان المهاجرين بالمدح لهم والثناء

١ - ابن هشام، مصدر سابق، ج٢، ص١٥٠؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج١، ص٢٣٨؛ الحلبي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٩٢؛ المجلسي، مصدر سابق، ج١٩، ص١٣٠. كانت هذه الاخوة على اساس الدين والقاسم الديني المشترك كما صرحت الرواية: آخى رسول الله (ص) بين الأنصار والمهاجرين، اخوة الدين. الطوسي، الأمالي، (قم: دار الثقافة، ١٤١٤هـ)، ص٥٨٧.

٢ - ابن هشام، مصدر سابق، ج٢، ص١٥٠؛ العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، (بيروت: دار احياء التراث العربي، الطبعة ١، ١٣٢٨هـ)، ج٢، ص٥٠٧؛ الشيخ سليمان القندوزي الحنفي، ينابيع المودة، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ج١، الباب ٩، ص٥٥؛ سبط ابن الجوزي، تذكرة الخواص (النحف الاشرف: المكتبة الحيدرية، ٨٣هـ)، ص٢٠ و٢٢ نقلاً عن احمد بن حنبل في كتاب الفضائل؛ ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب (في حاشية الإصابة) ج٣، ص٣٥؛ الحلبي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٩٢؛ السمهودي، مصدر سابق، ج١، ص٢٦٨؛ المظفر، دلائل الصدق (قم: مكتبة بصيرتي)، ج٢، ص٢٦٨ - ٢٧١.

٣ - الشيخ سليمان القندوزي، مصدر سابق، ج١، الباب ٩، ص٥٥ نقلاً عن احمد بن حنبل؛ العلامة الأميني، الغدير، ج٣، ص١١٢؛ السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ١٤٠٣هـ.ق، ج٣، ص٦٠؛ الطوسي، الأمالي، ص٥٨٧. الأحاديث التي نصّت على مؤاخاة علي مع رسول الله (ص) في عقد المؤاخاة هذا ليست مما يمكن الطعن به وانكاره من حيث قواعد الحديث. وعلى هذا الأساس فان كلام ابن تيمية وابن كثير ليست له اية قيمة علمية لأنه جاء انطلاقاً مما يحمله من فكر ونوازع نفسية. راجع: الغدير، ج٣، ص١١٢ - ١٢٥، ١٧٤، ٢٢٧ وج ٧، ص٣٣٦.

٤ - الواقدي، المغازي، تحقيق: مارسدن جونس (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ج١، ص٣٧٩؛ ابن شبة، تاريخ المدينة المنورة، تحقيق: فهد محمد شلتوت (قم: دار الفكر، ١٤١٠هـ)، ج٢، ص٢٨٩.

٢٠٠..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

عليهم بين يدي رسول الله^١. وقد اتى الله عز وجل على بذل وتضحية الانصار كما يلي:

{الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} * وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِثُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَخْخَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} ^٢.

كان البدو يحملون خصلاً ذات حدّين، أحدهما نصرّة ومساندة الاقارب وافراد القبيلة وقد لجم الرسول هذه الخصلة ووجهها نحو مسار الوحدة الإسلامية والترابط والتلاحم، وأما الخصلة الاخرى فهي الشجاعة والقسوة على الأجنبي، وقد سخّر رسول الله^١ هذه الصفة في الحرب ضد اعداء الإسلام والتصدي لهجماتهم ^٣.

معاهدة عدم اعتداء مع ثلاث قبائل يهودية

بالإضافة الى الميثاق العام الذي اعلنه الرسول^١ (وشاركت فيه قبيلتا الأوس والخزرج، وشمل أيضاً يهود هاتين القبيلتين) عقد معاهدات منفردة مع كل واحدة من القبائل اليهودية الثلاثة، وهي بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة؛ ويمكن تسميتها **معاهدات عدم اعتداء**.^٤ وقد سبق ان ذكرنا بأن هذه القبائل الثلاثة كانت تعيش في المدينة واطرافها وقد تعهدوا فيها بما يلي:

- ١— ان لا يتعاونوا مع اعداء الإسلام ولا يُعينوا عليهم بسلح ولا بكراع.
- ٢— ان لا يُعينوا على رسول الله^١ ولا على أحد من المسلمين بلسان ولا يد، في السر والعلانية.
- ٣— إن فعلوا شيئاً من ذلك، يحق لرسول الله^١ سفك دمائهم، وسي ذراريهم

١ - مسند احمد، ج٣، ص٢٠٤؛ الحلي، مصدر سابق، ج٢، ص٢٩٢؛ ابن كثير، مصدر سابق، ج٣، ص٢٢٨؛ ابن شبة، مصدر سابق، ص٤٩٠.

٢ - سورة الحشر (٥٩)، الآيتين ٨ - ٩.

٣ - ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَرِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (سورة الفتح (٤٨)، الآية ٢٩).

الأعمال الأساسية للرسول في المدينة ٢٠١

ونسائهم وأخذ أموالهم. وتولّى أمر التوقيع على هذه المعاهدة عن القبائل الثلاث المذكورة على التوالي: مخزيم، وحِمْيَر بن أخطب، وكعب بن أسد^١.

ويبدو ان اليهود ما كانوا يجدون في المسلمين أي خطر عليهم آنذاك. أو أنهم كانوا يرون بأن من مصلحتهم المهادنة واتخاذ موقف الحياد، اعتقاداً منهم بأن اعداء الإسلام الآخرين سيتكفلون بالقضاء على الإسلام والمسلمين. ولهذا اقدموا على ابرام هذه المعاهدة^٢.

أدت هذه الاعمال والاجراءات الى ان تنعم المدينة وما جاورها بالأمن والاستقرار، واطمأن النبي الى عدم وقوع اضطرابات أو توتر فيها. وعند ذاك حان الوقت لاتخاذ الاجراءات الكفيلة بمجابهة خطر قريش، وتوفير متطلبات بناء المجتمع الجديد.

المنافقون

بالاضافة الى جماعة اليهود، تبلورت في اعقاب هجرة النبي الى يثرب جماعة جديدة سُمّاهم القرآن بالمنافقين. وهذه الجماعة عبارة عمّن كانوا يسمّون انفسهم مسلمين في الظاهر، وفي الباطن كان بعضهم يعبد الأصنام^٣، والبعض الآخر يهود، فهذه الجماعة بعدما رأت قوة الإسلام المتزايدة، وادركت عجزها عن مجابهة علانية، تظاهرت بالإسلام ودسّت نفسها في صفوف المسلمين.

لقد تواطأ المنافقون مع اليهود وتآمروا في الخفاء ضد المسلمين. وكان على رأسهم عبد الله بن أبي الذي سبق ان ذكرنا بأنه كان على وشك ان يتوّج لرئاسة يثرب، ولكنه فقد هذا المنصب عند دخول الرسول الى الساحة السياسية في يثرب، وأضمر الحقد في قلبه ضد

١ - الطبرسي، إعلام الوري بأعلام الهدى (طهران: دار الكتب الإسلامية، الطبعة ٣)، ص ٦٩؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ١٩،

ص ١١١ - ١١٠؛ راجع: الواقدي، المغازي، ج ١، ص ١٧٦ - ٣٦٥، ٣٦٧ و ج ٢، ص ٤٥٤؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣، ص ٢٣١؛ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٣. وقد عاقب رسول الله هذه القبائل الثلاثة لاحقاً استناداً إلى هذه المعاهدة.

٢ - المجلسي، مصدر سابق، ص ٦٩ و ١١٠.

٣ - ابن هشام، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٦٠ و ١٦٦؛ النويري، نهاية الإرب في فنون الادب، ج ١، ص ٣٣٢

٤ - الحلبي، السيرة الحلبية (انسان العيون) (بيروت: دار المعرفة)، ج ١، ص ٣٣٧؛ النويري، مصدر سابق، ص ٣٣٩؛ ابن هشام، مصدر سابق، ص ١٧٤.

٢٠٢..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

الرسول^١.

لقد أدى المنافقون دوراً تخريبياً هائلاً بحيث ذكرهم القرآن في سور: البقرة، آل عمران، التوبة، النساء، المائدة، الانفال، العنكبوت، الاحزاب، الفتح، الحديد، المنافقون، الحشر، التحريم. كانت محاربة الرسول لهذه الجماعة اصعب وأشد تعقيداً من محاربته للمشركين واليهود؛ ويعود سبب ذلك الى اهم كانوا يتظاهرون أمام المسلمين بالإسلام، ولم يكن باستطاعة الرسول محاربتهم بحكم ظاهرهم الإسلامي. واستمرت عراقيل هذه الجماعة وعملها ضد الإسلام بشكل جماعي ومنظم الى حين موت عبد الله بن أبي (في السنة التاسعة للهجرة)^٢. ولكنها تحولت من بعد ذلك الى أعمال فردية وخفت وطأتها.

١ - ابن هشام، مصدر سابق، ج٢، ص٢٣٨ - ٢٣٧؛ البيهقي، مصدر سابق، ج٢، ص١٦٥؛ النويري، مصدر سابق، ج١، ص٣٣٨؛ ابن شبة، تاريخ المدينة المنورة، تحقيق: فهميم محمد شلتوت (قم: دار الفكر، ١٤١٠هـ.ق)، ج١، ص٣٥٧؛ احمد زيني دحلان، السيرة النبوية والآثار الحمديّة (بيروت: دار المعرفة، الطبعة ٢)، ص١٨٤.

٢ - المسعودي، التنبيه والاشراف، (القاهرة: دار الصاوي للطباعة والنشر)، ص٢٣٧.

الفصل الثالث

مؤامرات اليهود

مخالفات اليهود

كان اليهود (كما هو الحال بالنسبة الى المسيحيين) على علم بقرب مبعث النبي^١. وحسب تعبير القرآن فان أهل الكتاب كانوا يعرفون النبي مثلما يعرفون ابناهم^٢. ووجدوا فيه الأوصاف التي يقرأونها في التوراة والانجيل^٣ وعلى هذا كان من المتوقع ان يُسلموا قبل الأوس والخزرج؛ وقد ذكرنا بأن أحد اسباب اقبال هاتين القبيلتين على الإسلام هو ما كان يتناهى الى اسماعهم من تنبؤات اليهود التي كانت تأتيهم على شكل تهديدات، ولكن لم يدخل الإسلام الا نفر قليل منهم. وعلى الرغم من بقائهم على دينهم كانت علاقتهم مع المسلمين طبيعية في بداية الهجرة، والدليل على ذلك توقيعهم معاهدة عدم اعتداء مع النبي^٤. ولكن لم تمض مدّة طويلة حتّى بدلوا موقفهم وانتهجوا اسلوب المخالفة ووضع العراقيل، ومن جملة تلك الممارسات انهم كتموا اوصاف رسول الإسلام أو بدّلوها، وقالوا: لم نجد وصف محمد في كتبنا، وصفاته ليست صفات النبي الذي تقول انه سيُبعث^٥. وقد ذم القرآن الكريم هذا الموقف كما يلي:

١ - سورة البقرة (٢)، الآية ١٤٦؛ سورة الانعام (٦)، الآية ٢٠.

٢ - سورة الاعراف (٧)، الآية ١٥٧؛ سورة البقرة (٢)، الآيات ٧٦، ٨٩، ١٠١؛ سورة آل عمران (٣)، الآيات ٨١، ١٨٧؛ سورة الأنعام (٦)، الآية ١١٤؛ سورة القصص (٢٨)، الآية ٥٢.

٣ - الحلبي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٢٠؛ البيهقي، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٨٦؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب (قم: المطبعة العلمية)، ج ١، ص ٥١؛ الواقدي، المغازي، ج ١، ص ٣٦٧.

٢٠٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

{وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ}¹.

وقد اخذ اليهود يتبعون اساليب شتى من المخالفة والشقاق، ومن ذلك:

١— عرض مجموعة من المطالبات التعجيزية وغير المنطقية مثل طلبهم انزال كتاب من السماء عليهم^٢.

٢— اثاره أسئلة دينية معقدة بهدف تشويش اذهان المسلمين، وليلبسوا الحق بالباطل^٣. وكانوا في كل الحالات يحصلون على نتائج عكسية، لأن الرسول كان يقدم الاجابات القاطعة والواضحة.

٣— سعيهم لزعزعة ركائز ايمان المسلمين، فكان بعضهم يقول لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد واصحابه غدوة، ونكفر به عشية حتى نلبس عليهم لعلهم يرجعون عن دينه: {وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا بآخِرِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}⁴

٤— العمل على الوقيعة بين المسلمين، مثلما فعل أحدهم واسمه شأس بن قيس الذي حاول بعث الاحقاد القديمة بين الأوس والخزرج، لاشعال نار الاختلاف والحرب بينهما، ولكن الرسول بادر الى مصالحتهم، وافشل تلك المؤامرة^٥.

١ - سورة البقرة (٢)، الآية ٨٩.

٢ - سورة النساء (٤)، الآية ١٥٣؛ سورة آل عمران (٣)، الآية ١٨٣.

٣ - ابن هشام، مصدر سابق، ج٢، ص١٦٠؛ ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ج١، ص٥٤؛ الحلي، مصدر سابق، ج١، ص٣٢٢ - ٣٢١؛ زيني دحلان، السيرة النبوية والآثار المحمدية (بيروت: دار المعرفة)، ج١، ص١٧٨ - ١٨٠.

٤ - سورة آل عمران (٣)، الآية ٧٢.

٥ - ابن هشام، مصدر سابق، ج٢، ص١٦٠؛ ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ج١، ص٥٤؛ الحلي، مصدر سابق، ج١، ص٣٢٢ - ٣٢١؛ زيني دحلان، السيرة النبوية والآثار المحمدية (بيروت: دار المعرفة)، ج١، ص١٧٨ - ١٨٠.

دوافع مخالفة اليهود

اليهود اساساً اناس نفعيون، وحريصون^١، ويتسمون بالتعنت والتدبر. وقد وصف القرآن الكريم اليهود والمشركين بانهم ألدّ اعداء المسلمين^٢، وذلك لأن هذين الفريقين لا يعترفان بالمنطق والاستدلال، ولا يتورعان عن الاحقاد والمخالفة والتعنت. ويمكن ايجاز اسباب ودوافع مخالفة اليهود للإسلام في الامور التالية:

١— التفكير العنصري عند اليهود وحسدكم لنبى الإسلام وعدم تحملهم نبياً لا يكون من اليهود (عربي)^٣.

٢— كانوا قبل انتشار الإسلام في يثرب يحظون بمكانة اقتصادية واجتماعية أفضل؛ لانهم كانوا يحتكرون حرفة الزراعة^٤ وكانوا يأكلون الربا^٥، اضافة الى ان اقتصاد المدينة كان كله في ايديهم. وعلى صعيد آخر فقد استغلوا الخلافات بين الأوس والخزرج لاضعافهما من خلال تحالف بني قينقاع مع الخزرج، وتحالف بني النضير وبني قريظة مع الاوس^٦. وفي اعقاب الهجرة واتحاد قبيلتي الاوس والخزرج تحت لواء الإسلام والتعاظم المتزايد لقوة الإسلام، شعروا بأن القوة ستكون بيد المسلمين في المستقبل القريب في كل

١ - ﴿وَلَجَدْنَاهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ...﴾ (سورة البقرة (٢)، الآية ٩٦).

٢ - سورة المائدة (٥)، الآية ٨٢.

٣ - سورة البقرة (٢)، الآية ٩٠ و ١٠٩؛ سورة النساء (٤)، الآية ٥٤؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٦٠؛ زيني دحلان، مصدر سابق، ج ١، ص ١٧٦؛ الواقدي، المغازي، ج ١، ص ٣٦٥.

٤ - كان بنو قينقاع يعملون في صياغة الذهب (مونتغمري واط، محمد في المدينة، تعريب: شعبان بركات، بيروت: المكتبة العصرية). وكان لهم سوق في المدينة باسمهم (ابن شبة، تاريخ المدينة المنورة، تحقيق: فهميم محمد شلتوت، قم: دار الفكر، ج ١، ص ٣٠٦؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٢٤) وبني بنو النضير وبني قريظة في اطراف المدينة قلاعاً ومجمعات سكنية، وكانوا يعملون في الزراعة والبساتين ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج ١، بني النضير والبطحان؛ نور الدين السهمودي، وفاء الوفاء باخبار دار المصطفى، (بيروت: دار احياء التراث العربي، الطبعة ٣، ١٤٠١هـ)، ج ١، ص ١٦١.

٥ - سورة النساء (٤)، الآية ١٦١.

٦ - ابن هشام، سيرة النبي، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٥ هـ)، ج ٢، ص ١٨٨.

٢٠٦..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

المنطقة، وانهم سيفقدون مكانتهم. ولم يكن ذلك بالأمر الهين عليهم.

٣— كان لعلماء اليهود احترام وتكريم بين الناس، وكان العوام من الناس يتبعونهم ويطيعونهم طاعة عمياء، وحتى لو كانوا يحكمون بغير حكم الله فانهم كانوا يطيعونهم بلا نقاش ولا جدل.^١

وفضلاً عن كل ذلك فقد كانت مصادر دخلهم هي الهدايا والخيرات التي كان يقدمها لهم عامة اليهود على اعتبار انهم يتولون حراسة التوراة. وكان مما يثير قلقهم ان هذه الأموال ستقطع عنهم فيما لو اعتنق اليهود الإسلام.^٢

٤— كانوا اعداءً لجبرائيل الذي انزل الوحي على رسول الله^٣، وجعلوا من ذلك ذريعة لمخالفة الرسول^٤.

٥— رسم القرآن الكريم خط البطلان على الكثير من معتقدات وأعمال اليهود وبعضاً من تعاليم التوراة^٥، وخالف اليهود في كثير من الاحكام والممارسات^٦؛ ويعود ذلك الى جذور تمتد في الماضي. فقبل ظهور الإسلام كان اهل الكتاب متفوقون ثقافياً على عبدة الاوثان، وكان المشركون ينظرون اليهم بعين الاحترام^٦. وبعد ظهور الإسلام بقيت هذه الجوانب ماثلة في الأذهان بشكل او آخر.

ومن هنا فقد كان المسلمون في المدينة يطرحون عليهم في بعض الاحيان استئلة حول

١ - سورة التوبة (٩)، الآية ٣١.

٢ - سورة البقرة (٢)، الآية ٧٩؛ سورة آل عمران (٣)، الآية ١٨٧؛ سورة التوبة (٩)، الآية ٣٤؛ البيهقي، دلائل النبوة، ج ٢، ص ١٨٦ - ١٨٧.

٣ - سورة البقرة (٢)، الآيات ٩٧ - ٩٨؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر)، ج ١، ص ١٧٥؛ الحلي، السيرة الحلبية، (انسان العيون) (بيروت: دار المعرفة، ج ١، ص ٣٢٩).

٤ - سورة النساء (٤)، الآيات ٤٦، ١٥٥ - ١٥٩؛ سورة التوبة (٩)، الآية ٣٠.

٥ - السيد جعفر مرتضى العاملي، (الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ١٤٠٣هـ.). ج ٣، ص ١٠٦؛ راجع: صحيح البخاري، شرح وتحقيق: الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي (بيروت: دار القلم، الطبعة ١، ١٤٠٧هـ.). ج ٧، الباب ٤٨٦، الحديث ١١٨٨؛ صحيح مسلم، بشرح النووي، ج ١٤، ص ٨٠.

٦ - السيد جعفر مرتضى العاملي، مصدر سابق، ج ١، ص ١٧٥ - ١٧٦.

مؤامرات اليهود ٢٠٧

قضايا دينية، وكانوا هم يفسّرون لهم بعض تعاليم التوراة باللغة العربية، بينما غالباً ما كانت تأتي معلوماتهم الدينية محرّفة ومغلوبة. ولهذا السبب أوصى الرسول المسلمين بعدم تصديق كلام أهل الكتاب^١، وقال ذات يوم لعمر بن الخطاب: <والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً لما وسعه الا اتباعي>^٢.

وقد أدت امثال هذه الامور الى زيادة عداء اليهود، حتى كانوا يقولون: <ما يريد هذا الرجل ان يدع من امرنا شيئاً الا خالفنا فيه>^٣.

تبديل القبلة

كان رسول الله ﷺ اثناء اقامته في مكّة، ومدّة من بعد الهجرة الى المدينة يصليّ باتجاه بيت المقدس بأمر الله عز وجل. وبعد ان أسفر اليهود عن عدائهم، اتخذوا قضية القبلة ذريعة لنفث سموم اعلامهم ضد رسول الله، وقالوا بأنه لا استقلالية له في دينه، وانه يصلي باتجاه قبلتنا. وركّزوا على هذا الموضوع كثيراً. فتأذى الرسول من هذا الوضع وضاق صدره. وكان في الليالي يقلّب بصره في السماء بانتظار نزول الوحي أملاً في حصول أمر إلهي جديد يقطع به دابر الاعلام اليهودي.

وبعد سبعة عشر شهراً من الهجرة^٤، وبعدما صلى رسول الله ركعتين من صلاة الظهر نحو بيت المقدس، نزل عليه جبرائيل وابلغه أمر تحويل القبلة، ووجه الرسول نحو الكعبة

١ - صحيح البخاري، نفس الطبعة، ج ٩، الباب ١١٩٠، ص ٧٧٢.

٢ - الحلبي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٧٢؛ راجع: ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ٥٢.

٣ - الحلبي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٣٢.

٤ - ابن واضح، تاريخ يعقوبي، (النحف، المكتبة الحيدرية، ١٣٨٤هـ)، ج ٢، ص ٣٤؛ محمد بن سعد، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٤٢؛ الشيخ الحرّ العاملي، وسائل الشيعة، الطبعة ٤، ١٣٩١هـ، ج ٣، كتاب الصلوة، ابواب القبلة، الباب ٢، الحديث ٣، ص ٢١٦؛ الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة ٣، ١٣٩٣هـ)، ج ١، ص ٣٣١. نُقل ان تحويل القبلة حصل بعد الهجرة بسبعة أشهر إلى ثمانية عشر شهراً. (وفاء الوفاء، ج ١، ص ٣٦١ - ٣٦٤؛ بحار الانوار، ج ١٩، ص ١١٣، في الهامش). ولكن العلامة الطباطبائي أيد ان المدّة هي سبعة أشهر بعد الهجرة.

وصلى الرسول الركعتين الاخيرتين باتجاه الكعبة^١. وكان نص الأمر الالهي كما يلي:
 {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}^٢.

كان تحويل القبلة — الذي وفر للمسلمين الاستقلالية من هذا الجانب — حادثة مريرة على اليهود، فبدأوا عند ذاك يعزفون على وتر آخر وهو: لماذا انصرف المسلمون عن قبلتهم التي كانوا يصلون نحوها عدّة سنوات؟ وقد بيّن الله للنبي موقفهم هذا، قبل تحويل القبلة، وبيّن له جوابه وهو ان المشرق والمغرب وكل موقع فوق الارض لله، وعليه ان يصلي في أي اتجاه يأمر به الله، وانه ما من موضع مُشَرَّف بذاته:

{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}^٣.

وفي اعقاب تبيان هذا الجواب لم يعد لدى اليهود ذريعة لاطلاق الدعايات ضد المسلمين. ومن بعد تحويل القبلة زال الرابط المشترك بين اتباع الدين القديم والدين الجديد، وانفصل هذين الفريقين عن بعضهما وتعكرت العلاقة بينهما:

{وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا

١ - يقول قسم من المؤرخين ان هذه الحادثة وقعت في مسجد قبيلة بني سَلَمَةَ، الذي عُرف بمسجد القبلتين (ابن واضح، مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٤؛ محمد بن سعد، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٤٢؛ السمهودي، وفاء الوفاء، ج ١، ص ٣٦١ - ٣٦٢؛ الزمشخري، تفسير الكشاف، (بيروت: دار المعرفة)، ج ١، ص ١٠١. بينما ذهب قسم آخر الى القول بأنها وقعت في مسجد قبيلة بني سالم بن عوف وهو المسجد الذي صلى فيه الرسول اول صلاة جمعة (الطبرسي، اعلام الوري، ص ٧١؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ١٩، ص ١٢٤). ولكن بعض الاخبار التاريخية تفيد ان هذه الحادثة وقعت في مسجد النبي نفسه (ابن سعد، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٤١؛ السمهودي، وفاء الوفاء، ج ١، ص ٣٦٠؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ١٩، ص ٢٠٠ - ٢٠١). ومكان مسجد القبلتين الذي اعيد بناؤه في الوقت الحاضر - وهو يقع في شمال المدينة - يتناسب مع قبيلة بني سَلَمَةَ؛ لأن قبيلة بني سالم كانت تقطن في الجهة الجنوبية من المدينة. وعلى اية حال فان اختلاف آراء المؤرخين في تعيين موضع تحويل القبلة لا يقلل من أهميته.

٢ - سورة البقرة (٢)، الآية ١٤٤.

٣ - سورة البقرة (٢)، الآية ١٤٢.

قَبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قَبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قَبْلَةَ
بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ
إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ^١.

يُستفاد مما ورد في القرآن الكريم في هذا المجال بأن تحويل القبلة بأمر الله تعالى قد أثار
مؤاخذات واعتراضات اليهود، وفضلاً عن ذلك فقد كان بمثابة اختبار للمؤمنين للكشف
عن مدى إيمانهم وإخلاصهم وامتنانهم لأمر الله:

{...وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن
يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا
عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ
اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّوُوفٌ رَّحِيمٌ^٢.

وقد فسرت بعض الأحاديث هذا الاختبار والابتلاء بأن هوى أهل مكة كان في
الكعبة فأراد الله — يجعله بيت المقدس قبلة مؤقتة للمسلمين — ان يبين متبع محمد من
مخالفه بالتباعد القبلة التي كرهها، ومحمد يأمر بها، ولما كان هوى أهل المدينة في بيت
المقدس أمرهم بمخالفتها والتوجه إلى الكعبة ليبين من يتبع محمداً فيما يكرهه — فهو
مصدق وموافق^٣.

١ - سورة البقرة (٢)، الآية ١٤٥.

٢ - سورة البقرة (٢)، الآية ١٤٣.

٣ - الطبائبي، الميزان في تفسير القرآن (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة ٣، ١٣٩٣هـ-)، ج ١، ص ٣٣٣. هناك
أحاديث ونصوص تاريخية تفيد ان رسول الله (ص) لم يكن يجعل الكعبة خلف ظهره (وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٢١٦، كتاب
الصلاة، ابواب القبلة، الحديث ٤)، وانما كان يجعلها وبيت المقدس في امتداد واحد ويصلي باتجاههما كليهما. (الحلي، السيرة
الخليية، ج ٢، ص ٣٥٧).

الفصل الرابع

تشكيل القوى القتالية الإسلامية

المعارك

كان رسول الله ﷺ في دور الإقامة والدعوة في مكة يمارس دوره كقائد إلهي فحسب، وكان نشاطه ينحصر في هداية وارشاد الناس، والجدل الفكري والاعتقادي مع المشركين وعبداء الأصنام. ولكن بعد استقراره في يثرب فانه ﷺ بالاضافة إلى أدائه رسالته الدينية والزعامة الروحية أخذ يتولّى الزعامة السياسية للمسلمين؛ وذلك لأنه استجد في المدينة وضع جديد، وقد سار الخطوات الاولى باتجاه اقامة مجتمع جديد مبني على اساس تعاليم الإسلام. ومن هنا فقد استشرف المخاطر والمشكلات المحتملة وكان عليه ان يتصرف كقائد سياسي واع وبعيد النظر، ويتدبّر الحلول لها. وفي ضوء هذه الرؤية بادر الى القيام بمجموعة من الاجراءات الاحترازية ومنها المؤاخاة بين مجموعتين من المسلمين، واعلان الميثاق العام، وكذلك ابرام معاهدة عدم اعتداء مع اليهود.

السور والآيات التي نزلت في المدينة وتضمّنت احكاماً وتعاليم سياسية واجتماعية كانت بمثابة خطوط عريضة سار عليها الرسول في اتخاذ هذه الاجراءات السياسية. ولما صدر من الله عز وجل الإذن بالجهاد والدفاع^١ عزم الرسول على تشكيل قوّة دفاعية. وقد اكتسبت هذه القوّة اهميتها بسبب ما كان يحتمل ان يقوم به مشركو مكة (الذين لم

١ - ﴿إِذْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلْأَنْفُسِ أَنْ يَكُونُوا سَلَامًا أَنْ يَنْصَرِفُوا﴾ سورة الحج (٢٢)،

الآيتان ٣٩ - ٤٠؛ راجع: الميزان في تفسير القرآن، ج ١، ص ٣٨٣؛ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٦.

٢١٢..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

يعودوا قادرين على ايداء وتعذيب المسلمين من بعد هجرتهم) من هجوم عسكري هذه المرة على بيضة الإسلام (المدينة). ولذا فقد بادر الرسول^١ الى وضع النواة الأولية للجيش الإسلامي منذ أواخر السنة الاولى للهجرة لمجابهة مثل هذه الاحتمالات.

وكان هذا الجيش في بداية الأمر محدوداً من حيث العدد ومن حيث العدة ومستلزمات القتال. ولكنه تطور بسرعة على الصعيدين على حد سواء بحيث ان السرايا التي كانت تُبعث للاغراض العسكرية او لمهام الدورية والاستطلاع لم يكن عدد افرادها يتجاوز ستين شخصاً، او ربما بلغ أقصى عدد لها مائتي شخص في القليل النادر^١.

وأما في السنة الثانية — أي في معركة بدر — فقد فاق العدد الثلاثمائة بقليل. ولكن في فتح مكة (في السنة الثامنة للهجرة) زاد عدد جنود الإسلام على عشرة آلاف مقاتل، وكانوا على درجة عالية جداً من حيث المعدات العسكرية.

وعلى اية حال فقد اثبت مسار الاحداث ان توقعات الرسول^١ كانت صائبة؛ اذ وقعت — ابتداءً من السنة الثانية للهجرة فما بعدها — عدة معارك بين الفريقين، ولو لم يكن لدى المسلمين قوات دفاعية لدُحروا في هذه المعارك مع المشركين^٢.

المناورات العسكرية

دأب الرسول^١ على القيام بمجموعة من التحركات العسكرية بهذه الاعداد القليلة من القوات، وهي تحركات عسكرية لا تُعتبر في واقع الحال حرباً كاملة، ولم يحصل قط في أي منها معركة أو اشتباك بين الطرفين؛ مثل سرية حمزة بن عبد المطلب التي كانت تتألف من ثلاثين مقاتلاً (في الشهر الثامن للهجرة)، التي لاحقت قافلة لقريش اثناء عودتها الى مكة؛ وسرية عبيدة بن الحارث التي كانت تتألف من ستين مقاتلاً (في الشهر السادس للهجرة) وتبعت جماعة ابي سفيان؛ وسرية سعد بن ابي وقاص التي كان عدد افرادها عشرين مقاتلاً

١ - ابن الاثير، الكامل في التاريخ، (بيروت: دار صادر)، ج٢، ص١١٢.

٢ - قيل ان مجموع غزوات الرسول بلغ ٢٦ غزوة، وبلغ عدد سراياه ٣٦ سرية (ابن شهر آشوب، مناقب آل ابي طالب، ج١، ص١٨٦؛ الطبرسي، اعلام الوري، ص٧٢). وقال مؤرخون آخرون ان عدد سراياه كان اكثر من هذا (المسعودي، مروج الذهب، ج٢، ص٢٨٢). وذكر البخاري في رواية ان عددها تسع عشرة سرية (صحيح البخاري، ج٦، ص٣٢٧).

(في الشهر التاسع للهجرة) التي لاحقت قافلة لقريش، ولكنها لم تلحق بها^١. وكذلك تتبع الرسول برفقة جماعة من المسلمين (في الشهر الحادي عشر) قافلة لقريش حتى بلغ أرض الابواء، ولكن لم يقع اشتباك بين الطرفين. وعقد النبي^ص في سفره هذا معاهدة مع قبيلة بني ضمرة بأن تقف على الحياد ولا تتعاون مع اعداء الإسلام. وفي شهر ربيع الاول (الشهر الثاني عشر) لاحق النبي كرز بن جابر الفهري — الذي نهب قطعان ماشية المدينة — الى ارض بدر، ولكنه لم يلحق به.

وفي جمادى الآخرة خرج على رأس مائة وخمسين (أو مائتين) من أصحابه لاعتراض قافلة تجارية لقريش يقودها ابو سفيان متوجهاً من مكة الى الشام (غزوة ذات العشرة) ولكنه هذه المرة لم يلحق بالقافلة أيضاً؛ وابرم أثناء ذلك معاهدة مع قبيلة بني مُدَلج ثم عاد الى المدينة^٢. ويمكن ان نطلق على هذا النوع من التحركات العسكرية اسم المناورات العسكرية، وهي تمثل في الواقع نوعاً من استعراض القوة وليس معارك حقيقية.

اهداف الرسول من المناورات العسكرية

ثبتت القرائن ان هدف النبي^ص من تلك السرايا والغزوات الصغيرة لم يكن نهب اموال العدو ولا الاشتباك معه في حروب ومعارك؛ اذ كما رأينا ان عدد افراد سرايا الإسلام كان قليلاً ولا يتمتع بأية مقدرة عسكرية، وفي المقابل كان عدد افراد العدو يفوقهم عدّة مرّات؛ وعلى صعيد آخر شارك الانصار أيضاً في بعض هذه السرايا؛ في حين انهم اشتروا على انفسهم في بيعة العقبة الثانية الدفاع عن النبي^ص في المدينة، وليس محاربة العدو خارج المدينة.

١ - الواقدي، المغازي، تحقيق: مارسدن جونز، ج١، ص١١-٩؛ محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك (بيروت: دار القاموس الحديث)، ج٢، ص٢٥٩؛ راجع: ابن هشام، سيرة النبي، ج٢، ص٢٤٥، ٢٥١. ذكر ابن اسحاق هذه السرايا ضمن وقائع السنة الثانية للهجرة (الطبري، مصدر سابق). واذا سلّمنا بصحة هذا النقل لايد من الادّعاء بأن تشكيل الجيش الاسلامي كان في السنة الثانية. وحتى لو صحّ ذلك فان هذا المعنى لا يقلل من أهمية الموضوع، بل بالعكس يظهر مدى قدرة الرسول على المبادرة في هذا المجال.

٢ - الواقدي، مصدر سابق، ص١١-١٣؛ الطبري، مصدر سابق، ص٢٥٩ - ٢٦١.

٢١٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

وفضلاً عن ذلك فقد كان أهالي المدينة فلاحين ويعملون في البساتين والمزارع، ولم يكونوا قد اعتادوا على عادات القبائل البدوية في الغزو والغارات. وإذا كانت هناك معارك بين الاوس والخزرج، فهي كانت معارك محلية، وكان الذي يشعل فتيلها اليهود، ولم يسبق لهم ان هبوا بضائع قافلة أو اموال قبائل اخرى. وعلاوة على كل ذلك لم يظهر المسلمون عند مجابهة الاعداء ميلاً للاشتباك معهم، مثلما حصل حين امتنع حمزة عن الدخول في معركة بعد وساطة شخص محايد^١.

وفي ضوء هذه القرائن يبدو ان النبي^١ كان يرمي من وراء هذه المناورات والتحركات، الى تحقيق اهداف معينة منها:

تهديد طريق تجارة قريش الى الشام:

كانت القوافل التجارية لأهالي مكّة تمر عبر طريق يقع على مقربة من المدينة ويمر بينها وبين ضفاف البحر الاحمر، ولم يكن باستطاعة تلك القوافل الابتعاد عن المدينة بما يزيد عن ١٣٠ كيلو متراً^٢. وكان رسول الله^١ يرمي من وراء تلك التحركات الايجاء لقريش بأنها لو حاولت فرض قيود على حرية المسلمين في المدينة (مثلما كانت تفعل في مكّة) فستكون هناك مخاطر تهدد طريق تجارتها ومن المحتمل ان يستولي المسلمون على اموالهم التجارية^{*}. ومن الطبيعي ان يكون هذا التهديد بالنسبة الى مشركي مكّة — الذين كانت التجارة امراً حيوياً لهم — رادعاً قوياً وتهديداً خطيراً يدعوهم الى اعادة النظر في تعاملهم مع المسلمين. ولا ينبغي الشك — طبعاً — في ان المسلمين كان من حقهم الاستيلاء على اموال مشركي مكّة؛ وذلك لأنهم ارغموهم على مغادرة مكّة واستولوا على مساكنهم واموالهم^٣. وينبغي ان لا ننسى بأن هذا العمل قد ذهب الى ما هو أبعد من الانتقام

١ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٩.

٢ - مونتغمري واط، محمد في المدينة، تعريف: شعبان بركات (بيروت: المكتبة العصرية)، ص ٥.

* - تحقق هذا التهديد لاحقاً وشعرت قريش (كما سنبين ذلك) بقلق بالغ من قطع طريق التجارة الى الشام وحاولت البحث عن طريق آخر الى الشام.

٣ - بعد هجرة النبي (ص) استولى عقيل بن ابي طالب على داره في مكّة (في شعب أبي طالب) ودور المهاجرين من بني هاشم.

تشكيل القوى القتالية الإسلامية ٢١٥

الشخصي وتسوية الحسابات الفردية، وتحول في واقع الحال الى صراع بين كتلتين وقوتين، حيث أخذ كل واحد من الطرفين يسعى الى اضعاف الطرف الآخر. ويبدو ان المسلمين كانوا يرون بأن إلحاق الضرر الاقتصادي بالاعداء وبث الرعب والقلق في نفوسهم يفوق أهمية البضائع والسلع أو الغنائم المنتزعة منهم؛ إذ لم يقع في ايدي المسلمين شيء من اموال المشركين، الى حين مسير سرية عبد الله بن جحش ومعركة بدر.

٢— كانت تلك التحركات بمثابة نوع من استعراض القوة العسكرية للمسلمين، وتحذير لمشركي مكة بأن لا يفكروا بالهجوم العسكري على المدينة، وإيحاء لهم بأن المسلمين غدوا اصحاب قوة قادرة على صد أي هجوم محتمل منهم. وكما قلنا عند بحث أسباب ودوافع معارضة قريش، ان الرسول عندما كان في مكة وكان عدد المسلمين وقتذاك قليلاً، كان اشراف قريش منذ ذلك الحين يتوجسون المخاوف من زوال هيمنتهم الاقتصادية. والآن وبعد ان تحوّلت المدينة الى قاعدة للاسلام وتملك المقدّرات والمستلزمات الكافية، كيف يمكن لعبيد المال من أهالي مكة ان يشعروا بالأمان؟ ومن هنا فقد كان على المسلمين ان يأخذوا بزمام المبادرة لكي لا يطمع المشركون بهذه المدينة.

٣— يحتمل ان يكون في هذه التحركات العسكرية والمناورات تحذير ضمني لليهود المدينة أيضاً، بعدما كشفوا عن عدائهم؛ ليكفوا عن دسائسهم ولا يفكروا في القيام بأي تحرّك عسكري، وإلاّ فان للمسلمين من القوة ما يكفي لإخماد أية فتنة تقوم والقضاء على

وفي فتح مكة ضرب النبي خيمة في الحجون (خارج مكة) فقيل له: <لماذا لم تنزل في دارك؟> فقال: <وهل ابقى لنا عقيل داراً؟!> (الواقدي، المغازي، ج ٣، ص ٨٢٨؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر)، ج ٢، ص ١٣٦؛ القسطلاني، المواهب اللدنية والمنح المحمدية (بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة ١، ١٣١٦هـ-)، ج ١، ص ٣١٨. باع ورثة عقيل تلك الدار لاحقاً بمبلغ مائة الف دينار على أخي الحاج بن يوسف! (الخلي، السيرة الخلبية، ج ١، ص ١٠١ - ١٠٢) وكذلك بقيت دور رهط بني جحش بن رثاب في مكة خالية بعد هجرتهم الى المدينة، فاستولى عليها ابو سفيان بذريعة ان ابنته زوجة احدهم! (ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٤٥). وفضلاً عن ذلك، فعند هجرة صهيب الى المدينة تبعه مشركو مكة وسلبوه امواله ولكنه نجا بنفسه! (ابن هشام، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٢١).

سرّية عبد الله بن جحش

في شهر رجب من السنة الثانية، ارسل النبي^١ عبد الله بن جحش (ابن عمّته) مع ثمانية من المهاجرين في مهمة استطلاعية، وكتب له كتاباً وامره ان لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من اصحابه احداً.

فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب، فنظر فيه، فاذا فيه: < اذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من اخبارهم >. ثم ان عبد الله اعلم اصحابه بما امر به رسول الله وقال لهم بأنه نهاني ان أستكره منكم احداً، فمن كان منكم يريد الشهادة فلينطلق معي، ومن كره ذلك فليرجع. فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف منهم أحد.

ومضى عبد الله بن جحش وبقية اصحابه حتى نزل بنخلة، فمرّت به عير لقريش يقودها عمرو بن الحضرمي كانت عائدة من الطائف الى مكة؛ وتشاور القوم فيهم، وكان ذلك في آخر يوم من رجب. فقال القوم: والله لئن تركتم القوم في هذه الليلة ليدخلن الحرم فليتمنعن منكم به، ولئن قتلتموهن لتقتلنهم في الشهر الحرام.

ثم اجمه هجموا على القافلة وقتلوا عمرو بن الحضرمي واسروا اثنين منهم وعادوا بالقافلة وبالأسيرين حتى قدموا المدينة. فلما قدموا على رسول الله^١ قال لهم: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، وأبي ان يأخذ خمس الغنائم والأسيرين.

وكان لهذه الحادثة صداها الواسع، وعظم على المسلمين ما قامت به هذه الجماعة من سفك الدماء في الشهر الحرام، وعنفهم اخوانهم من المسلمين في ما صنعوا.

واستغلت قريش هذه الحادثة لاغراض اعلامية وقالت: قد استحل محمد واصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم. ونفث اليهود ما يضمرونه من أحقاد وسموم وقالوا بأن

تشكيل القوى القتالية الإسلامية ٢١٧

ذلك سيكون فيه ضرر وبلاء على المسلمين. فلما اكثرت الناس من القول في ذلك انزل الله على رسول الله^١:

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا^٢}.^١

وعند نزول هذه الآيات التي كانت تحمل ضمناً معنى براءة عبد الله بن جحش، وتعتبر قريشاً سبب الفتنة، وإن ما تقوم به قريش من فتنة إنما هي اعظم عند الله من القتل، تبددت غيوم الاجواء المسمومة التي تراكت ضد المسلمين. وافرغ رسول الله عن الأسيرين بناءً على طلب تقدم به مندوبون من قريش. وقد أسلم أحدهما وحسن إسلامه وبقي في المدينة^٢.

تبيّن مثل هذه الحوادث أن هناك أشخاصاً أو جماعات قد يتصرفون بحسن نية (ولكن بسوء تدبير) وتكون لذلك التصرف انعكاسات سلبية ونتائج ذات ضرر بالغ على المجتمع، بحيث لا يفي حسن نواياهم في تلافي تلك النتائج الخطيرة. وقد كان تصرف عبد الله بن جحش واصحابه من هذا النوع.

معركة بدر

وقعت هذه المعركة في اعقاب ما قام به رسول الله^١ من تحركات عسكرية وتهديد لطريق تجارة قريش الى الشام. وكانت اول معركة بمعنى الكلمة بين المسلمين والمشركين.

١ - سورة البقرة (٢)، الآية ٢١٧.

٢ - ابن هشام، سيرة النبي، (مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٥هـ)، ج ٢، ص ٢٥٥ - ٢٥٢؛ البلاذري، انساب الاشراف، تحقيق: محمد حميد الله، (القاهرة: دار المعارف، الطبعة ٣)، ج ١، ص ٣٧٠ - ٣٧١؛ الواقدي، مصدر سابق، ج ١، ص ١٣ - ١٩؛ محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، (بيروت: دار القاموس الحديث)، ج ٢، ص ٢٦٢ - ٢٦٤؛ ابن شبة، تاريخ المدينة المنورة، تحقيق: فهد محمد شلتوت، الطبعة ١، ج ٢، ص ٤٧٢ - ٤٧٧.

٢١٨..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

وكما ذكرنا سابقاً، فإن رسول الله^١ قد تبع في شهر جمادى الآخرة قافلة لقريش كان يقودها ابو سفيان وكانت متّجهة الى الشام، حتى بلغت ذات العُشيرة، ولكن لم يلحق بها. ثم ارسل العيون والرجال الى الشام، فوافوه بالاخبار عن رجوع تلك القافلة^١. كانت القافلة ذات أهمية بالغة من حيث الحجم وقيمة ما تحمله من بضائع وسلع. فقد ذكر انها كان فيها ألف جمل، وتضاهي بضاعتها ما قيمته خمسين ألف دينار، وكان لكل قريش سهم فيها^٢.

كان الطريق الطبيعي الذي ينبغي ان تسلكه القافلة منطقة بدر^٣. وسار رسول الله^١ للاستيلاء على القافلة^٤ في ثلاثمائة وثلاثة عشر من المسلمين^٥ وليس لهم من العدة الا الشيء القليل^٦، قاصداً منطقة بدر.

وعلم ابو سفيان — عند عودته من الشام — بما عزم عليه النبي^١، فأرسل رسولاً على وجه السرعة الى مكة يطلب العون من قريش^٧، وحاد عن الطريق متّجهاً نحو الساحل

١ - الواقدي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٠.

٢ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٢٧؛ المجلسي، بحار الانوار (طهران: دار الكتب الاسلامية، ١٣٨٥هـ)، ج ١٩، ص ٢٤٥ - ٢٤٧.

٣ - تقع بدر إلى الجنوب الغربي من المدينة، وأضحت اليوم مدينة كاملة واتخذت مركزاً لمنطقة تحمل هذا الاسم نفسه. يمر بها الطريق القدم المبلط الذي يربط المدينة بمكة ومكة. وهي تبعد عن المدينة مسافة ١٣٥ كيلو متراً، وعن مكة ٣٤٣ كيلو متراً. >محمد عبدة اليماني، بدر الكبرى، (جلّة: دار القبلة للثقافة الاسلامية، الطبعة ١، ١٤١٥هـ). ص ٢٥. ولم يعد الحجاج يمرّون من هذا الطريق لاداء شعائر الحج، في أعقاب شق الطريق السريع بين المدينة ومكة.

٤ - ابن هشام، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٥٨.

٥ - محمد بن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر)، ج ٢، ص ٢٠؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٧٢.

٦ - كان عدد ابل المسلمين سبعين بغيراً كل عدّة اشخاص منهم على بعير (الواقدي، مصدر سابق، ص ٢٦؛ ابن هشام، مصدر سابق، ص ٢٦٤)، وفرس واحد فقط (الشيخ المفيد، الإرشاد، ص ٧٣؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل ابي طالب، ج ١، ص ١٨٧؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ١٩، ص ٣٢٣؛ مسند أحمد، ج ١، ص ١٢٥). وبناءً على خبر آخر كان لهم فرسان (الواقدي، مصدر سابق، ص ٢٦؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٢ - ٢٤؛ تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٣٧)، وستة دروع، وثمانية سيوف (ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ص ١٨٧؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ١٩، ص ٣٢٣).

٧ - ابن هشام، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٥٨؛ الواقدي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٨.

تشكيل القوى القتالية الإسلامية ٢١٩

وترك بدر بيسار، وانطلق حتى أسرع^١، وابعدها عن منطقة الخطر. وبناءً على طلب أبي سفيان فقد سار تسعمائة وخمسون مقاتلاً من مكة إلى المدينة لإنقاذ القافلة. ومع أن المشركين قد تناهت اليهم الأخبار عن نجات القافلة إلا أن إصرار أبي جهل أدى بهم إلى الاشتباك مع المسلمين.

وبينما كان المسلمون يبحثون عن القافلة، علم النبي^٢ باقتراب جيش قريش إلى منطقة بدر، وكانت عملية اتخاذ القرار عسيرة؛ وذلك لأن المسلمين كانوا قد خرجوا بذلك العدد القليل لأجل الاستيلاء على القافلة التجارية وليس لغرض القتال في مواجهة جيش يفوقهم في العدد ثلاث مرات.

ولو افترضنا أنهم أرادوا التراجع والانسحاب لأدى ذلك إلى تقويض التأثيرات الإعلامية والنفسية للتحركات العسكرية التي سبق الحديث عنها، وكان من المحتمل أن يلاحقهم العدو ويهجم على المدينة.

وبعد تشكيل لجنة عسكرية واستطلاع النبي^٣ لآراء المسلمين (وخاصة الانصار) والكلمة الحماسية التي ألقاها المقداد (من المهاجرين) وسعد بن عباد (من الانصار)، عزموا على مقاتلة العدو^٤.

وفي صبيحة يوم السابع عشر من شهر رمضان اندلعت معركة بدر^٥. وفي البداية قتل كل من حمزة، وعبيدة، وعلي^٦ في المبارزة الفردية نظراءهم وهم كل من شيبة، وعتبة، والوليد بن عتبة^٧.

وكان مقتل هؤلاء ضربة موجعة زعزعت قادة قريش^٨. ثم وقع القتال بين الفريقين

١ - ابن هشام، مصدر سابق، ص ٢٧٠؛ الواقدي، مصدر سابق، ص ٤١.

٢ - ابن هشام، مصدر سابق، ص ٢٦٦ - ٢٦٨؛ الواقدي، مصدر سابق، ص ٤٨ - ٤٩؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٤.

٣ - ابن هشام، مصدر سابق، ص ٢٧٨؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٥ - ١٩ و ٢٠.

٤ - ابن هشام، مصدر سابق، ص ٢٧٧؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٧ - ٢٣ و ٢٤؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ١٩، ص ٢٧٩؛

ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (بيروت: دار صادر)، ج ٢، ص ١٢٥.

٥ - الشيخ المفيد، الإرشاد، (قم: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، الطبعة ١، ١٤١٣هـ)، ص ٦٩.

٢٢٠..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

وسرعان ما انتصر جيش المسلمين، وما ان حلّ وقت الظهر^١ الا وكان العدو قد هُزم وانسحب من الساحة. وقُتل في هذه المعركة من المشركين سبعون رجلاً^٢ وأُسِر منهم سبعون^٣، واستشهد من المسلمين اربعة عشر رجلاً^٤.

ووافق رسول الله^٥ على اطلاق سراح الاسرى مقابل فدية، وأما الآخرون فمن كان منهم يجيد القراءة والكتابة فأمرهم الرسول بتعليم عشرة من شباب الانصار القراءة والكتابة ليطلق سراحهم^٦. وأطلق سراح الآخرون بمنّ الرسول^٦.

عوامل انتصار المسلمين

أدى الانتصار الباهر والسريع للمسلمين في اول معركة عسكرية الى كسر هبة قريش وأبهرتها، وإلقاء الرعب في نفوسهم. وكانت هزيمة قريش مفاجأة غير متوقعة، بحيث ان المبعوث الذي كلّفه رسول الله^٧ بالاسراع إلى المدينة وإعلان البشرى بانتصار المسلمين، ودخلها قبل عودة الجيش، مبشراً بالنصر، لم يصدّقه الناس في بداية الأمر وظنّوه شخصاً مهزوماً وفاراً من المعركة^٨؛ ولكن سرعان ما جاءوا بالأسرى الى المدينة، ووصلت اصداء هذا الانتصار الى الحبشة. وبعد ما تلقّى النجاشي الخبر دعا من كان هناك من مهاجري المسلمين وابلغهم بتلك البشرى السارة^٩.

١ - الواقدي، مصدر سابق، ص ١١٢. صلى النبي صلاة العصر بعد انتهاء المعركة في طريق العودة إلى المدينة. (الواقدي، مصدر سابق، ص ١١٢ - ١١٤).

٢ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٨؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٩٤؛ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٧

٣ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٨ - ٢٢؛ الواقدي، مصدر سابق، ص ١١٦؛ الطبري، مصدر سابق، ص ٢٩٤؛ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٧؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٨٩؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ١٩، ص ٢٩١.

٤ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٧؛ تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٧؛ ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ص ١٨٩.

٥ - تعلّم زيد بن ثابت القراءة والكتابة عن هذا الطريق، (ابن سعد، مصدر سابق، ص ٢٢ - ٢٦).

٦ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٨.

٧ - الواقدي، مصدر سابق، ج ١، ص ١١٥.

٨ - المصدر السابق، ص ١٢١.

وقال رسول الله^١ :

بدر اول معركة اعز الله بها الإسلام وخذل بها أهل الشرك^١. وقال أيضاً: ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه اصغر ولا أدر ولا أحقر ولا أغيط منه في يوم عرفة — وما ذاك الا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام — الا ما رأى يوم بدر^٢.

ويمكن تلخيص اسباب وعوامل هذا الانتصار الباهر للمسلمين في ما يلي:
١ — القيادة الصالحة للنبي^٣ وشجاعته واقدامه*. وقد قال علي^٤ مستذكراً معركة بدر وما برز فيها من شجاعة النبي^٥، ما يلي:

كُنَّا اذا احمر البأس اتقينا برسول الله^٦ فلم يكن أحد منا أقرب الى العدو منه^٧.
٢ — شجاعة علي^٨ وتضحيته الفذة، فهو وحده قتل نصف عدد من قتلوا من المشركين^٩.

ونقل الشيخ المفيد اسماء خمس وثلاثين من قتلى يوم بدر وقال:
اثبت رواة العامة والخاصة معاً اسماء الذين تولى امير المؤمنين^{١٠} قتلهم ببدر من المشركين، على اتفاق في ما نقلوه في ذلك واصطلاح، عدا من اختلفوا في قتلهم او من شارك علي^{١١} في قتلهم^{١٢}.

١ - المصدر السابق، ص ٢١.

٢ - المصدر السابق، ص ٧٨.

* - لم تكن لدى رسول الله^{١٣} أية تجربة عسكرية قبل البعثة، ولم يذكر له المؤرخون الا حضوره في شبابه (او في صباه) في حرب الفجار، وهو خير غير موثق. ولكنه رغم ذلك، كان يقود المعركة وكأنه قائد محنك خبرته التجارب، بحيث لم يعرض للمسلمين أي فشل من جانب قيادته.

٣ - ابن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٣؛ مسند احمد بن حنبل، ج ١، ص ١٢٦؛ ابن ابي الحديد، شرح فتح البلاغة، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، (القاهرة: دار احياء الكتب العربية، ١٩٦١م)، ج ١٣، ص ٢٧٩.

٤ - ابن ابي الحديد، مصدر سابق، ج ١، المقدمة، ص ٢٤؛ الشيخ المفيد، الإرشاد، (قم: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، الطبعة ١، ١٤١٣هـ)، ص ٧٢.

٥ - الشيخ المفيد، مصدر سابق، ص ٧٠ - ٧٢. ذكر البلاذري والواقدي ان عددهم ثمانية عشر شخصاً. (أنساب الأشراف،

٢٢٢..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

٣— رغم ان عدداً من المسلمين عند المسير من المدينة اظهروا كراهيتهم وعدم رغبتهم في الخروج^١، وكشف بعض كبار المهاجرين — في الشورى العسكرية — عن ضعفهم وتكلموا بكلام يبعث في النفوس اليأس والاحباط^٢، الا ان بقية المسلمين كانوا على درجة عالية من الإيمان وقوة الروح المعنوية وقاتلوا بكل بسالة واطهروا من الشجاعة ما أثار دهشة المشركين.

٤— الامداد الغيبي^٣ الذي حصل على عدّة وجوه:

أ — نزول المطر ليلة المعركة، فأخذ المسلمون ما يحتاجون إليه من الماء، ولم يمنعهم من المسير بل سهّله لهم^٤.

ب — أصاب المسلمين في تلك الليلة النعاس^٥، وبقي الرسول مستيقظاً وحده الى الصباح يدعو للمسلمين بالنصر^٦.

ج ١، ص ٢٩٧ - ٣٠١؛ المغازي، ج ١، ص ١٥٢؛ وكذلك راجع: المجلسي، بحار الانوار، ج ١٩، ص ٢٩٣. وفي معركة الخندق التي وقعت بعد معركة بدر بثلاث سنوات، وبعدما عبر عمرو بن عبد ود - الفارس العربي المعروف - الخندق وطلب من يارزه، وبرز إليه علي بن ابي طالب، قال له: لقد كان ابوك نديماً لي وصديقاً فارجع فاني لا احب ان أقتلك. قال ابن ابي الحديد المعتزلي، شارح نهج البلاغة بعد نقل هذا الكلام: كان شيخنا ابو الخير مصدق بن شبيب النحوي يقول - اذا امرنا في القراءة عليه بهذا الموضع -: والله ما أمره بالرجوع ابقاءً عليه، بل خوفاً منه، فقد عرف قتلاه بيدر وأحد، وعلم انه ان ناهضه قتله، فاستحيا ان يظهر الغسل، فظهر الابقاء والارعاء وانه كاذب فيهما. (شرح نهج البلاغة، ج ١٩، ص ٦٤).

١ - سورة الانفال (٨)، الآيات ٥ - ٦.

٢ - الواقدي، مصدر سابق، ج ١، ص ٤؛ الحلبي، السيرة الحلبية (انسان العيون) (بيروت: دار المعرفة)، ج ٢، ص ٣٨٥ - ٣٨٦؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ١٩، ص ٢٤٧.

٣ - سورة آل عمران (٣)، الآية ١٢٣.

٤ - سورة الأنفال (٨)، الآية ١١؛ الواقدي، مصدر سابق، ص ٥٤؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٥ و ٢٥.

٥ - سورة الأنفال (٨)، الآية ١١؛ الواقدي، مصدر سابق، ص ٥٤؛ الحلبي، مصدر سابق، ص ٣٩٢. بينما بقي المشركون يقظين حتى الصباح من شدة الرهبة، ولم يأكلوا شيئاً بسبب اضطرابهم. (الواقدي، مصدر سابق، ص ٥٤).

٦ - الشيخ المفيد، مصدر سابق، ص ٧٣؛ مسند احمد، ج ١، ص ١٢٥؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ١٩، ص ٢٧٩.

ج — نزول الملائكة على المسلمين بالنصر وحضورهم في ساحة المعركة^١.

د — إلقاء الرعب في قلوب المشركين^٢.

معطيات ونتائج انتصار الجيش الإسلامي

كان لانتصار جيش الإسلام في هذه المعركة معطيات ونتائج عديدة، نوجز قسمًا منها في ما يلي:

١ — سبق ان وعد الله المسلمين بالنصر على قافلة قريش أو على جيش مكة^٣، وقد أعلن النبي^٤ ذلك الوعد للمسلمين في ختام المداولات التي جرت في اللجنة العسكرية^٥. وبعد ان تحقق هذا النصر للمسلمين عظم أملهم وازدادت ثقتهم بوعد الله ونصره، وترسخ في قلوبهم الايمان.

٢ — اثار هذا الانتصار سخط وغضب المنافقين واليهود في المدينة وتولّد لديهم شعور بالمدّة والهوان. وعندما دخل بشير الرسول الى المدينة يبشرهم بذلك النصر العظيم، انطلق المنافقون يثّون الاشاعات ويقولون: <لقد قُتل محمد وهُزم المسلمون وتفرقوا>^٥.

وأظهر اليهود أيضاً حقدهم^٦، فقال احد كبارهم وهو كعب الأشرف: هؤلاء اشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد اصاب هؤلاء القوم، لبطن الارض خير من ظهرها^٧.

٣ — اعتبرت القبائل المجاورة للمدينة هذا النصر دلالة على احقية الإسلام ونصر الله،

١ - سورة الأنفال (٨)، الآية ٩؛ الواقدي، مصدر سابق، ص ٧٦ - ٧٩؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٨٦.

٢ - سورة الانفال (٨)، الآية ١٢.

٣ - سورة الانفال (٨)، الآية ٧.

٤ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٤٩.

٥ - المصدر السابق، ص ١١٥؛ البلاذري، انساب الأشراف، تحقيق: محمد حميد الله، (القاهرة: دار المعارف، الطبعة ٣)،

ج ١، ص ٢٩٤.

٦ - الطبري، مصدر سابق، ج ٢، ص ٢٩٧.

٧ - الواقدي، مصدر سابق، ج ١، ص ١٢١؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ٥٥؛ راجع: البيهقي، ج ٢، ص ٣٤١.

٢٢٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

وعلى اثر ذلك أخذوا يدخلون في الإسلام. قال البيهقي في هذا المجال:
بعدهما اعزّ الله نبيّه [في معركة بدر] وقتل من قريش من قتل اوفدت العرب وفودها الى
رسول الله^١.

وقال أيضاً في موضع آخر:

بعد اربعة او خمسة اشهر من معركة بدر حاربت ربيعة كسرى وكانت وقعتهم بذي قار،
فقالوا عليكم بشعار التهامي؛ فنادوا: يا محمد، يا محمد، فهزموا جيوش كسرى وقتلواهم^١.
٤— ادركت قريش بأنّها قد اخطأت في تقديرها لقوّة النبي^١ والمسلمين. فلم يكن
يخطر لهم ببال بأنهم سيواجهون مثل هذه الهزيمة النكراء على يد عدد من الفارّين وبالتعاون
مع جماعة من الفلاحين — على حدّ تعبيرهم — وقد ادرك القرشيون بأن تجارتهم باتت في
خطر، ولم يعد بإمكانهم التعويل على الطريق التجاري بين مكة والشام الذي يمرّ قرب
بدر؛ فقال صفوان بن أمية في جمع من سادة قريش في مكّة:

نحن في دارنا هذه ان اقمنا نأكل من رؤوس اموالنا فمالنا بما من نفقات. وانما نزلناها
على التجارة في الصيف الى الشام وفي الشتاء الى ارض الحبشة، وان محمداً واصحابه قد
عورّوا علينا طريق تجارتنا على الساحل الى الشام لا يبرحونه، وقد وادعوا اهلهم ودخل
عامّتهم معهم، فما ندري اين نسلك؟

وفي الختام قرر هذا الجمع استئناف التجارة الى الشام عن طريق العراق. ثم ان صفوان
خرج على رأس قافلة تجارية كان سهمه وحده فيها ثلاثمائة ألف درهم.
وسارت هذه القافلة الى الشام عن طريق العراق. ولما سمع رسول الله^١ بمسيرها، بعث
في جمادى الآخرة من السنة الثالثة للهجرة سرية في مائة راكب بقيادة زيد بن حارثة
للاستيلاء على تلك القافلة. ومع بدء اول هجوم للمسلمين، فر رجال القافلة، واستولى
المسلمون على ما كان فيها من اموال وبضائع وجاءوا بها الى المدينة ومعهم أسير أو
أسيران^٢. وقد ذكرت كتب التاريخ هذه السرية باسم <سرية القرّة>^٢.

١ - تاريخ البيهقي، (النصف: المكتبة الحيدرية، ١٣٨٤هـ). ج ٢، ص ٣٨.

٢ - الواقدي، مصدر سابق، ج ١، ص ١٩٧ - ١٩٨.

نقض معاهدة بني القينقاع

كان بنو قينقاع اول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله^١ . وكما ذكرنا فقد كان وقع انتصار المسلمين في بدر مريراً على اليهود والمنافقين واثار سخطهم. ولذلك اظهرت هذه القبيلة بعد معركة بدر ممارسات عدائية ضد المسلمين، فأنذرهم الرسول ودعاهم قائلاً: اعتبروا بما نزل بقريش^٢ أسلموا، فانكم قد عرفتم اني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم. فقالوا: يا محمد! لا يغرنك انك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة. انا والله لئن حاربناك لتعلمن انا نحن الناس.

فمضوا على ما هم عليه ولم يأخذوا تحذير النبي^٣ لهم على محمل الجد واستمروا في غيهم وشقاقهم.

وكان من امر هذه القبيلة ان احد اليهود من افرادها اساء الى زوجة احد الانصار، وكان ذلك العمل بمثابة اساءة للمسلمين (بغض النظر عن شخص تلك المرأة) واستهانة بهم، وانتهى الى توتر الأوضاع بين الطرفين؛ فاستغاثت المرأة بالمسلمين، فوثب رجل من المسلمين على اليهودي فقتله. وشدت اليهود على المسلم فقتلوه.

ورغم ان التوتر الذي حصل ادى الى مقتل شخصين، وكان من الممكن استعادة الاستقرار من جديد واتخاذ التدابير اللازمة لتلافي وقوع مثل هذه الحوادث مرة اخرى لو ابدى اليهود حسن نية ورغبة في استتاب الأمن، ولكنهم لجأوا الى قلعته وتحصنوا فيها، فأمر رسول الله^٤ بمحاصرتهم، وكانت محاصرته اياهم خمس عشرة ليلة. ثم ان عبد الله بن أبي بن سلول (الخزرجي) الذي كان حليفاً لهم، التمس رسول الله^٥ بالعفو عنهم، فوافق رسول الله على ان يسلموا سلاحهم الى المسلمين ويجلوا من المدينة، فنزحوا الى اذرعاء

١ - ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ٥٣ - ٥٤؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ٢٠، ص ٤ - ٥.

٢ - وردت أيضاً باسم <سرية القردة>. (بحار الانوار، ج ٢٠، ص ٤. في الهامش؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٣، ص ٥).

٣ - ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيُهُمْ وَهُمْ يُجْزَوْنَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلَهُمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٣﴾ (سورة آل عمران (٣)، الآيات ١٢ - ١٣).

٢٢٦..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

من ارض الشام، وكان ذلك في شهر شوال من السنة الثانية للهجرة^١.
كان بنو قينقاع اشجع اليهود^٢، والذي يبدو من كلامهم انهم كانوا مغرورون بما لديهم من قوة وعدة، ولعلمهم كانوا يعولون في ذلك على احلافهم من الخزرج وبني عوف^٣؛ ولكن لاحظنا بأن الخزرج لم يستطيعوا ان يفعلوا لهم اكثر من الوساطة لهم عند رسول الله للتساهل في معاقبتهم^٤، كما ان عبادة بن الصامت اعلن براءته منهم^٥. ومن جانب آخر كانت القبيلتان اليهوديتان الاخريان وهما بنو النضير وبنو قريظة حليفتين سابقتين لقبيلة الاوس، وهذا ما منعهما من النهوض لموازرة بني قينقاع، ولعل سيد الأوس سعد بن معاذ كان له تأثيره في منع تدخلهما في هذه القضية. وعلى اية حال فقد كان لإجلاء هذه القبيلة عن المدينة فائدة للمسلمين وهي تشتيت قدرة هذه القبائل الثلاثة، مضافاً الى ذلك انطوى على تحذير لبقية يهود المدينة لعدم التورط في مثل هذا الخطأ!

زواج علي^٦ من فاطمة÷

في اعقاب انتصار المسلمين في معركة بدر، وما عاد به عليهم ذلك النصر من عز وشموخ، حصلت مناسبة كريمة اخرى في دار رسول الله^٦ وهي زواج علي بن ابي طالب من السيدة فاطمة بنت النبي^٦.
ونظراً لما كانت تتمتع به السيدة فاطمة من صلاح وفضيلة وما كان لها من مكانة منبثقة مما كان للرسول من احترام وقدسسية، فقد كانت شخصية متميزة يطمح الكثير من

١ - الواقدي، مصدر سابق، ج١، ص١٧٦؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج٣، ص٥٠ - ٥٢؛ البلاذري، مصدر سابق، ج١،

ص٣٠٨ - ٣٠٩؛ الطبري، مصدر سابق، ج٢، ص٢٩٧ - ٢٩٨.

٢ - الواقدي، مصدر سابق، ص١٧٨.

٣ - الواقدي، مصدر سابق، ص١٧٨؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج٣، ص٥٠.

٤ - يبدو ان رسول الله (ص) قبل وساطة عبد الله بن أبي فيهم بحكم انه كان في الظاهر مسلماً ولأجل ما كان يقوم به من عمل لصيانة وحدة المسلمين ومنع المزيد من توتر الأوضاع.

٥ - الواقدي، مصدر سابق، ص١٧٩.

٦ - المجلسي، بحار الانوار، ج٤٣، ص٩٧.

تشكيل القوى القتالية الإسلامية ٢٢٧

وجهاء القوم الى خطبتها. فقد خطبها عدد من اصحاب النبي البارزين وكان قسم منهم من الاثرياء، الا ان الرسول رفض طلبهم^١، وقال: <انتظر بها القضاء>^٢. فجاءوا الى علي وقالوا له: لولا اتيت رسول الله^٣ فذكرت له فاطمة، فجاء الى رسول الله^٤ وعرض عليه الأمر. ثم ان رسول الله عرض عليها الأمر لمعرفة رأيها، فوافق علي خطبة علي^٥، وقال لابنته:

ابي زوجتك اقدمهم سلماً واحسنهم خلقاً^٦. وقال لعلي^٧:

لقد عاتبني رجال من قريش في امر فاطمة، وقالوا:

خطبناها إليك فمنعتنا وزوجت علينا، فقلت لهم: والله ما أنا بمنعتكم وزوجتكم، بل الله منعكم وزوجكم، فليس لفاطمة كفو على وجه الارض الا علي^٨.

وجرت مراسيم هذا الزواج بشكل بسيط وفي اجواء مفعمة بالحب والوئام وبمهر قليل^٩ وجهاز بسيط^{١٠}، حتى اعتبر هذا الزواج واحداً من ابرز مظاهر تكريم القيم المعنوية في التزويج في الإسلام.

معركة احد

في اعقاب هزيمة قريش في معركة بدر بدأت تعد العدة للانتقام من المسلمين؛ وأنفقت

١ - المجلسي، مصدر سابق، ص ١٠٨؛ ابن واضح، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٤.

٢ - ابن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر)، ج ٨، ص ١٩.

٣ - المجلسي، مصدر سابق، ص ٩٣.

٤ - العلامة الأميني، الغدير، ج ٣، ص ٢٠.

٥ - المجلسي، مصدر سابق، ص ٩٢.

٦ - المصدر السابق، ص ١١٢.

٧ - للاطلاع على مزيد من المعلومات في هذا المجال، راجع: الدكتور السيد جعفر شهيدى، زندگان فاطمة زهراء (عليها السلام)، (طهران: مكتب نشر الثقافة الاسلامية، ١٣٦٥هـ.ش)، ص ٤٤ - ٧٦، امير مهنا الخيامي، زوجات النبي واولاده، (بيروت: مؤسسة عز الدين، ط ١، ١٤١١هـ.)، ص ٣٢٢ - ٣٢٨.

٢٢٨..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

لهذا الغرض أرباح قافلة تجارية كانت قد عادت الى مكة^١، واستعانت بكثير من القبائل، وسارت على اتم العدة والعدد^٢ من مكة، وجلبت معها جماعة من النساء لتشجيع المقاتلين في ساحة المعركة^٣. وقد علم رسول الله^٤ بما عزم عليه قريش عن طريق تقرير سرّي بعثه إليه عمّه العباس من مكة^٥، وشكل مجلساً عسكرياً استطلع فيه آراء المسلمين في كيفية مجابهة العدو. واعلنت بعض الشخصيات البارزة وعدد من كبار الانصار، ومنهم عبد الله بن أبي ان الرأي هو البقاء في المدينة واتخاذ موقف دفاعي في داخل المدينة. في حين كان رأي الشبان الذين لم يشهدوا بدرّاً وغيرهم من كبار المهاجرين والانصار مثل حمزة هو أن تجري مجابهة العدو خارج المدينة؛ لأن البقاء في المدينة يوحى الى العدو بضعف المسلمين ويمنحه الجرأة والاقدام عليهم، واعتبروا ذلك أمراً لا يتناسب مع ما أظهره جيش الإسلام من قوّة في معركة بدر^٦.

وفي ختام المداولات أقر النبي^٧ رأي هذه الجماعة التي ينم رأيها عن شجاعة وبسالة^٨، فسار نحو جبل أحد* في ألف ورجع عبد الله بن أبي في كتيبة وهو يقول: عصاني وأطاع

١ - الواقدي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٠٠؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ٦٤؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٧.

٢ - كان عدد جيش المشركين ثلاثة آلاف، وكان سبعمائة منهم دارعين، وكان عدد خيلهم مائتين وابلهم ألفاً. >الواقدي مصدر سابق، ص ٢٠٣ - ٢٠٤؛ محمد بن سعد، مصدر سابق، ص ٣٧؛ ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة (القاهرة: دار احياء الكتب العربية، ١٩٦٢م)، ج ١٤، ص ٢١٧.

٣ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٢٠٢ - ٢٠٣؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص ٣٧؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ٦٦.

٤ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٢٠٤ و ٢٠٦؛ ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج ١٤، ص ٢٧. ورد في خبر آخر ان قبيلة خزاعة التي كان هواها مع النبي (ص) ومع الاسلام والمسلمين، هي التي اب لغت الرسول بما عزم عليه قريش. (ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ص ٢١٨) ويُحتمل ان الخبر وصله عن كلا الطريقين.

٥ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٢١٠، ٢١٢ و ٢١٣؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ٦٧؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص ٣٨.

٦ - ابن شهر آشوب، مناقب آل ابي طالب (قم: المطبعة العلمية)، ج ١، ص ١٩١؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ٢٠، ص ١١٧.

* - يقع جبل احد في شمال المدينة. ونظراً لوجود حواجز طبيعية من جهة الجنوب فلم يكن باستطاعة العدو دخولها من تلك الجهة، وانما كان عليه ان يدور حول المدينة ليهجم عليها من جهة الشمال. (محمد حميد الله، الرسول القائد، ص ٧٩ - ٨٥.

تشكيل القوى القتالية الإسلامية ٢٢٩

الولدان ومن لا رأي له^١، متذرعاً بأنه لن تكون هناك معركة^٢، ورجع معه ثلاثمائة الى المدينة.

ولما رأى رسول الله^٣ ان جيش الإسلام نقص الى السبعمئة^٤، جعل الجيش عند جبل أحد، وجعل الجبل خلف الجيش، والمدينة امامه وجبل العينين عن يساره^٥، وجعل جيش المسلمين نحو الغرب، وجيش المشركين نحو الشرق^٦.

ثم ان الرسول ألقى نظرة عسكرية الى المنطقة والتفت الى أهمية جبل عينين؛ لأنه كان من المحتمل ان يتسلل العدو من تلك المنطقة اثناء القتال ويلتف من وراء جبهة المسلمين، لذلك انتدب خمسين من الرماة وجعل عليهم فارساً اسمه عبد الله بن جبير، وكلفهم بحماية تلك المنطقة وقال لهم:

قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا؛ فان رأيتمونا قد هزمناهم حتى ادخلناهم مكة فلا تبرحوا من هذا المكان، وان رأيتموهم قد هزمونا حتى ادخلونا المدينة فلا تبرحوا هذا

١ - الواقدي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢١٩؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٩؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ٦٨.

٢ - سورة آل عمران (٣)، الآية ١٦٧؛ الواقدي، مصدر سابق، ص ٢١٩؛ الطبرسي، مجمع البيان (شركة المعارف الاسلامية، ١٣٧٩هـ-)، ج ٢، ص ٥٣٣.

٣ - الطبرسي، أعلام الوري، (طهران: دار الكتب الاسلامية، الطبعة ٣)، ص ٨٠؛ ابو سعيد واعظ الخركوشي، شرف النبي، ص ٣٤٥؛ الحلبي، السيرة الحلبية (انسان العيون) (بيروت: دار المعرفة)، ج ٢، ص ٤٩٤؛ ابن هشام، مصدر سابق، ص ٧٠.

٤ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٢٢٠؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص ٣٩؛ نور الدين السهمودي، وفاء الوفاء باخبار دار المصطفى (بيروت: دار احياء التراث العربي، الطبعة ٣، ١٤٠١هـ-)، ج ١، ص ٢٨٤.

٥ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٢٢٠.

وراح ابو سفيان يعبئ جيش المشركين ويختار من يحملون لواء كل طائفة؛ في ذلك الوقت كان لحامل اللواء دور أساسي، ولهذا السبب كانوا يسلمون اللواء لمن يُعرف بالشجاعة والاقدام. كان بقاء اللواء شامخاً يُرفرف في ميدان القتال يبعث الثقة في نفوس المقاتلين، وعلى العكس من ذلك يؤدي مقتل حامل اللواء الى الاحباط وتثبيط العزائم. وقد اختار ابو سفيان حملة الرايات من بني عبد الدار (الذين كانوا معروفين بالشجاعة) وقال لهم:

يا بني عبد الدار! انكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وانما يُؤتى الناس من قبل راياتهم؛ اذا زالت زالوا^٢.

١ - المجلسي، مصدر سابق، ج ٢٠، ص ٢٥ و ٤٩؛ راجع: ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ٧٠؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٠ - ٣٩؛ السهمودي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٨٥؛ محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك (بيروت: دار القاموس الحديث)، ج ٣، ص ١٤.

* - ذكرت المصادر التاريخية ان الموضع الذي نُدب له الرماة المسلمون كان جبلاً أو قمً شيعب. والتصور الشائع هو ان هذا الموضع كان شقاً في جبل أحد، وقد التف خالد بن الوليد من هناك على المسلمين في الصفحة التالية من المعركة. غير ان محمد بن سعد الذي يُعتبر اخبار ومعلومات استاذة الواقدي بشأن حروب الرسول وغزواته وخاصة مواقعها العسكرية، اكثر دقة وثاقفة (المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، مقدمة، ص ٦، ق ٣١) يذكر هذا الموضع باسم عينين (الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٣٩) ويطبقه على الجبل الذي اشرنا الى انه يقع الى يسار جيش المسلمين ويبدو انه سمي بهذا الاسم لوجود عينين الى جانبيه (الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٣٩) وقد ذكر علماء الجغرافيا المسلمون القدامى هذا الجبل. فقد كتب ياقوت الحموي ما يلي: عينين: جبل من جبال أحد بينهما واد. (معجم البلدان، ج ٤، ص ١٧٤، كلمة عين) وقال عبد الله البكري الأندلسي أيضاً: جبل عينين بأحد، وفي هذا الجبل أقام رسول الله (ص) الرماة يوم أحد. (معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواقع، ج ٣، ص ٩٧٨، كلمة عين). ويمكن ان يُفهم من خلال ملاحظة الوثائق والشواهد والقرائن التاريخية والجغرافية، ومن خلال مشاهدة منطقة أحد عياناً ان عينين عبارة عن تل تراهي يقع في مقابل جبل أحد من جهة المدينة، وقد وقعت المعركة بينه وبين أحد، وتقع بين هذين الجبلين قبور شهداء هذه المعركة الذين دفنوا في ساحة المعركة، وهذا يعني ان موضع الرماة لم يكن على جبل أحد. وكما شاهدتُ الموضع عن كتب فأن جبل أحد ليس فيه مثل هذا الشق الذي يمكن ان يعبر منه مائتا فارس. وقد كتب البروفسور محمد حميد الله، الذي درس ساحة معركة أحد بدقة في الاعوام ١٩٣٢، ١٩٤٥، ١٩٤٧، و ١٩٦٣ بحثاً قيمة في هذا المجال. راجع: الرسول القائد، ص ٩٠).

٢ - الواقدي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٢١؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ١٠٦.

انتصار المسلمين في الجولة الاولى من الحرب

بدأت معركة أحد في يوم الخامس من شوال في السنة الثالثة للهجرة^١. ولم يمض وقت طويل حتى انتصر المسلمون على المشركين وهزموهم. ولم تكن هزيمتهم بسبب كثرة القتلى؛ لأن عدد من قُتل منهم حتى آخر المعركة (على أساس اكبر رقم ذكر في هذا المجال) لم يتجاوز الخمسين قتيلاً^٢. ولم يكن هذا العدد يُمثل شيئاً ذا بال بالقياس الى عدد جيشهم، وإنما كان سبب هزيمتهم مقتل حملة راياتهم حيث قُتل تسعة منهم بسيف علي^٣؛ فبعدما توالى سقوط راياتهم حبطت معنوياتهم ولاذوا بالفرار^٤. وبقي علي في ما بعد يذكر هذا الموقف؛ معتبراً إياه من حملة مآثره المشرقة عندما تكلم في شورى الخلافة التي تشكلت من ستة اشخاص لاختيار خليفة في اعقاب مقتل عمر، وأيده فيها اعضاء الشورى^٥.

وبعد مقتل حملة رايات قريش تبددت صفوف جيش الشرك وولوا فارين. وبعد الحاق الهزيمة بهم انهمك المسلمون بجمع الغنائم، وعند مشاهدة الرماة لهذا الموقف دفعهم الطمع بجمع الغنائم الى ترك مواضعهم، وظنوا ان المعركة قد حُسمت ولم يلتفتوا الى نداءات عبد

١ - المجلسي، بحار الانوار، ج ٢٠، ص ١٨؛ العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، (دار احياء التراث العربي، الطبعة ١، عام ١٣٢٨هـ)، ج ١، ص ٣٥٤. وقيل أيضاً في اليوم الثالث، السابع، الثامن، التاسع، الحادي عشر، من شوال (تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ١٤؛ وفاء الوفاء باخبار دار المصطفى، ج ١، ص ٢٨١).

٢ - راجع: السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٥٤٧. ذكرت بعض المصادر انه قُتل من المشركين ٢٣، وذكرت مصادر اخرى ٢٨ قتيلاً. (ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١٥، ص ٥٤؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٤٣؛ البلاذري، انساب الأشراف، ج ١، ص ٣٢٨).

٣ - الشيخ المفيد، الإرشاد (قم: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، الطبعة ١، ١٤١٣هـ)، ص ٨٨؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ٢٠، ص ٥١؛ الطبرسي، مجمع البيان، (شركة المعارف الإسلامية)، ج ٢، ص ٤٩٦.

٤ - الطبري، مصدر سابق، ج ٣، ص ١٧؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ٤١؛ السمهودي، وفاء الوفاء، ج ١، ص ٢٨٨؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ٢٠، ص ٢٦.

٥ - الشيخ الصدوق، الخصال (قم: منشورات جامعة المدرسين في الحوزة العلمية، ١٤٠٣هـ)، ص ٥٦٠.

انتصار المشركين

أدت مخالفة الرماة لأمر الرسول الى ان يتبدّل مصير المعركة؛ اذ استغل خالد بن الوليد تلك الفرصة، وهجم على ذلك الموضع بمائتي فارس، وقتل عبد الله بن جبير والرماة العشرة الذين ثبتوا معه، والتف على جيش المسلمين وهجم عليهم من خلفهم. ومن جانب آخر حملت عَمْرَة — بنت علقمة التي جاءت مع من جاء من نساء قريش الى ساحة المعركة — الراية من الارض ونصبته^٢. وعندما شاهدت قريش هجوماً لخالد واهتزاز الراية انبعث فيهم العزم واعادوا الكرة على المسلمين^٣. ولم يستطع المسلمون الصمود بسبب انفراط نظم صفوفهم وانقطاع الاتصال بين القادة والمقاتلين، وهُزموا هزيمة نكراء. وكانت هناك عدّة عوامل اخرى ساعدت على إلحاق هذه الهزيمة بهم، منها:

١— أشيع بان النبي قد قُتل^٤.

٢— في ذلك العصر لم يكن أي من الفريقين يرتدي ثياباً عسكرية تميّزه عن الفريق الآخر، وكانوا في ساحة الحرب يُعرفون بشعاراتهم ونداءاتهم فحسب. وعندما اعادت قريش الكرة على المسلمين دبّ في صفوفهم مزيد من الاضطراب، ولم يعرف احدهم الآخر وسلّوا السيوف على بعضهم^٥، حتى ان حُسَيْل بن جابر — والد حذيفة بن اليمان

١ - سورة آل عمران (٣)، الآية ١٥٢.

٢ - ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ٨٣؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٣، ص ١٧؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ٢٠، ص ٥١؛ الطبرسي، مجمع البيان، ج ٢، ص ٤٩٦. قال حَسَّان بن ثابت - شاعر الرسول يهجو قريشاً ويغيرهم بما فعلته عمره: ولولا الحارثية أصبحوا يُباعون في الاسواق بالثمن اليخس (ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ٨٤؛ ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج ١٤، ص ٢١٧).

٣ - ابن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٢ - ٤١؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ٨٢؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٣، ص ١٧؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ٢٠، ص ٤٩ - ٢٦.

٤ - ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ٨٢؛ مصدر سابق، ج ٣، ص ١٧؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ٢٠، ص ٢٧ - ٢٦.

٥ - ابن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٢؛ راجع: وفاء الوفاء، ج ١، ص ٢٨٦.

تشكيل القوى القتالية الإسلامية ٢٣٣

— قُتل بـسيوف المسلمين^١. ولكنهم بعدما ربط جأشهم وافاقوا من صدمة الهجوم المضاد وهتفوا بشعاراتهم تغيّرت موازين القوى^٢.

٣— ان الريح قد حالت فصارت دبوراً (تهب من الغرب) بعدما كانت صبا (تهب من الشرق)، وصعب على المسلمين القتال^٣.

وعلى اية حال فقد اضطربت صفوف المسلمين بحيث انهزم اكثرهم، وصعد عدد منهم فوق الجبل، بينما بقي الرسول^٤ مرابطاً في ساحة القتال ويدعو الفارين الى الثبات والصمود^٥، وثبت معه علي^٦ وعدد آخر من المسلمين^٧. فقد بقي علي الى جانبه يذود عنه عنه بالسيف، ودفع عنه عدّة مرات هجمات كتائب الاعداء^٨.

وفي خضم هذا الاستبسال وهذه الشجاعة الفذة هتف هاتف في السماء: لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا علي^٩.

وفي تلك الاثناء عرف احد المسلمين الرسول^{١٠}، وكان هناك الى جانبه عدد ممن ثبتوا معه في المعركة، او الذين عادوا بعد ان كانوا قد فروا والتفّوا حوله وظلّوا يقاتلون الى ان

١ - ابن سعد، مصدر سابق، ج٢، ص٤٣ و٤٥؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج٣، ص٩٣؛ السهمودي، مصدر سابق، ج١، ص٢٨٨؛ السيّد علي خان المدني، الدرجات الرفيعة (قم: منشورات مكتبة البصري، ١٣٩٧هـ-)، ص٢٨٣.

٢ - البلاذري، انساب الأشراف، تحقيق: محمد حميد الله، (القاهرة: دار المعارف، ط٣)، ص٣٢٢.

٣ - ابن سعد، مصدر سابق، ج٢، ص٤٢.

٤ - سورة آل عمران (٣)، الآيات ١٥٣ - ١٥٤؛ البلاذري، مصدر سابق، ص٣١٨؛ الطبري، مصدر سابق، ج٣، ص٢٠؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج٢، ص٤٧؛ ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج١٥، ص٢٣ و٢٥.

٥ - ابن سعد، مصدر سابق، ج٢، ص٤٧؛ ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج١٥، ص٢١ و٢٩.

٦ - الشيخ المفيد، الإرشاد (قم: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، ١٤١٣هـ-)، ص٨٩؛ الطبري، مصدر سابق، ج٣، ص١٧؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، (بيروت: دار صادر)، ج٢، ص١٥٤؛

ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج١٤، ص٢٥٠؛ الحافظ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق (ترجمة الإمام علي بن أبي طالب) تحقيق: محمد باقر المحمودي (بيروت: دار التعارف للمطبوعات، الطبعة ١، ٣٩٥هـ-)، ج١، ص١٥٠؛ المجلسي، مصدر سابق، ج٢٠، ص٨٨.

٧ - الطبري، مصدر سابق، ج٣، ص١٧؛ ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج١٤، ص٢٥١؛ الشيخ المفيد، مصدر سابق، ص٨٧؛ المجلسي، مصدر سابق، ج٢٠، ص٥٤، ١٠٣، ١٠٥ و١٠٧.

٢٣٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

وصلوا الى الجبل^١؛ ثم أخذ غبار المعركة ينجلي.

وهناك بادر ابو سفيان الى هجمة اعلامية يهدف من ورائها إضعاف معنويات المسلمين، فأخذ يردد شعار: اُعلُّ هُبْل، اُعلُّ هُبْل. فقال رسول الله^١ في الرد عليه: الله أعلى وأجل. فقال ابو سفيان: لنا العُزى ولا عُزى لكم. فقام أحد المسلمين بأمر رسول الله ورد عليه بالقول: الله مولانا ولا مولى لكم^٢.

وقتل في هذه المعركة من المسلمين — بناءً على المشهور — سبعون^٣ منهم حمزة عم النبي^١، ومصعب بن عمير.

ورغم ان المسلمين قد هزموا في أحد، وبقيت قوات قريش على حالها لم يُصبها الكثير من الخسائر، ويشير التقييم الظاهري للامور بأنهم لو هجموا على المدينة لكان النصر لهم، الا ان الرعب الذي كان يملأ قلوب زعماء قريش وخشيتهم من عواقب هذا العمل جعلهم يثنون عن مهاجمة المدينة وينصرفون نحو مكة، واكتفوا بما اوقعوه من قتلى بين المسلمين انتقاماً لمن قُتل منهم في بدر، بينما لم يُلحقوا أي ضرر بالمدينة، ولا وفروا الحماية لطريق التجارة الى الشام.

وفي اليوم التالي للمعركة بادر الرسول^١ الى القيام بتحرك عسكري كان الهدف منه الايحاء للعدو بأن المسلمين لا زالوا على قوتهم، ولكي لا يتكون لدى المشركين شعور بأن المسلمين قد وهنوا، ويتجرأون عند ذاك على مهاجمة المدينة؛ فसार بجيش المسلمين —

١ - الطبري، مصدر سابق، ج٣، ص١٩؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج٣، ص٨٩ - ٨٨؛ المجلسي، مصدر سابق، ج٢٠، ص٥٤.

٢ - ابن سعد، مصدر سابق، ج٢، ص٤٨ - ٤٧؛ البلاذري، مصدر سابق، ج١، ص٣٢٧؛ الطبري، مصدر سابق، ج٣، ص٢٤؛ ابن ابي الحديد، مصدر سابق، ج١٥، ص٣١ - ٣٠؛ ابو سعيد واعظ الخرگوشي، شرف النبي؛ الحلبي، مصدر سابق، ج٢، ص٥٣١؛ المجلسي، مصدر سابق، ج٢٠، ص٣٢ و٤٥.

٣ - البلاذري، مصدر سابق، ج١، ص٣٢٨؛ الطبرسي، إعلام الوری (طهران: دار الكتب الاسلامية، ط٣)، ص٨٢؛ ابو سعيد واعظ الخرگوشي، مصدر سابق، ص٣٤٦؛ السمهودي، مصدر سابق، ج١، ص٢٩١ - ٢٩٢؛ المجلسي، مصدر سابق، ج٢٠، ص١٨؛ الحلبي، مصدر سابق، ج٢، ص٥٤٧.

٤ - ابن هشام، مصدر سابق، ج٣، ص١١٠؛ الحلبي، مصدر سابق، ج٢، ص٥٥٠.

تشكيل القوى القتالية الإسلامية ٢٣٥

وكان أكثرهم جرحى — وتبع جيش المشركين الى ارض <هراء الاسد>، ولما تأكد انهم ليسوا بصدد الاعداد لهجوم جديد، قفل راجعاً الى المدينة^١.

نتائج الهزيمة في معركة احد

يمكن تلخيص بعض آثار ونتائج هزيمة المسلمين في معركة أحد، بما يلي:

١— رغم ان المسلمين هزموا عسكرياً في هذه المعركة، ولكنهم تعلموا ان لا يعصوا أمر الرسول، ولم يتكرر منهم مثل هذا العصيان في المعارك اللاحقة.

٢— حاول المنافقون إثارة الفتن وظهروا السرور لما أصاب المسلمين، وصاروا يوجهون اليهم اللوم والتقريع^٢.

٣— كشف اليهود عن احقادهم وقالوا: ان محمداً يريد السلطان، وإلا فليس من نبي مُنبي يمثل هذه الهزيمة^٣.

٤— وجد أعداء الإسلام في اطراف المدينة في انفسهم الجراءة على التآمر وإثارة الفتنة، وبرز مثال على ذلك ما قامت به قبيلة بني أسد من تحرك للهجوم على المدينة، وحادثة الرجيع، وبئر معونة.

٥— بعد رجوع المسلمين الى المدينة، خيمت على الاجواء حالة من الحزن والغم، وسادت ربوع المدينة مشاعر اليأس والاحباط. وكان مما كرس هذه المشاعر تلك الهواجس التي اخذ ييشها المنافقون واليهود في المدينة وجاءت امتداداً للحرب النفسية التي اطلقها ابو سفيان في أحد. وقد بددَ الباري تعالى هذه الآثار والانعكاسات وشحذَ معنويات المسلمين في عدة آيات نزلت في سورة آل عمران. واستناداً الى ما قاله ابن اسحاق فان ستين آية

١ - ابن هشام، مصدر سابق، ج٣، ص١٠٧ و١١٠؛ ابن ابي الحديد، مصدر سابق، ج١٥، ص٣١ و٣٣؛ الحلي، مصدر سابق،

ج٢، ص٥٥٠؛ المجلسي، مصدر سابق، ج٢٠، ص٤٠، ٤١ و٩٩.

٢ - الواقدي، مصدر سابق، ج١، ص٣١٨ - ٣١٧.

٣ - الواقدي، مصدر سابق، ج١، ص٣١٧؛ الحلي، مصدر سابق، ج٢، ص٥٤٩.

٢٣٦..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

من آيات هذه السورة جاءت حول معركة أُحُد^١. وقد بين الله عز وجل للمسلمين في هذه الآيات سبب هزيمتهم ومخدرًا إياهم بأنهم اذا كانوا قد هُزموا عسكرياً فلا ينبغي ان يُسيطر عليهم اليأس فيُهزموا نفسياً، مشيراً الى ان سر هزيمتهم يكمن في عدم انضباطهم العسكري، واقبالهم على مال الدنيا. وان كان الله قد نصرهم بيدرك فذلك لأنهم كانوا يجاهدون في سبيله فقط. ولكنهم في هذه المعركة سارعوا نحو الغنائم ففشلوا. نعرض في ما يلي عدداً من آيات سورة آل عمران:

{وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}.

{وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}.

{وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.

{وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}.

{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}.

{وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}.

{وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}.

{ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }^٢.

أدت الهزيمة في معركة أحد الى زعزعة الثقة بالقدرة العسكرية للمسلمين وشجعت اعداء الإسلام في اطراف المدينة الى الوقوف ضد المسلمين والتآمر عليهم. وكان اختيار تلك البرهة الزمنية للتآمر والتخطيط للهجوم على المدينة ناتج عن ذلك التصور المغلوط

١ - ابن هشام، مصدر سابق، ج٣، ص١١٢.

٢ - سورة آل عمران (٣)، الآيات ١٢٣، ١٣٢، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٥٢ و١٦٥.

تشكيل القوى القتالية الإسلامية ٢٣٧

الذي تكون في اذهانهم عن الوهن العسكري للمسلمين^١. نشرح في ما يلي امثلة من تلك المؤامرات:

١. الهجوم الفاشل لبني أسد:

تناهى الى أسماع الرسول خبر مفاده ان بني أسد يخططون للهجوم على المدينة؛ فدعا رسول الله أبا سلمة وعقد له لواءً وبعث معه مائة وخمسين رجلاً، وقاله له: سر حتى تنزل ارض بني أسد فأغر عليهم قبل ان تتلاقى عليك جموعهم. فاسرع السير محتباً سنن الطريق وسبق الاخبار، وافلت القوم وتفرقوا في كل ناحية، وعاد ابو سلمة بغنائم وعدد من الاسرى الى المدينة^٢.

وقد أدى هذا النصر الى اعادة الثقة بالقدرة العسكرية للمسلمين الى حد ما، وادركت القبائل النازلة الى جوار المدينة بأن المسلمين لم ينهاروا مثلما كانوا يتصورون.

٢. حادثة الرجيع:

وقعت هذه الحادثة في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة، حيث قدم افراد من قبيلة <عضل والقارة> بتحريض من قبيلة <بني لحيان> وتظاهروا باعتناق الإسلام، وقالوا: يارسول الله ان فينا قوماً دخلوا في الإسلام فابعث نفرًا من اصحابك يفقهوننا في الدين ويقرئونا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام. فبعث معهم رسول الله^٣ عشرة* من أصحابه، حتى اذا بلغوا منطقة الرجيع — وهو ماء لهذيل — تأمروا مع بني لحيان وهجموا على هذه الثلة، فهبوا للدفاع عن انفسهم فقتلوا في معركة غير متكافئة وأسر المشركون اثنين منهم، ثم خرجوا بهم الى مكة وباعوهم الى ذوي قتلى بدر، فقتلها مشركو مكة قتلة فجيعه^٤.

١ - الواقدي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٤٢.

٢ - المصدر السابق، ص ٣٤٣ - ٣٤٠؛ محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٥٠.

* - هناك اقوال اخرى بأنهم كانوا ستة او سبعة. (ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ١٧٨؛ ابن شهر آشوب، مصدر سابق،

ج ١، ص ١٩٤؛ الواقدي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٥٥).

٣ - الواقدي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٥٤ - ٣٦٢؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ٥٥ - ٥٦؛ ابن هشام، مصدر سابق،

ج ٣، ص ١٧٨ - ١٩٢؛ ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ص ١٩٤ - ١٩٥؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ٢٠، ص ١٥١ - ١٥٢.

٢٣٨..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

ويبدو ان القبيلتين المذكورتين كانتا تتآمران سراً مع مشركي مكة، وقد استغلوا تلك الظروف واقتربوا مثل هذه الخيانة.

٣. حادثة بئر معونة:

وقعت هذه الحادثة في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة، وكانت اكثر بشاعة من حادثة الرجيع، وكانت على النحو التالي:

قدّم ابو براء — شريف قبيلة بني عامر — على رسول الله^١ في المدينة، فعرض عليه رسول الله^١ الإسلام، فلم يُسَلِّمْ ولم يبعد من الإسلام، واقترح على رسول الله ان يبعث جماعة من أصحابه الى أهل نجد ليدعوهم الى الإسلام رجاء ان يستجيبوا، فقال له رسول الله^١: اني اخشى عليهم أهل نجد. فقال ابو براء: أنا لهم جار. فبعث رسول الله سبعين رجلاً من قراء القرآن ومن خيار اصحابه.

ولما وصلوا الى بئر معونة بعثوا شخصاً منهم يحمل كتاب رسول الله الى عامر بن الطفيل، فلما أتاه لم ينظر في كتابه، بل عدا عليه فقتله. ثم انه استصرخ عليهم بني عامر، فأبوا ان يجيبوه الى ما دعاهم إليه بسبب ما كان من حوار أبي براء لهم. فاستصرخ عليهم قبائل من بني سُليّم، فأجابوه الى ذلك. فخرجوا وهجموا على تلك الثلة، فلما رأوهم اخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قُتلوا عن آخرهم الا كعب بن زيد، وعمرو بن أمية الضمري^٢.

وأما عمرو بن أمية — الذي أسره العدو ثم أطلق سراحه — فقد لقي في طريق عودته

١ - ورد في احد الاخبار انهم كانوا اربعين. (الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣٤؛ ابن هشام، سيرة النبي، ج٣، ص١٩٤؛ الواقدي، المغازي، ج١، ص٣٤٧).

٢ - الطبري، مصدر سابق، ج٣، ص٣٣ - ٣٤؛ الطبرسي، مجمع البيان، (شركة المعارف الاسلامية، ج٢، ص٥٣٣؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل ابي طالب (قم: المطبعة العلمية)، ج١، ص١٩٥ - ١٩٦؛ المجلسي، مصدر سابق، ج٢٠، ص١٤٧ - ١٤٨؛ الواقدي، مصدر سابق، ص٣٤٦ - ٣٤٨؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج٣، ص١٩٣؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص٥١ - ٥٣.

تشكيل القوى القتالية الإسلامية ٢٣٩

الى المدينة رجلين من بني عامر — كان معهما عقد من رسول الله وجوار، وهو لا يعلم به — فقتلهما^١.

غزوة بني النضير^٢

في اعقاب مقتل الرجلين من بني عامر (الذين كان لهما أمان من رسول الله) أثار ذلك العمل استياء الرسول^٣ فقال: بئس ما صنعت لقد قتلت قتيلين وكان لهما مني أمان وجوار لأدينهما^٤. وعلى صعيد آخر طالبت قبيلة بني عامر — في كتاب بعثته الى النبي — بديتهما^٥.

كان لبني عامر حلف وعهد مع بني النضير، لذلك قصدهم الرسول في جماعة من المهاجرين والانصار للاستعانة بهم في دفع الدية، وأتى قلعة لهم تقع على مقربة من المدينة، واخبرهم بتلك الواقعة، وقد اعلن بنو النضير موافقتهم على ذلك، ولكنهم بعثوا سرّاً شخصاً ليرمي على الرسول حجراً من فوق الجدار الذي كان يجلس النبي^٦ الى جانبه، وعلم النبي بهذه المؤامرة عن طريق الغيب^٧، فغادر الموضع ورجع الى المدينة، وانذرهم بالجللاء عن المدينة، وسمح لهم بأخذ اموالهم معهم، فشاع فيهم الخوف والرعب واستعدوا للجللاء، لكن عبد الله بن ابي دعام الى المقاومة ووعدهم بأن يمدّهم بالرجال فيما لو

١ - الطبري، مصدر سابق، ص ٣٤؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ١٩٥؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص ٥٣.

٢ - ذكر بعض المؤرخين وكتاب السير - وخلافاً للمشهور - بأن هذه الواقعة كانت قبل معركة أُحُد وكان لها سبب آخر.

وقد رجّح الاستاذ العلامة السيّد جعفر مرتضى العاملي هذا النقل. (الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج ٦، ص ٣٢ - ٤٤).

٣ - ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٥٣؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ١٩٥؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٣٥؛ الواقدي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٥٢.

٤ - الواقدي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٥٢ و ٣٦٤.

٥ - البيهقي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٣٥؛ الواقدي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٦٥، ٣٦٦؛ الطبرسي، اعلام الورى بأعلام الهدى (طهران: دار الكتب الإسلامية)، ص ٨٨.

٢٤٠..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

وقعت المعركة، ولو أنهم اخرجوا من المدينة فسيخرج هو معهم أيضاً^٢.

تشير بعض النصوص التاريخية على ان قريش كانت قبل هذه الحادثة تحرضهم لمحاربة المسلمين والتآمر عليهم^٣، ويبدو ان هذه الحادثة ثم تكن بمعزل عن ذلك التحريض.

خُذع بنو النضير بالوعود الكاذبة لعبد الله بن أبي، فامتنعوا عن الجلاء عن المدينة، فأمر الرسول^٤ جيش الإسلام فحاصر قلعتهم خمسة عشر يوماً، وخلال هذه المدة لم يأت أي جيش لنصرهم! فاضطروا الى النزول عند شروط النبي^٥، الذي أمرهم بترك سلاحهم، وحمل امتعتهم. فحملوا امتعتهم على الابل وغادروا المدينة حيث توجه قسم منهم الى اذرعاء في الشام، فيما توجه القسم الآخر ومنهم رئيسهم — حُيي بن أخطب — الى خيبر، حيث استقبلهم أهل خيبر بحفاوة وتكريم، واعلنوا ولاعهم وطاعتهم لرئيسهم^٦.

وبما ان بني النضير استسلموا بغير قتال ولا حرب، فقد أضحت اموالهم <خالصة>^٧ وبناءً على عقد المواخاة بين المهاجرين والانصار، قسم النبي^٨ تلك الاموال — بعد نيل موافقة الأنصار — على المهاجرين^٩.

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم خيانة ومصير بني النضير على النحو التالي:

{هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنْهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ

١ - سورة الحشر (٥٩)، الآية ١١؛ الطبرسي، مجمع البيان (طهران: شركة المعارف الاسلامية، ١٣٧٩هـ)، ج ١٠، ص ٢٦٤؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ٢٠، ص ١٦٥ و ١٦٩.

٢ - السهمودي، مصدر سابق، ج ١، ص ٢٩٨.

٣ - ابن هشام، سيرة النبي، ج ٣، ص ٢٠٣ - ١٩٩؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٩ - ٣٦؛ الواقدي، المغازي، ج ١، ص ٣٨٠ - ٣٦٣؛ البلاذري، انساب الأشراف، تحقيق: محمد حميد الله (القاهرة: دار المعارف)، ص ٣٣٩؛ راجع: السهمودي، وفاء الوفاء، ج ١، ص ٢٩٧ - ٢٩٨.

٤ - ابن هشام، مصدر سابق، ص ٢٠١؛ السهمودي، مصدر سابق، ص ٢٩٨؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ٢٠، ص ١٦٦ و ١٧٣.

٥ - السهمودي، مصدر سابق، ص ٢٩٩؛ ابن هشام، مصدر سابق، ص ٢٠١؛ الواقدي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٧٧؛ المجلسي، مصدر سابق، ص ١٧٢ - ١٧١.

تشكيل القوى القتالية الإسلامية ٢٤١

* وَلَوْ أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي
الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ١.

١ - سورة الحشر (٥٩)، الآيات ٢ - ٤. كان ابن عباس يُسمِّي سورة الحشر سورة بني النضير. (الطبرسي، مجمع البيان، ج ١٠، ص ٢٥٨).

معركة الخندق (الاحزاب)

وقعت هذه المعركة في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة^١. وقد بدأت المعركة بعدما التقى حُيي بن أخطب وبعض رؤساء بني النضير الذين لجأوا الى خير، وكذلك جماعة من قبيلة بني وائل، بقريش في مكة وحرصوهم على محاربة النبي^٢ ووعدوهم بتقديم كل انواع العون والدعم لهم.

وسألتهم قريش هل ديننا أفضل أم دين محمد؟ ومن الطبيعي ان اليهود موحدون، ولا ينبغي ان يؤيدوا عبادة الأصنام، الا اهتم أيدهم وقالوا: دينكم افضل من دين محمد، وانتم أقرب الى الحق.

فاطمأت قريش لكلامهم، وتهيأت للحرب. وقد ذم الله تعالى هذا الحكم العدائي على

النحو التالي:

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا}٢.

هذا الحكم الحاقد لزعماء اليهود كان بعيداً عن الانصاف والمنطق، حتى ان بعض اليهود اليوم يلومونهم على ذلك العمل. فقد كتب الدكتور اسراييل ولفنسون في كتاب تاريخ اليهود في بلاد العرب، ما يلي:

كان من واجب هؤلاء أن لا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش وان لا يصرحوا امام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام افضل من التوحيد الإسلامي، ولو ادى بهم الامر إلى عدم اجابة مطالبهم؛ لأن بني اسراييل كانوا يحملون راية التوحيد في العالم مدة قرون^٣.

وعلى اية حال فقد ذهب رؤساء اليهود الى قبيلة غطفان ودعوهم الى نصرتهم لمحاربة

١ - البلاذري، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٤٣؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٥؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٢٤.

٢ - سورة النساء (٤)، الآيات ٥١ - ٥٢.

٣ - محمد حسين هيكل، حياة محمد، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة ٨، ١٩٦٣م)، ص ٣٢٩.

تشكيل القوى القتالية الإسلامية ٢٤٣

المسلمين^١. وقد اعلنت ثلاثة بطون من هذه القبيلة استعدادها لهذا العمل، وهم بنو فزارة، وبنو مرة، وبنو أشجع^٢، كما انهم حصلوا على موافقة قبيلتي بني سُلَيْم وبني اسد^٣، كما ان قريش نجحت في اقناع حلفائها بالتعاون معها مثل ثقيف وبني كنانة^٤.

وهكذا فقد ظهر حلف عسكري قوي وجيش يبلغ عدده عشرة آلاف^٥.

وفي الطريق الى المدينة وعد حُيَي بن أخطب أبا سفيان بأن بني قريظة سيمدون جيش الأحزاب بسبعمئة من رجالهم^٦.

ونظراً للامكانيات الهائلة التي كُرست لأجل هذه الحرب، وما جُعل لها من العدة والعدد، فقد كان اشراف قريش واليهود يعتبرون هذه المعركة معركة مصيرية، واستقر رأيهم على ابادة المسلمين عن بكرة أبيهم.

وقد علم رسول الله بمسير جيش الأحزاب عن طريق تقرير سرّي بعثته إليه قبيلة خزاعة التي كانت تميل الى المسلمين^٧. وفي المداولات اللجنة العسكرية التي تشكلت بدعوة من الرسول، لم يقترح أحد الخروج من المدينة (ويبدو ان هذا جاء نتيجة لتجربة معركة أحد) واتفق الجميع على البقاء في داخل المدينة^٨.

كانت اطراف المدينة محاطة بموانع طبيعية كالمنازل وبساتين النخيل، وهي تحول دون

١ - وعدوا غطفان ان يجعلوا لهم تمر خبير سنة (البلاذري، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٤٣؛ الواقدي، مصدر سابق، ج ٤ ص ٤٤).

٢ - الطبري، مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٤؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٢٥.

٣ - محمد بن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٦؛ الواقدي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٤٣؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل ابي طالب (قم: المطبعة العلمية)، ج ١، ص ١٩٧؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ١٩٧.

٤ - البلاذري، مصدر سابق، ص ٣٤٣.

٥ - ابن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٦؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٦؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٣٠؛ السمهودي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٠١؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ٢٠، ص ٢٠٠.

٦ - الواقدي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٥٤.

٧ - الحلبي، انسان العيون (السيرة الحلبية) (بيروت: دار المعرفة)، ج ٢، ص ٦٣١.

٨ - الشيخ المفيد، الإرشاد (قم: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، الطبعة ١، ١٤١٣هـ)، ص ٩٦؛ ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ج ١، ص ١٩٧.

٢٤٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

دخول العدو الى داخل المدينة^١. وقد عرض سلمان الفارسي اقتراحاً بحفر خندق في المواضع التي تفتقد لمثل هذه الموانع الطبيعية، ليحول دون وصول العدو الى داخل المدينة^٢. وتم حفر الخندق سريعاً بفضل الجهود المتواصلة للمسلمين، والقيادة والمشاركة العملية والفاعلة للنبي^٣. وكان خندقاً عميقاً لا يمكن عبوره^٤.

وأمر الرسول فوضعت النساء والأطفال وغير العسكريين في قلاع وحصون داخل المدينة^٥، وأما الجيش الذي يقدّر عدد افراده — حسب القول المشهور — بثلاثة آلاف^٦ فقد اتخذ مواضعه بين الخندق وجبل سَلَع وجعل سَلَعاً وراء ظهره والخندق بينه وبين القوم^٧. كان قادة جيش الاحزاب يتوقعون ان يشتبكوا مع المسلمين خارج المدينة مثلما حصل في معركة أحد. ولكن ذلك لم يحصل. ولما شارفوا على المدينة وشاهدوا الخندق تعجّبوا واخذتهم الدهشة؛ لأن حفر الخنادق كحيلة حربية لم يكن معروفاً بين العرب^٨، لذلك

١ - الحلي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٣٦؛ الواقدي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٦.

٢ - البلاذري، مصدر سابق، ص ٣٤٣؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٦؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٤؛ ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ج ١، ص ١٩٨؛ الطبرسي، اعلام الوري، ص ٩٠؛ المجلسي، بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٢١٨.

٣ - ذكر ابن سعد ان الخندق حُفِر في ستة أيام (الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٦٧). ويرى البروفسور محمد حميد الله - وهو عالم مسلم معاصر - زار مواضع حروب الرسول مع اعدائه عن كتب عدّة مرّات ولاحظها من جميع الأوجه، ان الخندق حفر على شكل حرف N وبلغ طوله خمسة كيلو مترت ونصف. راجع: الرسول القائد، ص ١١٣ - ١١٤. ويبدو ان أساس هذه الحسابات هو ان عدد جيش الاسلام كان يبلغ ثلاثة آلاف، وعند حفر الخندق قسموا الى مجموعات يبلغ عدد افراد كل منها عشرة اشخاص، وحفرت كل مجموعة منهم أربعين ذراعاً. (الطبري، مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٥؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ٢٠، ص ١٩٨) فكان سهم كل واحد منهم أربعة أذرع، فكان المجموع ما يقارب ستة آلاف متر (= ٦ كيلو متر).

٤ - ابن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٧؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٦؛ الحلي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٣٦.

٥ - ابن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٦؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٦؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٣١؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ٢٠، ص ٢٠٠؛ السمهودي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٠١.

٦ - البلاذري، مصدر سابق، ص ٣٤٣؛ محمد بن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٦؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٣١؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٦؛ السمهودي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٠١.

٧ - البلاذري، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٤٣؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٨؛ ابن واضح، تاريخ يعقوبي، (النجف: المكتبة الحيدرية، ١٣٨٤هـ)، ج ٢، ص ٤١؛ الحلي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٣٦ - ٦٥٧.

اضطروا الى ان يعسكروا وراء الخندق ويحاصروا المدينة.

استمرت محاصرة المدينة مدة تقارب عشرين يوماً، كان الطرفان اثناءها يترامون بالسهم، وكان فرسان قريش يقومون بحركات عسكرية وصولات وجولات بهدف بث الرعب والخوف في نفوس المسلمين^١.

وعاش المسلمون ظروفاً عصيبة بسبب محاصرة المدينة من قبل العدو. وسادت المدينة اجواء يملؤها الترقب والحذر، وهو ما صورته الله تعالى في القرآن الكريم بقوله:

{اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا {١}.

غدر بني قريظة

وفي هذه الاثناء وقعت حادثة اخرى جعلت وضع المسلمين اكثر حرجاً وصعوبة، وذلك ان قبيلة بني قريظة نقضت ما كان بينها وبين النبي^١ من معاهدة عدم اعتداء واعلنت وقوفها الى جانب جيش الاحزاب، وجاءت خيانة هذه القبيلة بتأثير من حُيي بن أخطب^٢. وقد ادى شيوع خبر هذه المؤامرة الى النيل من معنويات الكثير من المسلمين، ولكن الرسول^٣ كان يحاول افشال تلك التأثيرات السيئة وازالة مفعولها.

ولم يكتف بنو قريظة بنقض العهد وانما ارتكبوا عمليتين خيانتين آخريين كبيرين، هما: تزويد جيش الاحزاب بالطعام والميرة بعدما كانوا في ضيق وقلة من الطعام، وقد صادف المسلمون ذات مرة في منطقة قبا قافلة مرسلة من بني قريظة الى جيش الاحزاب وكانت

١ - ابن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٧؛ الحلي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٣٦ - ٦٣٧.

٢ - سورة الاحزاب (٣٣)، الآيات ٩ - ١١.

٣ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ٦٧؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٣١؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٦-٤٧؛ السهمودي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٠٣؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ٢٠، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

٢٤٦..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

محمّلة بالتمر والشعير والعلف، فاستولوا عليها^١؛ والعمل الآخر هو بث الرعب والخوف في معازل النساء والمدنيين من خلال ارتكاب مجموعة من العمليات التي تثير الرهبة وترزع الخوف. وقد تسلل احدىهم ذات مرّة الى داخل الحصن فقتلته صفية عمة النبي^٢. وذات ليلة عزم بنو قريظة على الاغارة على مركز المدينة، وبعثوا حُيي بن أخطب الى قريش طالبين ان يمدّوهم بألف رجل من قريش وألف رجل من غطفان ليساعدوهم على تنفيذ هذا الهجوم، وبلغ الرسول خبر هذه التحركات، وشاعت على اثر ذلك في المدينة اجواء من الخوف والرعب، فانتدب الرسول خمسمائة فارس لحماية المدينة، فكانوا يجولون من الليل حتى الصباح وهم يهتفون ويكبّرون، ويجرسون المواضع التي فيها النساء والمدنيين^٣.

عوامل فشل جيش الاحزاب

ورغم كل هذه الصعوبات، كانت هناك — اضافة الى حفر الخندق — عدّة امور مهمّة جعلت الوضع يسير لصالح المسلمين، مما ادى في نهاية الأمر الى فشل جيش الاحزاب؛ ويمكن تلخيص تلك الاسباب والامور بما يلي:

١- الاختلاف بين بني قريظة وجيش الاحزاب

كان نعيم مسعود من قبيلة غطفان وقد أسلم حديثاً، وقد استأذن الرسول — الذي كان يجيز الخدعة في الحرب^٤ — ليمارس هذه الخدعة ويفرّق شمل القوم. فأتى الى بني قريظة وحديثهم عن سابق علاقته بهم ومودّته لهم، فلامهم على نقضهم الحلف مع النبي^١، وبيّن لهم ان قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم، وانما جاءوا على ظهور دوابهم، فإن اصابوا من

١ - السهمودي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٠٤؛ الحلبي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٤٧.

٢ - البلاذري، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٤٧؛ الواقدي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٦٣ - ٤٦٢؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٣، ص ٥٠؛ السهمودي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٠٢.

٣ - الواقدي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٦٠؛ الحلبي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٣٦. نقل عن ابي بكر انه كان يتذكر معركة الاحزاب ويشير الى خيانة بني قريظة ويقول: لقد خفنا على الذراري بالمدينة من بني قريظة اشد من خوفنا من قريش وغطفان. (الواقدي، مصدر سابق، ص ٤٦٠).

٤ - الحرب خدعة.

تشكيل القوى القتالية الإسلامية ٢٤٧

الني^١ ما ارادوا والا انصرفوا عنه. وانتم تعلمون ان لا طاقة لكم به وبأصحابه إن خلا بكم. ثم اقترح عليهم ان لا يقاتلوا الا بعدما يأخذوا رهائن من اشراف قريش وغطفان، يكونون بأيديهم ثقة لهم ان لا ينصرفوا عنهم ويدعوهم.

ثم أتى الى رؤساء قريش وغطفان وابلغهم بأنه اطلع على سر لبي قريظة وهو انهم قرروا ان يأخذوا من اشرافهم رجالاً يسلموهم الى محمد تعبيراً عن حسن نيتهم معه، ثم حذرهم قائلاً: فاياكم ان يخذلكم اليهود أو يظفروا بأحد منكم. فحققت هذه الخطة غرضها، واستوحش بعض القوم من بعض وتنافرت قلوبهم، وانفرط عقد تحالف الاحزاب^١.

٢- قتل عمرو بن عبد ود

واجهت قريش ضغوطاً من ثلاثة جوانب اضطررها الى الاسراع بانتهاء الحرب؛ الأول: نفاد ما كان لديهم من الأطعمة بسبب طول مكوثهم. الثاني: البرد التدريجي الذي طرأ على الجو بحيث ان الخيم كانت لا تفي لوقايتهم من البرد. الثالث: اقتراب حلول شهر ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم، وان لم يبادروا الى انتهاء الحرب في شهر شوال كان ينبغي عليهم تأخيرها لثلاثة اشهر متوالية^٢؛ ولهذا قرروا كسر حالة الجمود التي وصلت اليها الحرب بأي ثمن كان، وعلى هذا الأساس فقد اطلق خمسة من فرسان جيش الاحزاب اعنة خيلهم وعبروا الى الجانب الآخر من الخندق من خلال موضع ضيق^٣، واخذوا يدعون من يخرج الى مبارزتهم، وكان احدهم الفارس العربي المعروف عمرو بن عبد ود الذي كان يُعرف بفارس قريش، وفارس ليليل^٤؛ فبعدهما عبر الخندق نادى <هل من مبارز؟>

١ - ابن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٩؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٤٠؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٣، ص ٥١ - ٥٠؛ الحلبي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٥٠؛ السهودي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٠٤؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ٢٠، ص ٢٠٧.
٢ - محمد حميد الله، الرسول القائد، ص ١٢٨.

٣ - ابن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٨؛ الواقدي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٧٠؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٨؛ الشيخ المفيد، الإرشاد (قم: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، الطبعة ١، ١٤١٣هـ-)، ص ٩٧؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ٢٠، ص ٢٠٣.

٤ - سُمي بهذا الاسم لأنه انتصر بمفرده على جماعة من أعدائه في موضع اسمه ليليل. (بحار الانوار، ج ٢٠، ص ٢٠٣). كان عمرو قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهد يوم أحد. فلما كان يوم الخندق خرج مُعلماً ليرى مكانه. (ابن هشام، السيرة

٢٤٨..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

ولكن لم يبرز له احد من جيش المسلمين^١، وكرر النداء عدّة مرات. وفي كل مرّة كان علي^٢ هو الشخص الوحيد الذي ينهض ويستأذن الرسول للقتال؛ وفي المرة الاخيرة خرج إليه علي باذن من الرسول، وعندما خرج علي قال رسول الله^٣ :

<خرج الإسلام كله الى الشرك كله>^٢.

وقتل علي عمرو^٤ في مبارزة بطولية فريدة من نوعها، وأما الفرسان الاربعة الآخرون الذين عبروا معه الخندق وبقوا ينتظرون نتيجة برازه مع علي فقد فرّوا ليعبروا الخندق، فطفرت بهم خيلهم الا واحداً منهم فأنه قصر فرسه فوقع في الخندق فرماه المسلمون بالحجارة وقتلوه^٣.

وقال رسول الله^٥ في الثناء على هذه الشجاعة العظمى لأمر المؤمنين^٤ :

لو وزن اليوم عملك بعمل امة محمد، لرجح عملك بعملهم؛ وذلك انه لم يبق بيت من بيوت المشركين الا وقد دخله وهن بقتل عمرو، ولم يبق بيت من بيوت المسلمين الا وقد دخله عز بقتل عمرو^٥.

ونقل احد علماء أهل السنّة — وهو المحدث الكبير الحاكم النيسابوري — ان رسول الله^٦ قال:

<لمبارزة علي بن ابي طالب لعمر بن عبد ود يوم الخندق افضل من اعمال امتي الى يوم القيامة>^٥.

النبوية، ج ٣، ص ٢٣٥؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٤٨؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ١٨١).

١ - الواقدي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٧٠؛ ابن ابي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم (دار احياء الكتب العربية، ١٩٦٤م)، ج ١٣، ص ٢٩١ و ١٩٠، ص ٦٣؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ٢٠، ص ٢٠٣.

٢ - ابن ابي الحديد، مصدر سابق، ج ١٩، ص ٦١؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ٢٠، ص ٢١٥.

٣ - البلاذري، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٤٥؛ محمد بن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ٦٨؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٣، ص ٢٣٦؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٣، ص ٤٨؛ السمعاني، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٠٣.

٤ - ابو الفتح محمد بن علي الكراچكي، كنز الفوائد (قم: دار الذخائر، ١٤١٠هـ)، ج ١، ص ٢٩٨؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ٢٠، ص ٢٠٥، ٢١٦.

٥ - المستدرک علی الصحیحین، تحقیق: عبد الرحمن المرعشي (بيروت: دار المعرفة، الطبعة ١، ١٤٠٦ق)، ج ٣، ص ٣٢.

وبعد مقتل عمرو دب الرعب في جيش الاحزاب، فانهزموا اجمعين وتفرقوا خائفين وظهرت وهمت كل قبيلة بالرجوع الى موطنها.^١

٣- الامداد الغيبي

كانت الضربة القاضية التي نزلت بمعسكر المشركين عبارة عن مدد غيبي، حيث سلط الله عليهم ريحاً باردة وعاصفة شديدة اقتلعت خيامهم حتى تعذر عليهم المكوث، فأمرهم ابو سفيان بالعودة الى مكة^٢.

وقد ذكر الله تعالى هذا النصر في كتابه الكريم، وهو قوله:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا}، {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا}^٣.

رغم كل الامكانيات الهائلة التي وظفها قادة الاحزاب لهذه الحرب، ومع كل هذه الاعداد التي حشدوها، الا ان نتائجها كانت مريعة عليهم؛ اذ اهم لم ينالوا من المدينة شيئاً ولم يضرّوها ولا هم ضمنوا سلامة طريق تجارهم الى الشام.

وانكسرت زعامة ابي سفيان وذهبت هيبة قريش وأبتهتها. ومن بعد هذه المعركة انتقل المسلمون من حالة الدفاع الى حالة الهجوم؛ فقال رسول الله^٤ : <الآن نغزوهم ولا يغزونا>^٥ وهذا هو ما حصل لاحقاً.

١ - الكراحي، مصدر سابق، ص ٢٩٩.

٢ - البلاذري، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٤٥؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ٧١؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٣، ص ٥٢ - ٥١؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل ابي طالب، ج ١، ص ١٩٨؛ الطبرسي، اعلام الوري، ص ٩٢؛ السمهودي، مصدر سابق، ج ١، ص ٣٠٥؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ٢٠، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

٣ - سورة الاحزاب (٣٣)، الآيات ٩ و ٢٥.

٤ - الشيخ المفيد، الإرشاد، ص ١٠٦؛ صحيح البخاري، تحقيق: الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي (بيروت: دار القلم، الطبعة ١٤٠٧هـ)، ج ٥، ص ٢١٥؛ كتاب المغازي، الباب ١٤٦، الحديث ٥٩٣؛ الطبرسي، مجمع البيان، ج ٨، ص ٣٤٥؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ٢٠، ص ٢٠٩.

٢٥٠..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

كان شهداء المسلمين في هذه المعركة ستّة شهداء^٢، وقُتل فيها من المشركين ثلاثة^٣.

غزوة بني قريظة

ومن بعد جلاء الاحزاب عن المدينة، أمر النبي^١ بالبت في قضية بني قريظة وحسم أمرهم، فأمر جيش المسلمين بالتحرك من ساعته، فحاصر عصر ذلك اليوم قلعة بني قريظة، فاتخذ بنو قريظة مواضعهم في قلعتهم، وأخذوا يرمون المسلمين بالنبال ويشتمون النبي^٢. وبعد خمسة وعشرين يوماً من الحصار اضطروا الى النزول عند حكم رسول الله، وطلبت الأوس — وكانوا حلفاءهم — من رسول الله ان يحكم فيهم مثل حكمه في يهود بني قينقاع (حلفاء الخزرج). فجعل رسول الله الحكم فيهم الى سعد بن معاذ. وقبل الأوس وبني قريظة هذا الرأي. وعندما اوكلت هذه المهمة الى سعد بن معاذ كان المتوقّع منه ان يحكم لصالح بني قريظة بناءً على ما تقتضيه السنن والعادات الجاهلية والقبلية، الا انه لم يخضع لآراء ابناء قبيلته فيهم واعلن لهم بآئه لن تأخذه في الله لومة لائم. وبعد نيل موافقة الطرفين، حكم بقتل الرجال وسي النساء والذرية وتقسيم اموالهم، ونفذ فيهم الحكم. وكان حُيي بن اخطب — الذي حرضهم على نقض عهدهم مع المسلمين، ضمن القتلى؛ وذلك لأنه وعد بني قريظة بأنه سيقف الى جانبهم، ولو اثم هزموا سيلقى ذات مصيرهم.

وفي اللحظات الاخيرة، عندما توجهوا إليه باللوم والتقريع أبي ان يعترف بآئمه ويعلن ندمه؛ وانما علّله بانه قدر كتبه الله عليهم. وقال لرسول الله^٣: <ما لّت نفسي في عداوتك، ولكن من يخذل الله يخذل>. ثم اقبل على الناس فقال: <لا بأس بأمر الله، قدر وكتاب، ملحمة كُتبت على

١ - ابن واضح، تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٤٢؛ الواقدي، المغازي، ج٢، ص٤٩٢؛ ابن هشام، سيرة النبي، ج٣، ص٢٦٤؛ الطبري، مصدر سابق، ج٣، ص٥٨؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل ابي طالب، ج١، ص١٩٨. وجاء في مصادر اخرى ان عدد شهداء هذه المعركة اكثر من هذا. راجع: تاريخ بيايمر اسلام، محمد ابراهيم آيتي (طهران: مؤسسة انتشارات وجاب جامعة طهران، ١٣٦١)، ص٣٧٢.

٢ - الواقدي، مصدر سابق، ج٢، ص٤٩٦؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج٣، ص٢٦٥؛ الطبري، مصدر سابق، ج٣، ص٥٩؛ ابن شهر آشوب، مصدر سابق، ج١، ص١٩٨. ذكر اليعقوبي ان عدد قتلى العدو ثمانية (ج٢، ص٤٢).

بني اسرائيل^١.

ثم بعث رسول الله أحد المسلمين بسبايا من سببايا بني قريظة الى نجد فابتاع لهم بها خيلاً وسلاحاً^٢. ووصف القرآن الكريم خاتمهم المريّة بما يلي:

{وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّغْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطُوعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا^٣}.^٤

نقد وتحليل

هناك اختلاف بين المؤرخين حول تفاصيل هذه القضية (مثل عدد المحاربين من بني قريظة، أو عدد من نفذوا أمر القتل)، الا ان أصل هذه القضية كان مشهوراً ومسلماً به عند المؤرخين منذ القدم، ولا بأس ان نستعرض في ما يلي رأيين حول هذا الحكم:

١- انتقد بعض الكتاب الاوربيين هذا الموقف ازاء بني قريظة ووصفوه بأنه وحشي وغير انساني^٥، الا ان هذا النقد لا يمكن قبوله في ضوء الجرائم التي اقترفها بنو قريظة؛

١ - للاطلاع على مزيد من التفاصيل حول هذه الغزوة، راجع المصادر التالية: الطبقات الكبرى، ج٢، ص٧٤ - ٧٨؛ تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٥٣ - ٥٨؛ المغازي، ج٢، ص٤٩٦ - ٥٢٤؛ السيرة النبوية، ج٣، ص٢٤٤ - ٢٦١؛ وفاء الوفاء، ج١، ص٣٠٥ - ٣٠٩؛ بحار الانوار، ج٢٠، ص٢٣٣ - ٢٣٨.

٢ - ابن هشام، سيرة النبي، ج٣، ص٢٥٦؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٥٨. وارسل النبي جماعة منهم مع سعد بن عبادة الى الشام لهذا الغرض أيضاً. وللإطلاع على مزيد من المعلومات حول معركة الاحزاب وغزوة بني قريظة، اضافة الى المصادر المذكورة، راجع: الميزان في تفسير القرآن، ج١٦، ص٢٩١ - ٣٠٣.

٣ - سورة الاحزاب (٣٣)، الآيات ٢٦ - ٢٧.

٤ - مونتغمري واط، محمد في المدينة، تعريب: شعبان بركات (بيروت: منشورات المكتبة العصرية)، ص٣٢٧. ضم مؤلف هذا الكتاب صوته الى اصوات الكتاب الاوربيين، وطعن في الحكم الصادر ضد بني قريظة. ورغم انه يكشف بصراحة عن الخيانة الكبرى التي اقترفها بنو قريظة ويقول: <في معركة الخندق وحصار المدينة ضاقت الامور على المسلمين، وكان خطر انضمام بني قريظة الى الجيش المهاجم أمراً محتملاً جداً، ومنى ما وقع فانه كان سيؤدي إلى هزيمة المسلمين بكل تأكيد، بل كان من المحتمل جداً ان يؤدي إلى القضاء على الدعوة المحمدية قضاء تاماً...> ولكنه رغم كل ذلك يضيف: <كان ينبغي [!] ان يكونوا موضع رافة وتسامح محمد> <مصطفى حسين الطباطبائي، خيانت در گزارش تاريخ، (طهران: انتشارات جانخش، الطبعة ١،

٢٥٢..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

فهؤلاء القوم لم يكتفوا بنقض العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله، وانما قاموا بعمليات الترويع وبث الرعب والخوف في داخل المدينة، وزوّدوا الاحزاب بما كانوا يحتاجون إليه من الطعام والعلف؛ أي انهم في الواقع قد دخلوا في الحرب عملياً بدعمهم المالي للاحزاب؛ ونحن نعلم بأن مثل هذه الاعمال في وقت الحرب لا يمكن التغاضي عنها عند أي شعب أو قوم، ولا بد من معاقبة فاعليها بأشد العقوبات.

واضافة الى ذلك كان بإمكان رسول الله معاقبتهم استناداً الى الحلف الذي كان قد عقده معهم، ولكنه استجاب لطلب الأوس وأحال الحكم من باب الرفق بهم الى سعد بن معاذ، وحظي رأيهم بقبول الأوس وبني قريظة، وعلى هذا الأساس لا يبقى هناك أي مبرر للاعتراض.

وفضلاً عن ذلك فهناك سؤال يتبادر الى الأذهان وهو: متى واين ومع من ينبغي استخدام اللين والرفق؟ وهل الذي لا يحمل من الانسانية الا صورة الانسان، ويسحق جميع القيم الانسانية، ولا يلتزم بأي عهد او ميثاق، ويطفح الحقد والعناد والعداء من كل كيانه، هل يستحق العفو والمداراة؟! ألم يُعامل يهود بني النضير بزعامه حيي بن أخطب برفق؟ ولكنهم لم يكفّوا عن التآمر، بل دخلوا في الحرب ضد المسلمين. وهل هناك ما يضمن عدم تكرار الممارسات السابقة على يد حيي بن أخطب وكعب بن اسد، وأنهما لن يعملوا على تجهيز جيش ضخم آخر للقضاء على الإسلام والمسلمين؟ والا تعني الرأفة بأمثالهما رأفة بذئاب كاسرة؟!

في الأيام التي كانت فيها المدينة تحت حصار الاحزاب، بعث ابو سفيان الى رسول الله^١ رسالة تهديد جاء فيها: <فاني أحلف باللات والعزى، لقد سرتُ إليك في جمعنا، وانا نريد ان لا نعود اليك ابداً

١٣٦٦هـ. ش)، ج٣، ص١٦٤ - ١٦٥ >.

١ - كشفت المفاوضات السرية لبني قريظة في الأيام الاخيرة للحصار - كالرأي الذي عرضه كعب بن اسد ودعا فيه الى قتل النساء والاطفال ثم التفرغ لمحاربة المسلمين -، وكذلك اعمالهم وردود افعالهم عندما كانوا على مشارف القتل، ذروة عنادهم وقسوتهم، كما حصل بالنسبة الى احدهم بعدما وافق النبي على العفو عنه وعن زوجته واولاده بناءً على طلب أحد المسلمين، لكنه أصر على عناده وفضل الموت على الحياة! (ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣، ص٢٥٣ - ٢٥٤).

تشكيل القوى القتالية الإسلامية ٢٥٣

حتى نستأصلك، فان نرجع عنكم فلكم منا يوم كيوم
أحد، تُبقر فيه النساء^١. ولو حصل مثل هذا الوضع، ألن يتعاون بنو
قريظة مع جيش الاحزاب مرة أخرى؟

ولو تجاوزنا ذلك فان حكم سعد يتطابق مع ما جاء في تعاليم التوراة، ولعله كان على
معرفة بأحكامهم الجزائية بحكم تحالفه معهم وعلاقته الوثيقة بهم. فقد ورد في التوراة ما
يلي:

واذا تقدّمت الى مدينة لتقاتلها فادعها أولاً الى السلم، فاذا اجابتك بالسلم وفتحت لك
ابوابها، فكل القوم الذي فيها يكون لك تحت السخرة ويخدمك، وان لم تسلمك بل
حاربتك، فحاصرتها، واسلمها الرب إلهك الى يدك، فاضرب كل ذكر بحد السيف، واما
النساء والاطفال والبهائم وجميع ما في المدينة من غنيمة، فاغتنمها لنفسك، وكل غنيمة
اعدائك التي اعطاك الرب إلهك اياها^٢.

وقد انكر أحد الباحثين المعاصرين عقوبة بني قريظة، ورأى — استناداً الى بعض الأدلة
والقرائن — بأنه من المستبعد ان تصدر مثل هذه العقوبة الصارمة من النبي^٣، ومثل هذا
الكلام يُعدُّ بمثابة نوع من الدفاع في مقابل انتقادات بعض الكتاب الاوربيين أو ضد
الهجمات الاعلامية للصهيانية. ولكن ما كتبه بعض الباحثين في نقد هذه النظرية^٤ يظهر ان
الادلة التي استندت إليها غير كافية، لاسيما وان هذا الاستدلال لم يلتفت الى الآية ٢٦ من
سورة الاحزاب، التي تتحدث عن وقوع هذه الحادثة. وفضلاً عن ذلك لا يوجد في

١ - الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٤٩٢.

٢ - التوراة، ترجمة ولیم کلن قیسس إکسی، (لندن، ١٣٢٧ هـ). سفر المثنى، الفصل العشرون. للاطلاع على مزيد من
المعلومات حول مستمسكات سعد في هذا الحكم، راجع: جعفر سبحاني، فروغ ابدیت، ج ٢، ص ١٥٤ - ١٥٧؛ مصطفى
الحسيني الطباطبائي، خیانت در گزارش تاریخ، ج ٣، ص ١٦١ - ١٧٣.

٣ - السيد جعفر شهیدی، تاریخ تحلیلی اسلام تا پایان امویان (طهران: مرکز النشر الجامعي، الطبعة ٦، ١٣٦٥ هـ. ش)،
ص ٧٥-٧٣.

٤ - السيد علي مير شريفی، نگرشی کوتاه به غزوه بني قريظة [لحّة على غزوة بني قريظة]، مجله نور علم، العدد ١١ و ١٣.

٢٥٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبيؐ

التاريخ أي اثر لبني قريظة من بعد معركة الاحزاب، ولو لم تكن هذه القضية صحيحة لتحدثت المصادر التاريخية عن شيء من اخبارهم واوليائهم بعد ذلك التاريخ.

غزوة بني المصطلق

وفي شهر شعبان من السنة السادسة^١ بلغ رسول اللهؐ ان الحارث بن ابي ضرار — رئيس بني المصطلق (رهط من خزاعة) — جمع ناساً من قومه وغيرهم وأخذ يحشد الجموع للهجوم على المدينة، فلما سمع رسول اللهؐ بهم جهّز جيشاً وخرج لهم حتى لقيهم على ماء لهم يُقال له المريسيع^٢ في المنطقة الساحلية المجاورة للبحر الاحمر، فتزاحف الناس واقتتلوا، فهزم الله بني المصطلق، واخذ المسلمون الكثير منهم أسرى وغنموا اموالهم^٣.

كانت جويرية بنت زعيمهم الحارث من بين الاسرى، وقدم أبوها الحارث بن ابي ضرار الى المدينة بفداء ابنته، ثم اتى الى النبيؐ. وكان النبيؐ قد اطلع عن طريق الغيب بأن هذا الرجل قد أخفى بعيرين من الابل التي جاء بها لفداء ابنته، فأخبره النبيؐ بخبر البعيرين اللذين غيبيهما، أسلم عند ذاك. وسلّموا له ابنته جويرية ثم خطبها رسول اللهؐ وتزوجها. واطلق المسلمون من كان في ايديهم من اسرى بني المصطلق اكراماً لرسول اللهؐ على اعتبار انهم صاروا أصهار رسول اللهؐ؛ ولهذا السبب عرفت جويرية بأنها اعظم النساء

١ - اعتبر بعض المؤرخين كالبلاذري، والواقدي، ومحمد بن سعد، هذه الغزوة من وقائع السنة الخامسة للهجرة، ولذا أدرجوها قبل معركة الاحزاب، وهناك قرائن تؤيد صحة رأيهم. (راجع: السيرة النبوية، ج٣، ص٣٠٢، هامش، وفاء الوفاء، ج١، ص٣١٤).

٢ - ولهذا السبب تُعرف هذه الغزوة أيضاً باسم غزوة مريسيع.

٣ - ابن هشام، مصدر سابق، ج٣، ص٣٠٨ - ٣٠٢؛ الطبري، مصدر سابق، ج٣، ص٦٦ - ٦٣؛ المجلسي، مصدر سابق، ج٢٠، ص٢٩٠ - ٢٨١.

٤ - ابن هشام، مصدر سابق، ج٣، ص٣٠٨؛ مفيد، الإرشاد (قم: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، الطبعة ١٤١٣هـ)، ص١١٩ - ١١٨؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل ابي طالب، (قم: المطبعة العلمية)، ج١، ص٢٠١.

بركة على قومها^١. ويمكن النظر الى هذا الزواج بأنه من زواجات رسول الله التي تمخّضت عنها نتائج ايجابية على الصعيد الاجتماعي، وجاءت — استناداً الى بعض المؤشرات — أبعد من كونها قضية شخصية.

حج العمرة

وفي السنة السادسة للهجرة عزم النبي^١ على التوجّه الى مكّة لأداء العمرة، إذ لم يتمكن المسلمون — منذ هجرتهم — ان يؤدّوا الحج أو العمرة. وكان هذا السفر الديني — اضافة الى ما فيه من جوانب معنوية — يتضمن نوعاً من الاستعراض الديني الذي ينطوي على تأثيرات اعلامية؛ وذلك لأنه يستقطب اهتمام زوار مكّة والحاضرين فيها من جهة، ويظهر مدى كثرة اصحاب النبي^١ من جهة اخرى؛ ويبيّن أيضاً بأن الحج والعمرة التي كانت شعائر دينية كبرى ومقدّمة عند المشركين، قد أقرّها الإسلام أيضاً وتعتبر فيه عبادة أيضاً. ومن الطبيعي ان لهذا الواقع تأثيره في استمالة قلوبهم ومشاعرهم. ولو حاولت قريش منعهم من أداء العمرة فستكون لهذا العمل انعكاسات سلبية عليها امام الرأي العام. فقريش التي كانت على الدوام صاحبة السدانة، كانت تدعو الى الحج وتستقبل الحجاج، وتعتبر ذلك منقبة لها؛ ولو منعت المسلمين اليوم من دخول مكّة فسيؤدّي ذلك الى سخط الناس عليها، وسيدرك الجميع ان هذا العمل ليس له من دافع سوى العناد ضد المسلمين^٢.

وسار رسول الله^١ في شهر ذي القعدة في الف وثمانمائة من أصحابه^٣ الى مكة، وقد أمر

١ - ابن هشام، مصدر سابق، ج٣، ص٣٠٨ - ٣٠٧؛ الواقدي، مصدر سابق، ج١، ص٤١١؛ الطبرسي، إعلام الوري (طهران: دار الكتب الإسلامية)، ص٩٤. ذكرت بعض المصادر التاريخية هذا الزواج على نحو آخر.

٢ - مثلما حصل حين منعت قريش المسلمين من دخول مكّة، حيث هدد أحد اشراف مكّة واسمه حليس بن علقمة بأن قريش اذا استمرت على هذا الموقف فسيجمع قبيلته لحرب قريش. (ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣، ص٣٢٦؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٧٥؛ محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص٩٦؛ الحلي، السيرة الحلبية، ج٢، ص٦٩٦).

٣ - الكليني، الروضة من الكافي (طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٣٦٢)، ص٣٢٢. ذكرت كتب التاريخ اعداداً مختلفة لمن رافق الرسول في وجهه هذا لأداء العمرة، فقليل: سبعمائة، ألف وثلاثمائة، ألف واربعمئة وخمسة وعشرون، ألف وستمئة، ألف وسبعمائة. (السيرة النبوية، ج٢، ص٦٨٩؛ المغازي، ج٢، ص٦١٤؛ الطبقات الكبرى، ج٢، ص٩٥، ٩٨؛ تاريخ الأمم والملوك،

٢٥٦..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

الرسول ان لا يحمل كل واحد من المسلمين من السلاح الا السيف (وهو ما كان يحمله كل مسافر في ذلك العصر) وأخذوا معهم البدن من المدينة لتعرف قريش انهم لا يريدون الحرب.

وبلغ قريش خبر مسير الرسول^١ وعزموا على منعه من دخول مكة، ثم ان قريشاً جمعت الجموع وخرجت إليه، فوقف الرسول في ارض الحديبية؛ وبعثت قريش الرسل الى النبي لتعرف الهدف من مجيئه الى مكة، وكان في كل مرة يقول لهم: <لم نأت لقتال وانما جئنا معتمرين>، ومع كل ذلك فقد منعهم قريش من دخول مكة ووصلت الامور الى طريق مسدود.

بيعة الرضوان

ثم ان رسول الله^١ بعث اليهم عثمان بن عفان، ليبين لقريش هدف الرسول من القدوم، وتأخر رجوع عثمان حتى اشيع بأنهم قتلوه^١؛ وعند ذاك جمع الرسول أصحابه عند شجرة وعقد وإياهم بيعة الثبات^٢، وبعد الانتهاء من البيعة بلغهم ان خبر مقتل عثمان لا صحة له. وبما ان هذه البيعة عقدت تحت شجرة، واعلن الله رضاه^٣ عن المشاركين فيها فقد سُميت بيعة الرضوان، وتُعرف أيضاً باسم بيعة الشجرة.

صلح الحديبية (الفتح المبين)

في اعقاب عودة عثمان بن عفان من قريش بغير نتيجة، بعثت قريش سهيل بن عمرو الى النبي^١، مفاوضاً وكان الشرط المسبق لأي تفاوض ومواعدة هو عودة رسول الله^١ في

ج ٣، ص ٧٢؛ السيرة النبوية، ابن هشام، ج ٣، ص ٣٣٢؛ مجمع البيان، ج ٩، ص ١١٠).

١ - المغازي، ج ٢، ص ٦٠٢.

٢ - ابن هشام، مصدر سابق، ص ٣٣٠؛ الطبري، مصدر سابق، ص ٧٨؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص ٩٧ - ٩٩؛ البلاذري، انساب الأشراف، ج ١، ص ٣٥٠؛ الطبرسي، أعلام الوري، ص ٩٦.

٣ - ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾، سورة الفتح (٤٨)، الآية ١٨.

تشكيل القوى القتالية الإسلامية ٢٥٧

ذلك العام^١؛ وبعد مداولات ومفاوضات اتفق الطرفان على عقد صلح عُرف باسم صلح الحديبية، وقد نصَّ على ما يلي:

- ١— الهدنة لمدة عشر سنين يأمن فيها الناس ويكفّوا بعضهم عن بعض.
- ٢— ان يرجع محمد وأصحابه في هذا العام، على ان يأتي مع اصحابه في السنة القادمة وتخرج قريش من مكة، ويبقى هو واصحابه فيها ثلاثة أيام يؤدون خلالها العمرة، بشرط ان لا يكون معهم سلاح الا سلاح المسافر وهو السيف^٢.
- ٣— اذا جاء احد من قريش بغير إذن وليه يرده النبي^٣ الى مكة، ومن أتى قريشاً من أصحاب محمد لا ترده قريش إليه.
- ٤— لكل قبيلة حرية الدخول في عهد محمد وعقده، أو الدخول في عهد قريش وعقدها. (وهنا وثبت خزاعة فقالوا: نحن ندخل في عهد محمد وعقده، ووثبت بنو بكر فقالوا: نحن ندخل مع قريش في عهدها وعقدها).
- ٥— ان لا يكون هناك إسلال ولا إغلال، وان تكون بين الجانبين عيبة مكفوفة^٤.
- ٦— ان يكون الإسلام ظاهراً بمكة ولا يكره احد على دينه، ولا يؤذى ولا يُعير^٥.
- ٧— من قدم مكة من اصحاب محمد حاجاً أو معتمراً أو تاجراً فهو آمن على دمه وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً الى مصر او الى الشام للتجارة فهو آمن على دمه وماله^٦.

١ - الطبري، مصدر سابق، ص ٧٨؛ ابن هشام، مصدر سابق، ص ٣٣١.

٢ - ووفقاً لهذه المادة أدى رسول الله (ص) والمسلمون العمرة في السنة السابعة للهجرة، وسميت عمرة القضاء.

٣ - الإسلال بمعنى السرقة الخفية، والإعانة على الغير، والإسلال الغارة الظاهرة. (ابن الاثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ٢، ص ٣٩٢). والظاهر بحسب السياق نفي اعانة أحد المتعاهدين على الآخر (الاحمدي المياحي، مكاتيب الرسول، ج ١، ص ٢٧٧).

٤ - الطبرسي، مصدر سابق، ص ٩٧؛ البلاذري، مصدر سابق، ص ٣٥٠ - ٣٥١؛ ابن هشام، مصدر سابق، ص ٣٣٢؛ الطبرسي، أعلام الوري، ص ٩٧؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ٢٠، ص ٣٥٢؛ وراجع: الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٩٧، ١٠١، ١٠٢.

٥ - الطبرسي، أعلام الوري، ص ٩٧؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٧٧؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ٢٠، ص ٣٥٠ و ٣٥٢.

نبوءة الرسول

وبعد الاتفاق على بنود الصلح، بدأ علي × بكتابة نصّه باملاء الرسول^١، ولكن مندوب قريش اعترض على كتابة بسم الله الرحمن الرحيم في أعلى الكتاب، وعلى كتابة عبارة <رسول الله> بعد اسم النبي محمد^١، وطال النقاش حول هذا الموضوع، وفي ختام الأمر اضطر رسول الله^١ — في ضوء ما ينطوي عليه هذا الصلح من مصالح — الى الموافقة على طلبهم، وقال لعلي الذي كره محو عبارة رسول الله: <فان لك مثلها تعطيها وانت مضطهد^١>؛ وقد تحققت هذه النبوءة عندما أصر معاوية على حذف عبارة <امير المؤمنين> من بعد اسم علي × اثناء قضية التحكيم في معركة صفين^٢.

نتائج صلح الحديبية

كان المسلمون لا يدركون الآثار والمعطيات الايجابية والبنّاءة التي ستحصل من وراء هذا الصلح في المستقبل^٣ فظهر البعض منهم مواقف متعنتة^٤، لكي يصرفوا رسول الله^١

١ - الطبرسي، مجمع البيان، ج ٩، ص ١١٨؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ٢٠، ص ٣٣٤، ٣٥٠. للاطلاع على مزيد من المعلومات حول معاهدة صلح الحديبية، راجع: مكاتيب الرسول، علي الأحمد المياحي، ج ١، ص ٢٧٥ و ٢٨٧؛ كتاب مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، تأليف محمد حميد الله، ص ٦٦ و ٦٨.

٢ - نصر بن مزاحم، مصدر سابق، ص ٥٠٩ - ٥٠٨؛ الطبرسي، مصدر سابق، ص ٩٧؛ ابن واضح، تاريخ اليعقوبي، (النحف: المكتبة الحيدرية، ١٣٨٤هـ.)، ج ٢، ص ١٧٩؛ ابو حنيفة الدينوري، الاخبار الطوال، تحقيق: عبد المنعم عامر (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠م) ص ١٩٤؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ (بيروت: دار صادر)، ج ٣، ص ٣٢، الحلبي، مصدر سابق، ص ٧٠٨.

٣ - المجلسي، مصدر سابق، ج ٢٠، ص ٣٥٠.

٤ - الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٦٠٧؛ ابن هشام، سيرة النبي، ج ٣، ص ٣٣١؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، ص ٩٧؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ج ٢، ص ٧٠٦. المخالفة الصريحة التي ابداهها بعض المسلمين للارادة الجادة للنبي في هذه الواقعة تدل على نوع من الرأي الذاتي والاجتهاد في غير موضعه في مقابل أمر النبي (ص) الذي هو في الواقع أمر الله. هذا النوع من الاعمال التي تكررت لاحقاً عدّة مرات من قبل عدد من أصحاب النبي (ص) كانت مصدراً لعدد من الحوادث المريعة والمشاكل في تاريخ الاسلام. في حين ان الاسلام يقتضي من المسلم الطاعة والامتثال والتسليم لأمر الله وأمر الرسول، كما قال تعالى في كتابه الكريم:

عن امضائه؛ ولكن الامور سارت مثلما كان يتوقع رسول الله، ونتجت عن هذا الصلح معطيات وآثار سياسية واجتماعية متعددة، نورد قسماً منها في ما يلي:

١- الاعتراف الرسمي بالمسلمين من قبل المشركين وذلك من خلال توقيعهم لمعاهدة مشتركة معهم، بينما كان المشركون حتى ذلك الوقت لا يقيمون للمسلمين وزناً ولا يحسبون لهم حساباً، وحتى انهم كانوا بصدد القضاء عليهم.

٢- انهيار الجدار الحديدي الذي نشأ بين المشركين والمسلمين، ومالت جماعات كثيرة من المشركين الى الإسلام على اثر تردد الناس بين مكة والمدينة وما يجري عادة خلال ذلك من علاقات وحوارات حرّة بين الافراد من الفريقين وبعد سماعهم كلام المسلمين واستدلالهم، بحيث بلغ عدد من اسلموا بعد هذا الصلح الى حين فتح مكة، مثل عدد من اسلموا قبل ذلك أو زاد عليه^١.

ويكفي ان نعلم في هذا المجال بأن عدد من رافقوا الرسول^١ في سفره هذا لا يتجاوز ألف وثمانمائة شخص، في حين زاد عدد جيش المسلمين بعد سنتين من ذلك التاريخ — أي عند فتح مكة — على عشرة آلاف. وفي ضوء هذا التغيير الواضح الذي حصل لصالح الإسلام قال الامام الصادق^٢: **«كفما انقضت تلك المدة حتى كاد الإسلام يستولي على اهل مكة»**^٣.

٣- كانت هجمات قريش العسكرية وأعمالها العدوانية لا تتيح للرسول فرصة الدعوة الى الإسلام في داخل وخارج جزيرة العرب، وبعد ابرام هذا الصلح تمكن الرسول من تطهير المناطق المجاورة للمدينة من الاعداء وارسال وفود وجماعات للدعوة الى مناطق مختلفة. وكما سنبين لاحقاً ان دعوة رؤساء وملوك العالم آنذاك الى الإسلام جاءت بُعيد صلح الحديبية.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ (سورة الاحزاب، (٣٣)، الآية ٣٦).

١ - ابن هشام، مصدر سابق، ج٣، ص٣٣٦؛ الطبري، مصدر سابق، ج٣، ص٨١؛ الحلي، مصدر سابق، ج٢، ص٧٢١.

٢ - الطبرسي، أعلام الوري، ص٩٨؛ المجلسي، بحار الانوار، ج٢٠، ص٣٦٣.

٢٦٠..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي

٤- هذا الصلح أدى - نوعاً ما - الى فتح مكّة؛ لأنه بموجب المادة الرابعة منه تركت للقبائل الاخرى حرية التحالف والانضمام الى قريش أو الى المسلمين، فتحالفت قبيلة خزاعة مع المسلمين. وقد نقضت قريش هذا الصلح عندما هاجمت خزاعة، ونتيجة لذلك أقدم النبي على فتح مكّة.

وعند ملاحظة الآثار والنتائج الباهرة التي نجمت عن هذا الصلح، يمكن اعتباره نصراً عظيماً للمسلمين؛ اذ نزلت سورة الفتح على النبي في طريق عودته من الحديبية الى المدينة، ووصف الله عز وجل هذا الصلح بـ <الفتح المبين>^٢.

١ - ابن سعد، مصدر سابق، ج٢، ص١٠٤ - ١٠٥؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج٣، ص٣٣٤؛ الطبرسي، إعلام الوري بأعلام

الهدى، ص٩٨؛ الحلبي، مصدر سابق، ص٧١٤.

٢ - ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾.

الباب الخامس

من الدعوة العالمية الى وفاة الرسول

الفصل الاول: الدعوة العالمية

الفصل الثاني: انتشار الإسلام

الفصل الثالث: حجة الوداع ورحلة الرسول (ص)

الفصل الاول

الدعوة العالمية

الرسالة العالمية للرسول

رغم ان الدين الإسلامي ظهر في بلاد الجزيرة العربية، وبين العرب، وكان النبي^١ نفسه من العرب، الا ان الإسلام لم يكن ديناً محلياً وخاصاً بالعرب وحدهم. والدليل على ذلك هو ان آيات القرآن الكريم لم تخاطب قريشاً ولا العرب وإنما جاء خطاب القرآن الى الناس. وفي الحالات التي أُريد فيها توجيه الكلام الى أتباع الإسلام وتكليفهم بواجبات جاء الخطاب باسم المؤمنين، وقد أعلن النبي^٢ منذ السنوات الأولى لبعثته، وحينما كان يدعو الناس الى الإسلام في مكة، أعلن بأن الدين الذي جاء به دين عالمي. وهناك عدد من آيات القرآن تحمل الرسالة العالمية بكل وضوح، ومن امثلتها ما يلي:

{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}¹.

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا}².

{وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ}³.

{إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ * لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا}⁴.

١ - سورة الاعراف (٧)، الآية ١٥٨.

٢ - سورة سبأ (٣٤)، الآية ٢٨.

٣ - سورة القلم (٦٨)، الآية ٥٢.

٤ - سورة يس (٣٦)، الآيتان ٦٩ - ٧٠.

٢٦٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}¹.

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}².

هذه الآيات كلها تقع ضمن السور المكيّة وتدل على ان شمولية دعوة الرسول كانت مطروحة منذ أيام الدعوة في مكّة. ورغم كل هذه الأدلة والشواهد الجلية، زعم بعض الاوربيين من امثال جولدزيهر بأن شمولية رسالة محمد طُرحت لاحقاً، وأما مبادئ تعاليمه الاولى فلم تكن تتجاوز حاجة بعض العرب في زمن حياته [!]^٣. وفي ضوء ما ذكرناه سابقاً يتّضح لنا خواء هذا الكلام، ولا نرى ضرورة لإطالة مناقشته.

بداية الدعوة العالمية

إذا كان رسول الله^١ لم يتوجّه في سنوات الدعوة في مكّة وفي اعقاب الهجرة ببضعة سنوات نحو نشر الإسلام خارج جزيرة العرب، فسبب ذلك يُعزى إلى الاعمال العدائية التي كان يقوم بها مشركو مكّة، واليهود والاعداء الآخرون. فهذه الاعمال العدائية لم تترك امامه فرصة القيام بهذا العمل، ولكن بعد ابرام صلح الحديبية، حيث أمن من خطر هجوم قريش، واستتب الاستقرار النسبي في المدينة، بعث في شهر ذي الحجة من السنة السادسة للهجرة أو في شهر محرم من السنة السابعة للهجرة كتباً ورسائل الى ملوك ورؤساء العالم يومذاك، دعاهم فيها الى الإسلام، وبعث في يوم واحد ستّة كتب بيد ستة من اصحابه الى كبار ملوك العالم آنذاك، وهم كل من:

النجاشي ملك الحبشة، وقيصر الروم، وكسرى ملك فارس، والمقوقس ملك مصر، والحارث بن ابي شمر الغساني حاكم الشام، وهوذة بن علي ملك اليمامة^٤.

وكانت هذه طليعة دعوته العالمية، ولم تقتصر الكتب التي بعثها الى ملوك العالم

١ - سورة التوبة (٩)، الآية ٣٣.

٢ - سورة الانبياء (٢١)، الآية ١٠٧.

٣ - جولدزيهر، محمد الغزالي، ص ٨٠ - ٧٩.

٤ - ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٦٢ - ٢٥٨.

ودعاهم فيها إلى الإسلام على الكتب الستة التي ذكرناها، وإنما كان رسول الله^١ قد أوفد إلى حين وفاته عدّة مبعوثين آخرين إلى بقاع أخرى من العالم^٢. وكان مضمون تلك الكتب متشابهاً وقد كُتبت بعبارات بسيطة، وبعيدة عن التكلّف، وصریحة، وقاطعة. ومن الطبيعي أن ردود أفعال ملوك العالم إزاء هذه الدعوة لم تكن على نحو واحد.

معركة خيبر

كانت خيبر تتألف من عدّة قلاع، وكان أهاليها يشتغلون بالزراعة وتربية الماشية، وكانت ذات أرض زراعية خصبة حتى سُميت <ريف طعام الحجاز>^٣. كان أهل خيبر ذوي نعم وفيرة وثراء، وفضل شاهد على ذلك كثرة الطعام والكراع والسلاح الذي صار بأيدي المسلمين من بعد سقوط قلاعهم. وكانت حصونهم وقلاعهم منيعة وحصينة وفيها من المقاتلين عشرة آلاف^٤. ولذا كانوا يعتبرون أنفسهم أقوى من أن يتجرأ المسلمون على محاربتهم^٥.

وكما مرّ علينا عند شرح غزوة بني النضير ومعركة الخندق، أن يهود خيبر كانوا ينتهزون كل فرصة لضرب الحكم الإسلامي الفتي، وتحوّلت خيبر إلى بؤرة دائمة للفتنة والتآمر ضد الإسلام؛ وكذلك انضم قادة بنو النضير في أعقاب هزيمتهم العسكرية في المدينة، إلى أهل خيبر وتكاتفوا معهم.

وفي السنة السادسة للهجرة، جمع سلام بن أبي الحقيق وهو من زعماء بني النضير وقد

١ - علي الأحدي المياجي، مكاتيب الرسول، ج ١، ص ٣١. ذكر ابن هشام أن مجموع كتبه عشرة (السيرة النبوية، ج ٤، ص ٢٥٤)، وقال اليعقوبي أنها بلغت ثلاثة عشر كتاباً (تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٦٦ - ٦٧) وقال المسعودي في كتاب التنبيه والإشراف (ص ٢٣٦ - ٢٣٧) أنها كانت ستة كتب، وذهب أحد الباحثين المعاصرين إلى أن مجموع كتب النبي (ص) كان اثنين وثلاثين كتاباً. (أحمد صابر الحمداني، محمد وزماداران، قم: دار العلم، الطبعة ٢، ١٣٤٦).

٢ - الواقدي، المغازي، تحقيق: مارسدن جونز، ج ٢، ص ٦٣٤؛ ابن هشام، سيرة النبي، ج ٤، ص ٣٦٠.

٣ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٦٣٧ - ٧٠٣. ذكر اليعقوبي أن عددهم كان عشرين ألفاً. (ج ٢، ص ٤٦).

٤ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٦٣٧.

٢٦٦..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

آلت إليه رئاسة يهود خيبر، جمع قبيلة غطفان وقبائل اخرى من المشركين، وأعد جيشاً قوياً لمحاربة المسلمين. وفي عقب اثارة هذه الفتن والقلاقل تم قتله على ايدي المسلمين، فاختار اهل خيبر أسير بن زارم^١ رئيساً لهم. وقد سعى هذا الآخر أيضاً الى معاداة الإسلام وتحريض هذه القبائل ضد المسلمين^٢.

وبادر رسول الله^٣ الى عمل اراد ان يزيل به الخصومات والعداوات السالفة، فوجه إليه وفداً على رأسهم عبد الله بن رواحة لاستمالته وكفّ عداوته، وبعدما كلموه وافق على السير معهم الى المدينة ومعه جماعة من اليهود، ولكن اسير ندم في الطريق وحاول الغدر بعبد الله بن رواحة وقتله، وبعدما اشتبك الفريقان قتله المسلمون هو وجماعته^٤ وبهذا اخفقت الجهود السلمية للرسول^٥.

وعلاوة على هذه المؤامرات والفتن بين أحد المؤرخين المعاصرين انه كانت هناك مخاوف ان يستعين الروم أو الفرس بيهود خيبر وان يحركوا في نفوسهم ثاراتهم القديمة ويذكروهم اخوانهم في الدين من بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع، ويعدّوا العدة للهجوم على المدينة^٦.

ومن هنا توجه الرسول^٧ — في اعقاب ابرام صلح الحديبية وضمنان عدم وجود مخاطر من الجنوب — على رأس ألف واربعمئة مقاتل في اوائل السنة السابعة للهجرة^٨ نحو الشمال لنزع سلاح يهود خيبر، وجعل مسير الجيش بحيث يقطع طريق الاتصال مع قبيلة غطفان القوية، التي كانت متحالفة مع أهل خيبر، وحال دون أي تعاون محتمل بين

١ - ورد اسمه على نحو آخر ايضاً وهو: يُسيرم بن رزام أو رازم. (ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤، ص٢٦٦).

٢ - ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص٩٢ - ٩١.

٣ - ابن هشام، مصدر سابق، ج٤، ص٢٦٧ - ٢٦٦.

٤ - محمد حسين هيكل، حياة محمد، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة ٨)، ص٣٨٦.

٥ - الواقدي، مصدر سابق، ص٦٨٩؛ محمد بن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر)، ج٢، ص١٠٧؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج٤، ص٣٦٤.

الدعوة العالمية ٢٦٧

هذين الفريقين^١. واعتمد جيش الإسلام مبدأ المباغثة وحاصر قلاع خيبر ليلاً، وادرك رؤساء اليهود الخطر المحيط بهم عند انبلاج ضوء النهار.

كانت معركة المسلمين مع أهل خيبر معركة غير متكافئة؛ وذلك لأنهم متحصنون بقلاع حصينة واغلقوا الابواب المؤدية الى داخل المدينة ووضعوا الحرس فوق رؤوس القلاع والاسوار، واخذوا يرمون النبل والحجارة فمنعوا وصول المسلمين الى اسوار القلاع، وجرح من المسلمين في حملة واحدة خمسون شخصاً^٢. وعلى صعيد آخر كان لديهم الكثير من مخزون الطعام، في حين ان المسلمين بدأت لديهم ازمة وشحة في الطعام. واخيراً بدأت القلاع تسقط الواحدة تلو الاخرى ولكن بصعوبة ومشقة، بيد ان آخر قلاعهم — وهي القلعة المعروفة باسم <قموص> وكان القائد فيها البطل اليهودي المعروف مرحب — بقيت صامدة وتقاوم، وظل المسلمون عاجزون عن فتحها. وفي احد الأيام دفع النبي^٣ الراية لأبي بكر، وفي اليوم التالي دفعها الى عمر، وجعل تحت امرتهما مجموعة من الجيش، الا انهما عادا الى معسكر جيش المسلمين من غير ان يحقق أي منهما أي انتصار^٣.

وعندما شاهد الرسول هذا الحال قال:

<لأدفعن الراية غداً الى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، ويفتح عليه>.

وبات اصحاب الرسول في تلك الليلة وكل واحد منهم يتمنى ان يدفع له رسول الله^٤ الراية غداً، وعند شروق الشمس نادى رسول الله^٥ اين علي؟ فقالوا له يا رسول الله ان في عينيه رمد، فدعا به وعالج عينيه بكرامة الهية، ودفع إليه الراية وقال له: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم الى الإسلام واخبرهم بما يجب عليهم من حق فيه، فوالله

١ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٦٣٩.

٢ - المصدر السابق، ص ٦٤٦.

٣ - الطبري، تاريخ الأمم والملوك (بيروت: دار القاموس الحديث)، ج ٣، ص ٩٣؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤، ص ٣٤٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية (بيروت: مكتبة المعارف، الطبعة ٢، ١٩٧٧م)، ج ٤، ص ١٨٦.

٢٦٨..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من ان يكون لك حمر النعم.^١
فسار علي X لتنفيذ تلك المهمة، وخاضَ مع مرحب مبارزة بطولية انتهت بقتل
مرحب، وفتح تلك القلعة الحصينة بكل بسالة.

ويلاحظ انه كانت هناك عدّة عوامل مؤثّرة في فتح خيبر وسقوط هذه البؤرة التي
كانت تُحاك منها المؤامرات والفتن، نذكر منها على سبيل المثال القيادة الصالحة للرسول
واساليه العسكرية (مثل مبدأ مباغتة العدو، واكتساب الاخبار والمعلومات من داخل
معسكرهم)، اضافة الى شجاعة علي X التي قلّما تجد لها نظيراً.

كانت تضحية علي X في هذه المعركة وبطولته وثناء الرسول^١ عليه، أمراً استقطب
الأنظار وصار حديثاً لكل مسلم، وبقيت هذه المآثر حيّة وماثلة في اذهان ذلك الجيل
سنوات طويلة وسجّلتها صفحات تاريخ ذلك العهد، بحيث ان معاوية بعدما استولى على
السلطة (وأشاع بدعة لعن علي) قال يوماً لسعد بن ابي وقاص: ما منعك ان تسب أبا
ثراب؟ فقال سعد: أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله^١ فلن أسبّه؛ ولئن تكن لي
واحدة منهن احب إليّ من حمر النعم!:

١— عندما خلّف النبي^١ علياً X في بعض مغازيه [غزوة تبوك] قال له علي: يا رسول

١ - هذا القول لرسول الله (ص) وهذه المهمة التي كُلف بها علي (ع) نقلتها المصادر التالية مع قليل من الاختلاف في الالفاظ
والعبارات: صحيح البخاري، تحقيق: الشيخ قاسم الشماخي الرفاعي (بيروت: دار القلم، الطبعة ١، ١٤٠٧هـ-)، ج ٥، كتاب
المغازي، الباب ١٥٥، ص ٢٤٥؛ صحيح مسلم، بشرح النووي (بيروت: دار الفكر، ١٤٠١هـ-)، ج ١٥، ص ١٧٦، ١٧٧؛ ابن
سعد، الطبقات الكبرى، (بيروت: دار صادر)، ج ٢، ص ١١٠، ١١١؛ الصدوق، كتاب الخصال (قم: منشورات جماعة المدرسين،
١٤٠٣هـ-)، ص ٣١١ (الباب الخامس)؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك (بيروت: دار القاموس الحديث)، ج ٣، ص ٩٣؛ الشيخ
سليمان القندوزي الحنفي، ينابيع المودة (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ج ١، ص ٤٧؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ
(بيروت: دار صادر)، ج ٢، ص ٢١٩؛ ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، (في حاشية الإصابة) ج ٣، ص ٣٦؛ الحاكم
النيساوري، المستدرک علی الصحيحین (بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٦هـ-)، ج ٣، ص ١٠٩؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣،
ص ٣٤٩؛ ابن حجر الهيتمي المكي، الصواعق المحرقة، مكتبة القاهرة، ١٣٨٥هـ-، ص ١٢١؛ الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٦٣٥؛
ابن واضح، تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٤٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٤، ص ١٨٦؛ الحلي، انسان العيون (السيرة الحلبية)، ج ٢،
ص ٧٣٣ - ٧٣٦؛ ابو جعفر محمد بن حسن الطوسي، الامالي (قم: دار الثقافة، ١٤١٤هـ-)، ص ٣٨٠.

الدعوة العالمية ٢٦٩

الله تخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله^١ : أما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبوة بعدي؟

٢— وسمعتة يقول له يوم خيبر: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. قال فتناولنا لها. فقال: ادعوا علياً، فأُتي به ارمداً، فبصق في عينيه ودفع الراية له ففتح الله عليه.

٣— ولما نزلت الآية {فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ} [وتقرر ان يباهل النبي نصارى نجران] دعا رسول الله^١ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: اللهم هؤلاء أهلي^٢.

وقد وصف علي^٣ تلك المعركة التاريخية في رسالة بعثها إلى معاوية بما يلي:

فإننا وردنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله مدينة أصحاب خيبر على رجال من اليهود وفرسانها من قريش وغيرها، فتلقونا بأمثال الجبال من الخيل والرجال والسلاح، وهم أمنع داراً وأكثر عدداً، كل ينادي ويدعو ويبادر إلى القتال فلم يبرز إليهم من أصحابي أحد إلا قتلوه حتى إذا احمرت الحدق، ودعيت إلى النزال وأهمت كل امرئ نفسه، والتفت بعض أصحابي إلى بعض وكل يقول : يا أبا الحسن انهض، فأهضني رسول الله صلى الله عليه وآله إلى دارهم فلم يبرز إلي منهم أحد إلا قتلته، ولا يثبت لي فارس إلا طحنته ثم شددت عليهم شدة الليث على فريسته، حتى أدخلتهم جوف مدينتهم مسدداً عليهم، فاقتلعت باب حصنهم بيدي حتى دخلت عليهم مدينتهم وحدي أقتل من يظهر فيها من رجالها، وأسبي من أجد من نسائها حتى أفتتحتها وحدي، ولم يكن لي فيها معاون إلا الله وحده^٣.

وعند سقوط آخر الحصون استسلم اليهود وانتهت المعركة. وكان عدد من قُتل فيها

١ - سورة آل عمران (٣)، الآية ٦١.

٢ - صحيح مسلم، بشرح النووي، ج ١٥، ص ١٧٦. سعد بن أبي وقاص (من بني زهرة) ودخل الاسلام في سن ١٧ (الطبقات الكبرى، ج ٣، ص ١٣٩) أو ١٩ سنة في مكة (السيرة الحلبية، ج ١، ص ٤٣٤).

٣ - الصدوق، الخصال، ص ٣٦٩، باب السبعة.

٢٧٠..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

من اليهود ٩٣ شخصاً^٢، ونال الشهادة من المسلمين ٢٨ شخصاً^٣.

مصير يهود خيبر

وبعدما هُزم أهل خيبر ونزلوا على حكم رسول الله وفتح خيبر سألته اليهود — على اعتبار أنهم أهل النخل والزراعة واعرف بها من غيرهم — ان يقيهم على اراضيهم، فوافق على ما طلبوه بشرط ان يقدموا في كل سنة نصف انتاجهم من المحاصيل الزراعية للدولة الإسلامية^٤، على ان يغادروها متى ما أمرهم بمغادرتها^٥. وبقيت هذه المعاهدة يُعمل بها الى زمن خلافة عمر، ولكن ظهرت في عهد حكمه تحركات من اليهود ضد المسلمين، فخرجهم من هناك وأجلاهم الى الشام^٦.

فدك

وبعد فتح خيبر، استسلم يهود فدك، ووقع الصلح بينهم وبين رسول الله^١ ان لهم نصف الارض بتربتها؛ وبما ان فدك قد فتحت بغير قتال فقد جعل نصفها خالصاً لرسول الله^٢.

١ - المجلسي، بحار الانوار، ج ٢١، ص ٣٢.

٢ - محمد ابراهيم آيتي، تاريخ پیامبر اسلام (طهران: دار نشر جامعة طهران، الطبعة ٣، ١٣٦١)، ص ٤٧٣ - ٤٧٥.

٣ - الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٦٩٠؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٤١٠ (كلمة خيبر).

٤ - ابن هشام، سيرة النبي، ج ٣، ص ٣٥٢.

٥ - ياقوت الحموي، مصدر سابق، ص ٤١٠؛ البلاذري، فتوح البلدان (بيروت: ١٣٩٨ هـ)، ص ٣٦، ٣٧.

٦ - البلاذري، مصدر سابق، ص ٤٢؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٢، ص ٣٥٢؛ ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج ٢، ص ٢٢٤؛

الواقدي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٧٠٧؛ ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج ٤، ص ٢٣٨ (كلمة فدك)؛ ابو عبيد قاسم بن سلام، الأموال، تحقيق: محمد خليل المراس (بيروت: دار الفكر، الطبعة ٢، ١٣٩٥ هـ)، ص ١٦.

الفصل الثاني

انتشار الإسلام

معركة مؤتة

ذكرنا سابقاً ان رسول الله^١ بدأ رسالته العالمية بعد ابرام صلح الحديبية، فدعا رؤساء وملوك العالم يومذاك الى الإسلام.

وكان من بين الدول آنذاك امبراطوريتي الروم وفارس، وكانت من اعظم الدول في ذلك العهد. وكان قيصر الروم يميل الى اعتناق الإسلام بعد المعلومات التي توفرت لديه عن نبوة محمد^١. ولما اعلن عن هذه الرغبة واجه معارضة حادة من الأهالي (وكانوا على الدين المسيحي) ومن جيش الروم، فتراجع عما كان قد عزم عليه^١، وهذا الموقف يحمل بين طياته دلالة تشير الى ان امراء الروم وقادتهم الآخرين لهم مواقف مناهضة للإسلام. ويمكن النظر الى غزوة مؤتة في ضوء هذه الاوضاع والظروف.

في سياق مساعي الرسول لنشر دعوته في خارج شبه جزيرة العرب، بعث في شهر جمادى الاولى — السنة الثامنة للهجرة — الحارث بن عمير الازدي الى ملك بُصرى (الشام)^٢ فقبض عليه شرحبيل بن عمرو الغساني، امير بلاد الشام لقيصر الروم^١، وبعد

١ - زيني دحلان، السيرة النبوية والآثار الحمديّة (بيروت: دار المعرفة، ط٢)، ج٢، ص١٧٠ - ١٧١؛ الحلبي، السيرة الحلبية (انسان العيون)، (بيروت: دار المعرفة)، ج٣، ص٢٨٩ - ٢٩٠.

٢ - كتب الحلبي ما يلي: الكتاب الى هرقل ملك الروم الذي كان في ذلك الوقت في الشام (السيرة الحلبية، ج٢، ص٧٨٦).

١ - المصدر السابق، ج٢، ص٧٨٦.

٢٧٢..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي

استنطاقه ومعرفة المهمة التي اوفد من أجلها، قتله في قرية مؤتة؛ فلما بلغ الخبر رسول الله^١ اشتد عليه ذلك^٢.

ورغم ان مقتل شخص واحد لا يؤدي عادة الى وقوع حرب، الا ان قتل سفير النبي^٣ كان عملاً يتنافى مع الاصول الاخلاقية والاعراف الشائعة التي تقتضي أن يكون السفير آمناً على حياته، وكان ذلك العمل بمثابة تهديد عسكري ورسالة تعبر عن روح الاغترار بالقوة من قبل امير الشام في مقابل الدعوة الدينية السلمية التي عرضها رسول الله^٤؛ ولذا عزم النبي^٥ على ارسال جيش الى هناك. ويمكن تسمية هذا العمل الذي قام به الرسول بأنها رسالة تحمل معنى عزة الإسلام وقدرته على توجيه ضربة عسكرية مقابلة.

وفي ضوء هذا الواقع سير رسول الله^٦ الى مؤتة جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة جعفر بن ابي طالب^٧، ومن بعده زيد بن حارثة، ومن بعده عبد الله بن رواحة، بحيث اذا قتل أحدهم حل الآخر مكانه^٨.

اشتبك الجيش الإسلامي قرب قرية مؤتة مع جيش الروم الذي كان يتألف من مائة ألف مقاتل. وحمل كل واحد من قادة الجيش الإسلامي اللواء وقاتل، حتى قتلوا ثلاثتهم.

١ - الواقدي، المغازي، تحقيق مارسدن جونز (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ج ٢، ص ٧٥٥؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر)، ج ٢، ص ١٢٨.

٢ - رجع جعفر بن ابي طالب من الحبشة الى المدينة بعد سنوات من الإقامة هناك، وكان ذلك في السنة السابعة للهجرة، بعد فتح خيبر، ووافى الرسول (ص) وهو هناك، فالتزمه رسول الله وقيل ما بين عينيه وقال: لا ادري بأيهما أفرح بقدم جعفر أو بفتح خيبر. ابن سعد، الطبقات الكبرى، (بيروت: دار صادر)، ج ٤، ص ٣٥؛ ابن الاثير، اسد الغاية (طهران: المكتبة الإسلامية، ١٣٣٦ش)، ج ١، ص ٢٨٧؛ ابن عبد البر، الاستيعاب، (في حاشية الإصابة)، ج ١، ص ٢١٠؛ ابو الفرج الاصفهاني، مقاتل الطالبين، تحقيق سيد احمد صقر (قم: منشورات الشريف الرضي، ١٤١٦هـ-)، ص ٣٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، (بيروت: مكتبة المعارف)، ج ٤، ص ٢٠٦.

٣ - المشهور هو ان قيادة هذا الجيش كانت بيد زيد ويأتي من بعده جعفر، ولكن هناك روايات عند الشيعة (كما نقل الطبرسي) تذكر ان القائد الاول كان جعفر، وتوجد قرائن تؤيد صحة هذا المعنى. >جعفر سبحاني، فروغ ابدیت (قم: دار نشر مكتب الاعلام الاسلامي، ١٣٦٨، ج ٥)، ج ٢، ص ٢٩١ - ٢٩٣. وأحد الروايات التي نقلها محمد بن سعد جاءت بهذا المضمون (الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٣٠). وللإطلاع على مزيد من المعلومات حول هذا الموضوع، راجع: مجموعة مقالات، (دراسات وبحوث في التاريخ والاسلام، السيد جعفر مرتضى العاملي، ج ١، ص ٢١٠).

ثم ان افراد الجيش الإسلامي اختاروا خالد بن الوليد لقيادة الجيش، وقد اتبع خالد بعض الاساليب التي تمكن بواسطتها من ادخال الرعب في قلوب الاعداء، ثم أمر الجيش بالانسحاب من ساحة المعركة، وعاد به الى المدينة^١.

وقد ذكر الواقدي بأن عدد من استشهد من المسلمين في هذه الغزوة ثمانية^٢، بينما ذكر ابن هشام انهم كانوا اثني عشر شهيداً^٣ وذكرت مصادر معاصرة انهم سبعة عشر^٤، وتقع قبور هؤلاء الشهداء اليوم الى جوار مدينة مؤتة^٥، وعلى قبر كل واحد من القادة الثلاثة ضريح وقبة، وهناك الى جانب قبر جعفر مسجد مبني على طراز جميل^٦.

فتح مكة

سبقت الإشارة الى ان احد بنود صلح الحديبية هو اقرار هدنة لمدة عشر سنوات بين المشركين والمسلمين. وقد استفاد النبي^١ من حالة الأمن والاستقرار التي توفرت للمسلمين بعدما كفت عنهم قريش ممارستها العدائية وهجماتها العسكرية، وخطا بعض الخطوات البعيدة المدى، وكان منها انه بعث وفوداً الى مناطق متعددة لأغراض الدعوة والارشاد، ووضع مبدأ عالمية الرسالة موضع التنفيذ، وهادن الكثير من القبائل المعادية التي كانت

١ - ابن هشام، سيرة النبي، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٥هـ.)، ج٤، ص١٩ - ٢١؛ محمد بن جرير الطبري، تاريخ الامم والملوك (بيروت: دار القاموس الحديث)، ج٣، ص١٠٧ - ١١٠؛ الواقدي، مصدر سابق، ج٢، ص٧٥٥ - ٧٦٩؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج٢، ص١٢٨ - ١٣٠؛ الحلبي، مصدر سابق، ج٢، ص٧٨٧ - ٧٩٣؛ الطبرسي، اعلام الوري، ص١٠٢ - ١٠٤؛ زيني دحلان، مصدر سابق، ج٢، ص٦٨ - ٧٢؛ المجلسي، بحار الانوار (طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٤هـ.)، ج٢١، ص٥٠ - ٦٣؛ الطوسي، الأمالي (قم: دار الثقافة، الطبعة ١، ١٤١٤هـ.)، ص١٤١.

٢ - المغازي، ج٢، ص٧٦٩.

٣ - السيرة النبوية، ج٤، ص٣٠.

٤ - محمد ابراهيم آيتي، تاريخ پیامبر اسلام (طهران: دار نشر جامعة طهران، ١٣٦١)، ص٥٠١.

٥ - تقع مؤتة في الاردن، في محافظة الكرك التي تقع الى الجنوب من العاصمة عمّان وتبعد عنها مسافة ١٣٥ كيلو متراً.

٦ - جعفر سبحاني، تقرير سفره الى الاردن (مؤتة ارض الذكريات) مجلة درسهایی از مكتب اسلام، سنة ٣٨، العدد ٧، الشهر السابع ١٣٧٧هـ.ش.

تقطن الى جوار المدينة، وعقد معاهدات صلح معها، وكذلك سقطت خير التي كانت تمثل مصدراً دائماً للفتن والخطر.

قريش تنقض العهد

وبعد سنتين نقضت قريش معاهدة صلح الحديبية؛ فموجب البند الرابع من هذه المعاهدة، اتاحت لكل قبيلة حرية التحالف مع محمد^١ أو مع قريش. وفي تلك الاثناء عقدت قبيلة خزاعة حلفاً مع المسلمين، بينما عقدت قبيلة بني بكر (من كنانة) حلفاً مع قريش^١.

وفي السنة الثامنة للهجرة أغار بنو بكر على خزاعة ليلاً، واعانت قريش بني بكر بالسلاح وقوم من قريش اعانواهم بأنفسهم، وقتلوا جماعة من خزاعة، فكان ذلك نقضاً للصلح الواقع يوم الحديبية^٢. فقدم رئيس بني خزاعة على رسول الله^٣ مستغيثاً، وفي اعقاب ذلك اخذ الرسول يجهز جيشه واعلن النفير العام بين المسلمين^٤، وقرر الهجوم على مكة ولكنه لم يكشف عن الوجهة التي يريد ان يقصدها لكي يحافظ على مبدأ المباغنة، ولكي لا تعلم قريش بحركته، ولكي يتمكن من السيطرة على مكة بلا حرب وبلا اراقة دماء^٥، وأمر بمراقبة الطرق المؤدية الى مكة^٦، وسأل الله ان يأخذ على ابصار قريش فلا يروه يروه الا بغتة^٧.

١ - كانت بين هاتين القبيلتين حروب ودماء قبل الاسلام (ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤، ص٣١). ومنذ ذلك الوقت كانت خزاعة في حلف مع عبد المطلب. (الواقدي، المغازي، ج٢، ص٧٨١).

٢ - ابن هشام، سيرة النبي، ج١، ص٣٣؛ الواقدي، المغازي، ج٢، ص٧٨٣؛ ابن واضح، تاريخ اليعقوبي، (النحف: المكتبة الحيدرية، ١٣٨٤هـ)، ج٢، ص٤٧. يقول ابن هشام: قتل في هذه الحملة رجل واحد من خزاعة (ج٤، ص٣٣). بينما ذكر الواقدي وابن سعد ان عدد من قتل كان عشرين شخصاً (المغازي، ج٢، ص٧٨٤؛ الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٣٤).

٣ - الواقدي، مصدر سابق، ج٢، ص٧٩٩ - ٨٠٠؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج٢، ص١٣٥.

٤ - الواقدي، مصدر سابق، ج٢، ص٧٩٦ - ٨٠٢؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج٢، ص١٣٤.

٥ - الواقدي، مصدر سابق، ج٢، ص٧٨٧ - ٧٩٦؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج٢، ص١٣٤.

٦ - ابن هشام، مصدر سابق، ج٤، ص٣٩؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج٢، ص١٣٤؛ تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٤٧.

وجّه النبي^١ جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل^١ وسار نحو مكة؛ وكان لتدابيره الوقائية تأثيرها، إذ لم تعلم قريش بحركته إلى أن عسكر جيش المسلمين عند مشارف مكة (مرّ الظهران)!

كان العباس عم النبي^١ يقيم حتى ذلك العام في مكة، وصادف أنه كان — عند مسير جيش المسلمين إلى مكة — متوجّهاً نحو المدينة، وجاء إلى النبي في منزل الجحفة، ولكنه عاد برفقة المسلمين إلى مكة. وفي الليلة الأخيرة التي كان فيها جيش المسلمين يعسكر خارج مكة، التقى بأبي سفيان خارج المدينة، فجاء به حتى أدخله على رسول الله^٢ ولما رأى كثرة عسكر المسلمين أصابه الفزع، وعفا عنه رسول الله^١ بناءً على طلب عمه، وقال: <كل من دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل داره واغلق بابه فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن>.

وقبل دخول جيش الإسلام إلى مكة، أقبل أبو سفيان بخبر الأمان الذي جعله رسول الله^١ لأهل مكة، وكان هذا الاجراء مؤثراً في حقن الدماء واستسلام المدينة بغير مقاومة. وهكذا سقطت مدينة مكة، ولم يحصل اشتباك إلا في موضع واحد حيث اشتبك عدد من المعاندين من قريش مع جيش المسلمين فقتل أشخاص من الفريقين^٣.

وبعد دخول مكة ركب رسول الله^١ راحلته وطاف بالبيت، وجعل كلما مرّ بصنم من الاصنام التي كانت فيها يشير إليه بقضيب في يده ويقول:

{جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}؛ فكان

الصنم يقع لوجهه.

ثم إن رسول الله^١ أمر علي بن أبي طالب فصعد على كتفه (كما هو مشهور بين

١ - ابن هشام، مصدر سابق، ج ٤، ص ٤٢، ٦٣؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٣٥ الواقدي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٨٠١.

٢ - ابن هشام، مصدر سابق، ص ٤٢، ٤٤، ٤٦؛ الواقدي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٨١٧ - ٨١٩.

٣ - ذكروا أن العدد كان بين ١٥ و ٢٨ شخصاً. (ابن هشام، مصدر سابق، ص ٥٠؛ الواقدي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٨٢٥؛

ابن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٣٦).

٤ - سورة الاسراء (١٧)، الآية ٨١.

٢٧٦..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

المؤرخين والمحدثين) وأسقط صنماً كبيراً كان موضوعاً فوق الكعبة وحطّمه^١.
واستناداً الى حديث منقول عن الامام الصادق × انه قال: ان الصنم الذي كسره علي ×
كان هبل، وقد دُفن بأمر رسول الله^١ عند باب شيبه (احد ابواب دخول المسجد الحرام)
[لكي يُداس بالاقدام]. فصار الدخول من المسجد من باب بني شيبه سنة لأجل ذلك^٢.

العفو العام

على الرغم من ان قريش ومشركي مكّة لم يتورّعوا عن ممارسة كل انواع العداء

١ - ابن هشام، مصدر سابق، ج ٤، ص ٥٩؛ الواقدي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٨٣٢؛ ابن سعد، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٣٦؛ وكذلك راجع: الطوسي، الأمالي (قم: دار الثقافة، ١٤١٤هـ)، ص ٣٣٦؛ الحلبي، السيرة النبوية، (بيروت: دار المعرفة)، ج ٣، ص ٣٠؛ زيني دحلان، السيرة النبوية والآثار الحمديّة (بيروت: دار المعرفة الطبعة ٢)، ج ٢، ص ١٠٢؛ القسطلاني، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، (بيروت: دار المعرفة، الطبعة ١، ١٤١٦هـ)، ج ١، ص ٣٢٢؛ علي بن موسى بن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف (قم: مطبعة الخيام)، ج ١، ص ٨٠ - ٨١؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب (قم: المطبعة العلمية)، ج ٢، ص ١٣٥ - ١٣٦؛ جاز الله الزمخشري، تفسير الكشاف، مكتبة مصطفى الباوي الحلبي، ج ٢، ص ٢٤٤.
نقل العلامة الاميني هذه الحادثة عن ٤١ محدثاً من محدثي اهل السنة. (الغدیر، ج ٢، ص ١٠ - ١٣). وبناءً على ما ورد في بعض المصادر (مثل: المناقب للخوارزمي وفرائد السمطين، ونبایع المودّة، وتذکرة الخواص، وكذلك بناءً على ما جاء في بعض الاحاديث المنقولة في بحار الانوار، وما شابه ذلك) ان هذه الواقعة كانت في احدى سنوات ما قبل الهجرة ونفذت ليلاً بعيداً عن انظار قريش (ويحتمل ان القضية وقعت بكلا صورتين).

انعكست قضية صعود عليّ على كتف النبي (ص) منذ القدم في اشعار جماعة من الشعراء، ومنهم ابن العرندس الحليّ من شعراء القرن التاسع للهجرة، الذي يقول في قصيدة طويلة:

وَصُوعُدُ غَارِبَ اَحْمَدَ فَضْلٌ لَهُ دُونَ الْقَرَابَةِ وَالصَّحَابَةِ اَفْضَالاً
(الغدیر، ج ٧، ص ٨).

وكذلك قال ابن ابي الحديد في واحدة من قصائده السبع العلويات مما يتعلّق بفتح مكّة:

رَقِيتَ بِاسْمِي غَارِبَ اَحْدَقْتُ بِهِ مَلَانِكُ يَتْلُونَ الْكِتَابَ الْمُسْتَعْرَا
بَغَارِبِ نَحْيَرِ الْمُرْسَلِينَ وَأَشْرَفَ الْأُ نَامَ وَ أَزْكَى فَاعِلٍ وَ طَيِّئَ الثَّرَى
(الدكتور محمد ابراهيم آيتي البيرجندي، تاريخ بيايمير اسلام، انتشارات جامعة طهران، ص ٥٢٩ - ٥٣٠).

٢ - الحرّ العاملي، وسائل الشيعة (بيروت: دار احياء التراث الإسلامي، ج ٩، ص ٣٢٣، ابواب مقدمات الطواف، باب استحباب دخول المسجد الحرام من باب بني شيبه، الحديث ١).

والمعارضة والضغوط والجنایات ضد المسلمين منذ ظهور الإسلام وحتى ذلك اليوم (يوم فتح مكة) وكان النبي قادراً على الانتقام منهم في ذلك اليوم، الا انه اعلن عفواً عاماً عنهم — عدا نفر قليل ممكن كان قد اقترف جنایات كبرى^١ — وقال لهم:

اقول كما قال اخي يوسف: {لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}^٢، اذهبوا فأنتم الطلقاء^٣.

ان قريش التي استسلمت بذل كانت تتوقع ان ينتقم منها رسول الله^٤ انتقاماً قاسياً، ولكنها بعدما رأت منه العفو تأثرت تأثراً بالغاً. وقد قام رسول الله^٥ الى جانب الكعبة خطيباً فقال:

ايها الناس! ان الله قد حرّم مكة يوم خلق السموات والارض، فهي حرام الى يوم القيامة، لا يحل لمؤمن بالله واليوم الآخر ان يسفك فيها دمًا ولا يعضد فيها شجرة، لم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، ولم تحل لي الا ساعة من نهار، ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلغ شاهدكم غائبكم...^٦.

وعقد رسول الله^٧ بعد فتح مكة بيعة مع النساء المسلمات فيها بأن:

لا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ولا يقتلن اولادهن، ولا يأتين ببهتان يفتريه بين ايديهن وأرجلهن ولا يعصين النبي في معروف^٨.

١ - ذكروا ان عددهم كان ثمانية او عشرة اشخاص. (ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤، ص ٥١ - ٥٣؛ الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٧٢٥؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٣٦) ثم شمل العفو عدداً منهم أيضاً.

٢ - سورة يوسف (١٢)، الآية ٩٢.

٣ - الحلي، السيرة الحلبية (انسان العيون)، ج ٣، ص ٤٩؛ زيني دحلان، السيرة النبوية والآثار الحمّدية، ج ٢، ص ٩٨.

٤ - ابن هشام، مصدر سابق، ج ٤، ص ٥٨؛ ابن واضح، تاريخ البعقوي، ج ٢، ص ٥٠؛ الواقدي، مصدر سابق، ج ٢، ص ٨٤٤، مع اختلاف في اللفاظ.

٥ - السيّد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ١٩، ص ٢٤٦، عقدت هذه البيعة بعد نزول الآية ١٠ من سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ بِحُكْمٍ وَيَتَّبِعُ حُكْمُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ ونظراً لتشابه

ان بعض الشخصيات التي برزت اسمائها لاحقاً أو تبوّأت مناصب عليا، كانت في الواقع من بين الذين اشتهروا اسلامهم من بعد فتح مكّة، ونخص منهم بالذكر أبا سفيان^١ وابنه معاوية^٢.

ونظراً الى الظروف العسيرة والقاسية التي كانت سائدة قبل فتح مكّة، بالمقارنة مع الانفراج النسبي الذي حصل في اعقاب ذلك، فقد جعل الله تعالى لمن اسلم قبل الفتح درجة معنوية ارفع ممن اسلم بعد الفتح، قائلاً:

{وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلْ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ^٣.

نتائج فتح مكّة

كانت مكّة هي القلعة الحصينة والقاعدة المركزية للمشركين، وهي البؤرة التي كانت تنظّم وتدعم كل القوى المناهضة للاسلام، وكانت كل القوى المعادية للاسلام تلقى منها التأييد والاسناد؛ ولذا فقد فتح سقوط هذه المدينة صفحة مهمة في حركة تاريخ الإسلام، وبهذه الحادثة صار من المتيقّن ان عهد عبادة الأصنام قد ولّى بغير رجعة.

كانت القبائل العربية تنتظر فتح مكّة ودخول قبيلة قريش الكبيرة في الإسلام. وبعدها سقطت مكّة وأسلمت قريش أخذت وفود القبائل تأتي وتعلن اسلامها^٤، وأظهرت كل القبائل طاعتها للاسلام عدا قبيلتي هوازن وثقيف^٥، وكان من بين القبائل التي قدّمت

مفاد هذه البيعة مع بيعة العقبة الاولى، سُمّيت بيعة العقبة الاولى لاحقاً باسم بيعة النساء.

١ - ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٣٥؛ ابن الاثير، اسد الغابة (طهران: المكتبة الإسلامية، ١٣٣٦)، ج٤، ص٣٨٥ وج

٥، ص٢١٦؛ ابن عبد البر، الاستيعاب (في حاشية الإصابة)، ج٢، ص٨٥.

٢ - ابن الاثير، مصدر سابق، ج٤، ص٣٨٥؛ الحلبي، مصدر سابق، ج٣، ص٤٣؛ زيني دحلان، مصدر سابق، ج٢، ص٩٦.

٣ - سورة الحديد (٥٧)، الآية ١٠.

١ - شهاب الدين احمد النويري، نهاية الإرب في فنون الادب، ج٣، ص١١.

٢ - الحلبي، السيرة الحلبية (بيروت: دار المعرفة)، ج٣، ص٦١.

وفودها على رسول الله^١ وأعلنت الطاعة له: قشير بن كعب^٢، وباهلة^٣، وثلعبية^٤، والصداء^٥، وبني اسد^٦، وبلي^٧، وعذرة^٨، وثمانة^٩، وحدان^{١٠}. وبعد غزوة حنين (هوازن) والطائف (التي وقعت بعد فتح مكة) قدم وفد قبيلة ثقيف (وكانت قبيلة قوية وتحتل في الطائف ذات المكانة التي تحتلها قريش في مكة) على رسول الله، واشتروا في بداية الأمر مجموعة من الشروط للدخول في الإسلام، ولكن رسول الله^{١١} لم يقبل أي منها، ولذلك فقد دخلت هذه القبيلة في الإسلام بلا قيد أو شرط^{١٢}. وكانت هذه التطورات بمثابة نجاح باهر في مسيرة تقدّم الإسلام.

معركة حنين*

بعد فتح مكة الذي حصل في العشرين من شهر رمضان^{١٣} أقام رسول الله^{١٤} لمدة اسبوعين في هذه المدينة^{١٥}؛ فنظّم اوضاع المدينة ونادى مناديه:

١ - ابن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر)، ج ١، ص ٣٠٣.

٢ - المصدر السابق، ص ٣٠٧.

٣ - المصدر السابق، ص ٢٩٨؛ النوري، مصدر سابق، ص ٣٧.

٤ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ٣٢٦.

٥ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ٢٩٢؛ النوري، مصدر سابق، ص ٣٨.

٦ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ٣٣٠؛ النوري، مصدر سابق، ص ٨٩.

٧ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ٣٣١؛ النوري، مصدر سابق، ص ٨٣.

٨ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ٣٥٢؛ النوري، مصدر سابق، ص ١٠٣.

٩ - ابن سعد، مصدر سابق.

١٠ - الواقدي، المغازي، ج ١، ص ٩٦٦.

* - حنين واد الى جانب ذي الحجاز أو ماء قرب الطائف، يبعد ثلاث ليال عن مكة. (المواهب اللدنية، ج ١، ص ٣٢٨).

١١ - الواقدي، المغازي، تحقيق مارسدن جونز (بيروت: مؤسسة الاعلمي للمطبوعات)، ج ٣، ص ٨٨٩، الطبري، تاريخ الامم والملوك (بيروت: دار القاموس الحديث)، ج ٣، ص ١٢٥ ذكرت بعض المصادر ان يوم فتح مكة كان في ايام اخرى من ايام شهر رمضان.

١٢ - الواقدي، مصدر سابق، الطبري، مصدر سابق، ص ١٢٥؛ القسطلاني، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية (بيروت: دار الكتب

٢٨٠..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي

من كان في بيته صنم فليكسره^١ وبعث جماعة الى المناطق المجاورة لمكة لتحطيم ما كان فيها من معابد الأصنام^٢. وفي اثناء هذه المدة بلغ رسول الله^٣ ان قبيلة هوازن أخذت تعد الجيوش وتساندها في ذلك قبائل ثقيف، ونصر، وجشم، وسعد بن بكر، وطائفة من قبيلة بني هلال، بقيادة مالك بن عوف النصري بقصد الهجوم على مكة^٤. وكان هذا الخبر صحيحاً اذ نزل جيش كثير العدد يتألف افراده من القبائل المذكورة في ارض تُدعى أوطاس قاصداً الهجوم على مكة.

فبعث رسول الله^٥ من يستطلع له الاخبار خفية، فأججز المبعوث المهمة وتبين له صدق خبر مسير جيش هوازن الى مكة^٦.

فقرر النبي^٧ ان يتصرف وفقاً لاسلوبه العسكري ويأخذ بزمام المبادرة ولا يترك للعدو فرصة الهجوم، فاستعمل عتاب بن اسيد أميراً على مكة^٨، ثم خرج في جيش قوامه اثنا عشر ألفاً (عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ففتح الله بهم مكة، وألفان من أهل مكة الذين اسلموا حديثاً)^٩ وجعل بني سليم في مقدمة جيشه^{١٠}.

ثم ان بعض المسلمين اغتر بكثرة الجيش فقالوا: لا نُغلب اليوم من قلة^{١١}. ولكن النتيجة

العلمية، الطبعة ١، ١٤١٦هـ.)، ج ١، ص ٢٢٦.

١ - ابن واضح، تاريخ اليعقوبي، (التحف: المكتبة الحيدرية، ١٣٨٤هـ.)، ج ٢، ص ٥٠.

٢ - القسطلاني، مصدر سابق، ص ٢٢٧؛ النويري، نهاية الإرب في فنون الادب، ج ٢، ص ٢٨٠ - ٢٨١؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر)، ج ٢، ص ١٤٥ - ١٤٧.

٣ - ابن هشام، سيرة النبي، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي)، ج ٤، ص ٨٠؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك (بيروت: دار القاموس الحديث)، ج ٣، ص ١٢٦.

٤ - ابن هشام، مصدر سابق، ج ٤، ص ٨٢؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٢٧؛ الواقدي، مصدر سابق، ج ٣، ص ٨٩٣.

٥ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٨٨٩؛ الطبري، مصدر سابق، ص ١٢٧.

٦ - ابن هشام، مصدر سابق، ص ٨٣؛ الطبري، مصدر سابق، ص ١٢٧؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت: دار صادر)، ج ٢، ص ١٥٠؛ الطبرسي، إعلام الوري، الطبعة ٣، المكتبة الإسلامية، ص ١١٣؛ ابن واضح، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٥٢.

٧ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٨٩٣؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٥٠.

٨ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٨٨٩؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٥٠؛ الطبرسي، مصدر سابق، ص ١١٣؛ الشيخ المفيد،

في الواقع العملي جاءت على العكس من ذلك كما بين تعالى في القرآن الكريم^١؛ فكثرة الافراد لم تغن شيئاً في هذه المعركة.

هزيمة المسلمين في الجولة الاولى

وعباً رسول الله^١ أصحابه في السَّحَر، وانحدروا في وادي حنين، ولكن جيش هوازن الذي كان قد كمن في مضيق الوادي وشعبه، خرج عليهم وهاجمت كتائبه جيش المسلمين^٢. وقد اذهل هذا الهجوم المباغت الذي شنه العدو جيش المسلمين؛ فانهزم. بنو سليم الذين كانوا في مقدمة الجيش^٣؛ وتبعهم اهل مكة وتبعهم الناس منهزمين، ولم يثبت الى جانب رسول الله الا نفر قليل ممن صمدوا في وجه العدو^٤. واستناداً الى ما نقله الشيخ المفيد فان الناس قد انهزموا ولم يبق معه الا تسعة من بني هاشم أحدهم علي^٥.

فكان العباس بن عبد المطلب عم النبي^١ عن يمينه، والفضل بن العباس عن يساره، وعلي يقاتل بالسيف أمامه^٥.

النصر الظافر في الجولة الاخيرة

انهزم المسلمون الا ان رسول الله^١ الذي كان على الدوام مثلاً في الصبر والثبات

الإرشاد، (قم: مكتبة بصيرتي)، ص ٧٤.

١ - سورة التوبة (٩)، الآية ٢٥.

٢ - ابن هشام، مصدر سابق، ص ٨٥؛ الواقدي، مصدر سابق، ص ٨٩٥؛ الطبري، مصدر سابق، ص ١٢٨؛ الطبرسي، أعلام الوري، ص ١١٤؛ المجلسي، بحار الانوار (طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٤هـ)، ج ٢١، ص ١٦٩؛ الشيخ المفيد، مصدر سابق، ص ٧٥.

٣ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٨٩٧؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٥٠.

٤ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٩٠٠؛ ابن واضح، تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٥٢.

٥ - الإرشاد، ص ٧٤. حول شجاعة علي (ع) في هذه الحرب راجع: الامالي، الشيخ الطوسي، (قم: دار الثقافة، الطبعة ١، ١٤١٤هـ)، ص ٥٧٤ - ٥٧٥.

٢٨٢..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

والشجاعة لم يترعزع ولم يضعف، بل ثبت في ميدان القتال واخذ ينادي بالناس <اين تفرون؟ انا رسول الله، انا محمد بن عبد الله>.

وقال لعمه العباس (الذي كان من الهاشميين الذين ثبتوا معه في ساحة المعركة، وكان

جهوري الصوت):

<ناد في القوم وذكّرهم العهد>. فنادى العباس بأعلى صوته: يا أهل بيعة الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، الى اين تفرون؟! اذكروا العهد الذي عاهدكم عليه رسول الله^١>.

ونتيجة لثبات النبي ودعوته من فرّوا للعودة والمقاومة، عاد اليه المسلمون تدريجياً والتفّوا حوله واخذوا يقاومون العدو ويصدّون هجماته؛ ولم يمض طويلاً حتى قتل حامل لواء جيش العدو بسيف علي^٢ وجاء المدد الغيبي الالهي^٣ وهزمت هوازن شر هزيمة، وأخذ منهم اربعة آلاف اسير، وغنم المسلمون منهم اثني عشر الف ناقه وغنائم كبيرة اخرى^٤. وبعد انتهاء المعركة، اطلق رسول الله^١ سراح الأسرى بناءً على طلب رؤساء القبائل المنهزمة بعدما كانوا قد اسلموا^٥. وكان جميع من استشهد من المسلمين اربعة نفر^٦.

وقد ذكر الله عز وجل في القرآن الكريم تلك الهزيمة الاولى التي حلّت بالمسلمين، ثم انتصارهم لاحقاً في ظل الامداد الغيبي، بقوله:

{لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ

١ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٥١؛ ابن واضح، تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٥٢؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ٢١، ص ١٥٠.

٢ - ابن واضح، تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٥٢.

٣ - سورة التوبة (٩)، الآية ٢٦.

٤ - الطبرسي، إعلام الوري، ج ٢، ص ١١٦، نقل ابن سعد ان عدد الاسرى كان ستة آلاف، ومقدار الغنائم اربعة وعشرين الف بعير، ومن الغنم اكثر من اربعين ألف شاة، واربعة آلاف اوقية من الفضة. <الطبقات الكبرى، (بيروت: دار صادر)، ج ٢، ص ١٥٢>.

٥ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٥٣ - ١٥٥؛ الطبري، مصدر سابق، ص ١٣٢ و ١٣٥.

٦ - ابن هشام، مصدر سابق، ص ١٠١؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٥٢؛ الواقدي، مصدر سابق، ص ٩٢٢؛ ابن واضح، مصدر سابق، ص ٥٢؛ الطبري، مصدر سابق، ص ١٣٢.

الْأَرْضُ بِمَا رَحِمْتَ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَّذِيرِينَ * ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ^١.

غزوة تبوك*

عند دراستنا لأسباب معركة مؤتة تعرّفنا على المواقف العدائية لامبراطورية الروم ضد الدولة الإسلامية الفتية، ولاحظنا أن المسلمين قد هزموا في أول صدام عسكري بين الجانبين.

كانت دولتا الروم والفرس آنذاك دولتين كبيرتين، وكانت تدور بينهما حروب متناوبة طويلة، إلا أنهما كانتا لا ترغبان طبعاً في ظهور قوةٍ ثالثة على المستوى العالمي، ولهذا كان من الطبيعي أن يسوء الروم (الذين كانوا الجار الشمالي لشبه جزيرة العرب) ما حققه المسلمون من نصر في فتح مكة وما حققوه من هزيمة بقبيلة هوازن في معركة حنين. وانطلاقاً من المؤثرات المذكورة، وفي ضوء انتصار الروم في معركة مؤتة فقد كان من المتوقع أن يقوم الروم بتحريك عسكري ضد المسلمين.

وفي السنة التاسعة للهجرة وصلت الرسول^١ اخبار عن طريق التجار الذين كانوا يترددون بين المدينة والشام بأن هرقل امبراطور الروم يعدّ العدة ويجهّز الجيوش استعداداً للهجوم على

١ - سورة التوبة (٩)، الآيات ٢٥ - ٢٦.

* - تبوك: موضع كان معروفاً في منتصف طريق المدينة الى دمشق >القسطلاني، المواهب اللدنية بالمنح الحمديّة (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٣١٦هـ.)، ج ١، ص ٣٤٦؛ زيني دحلان، السيرة النبوية والآثار الحمديّة (بيروت: دار المعرفة، ج ٢، ص ١٢٥) وبين تبوك والمدينة تسعون فرسخاً، وذلك مسيرة اثني عشرة ليلة. (المسعودي، التنبيه والاشراف، القاهرة: دار الصاوي للطبع والنشر، ص ٢٣٥) وكانت حينذاك تدخل ضمن الشريط الحدودي لممتلكات السكان المسيحيين لامبراطورية الروم. وتقع تبوك اليوم ضمن اراضي المملكة العربية السعودية قرب حدودها مع الاردن، واللوحه الموجودة في الطريق المتجه من المدينة المنورة الى الشمال تشير الى ان تبوك تبعد مسافة ستمائة كيلو متر وتُف عن المدينة المنورة.

٣٢١ - الواقدي، المغازي، تحقيق مارسدن جونز، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ج ٣، ص ٩٩٠؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، (بيروت: دار صادر)، ج ٢، ص ١٦٥؛ القسطلاني، مصدر سابق، ص ٣٤٦؛ الحلي، السيرة الحلبية (بيروت: دار المعرفة)، ج ٣، ص ٩٩. وصلت هذه الاخبار عن طريق تجار النبط الذين كانوا يحملون الزيت والدقيق الى المدينة (الواقدي، مصدر سابق، ص ٩٨٩ - ٩٠٠).

٢٨٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

المدينة^١. فتلقى الرسول تلك الاخبار بنظر الاهتمام وأخذ يتأهب للمواجهة. وكانت امبراطورية الروم ألد عدو للمسلمين في ذلك الحين من حيث سالف العداء وكذا من حيث القوة السياسية والعسكرية^٢. كانت الانباء تشير الى ان هرقل جمع قبائل عربية مثل لخم، وجذام، وعاملة، وغسان، وسيّرهما في مقدّمة جيشه الى البلقاء^٣، وأقام هو في حصص^٤. أمر رسول الله أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم؛ وذلك في زمان من عسرة الناس، وشدة الحر^٥ وحين طابت الثمار، والناس يحبّون المقام في ظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال والزمان الذي هم عليه^٦. فندب الناس الى الخروج وبعث الى مكة والى قبائل العرب يستنفرهم، وأمرهم بالصدقة فحملوا معهم صدقات كثيرة^٧. وكان رسول الله^٨ قلما يخرج في غزوة الا كُنِيَ عنها لأسباب أمنية واخبر انه يريد غير الوجه الذي يصمد له، الا ما كان من غزوة تبوك فانه بينها للناس، لبعد الشقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناس لذلك اهبتهم؛ فأمر الناس بالجهاز واخبرهم انه يريد الروم^٩.

١ - الواقدي، المغازي، تحقيق مارسدن جونز، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ج٣، ص ٩٩٠؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، (بيروت: دار صادر)، ج٢، ص ١٦٥؛ القسطلاني، مصدر سابق، ص ٣٤٦؛ الحلي، السيرة الحلبية (بيروت: دار المعرفة)، ج٣، ص ٩٩ (وصلت هذه الاخبار عن طريق تجار البنط الذين كانوا يحملون الزيت والدقيق الى المدينة (الواقدي، مصدر سابق، ص ٩٨٩ - ٩٠٠).

٢ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٩٩٠.

٣ - الواقدي، مصدر سابق، ابن سعد، مصدر سابق.

٤ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٦٦.

٥ - ابن سعد، مصدر سابق، القسطلاني، مصدر سابق؛ الحلي، مصدر سابق؛ الطبري، تاريخ الامم والملوك، (بيروت: دار القاموس الحديث)، ج٣، ١٤٢.

٦ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٩٩٢؛ الطبري، مصدر سابق؛ الحلي، مصدر سابق؛ ابن هشام، سيرة النبي، (القاهرة: مكتبة مصطفى الباي الحلي، ١٩٥٥هـ)، ج٤، ص ١٥٩.

٧ - ابن سعد، مصدر سابق، الواقدي، مصدر سابق، ص ٩٩١ - ٩٩٠؛ القسطلاني، مصدر سابق، ج١، ص ٣٤٧؛ الحلي، مصدر سابق؛ ابن هشام، مصدر سابق، ص ١٦٠؛ الطبرسي، أعلام الوري، دار الكتب الإسلامية، ص ١٢٢.

٨ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٦٥ و ١٦٧؛ الواقدي، مصدر سابق؛ القسطلاني، مصدر سابق، ص ٣٤٦؛ الطبرسي، مصدر سابق؛ الحلي، مصدر سابق، ص ٩٩؛ ابن هشام، مصدر سابق، ص ١٥٩.

ورغم عسرة الظروف وصعوبة الحال فقد جاد المسلمون بسخاء وإخلاص^١، وتجهّز ثلاثون ألف مقاتل للمسير^٢، ولهم عشرة آلاف فرس^٣، واثنان عشر ألف جمل^٤. وفي مقابل ذلك تخلف المنافقون بغير عذر^٥ بل واحذوا يثبطون الناس عن الخروج^٦؛ وقد نزلت آية في ذمّهم^٧.

وتخلف جماعة من المسلمين عن الخروج بغير عذر مقبول، وقد سّماهم القرآن <المخلفين> وذمّهم^٨؛ كما ان جماعة آخرين حرّموا من المسير في تلك الغزوة رغم شدّة رغبتهم في الخروج مع جيش المسلمين وذلك لأنّهم كانوا يفتقرون لمعدّات للقتال^٩.

استخلاف علي في المدينة

كان وضع المدينة حساساً في تلك الأيام، وكما مرّ علينا، فإن جيش الإسلام كان متوجّهاً الى موضع بعيد جداً، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى كان المنافقون — رغم تظاهرهم بالإسلام — قد رفضوا الخروج مع الرسول^{١٠} وتخلفوا في المدينة، والتف حول عبد الله بن أبي الكثير ممن يرون رأيه^{١١}.

وعلاوة على ذلك كانت هناك مخاوف من تأمر أولئك الذين قهرهم الإسلام في مكة

١ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٩٩١؛ الطبري، مصدر سابق، ج ٣، ص ١٤٢.

٢ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٦٦؛ الواقدي، مصدر سابق، ص ٩٩٦ و ١٠٠٢؛ القسطلاني، مصدر سابق، ص ٣٤٩؛ الحلي، مصدر سابق، ص ١٠٢.

٣ - الواقدي، مصدر سابق، ص ١٠٠٢؛ ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٦٦.

٤ - المسعودي، التنبيه والاشراف، (القاهرة: دار الصاوي للطباعة والنشر)، ص ٢٣٥.

٥ - ابن سعد، مصدر سابق، ص ١٦٥، ١٦٦؛ الواقدي، مصدر سابق، ص ٩٩٥.

٦ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٩٩٣؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤، ص ١٦٠؛ القسطلاني، مصدر سابق، ص ٣٤٢.

٧ - ﴿وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم اشدّ حرّاً لو كانوا يفقهون...﴾ (سورة التوبة (٩)، الآية (٨١)).

٨ - ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا ان يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله...﴾ (سورة التوبة (٩)، الآية (٨١)).

٩ - سورة التوبة (٩)، الآيات ٨٧ - ٩٣.

١٠ - الواقدي، مصدر سابق، ص ٩٩٥؛ ابن هشام، مصدر سابق، ج ٤، ص ١٦٢.

٢٨٦..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

واطرافها والبدو في اطراف المدينة، ولهذا كان ينبغي ان يدير شؤون المدينة — في غياب الرسول — رجل قوي له القدرة على منع كل ما يخل بالوضع الأمني في عاصمة الحكومة الإسلامية الفتية، والا لكان من المحتمل وقوع احداث مؤلمة.

وفي ضوء هذه المؤثرات، استخلف رسول الله^١ علياً^٢ على المدينة وقال له: <يا علي ان المدينة لا تصلح الا بي أو بك>^١.

كتب المسعودي حول هذه القضية ما يلي:

<والأشهر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف علياً على المدينة ليكون مع من ذكرنا من المتخلفين>^٢.

وعدا هذه الغزوة كان علي^٣ قد خرج مع الرسول في كل غزواته^٤ وكان حامل لوائه^٥. وقد اشاع المنافقون بأن الرسول قد خلف علياً في المدينة لأنه لا يريد له الخروج معه، او انه يستقل خروجه معه! فشعر علي^٦ بالاستياء من هذه التقولات، فحمل سيفه وتبع رسول الله^٧ حتى لحق به في الجرف* وأعلمه بما يشيعه عنه المنافقون من الأقاويل، فقال له رسول الله^٨:

<كذبوا انما خلفتك لما ورائي فارجع فاخلفني في أهلي واهلك؛ افلا ترضى يا علي ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لا نبي بعدي...>^٩.

وانه قال له — طبقاً لنقل الشيخ المفيد —:

<ارجع يا اخي الى مكانك، فان المدينة لا تصلح إلا بي

١ - الشيخ المفيد، الإرشاد، (قم: مكتبة بصيرتي)، ص٨٢؛ الطبرسي، أعلام الوري، ص١٢٢.

٢ - التنبيه والاشراف، ص٢٣٦.

٣ - ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، (في حاشية الإصابة)، ج٣، ص٣٤؛ الحلي، السيرة الحلبية، ج٣، ص١٠٤؛ القسطلاني، المواهب اللدنية، ج١، ص٣٤٨.

٤ - ابن عبد البر، مصدر سابق، ص٢٧؛ السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ١٤٠٣هـ، ج٤، ص١٩٣ - ١٩٦.

* الجرف موضع يبعد ثلاثة أميال عن المدينة.

١ - ابن هشام، سيرة النبي، ج٤، ص١٦٣؛ الحلي، السيرة الحلبية، ج٣، ص١٠٤.

أو بك، فأنت خليفتي في أهل بيتي ودار هجرتي وقومي،
أما ترضى...^١.

وكتب ابن عبد البر القرطبي — وهو من علماء أهل السنة في القرن الخامس — ما يلي:
«خلفه رسول الله على المدينة وعلى عياله بعده في غزوة
تبوك وقال له: أنت مني...»^٢.

وطبقاً لنقل البخاري ومسلم، فإن رسول الله ﷺ شبه علياً بهارون أخي موسى، وقال له
ذلك القول^٣.

هذه الكلمة التاريخية لرسول الله ﷺ تعرف باسم «حديث المنزلة»، وتعتبر من
الأدلة الجلية والواضحة على امامة وخلافة علي × وذلك ان هذا الكلام — وان كان في

١ - الإرشاد، ص ٨٣.

٢ - الاستيعاب، ج ٣، ص ٣٤.

٣ - صحيح البخاري، شرح وتحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، (بيروت: دار القلم، الطبعة ١٤٠٧ هـ)، ج ٦،
ص ٣٠٩؛ المغازي، الباب ١٩٥، ح ٨٥٧؛ صحيح مسلم، بشرح النووي (بيروت: دار الفكر، ١٤٠١ هـ)، ج ١٥، ص ١٧٥؛
فضائل الصحابة، فضائل علي بن أبي طالب، قول رسول الله ﷺ لجعله بالنسبة له مثلما هارون لموسى، ورد - فضلاً عن
الكتب المذكورة أعلاه - في المصادر التالية:

المواهب اللدنية، ج ١، ص ٢٤٨؛ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، (في حاشية الإصابة)، ج ٣، ص ٣٤؛ البداية والنهاية، ج ٥، ص ٧
وج ٨، ص ٧٧؛ مسند أحمد، ج ١، ص ١٧٩؛ كنز العمال، ح ١٤٢٤٢، ٣٢٨٨١، ٣٦٥٧٢؛ الجامع الصحيح، الترمذي،
المنقب، الباب ٢١، ح ٣٧٣٠؛ التنبيه والاشراف، ص ٢٣٥؛ الصواعق المحرقة، ص ١٢١؛ الإصابة، ج ٢، ص ٥٠٩، الرقم
٥٦٨٨؛ سيرة زيني دحلان، ج ٢، ص ١٢٦؛ مروج الذهب، ج ٣، ص ١٤؛ أمالي الشيخ الطوسي، ص ٥٩٩.

وهنا لا بد من القول بأن بعض المصادر ذكرت ان رسول الله ﷺ (ص) استخلف على المدينة في سفره هذا محمد بن مسلمة، وذكرت
أخبار أخرى انه استخلف سباع بن عرفة. (راجع: ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤، ص ١٦٢؛ السيرة الحلبية، ج ٣، ص ١٠٢؛
تاريخ الامم والملوك، ج ٣، ص ١٤٣؛ الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٦٥؛ المواهب اللدنية، ج ١، ص ٣٤٨). ولكن كما لاحظنا في
ضوء كثرة بل تواتر الاخبار التي نصت على استخلافه علياً في المصادر المعتمدة عند الشيعة والسنة بأنه لا يمكن التعويل على
الاخبار المعارضة لها. فقد كتب ابن عبد البر — وهو من كبار المؤرخين وعلماء الرجال والفقهاء عند أهل السنة في القرن الخامس
- حديث «انت مني بمنزلة هارون من موسى» >، نقله جماعة من الصحابة وهو من أوثق وأصح الاحاديث وقد نقله سعد بن
أبي وقاص، وابن عباس، وأبو سعيد الخدري، وأم سلمة، واسماء بنت عميس، وجابر بن عبد الله الانصاري وجماعة غيرهم ممن
يطول ذكرهم (الاستيعاب، ج ٣، ص ٣٤).

٢٨٨..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

مورد خاص وهو غزوة تبوك — ولكن الاستثناء المنقطع يدل على ان علياً × يستوي مع هارون احي موسى في جميع الشؤون، ومنها خلافة النبي^١.

وعورة الطريق

ورغم كل الصعوبات والمعوقات فقد خرج جيش الإسلام من المدينة، ولاقى المسلمون في الطريق الى تبوك الكثير من العسر، فالطريق كان طويلاً والمقصد بعيداً، وكان الرجال والثلاثة منهم يركبون على بعير واحد، وكان الحر شديداً مع قلة في الماء فأصابهم عطش شديد وتحملوا الكثير من المشقة والعناء والعُسْر؛ ولذا عُرِفَت هذه الغزوة في تاريخ الإسلام باسم <غزوة العُسرة>^٢، و<جيش العُسرة>^٣.

وعلى اية حال فقد قطع جيش الإسلام مسافة طويلة حتى وصل الى تبوك ولكنه لم يجد هناك اثرًا لجيش الروم؛ فقد كانت الاخبار التي تحدثت عن تحرك جيش الروم غير صحيحة^٤، وكان الهدف من هذه الاشاعة بث الرعب والقلق في اوساط المسلمين^٥.

معاهدات الرسول مع رؤساء القبائل

أقام رسول الله^١ في تبوك عشرين ليلة^١ وفي هذه المدة عقد معاهدات صلح مع حاكم

١ - وعلى الرغم من وجود هذه الدلالة الواضحة فقد شكك قسم من علماء اهل السنة ومنهم الحلي الشامي، وابن تيمية، انطلاقاً مما يتصفون به من تعصب وما يحملونه من تفكير خاص، في دلالة هذا الحديث. للاطلاع على مزيد من المعلومات بشأن دلالة هذا الحديث، وكذا تفصيل المصادر والطرق إليه - التي تربو على مائة طريق - راجع: كتاب الغدير، ج٣، ص١٩٧ - ٢٠١؛ احقاق الحق، ج٥، ص١٣٣ - ٢٣٤ وكتاب بيشوائى از نظر اسلام، جعفر سبحاني (انتشارات مكتب اسلام، ١٣٧٤ش)، راجع: الفصل الخامس عشر.

٢ - ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٦٧؛ القسطلاني، المواهب اللدنية، ج١، ص٣٤٦؛ الحلي، مصدر سابق، ج٣، ص١٠٦.

٣ - صحيح البخاري، ج٦، ص٣٠٨؛ المسعودي، التنبيه والاشراف، ص٢٣٥؛ القسطلاني، مصدر سابق، ص٣٤٦. هذا الاسم والعنوان مستقى من الآية ١١٧ من سورة التوبة ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ...﴾.

٤ - الواقدي، المغازي، ج٣، ص١١٩١ - ١٩٩٠.

٥ - الحلي، مصدر سابق، ص٩٩.

١ - ابن سعد، مصدر سابق، ج٢، ص١٦٦ - ١٦٨؛ الواقدي، مصدر سابق، ص١٠١٥.

أيلة، ومع أهالي جرباء، وأذرح، التزموا بموجبها بدفع الجزية للمسلمين، وعقد النبي معاهدة صلح أيضاً مع حاكم دومة الجندل في اعقاب عمليات عسكرية قام بها جيش الإسلام ضده واستسلم على أثرها ودفع للمسلمين مبلغاً من المال^١.

وقعت غزوة تبوك في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة^٢، وانعكس قسم من ابعادها في سورة التوبة خاصة في الجانب المتعلق بما اكتنفها من صعوبات وشدائد وعسر، وما تعلل به بعض المسلمين من اعدار عند استنفار المسلمين للخروج، اضافة الى بيان خيانة المنافقين وما افعلوه من عراقيل وما شابه ذلك. وقد وقعت قضية <مسجد ضرار> المشهورة بالتزامن مع غزوة تبوك، وأشارت اليها الآية ١٠٧ من سورة التوبة.

نتائج غزوة تبوك

رغم ان هذه الغزوة التي كانت حافلة بالعسر والمشقة لم يقع فيها قتال ولكن تمخّضت عنها تأثيرات ونتائج مهمة، نعرض قسماً منها في ما يلي:

١— عقد رسول الله في سفره هذا معاهدات صلح مع قبائل وامراء المنطقة الحدودية الواقعة بين الحجاز والشام، وضمن بذلك استتباب الأمن في هذه المنطقة، واطمأن الى اهم لن يتعاونوا مع قيصر الروم.

٢— تكوّن لدى قادة الجيش الإسلامي من خلال هذا العمل العسكري تصوّر تام عن طبيعة تلك المنطقة وتضاريسها ومشاكلها، وتعلّموا طريقة اعداد الجيوش في مواجهة القوى الكبرى يومذاك؛ ولعل هذا السبب الذي جعل اول بلد يفتحه المسلمون بعد وفاة الرسول^٣ هو الشام.

٣— في ضوء هذا النفير العام تميز المؤمنون من المنافقين، وحصل نوع من الفرز

١ - الطبرسي، أعلام الوري، ص١٢٣؛ القسطلاني، مصدر سابق، ص٣٥٠؛ الطبري، تاريخ الامم والملوك، ج٣، ص١٤٦.

٢ - ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٦٥؛ ابن هشام، سيرة النبي، ج٤، ص١٥٩؛ الحلبي، مصدر سابق، ص٩٩؛

القسطلاني، مصدر سابق، ص٣٤٦.

٢٩٠..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

والتصفية في صفوف المسلمين^١.

٤— ومن المعطيات والنتائج الاخرى المهمة لهذه العملية العسكرية تصاعد معدّل الاعتبار العسكري للمسلمين، وميل القبائل العربية الى اعتناق الإسلام، ولقاء وفودها مع رسول الله^١ للاعلان عن طاعتها له؛ وهذا ما نسلط الضوء عليه في ما يلي:

انتشار الإسلام في جزيرة العرب

مثلما شكل فتح مكّة منعطفًا في طريق انتشار الإسلام في جزيرة العرب، كذلك كانت غزوة تبوك بمثابة خطوة مهمة اخرى في هذا الاتجاه؛ لأن هذا التحرك — الذي يمثّل في واقع الحال مناورة عسكرية كبرى — زاد من الهيبة العسكري للمسلمين وجعله اعظم مما كان عليه؛ وأدرك الجميع من خلال ذلك بأن النظام الإسلامي أصبح على درجة من القوّة بحيث يستطيع مجابهة اعظم قوّة في العالم في منطقة قصيّة. وكان التأثير السياسي والعسكري لهذه المناورة على درجة عالية بحيث ان وفود القبائل العربية التي لم تدخل في الإسلام حتى ذلك الوقت، أخذت تتوافد على رسول الله^١ في المدينة المنورة — من بعد عودته من تلك الغزوة — وتعلن طاعتها له، بعدما ايقنت بأنّ عهد الشرك وعبادة الأصنام قد ولى. وكان عدد الوفود التي قدمت على الرسول لهذا الغرض في ذلك العام كثير بحيث سمّيت السنة التاسعة بـ <سنة الوفود>^٢.

البراءة من المشركين

١ - جعفر سبحاني، فروغ ابدیت، (قم: دار نشر مكتب الاعلام الاسلامي، الطبعة ٥، ١٣٦٨)، ج ٢، ص ٤٠٣ - ٤٠٤.

٢ - ابن هشام، سيرة النبي، ج ٤، ص ٢٠٥. وقد سجل كتاب السير مسرداً لهذه الوفود وذكر ان عددها زاد على ستين وفداً.

راجع: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ٢٩١ - ٣٥٩؛ تاريخ پیامبر اسلام، محمد ابراهيم آبي، ص ٦٠٩ - ٦٤٢.

توفرت في اعقاب فتح مكة اجواء مناسبة لنشر التوحيد واجتثاث عبادة الأصنام وغيرها من الخرافات والافكار الباطلة المنبثقة عن عبادة الأصنام؛ وترك أكثر أهالي الحواضر والبوادي عبادة الأصنام واعتنقوا الإسلام. ولكن بقيت حتى ذلك الوقت فتنة غلب عليها الجهل والتعصب ظلّت متمسكة بتلك الثقافة الجاهلية المغلوطة ولم تكن مستعدة للتخلي عنها، وكان يشق عليها قبول الدين الجديد الذي جاء به النبي محمد^١.

ومن جهة أخرى، كان رسول الله^١ قد ادى فريضة العمرة عدّة مرّات ولكن لم تتوفر له حتى ذلك الحين فرصة الحج (بعيداً عن الاضافات والخرافات التي ألصقت به في عهد عبادة الأصنام)؛ وبقي المشركون يحجّون حجاً ناقصاً تكتنفه الخرافات والخزعات؛ ومن جهة ثالثة أبرم بعد فتح مكة نوعان من المعاهدات بين رسول الله والمشرّكين:

١- معاهدات عامّة تنص على ان الحج مُتاح لكل من يشاء ولا يُمنع أحد من الحج، وان يستتب الأمن في الأشهر الحرم ولا يُتعرض فيها لأحد.

٢- معاهدات ذات أمد مع بعض القبائل العربية^١.

وبعد غزوة تبوك نزلت آيات سورة البراءة، وأمر النبي^١ باعلان البراءة من المشرّكين، وان يضع أمداً لهذه المعاهدات، وان ينفذ بعض التعليمات التي وردت في تلك الآيات؛ وجاءت الآيات الاولى من سورة البراءة على ما يلي:

{بِرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ
الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ *
وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ
أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ
لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ
الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ
أَحَدًا فَاتِّمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَّقِينَ * فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ
حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَخَصَرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ
مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا

سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ^١.

مبعوث الرسول

بعد نزول هذه الآيات علّم النبي^١ قسماً من الآيات الاولى لسورة البراءة لأبي بكر وأمره بتلاوتها في يوم عيد الأضحى عند اجتماع الحجاج.

سار ابو بكر الى مكة، وفي هذه الاثناء نزل الوحي على الرسول^١ بأن هذه الرسالة لا يؤديها عنك الا انت او رجل منك، وعند وصول هذا الأمر، أمر رسول الله^١ علياً بأن يسير الى مكة ويأخذ الآيات من ابي بكر في الطريق ويبلغها للمشركين في اجتماع الحجاج.

توجّه علي^٢ الى مكة راكباً جمل الرسول^١ وأبلغ أبا بكر أمر الرسول^١. فسلم ابو بكر الآيات الى علي وعاد الى المدينة غاضباً وجاء الى النبي^١ وقال له:

انك أهلّنتني لأمر طالت الاعناق إلي فيه، فلما توجهت إليه رددتني عنه، ما لي؟ أنزل في قرآن؟ فقال له رسول الله^١: لقد نزل عليّ الوحي بأن هذا الأمر يجب ان أؤديه أنا أو رجل مني.

اعلان البراءة وانذار الرسول^١

دخل عليّ مكة وتلا في يوم العاشر في ذي الحجة الآيات الاولى من سورة البراءة عند اجتماع الناس^٢، وأبلغ انذار الرسول الى اسماع كل الحجاج كما يلي:

١— ان الله ورسوله بريتان من المشركين.

٢— لا يحج بعد هذا العام مشرك.

١ - سورة البراءة (٩)، الآيات ١ - ٥.

٢ - ورد ذكر هذه الواقعة - باختلاف طفيف - في المصادر التالية: تاريخ الامم والملوك، ج٣، ص١٥٤؛ سيرة ابن هشام، ج٤، ص١٩٠؛ الكامل في التاريخ، ج٢، ص٢٩١؛ تفسير مجمع البيان، ج٥، ص٣؛ تذكرة الخواص، ص٥٧؛ البداية والنهاية، ج٥، ص٣٧ و٣٨ و٧، ص٣٥٨؛ تفسير روح المعاني، ج١، تفسير سورة <التوبة>؛ تفسير المنار، ج١٠، ص١٥٧.

٣— لا يطوف بالبيت عريان^١.

٤— للمشاركين مهلة أمدتها أربعة أشهر ابتداءً من هذا اليوم لبلوغ مأمَنهم وبلادهم، ومن بعدها لا عهد لأي مشرك، وإنما يُقتلون حيثما وجدوا، إلّا من كان له عهد مع رسول الله فعهدُه إلى أمدِه.

٥— لا يدخل الجنة إلا مسلم^٢.

وفي أعقاب هذا الإنذار وإعلان البراءة وعندما رجع المشركون إلى مواطنهم أخذوا يتلاومون ويقولون هاهي قريش قد أسلمت، فماذا تفعلون؟ فأسلموا^٣، ولم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان^٤.

المباهلة مع وفد نصارى نجران*

وفي سياق ما كتبه رسول الله^٥ إلى قادة ورؤساء وملوك أقاليم وبلدان العالم يومذاك،

١ - كان طواف المشركين عراً أحد مظاهر انحطاطهم الديني. وتعود أسبابه إلى نزعة قريش في الاستنثار بكل شيء والاستحواذ على كل شيء. وقد عرضنا توضيحاً وافياً حول هذا الموضوع في الفصل الثالث من الباب الأول من هذا الكتاب تحت عنوان <الوضع الديني المضطرب>.

٢ - ورد مفاد إنذار رسول الله - مع اختلاف من حيث الإيجاز والتفصيل - في المصادر التالية: سيرة ابن هشام، ج٤، ص١٩١؛ الميزان في تفسير القرآن، ج٩، ص١٦٣ و١٦٥؛ تفسير المنار، ج١٠، ص١٥٧؛ البداية والنهاية، ج٧، ص٣٥٨؛ الغدير، ج٦، ص٣٤٣ و٣٤٨.

٣ - الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١٥٤؛ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٢، ص٢٩١.

٤ - ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤، ص١٩١؛ ابن الأثير، البداية والنهاية، ج٥، ص٣٧.

* - نجران في مخاليف اليمن من ناحية مكة. <ياقوت الحموي، معجم البلدان، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ج٥، ص٢٦٦>. كتب عماد الدين أبو الفداء (٦٧٢ - ٧٣٢هـ): <نجران مدينة صغيرة يكثر فيها النخيل، بينها وبين مكة مسافة عشرين يوماً. (تقوم البلدان، ص١٢٧). ولكن يبدو أن هذه المدينة قد اتسعت على مدى القرون اللاحقة، إذ كتب عنها زيني دحلان (١٢٣١ - ١٣٠٤هـ). ما يلي: نجران، مدينة عظيمة تقع على مسافة سبعة منازل من مكة في اتجاه اليمن، وفيها ثلاثة وسبعون قرية. (السيرة النبوية والآثار المحمدية، ج٢، ص١٤٤). واليوم تُظهر خارطة المملكة العربية السعودية أن نجران إحدى مدن هذا البلد، وتقع قرب حدود اليمن.

٢٩٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

بعث أيضاً كتاباً الى اسقف نجران، حمد فيه إله ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب، ودعاه فيه [والمسيحيين الآخرين] الى الكف عن عبادة العباد، والتوجه الى عبادة الله، ودعاهم الى ولاية الله بدلاً من ولاية العباد؛ أو ان يدفعوا الجزية، وإن أبوا ذلك عليهم ان ينتظروا وقوع الحرب^١.

وتذكر بعض المصادر ان رسول الله^١ ضمّن كتابه^٢ الآية ٦٤ من سورة آل عمران^٣.
وبعدما تلقى اسقف نجران كتاب رسول الله^١ دعا كبار قومه ومن له علم بدينهم لبحث الموضوع؛ وبما ان علماء الدين المسيحيين كانت لديهم معلومات حول علائم نبوة الرسول وقرب مبعثه، فقد استقر الرأي عندهم ان يبعثوا وفداً الى المدينة ليأتوا رسول الله ويسألوه عن دلائل نبوته.

وبعد قدوم وفد نصارى نجران الى المدينة — وكان على رأسهم ثلاثة من كبار علمائهم، ومن الاسقف نفسه — لقيهم رسول الله^١ وحاورهم ودعاهم الى الإسلام، وتلا عليهم آيات من القرآن. فقال المسيحيون: كُنّا مسلمين قبلك. فقال: كذبتكم، يمنعكم من الإسلام ثلاث: سجودكم للصليب، واكلكم لحم الخنزير، وقولكم اتخذ الله ولداً.
ثم بدأ النقاش حول عبودية أو الوهية عيسى، واحتجّوا هم بما جاء به عيسى من المعجزات كاحياء الموتى والاخبار عن المغيّبات، وشفاء المرضى، وخاصة انه ولد من غير أب، في حين اكد رسول الله^١ لهم ان عيسى كان عبد الله ورسوله. وطال النقاش في هذا

١ - ابن واضح، تاريخ يعقوبي، (النحف: المكتبة الحيدرية، ١٣٨٤هـ.)، ج ٢، ص ٧٠ - ٧١؛ راجع: البداية والنهاية، (بيروت: مكتبة المعارف، ١٩٧٧م)، ج ٥، ص ٥٣؛ بحار الانوار، ج ٢١، ص ٢٨٥؛ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، محمد حميد الله، ص ٣٤؛ علي الأحمدي المياحي، مكاتيب الرسول (ط ٣، ١٣٦٣ هـ. ش)، ج ١، ص ١٧٥.

٢ - ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا آرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

٣ - السيّد بن طاووس، الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرّة في السّنة، تحقيق: جواد القيّومي الإصفهاني (قم: دار نشر المكتب الاعلامي في الحوزة العلمية في قم، الطبعة ٢، ١٣٧٧ هـ. ش)، ج ٢، ص ٣١١.

ولكنهم لم يذعنوا بأن عيسى كان بشراً. وفي تلك الاثناء نزل على صدر رسول الله^١ {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ}، {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ^٢، {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ^٣.

وبعد نزول هذه الآيات قال لهم رسول الله^٤ : امرني ربي انكم ان لم تسلموا ان اباهلكم^٥. فقالوا: انظرنا. ثم انهم عادوا الى مقرهم وتشاوروا في امرهم، وقد اندرهم اسقفهم وكبير وفدهم بان محمداً رسول الله وإن باهلتموه لنزل عليكم العذاب وهلكتم. ولكنهم لم يصغوا لقوله واصبروا على طلب المباهلة. وكان من المقرر ان تجري المباهلة في اليوم التالي. فقال لهم اسقفهم: انظروا ان جاء محمد غداً بولده وأهل بيته فاحذروا مباهلتته، وان باصحابه وأتباعه فباهلوه^٦. وفي اليوم التالي خرج الرسول^٧ الى المباهلة في الموعد المقرر ومعه علي، وفاطمة، والحسن والحسين^٨.

١ - سورة المائدة (٥)، الآية ١٧.

٢ - سورة آل عمران (٣)، الآيات ٥٩ - ٦٠.

٣ - سورة آل عمران (٣)، الآية ٦١.

٤ - الحلبي، السيرة الحلبية (بيروت: دار المعرفة)، ج ٣، ص ٢٣٥ - ٢٣٦؛ زيني دحلان، السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٤٤؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ٢١، ص ٣٤٧ (باختلاف ضئيل). أورد العلامة المجلسي الاخبار والروايات المتعلقة بلقاء ومناظرة رسول الله مع وفد نجران في كتاب بحار الانوار، ج ٢١، ص ٣١٩ - ٣٥٥ نقلاً عن مصادر مختلفة.

٥ - الطبرسي: اعلام الوري (طهران: دار الكتب الإسلامية، الطبعة ٣)، ص ١٢٩؛ مجمع البيان، ج ٢، ص ٤٥٢؛ المجلسي، بحار الانوار، ج ٢١، ص ٣٣٧.

٦ - الحلبي، السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٢٣٦؛ زيني دحلان، السيرة النبوية والآثار المحمدية، ج ٢، ص ١٤٤.

٢٩٦..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

ولما شاهد الاسقف من جاءوا مع الرسول، سأل: من هؤلاء معه؟ قالوا: هذا ابن عمه، وهذه بنته، وهذان ابناه^١. فقال الاسقف: يا معشر النصارى اني ارى وجوهاً لو سألو الله ان يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تبتهلوا فتهلكوا، فلا يبق على وجه الارض نصراني الى يوم القيامة. فامتنعوا عن المباهلة^٢، فصالحهم النبي^٣ على دفع الجزية ضمن معاهدة وردت تفاصيلها في كتب التفاسير والتاريخ^٤.

١ - ابن واضح، تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٧٢؛ الطبرسي، اعلام الوري، ص ١٢٩.

٢ - الحلبي، مصدر سابق، زيني دحلان، مصدر سابق؛ الزمخشري، تفسير الكشاف (بيروت: دار المعرفة)، ج ١، ص ١٩٣؛ الفخر الرازي، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) (بيروت: دار التراث الإسلامي)، ج ٨، ص ٨٢؛ السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج ٣، ص ٢٣١ (نقلاً عن تفسير الثعلبي)؛ القاضي البضاوي، انوار التنزيل، ص ٧٤.

٣ - راجع: تاريخ يعقوبي، ج ٢، ص ٧٢؛ الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٣٥٨؛ فتوح البلدان، ص ٧٥ - ٧٦؛ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص ١٣٤ - ١٣٥؛ السيرة النبوية والآثار الحمّدية، ج ٢، ص ١٤٤؛ السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٢٣٦؛ تفسير الكشاف، ج ١، ص ١٩١؛ التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، ج ٨، ص ١٨٢؛ الميزان في تفسير القرآن، ج ٣، ص ٢٣٢.

الفصل الثالث

حجة الوداع ورحلة الرسول^١

حجة الوداع

الحج أهم ممارسة عبادية وسياسية في الإسلام، سنّها النبي إبراهيم^٢. وقد سبق ان بيّنا في الفصل الثاني من الباب الاول في هذا الكتاب — عند شرحنا للوضع الديني المضطرب، وكذا عند الحديث عن سلطة قريش ونفوذها — بأن قريشاً وعموم المشركين كانوا الى حين ظهور الإسلام يؤدون الحج والعمرة، ولكنهم لم يكونوا في الواقع يؤدونها بالشكل الصحيح؛ فهم قد مسحوا الحج الابراهيمي وكانوا يؤدونه على نحو ناقص وتمازجه الخرافات والاباطيل.

ونضيف هنا بأن قريشاً يعتبرون انفسهم سكان حرم الله^٣. وبما ان عرفات تقع خارج الحرم، فان قريشاً — خلافاً لعموم المشركين — ما كانوا يخرجون الى عرفات في موسم الحج، وانما كانوا يقفون في المزدلفة (المشعر)^٤، ويسيروا من هناك الى منى؛ ومن جهة اخرى كان أهالي يثرب يحرمون عند صنم <مناة> الذي كان على الطريق بين مكة ويثرب الى جانب البحر^٥، والذين كانوا يحرمون هناك لم يكونوا يقطعون المسافة بين

١ - الازرقعي، أخبار مكة، تحقيق: رشدي (قم: منشورات الشريف الرضي، الطبعة ١، ١٤١١هـ-). ج ١، ص ١٧٦؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ-). ج ٣، ص ٣١٣.

٢ - الواقدي، المغازي، ج ٣، ص ١١٠٢؛ زيني دحلان، السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٤٣.

٣ - هشام الكلبي، الأصنام، ص ١٣؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٨٨؛ محمود شكري الألوسي، بلوغ الإرب في معرفة

٢٩٨..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

الصفاء والمروة (التي يجب ان يسعوا فيها سبع مرّات)^١. كما ان المشركين كانوا في موسم الحج يعملون على خلاف سنّة ابراهيم فيدفعون من عرفة الى مزدلفة قبل غروب الشمس^٢. وقد ادى مجموع هذه الممارسات المغلوطة الى تشويه الصورة الناصعة للحج الابراهيمي، وتدنيس هذه العبادة التوحيدية الكبرى بالشرك والخرافة.

وعند نزول آية فريضة الحج^٣، اعلن النبي^٤ ذلك للناس ثم سار بجمع كبير من مسلمي المدينة واهل البادية الى الحج^٥، وعلم المسلمين في هذا السفر الحجّ الابراهيمي عملياً، واكد — في سياق ادائه لشعائر الحج — على المسلمين ان يتعلّموا مناسك الحج منه بدقّة؛ لأنه قد لا يحج في العام القادم^٦. وكان يقول لهم: إلزموا مشاعركم؛ فانكم على ارث من ارث ابراهيم^٦.

وقد ازال النبي^٧ في سفره هذا البدع التي ابتدعتها المشركون (وخاصة قريش) في الحج ومن ذلك رغم انه كان من قريش فأنه كان يقف في عرفة — خلافاً لما كانت تفعله قريش — ورحل منها الى المزدلفة^٨، وذلك لأن الله قد أمر أن: {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ}^٩؛ كما انه كان يفيض من عرفة بعد غروب الشمس^٩.

وقد سميت هذه الحجّة بسبب ما تنطوي عليه من مضامين بـ <حجة

أحوال العرب، تحقيق محمد بركة الأثري، (القاهرة: دار الكتب الحديثة)، ج ٢، ٢٠٢.

١ - الحلبي، السيرة الحلبية، ج ٣، ص ٣١٧.

٢ - الواقدي، مصدر سابق، ج ٣، ص ١١٠٤.

٣ - ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (سورة الحج (٢٢)، الآية ٢٧).

٤ - الكليني، الفروع من الكافي (طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٤هـ)، ج ٢١، ص ٣٩٠.

٥ - ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٨١؛ الحلبي، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٢٧.

٦ - الواقدي، مصدر سابق، ص ١١٠٤.

٧ - الواقدي، مصدر سابق، ص ١١٠٢؛ زيني دحلان، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٤٣؛ المجلسي، مصدر سابق، ج ٢١، ص ٣٩٢.

٨ - سورة البقرة (٢)، الآية ١٩٩.

٩ - الواقدي، مصدر سابق، ص ١١٠٤؛ المجلسي، مصدر سابق، ص ٣٧٩.

الوداع>، <حجة الإسلام> و<حجة البلاغ>^١.

خطبة الرسول التاريخية

وضمن أداء مناسك حجة الوداع ألقى رسول الله^١ في يوم عرفة وفي صحراء عرفة خطبة تاريخية على اسماع حشود الحجاج تطرّق فيها الى قضايا بالغة الأهمية مؤكداً عليها تأكيدات صارمة؛ ومن ذلك انه بعد ان اخذ الاعتراف من الحاضرين بشأن حرمة وقُدسية ذلك الشهر (ذي الحجة)، وذلك اليوم (يوم عرفة)، قال:

ايها الناس! ان الله قد حرّم دماءكم، واموالكم، وأعراضكم، كحرمة شهركم هذا، في بلدكم هذا، في يومكم هذا، الى ان تلقوا ربكم.

ثم قال: وان كل رباً في الجاهلية موضوع، وان كل دم في الجاهلية موضوع.

وبيّن ان تغيير وتأخير الأشهر الحرم عمل محرّم وانه زيادة في الكفر^٢.

واكد كثيراً على حقوق النساء وأوصى بهن خيراً وقال: <احسنوا إلى النساء واتقوا الله فيهن؛ فانما اخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله>

ثم قال أيضاً: الا فليبلغ الشاهد منكم الغائب انه لا نبي من بعدي، وما بعدكم من أمة.

ثم اشار في سياق كلامه إلى المعتقدات والممارسات الجاهلية مُعلنًا إلغاءها وبطلانها^٣

فضيلة كبرى

قال اعلام التفسير والحديث انه بعد نزول آية المباهلة، جاء ومعه هؤلاء الأربعة [علي وفاطمة والحسن والحسين^٤]. واعتبروا ذلك فضيلة كبرى لهم؛ وذلك لأن آية وواقعة

١ - زيني دحلان، مصدر سابق، ج٢، ص١٤٣.

٢ - شرحنا موضوع تغيير الأشهر الحرم واستبدالها في الباب الاول من هذا الكتاب عند بحث الوضع الاجتماعي للعرب قبل الاسلام تحت عنوان <الأشهر الحرم>.

٣ - ابن هشام، السيرة النبوية، ج٤، ص٢٥٠ - ٢٥٢؛ الحلبي، السيرة الحلبية، ج٣، ص٣١٢؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص١٨٦؛ الواقدي، المغازي، ج٣، ص١١١؛ المجلسي، بحار الانوار، ج٢١، ص٣٨٠. تجدر الإشارة إلى ان كل من ابن سعد والواقدي قد ذكرا بأن رسول الله قد ألقى هذه الخطبة في صحراء منى.

٣٠٠..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي'

المباهلة كشفت عن ان الحسن والحسين عليهما السلام ابنا رسول الله' ، وان علياً كنفس النبي' ، وان ابنته فاطمة هي المرأة الوحيدة التي حضرت المباهلة، ولا يمكن ان تكون امرأة غيرها مصداقاً للنساء في هذا المجال.

نُقل عن عائشة انها قالت بأن رسول الله' خرج وعليه مرط مرجل من شعر اسود، فجاء الحسن فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله، ثم فاطمة ثم علي، ثم قال: { إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً }.

خبر مجيء هؤلاء الاربعة مع الرسول' إلى المباهلة يتفق على صحته علماء الشيعة وأهل السنة ونقلته الكثير من مصادر التاريخ والتفسير والحديث^٢، وأكد المحققون على هذه الفضيلة الكبرى.

١ - سورة الاحزاب (٣٣)، الآية ٣٣؛ الزمخشري، مصدر سابق. نقل الفخر الرازي هذه الرواية من غير ذكر اسم عائشة وقال: ان هذه الرواية كالتفق على صحتها بين اهل التفسير والحديث. (التفسير الكبير، ج٨، ص٨٢). وقال الشبلنجي: نقلت هذه الرواية من طرق صحيحة متعددة. (نور الابصار، ص١١١).

٢ - نذكر من المصادر التي نقلت هذا الخبر ما يلي:

تفسير الكشاف، ج١، ص١٩٣؛ مفاتيح الغيب، (التفسير الكبير) ج٨، ص٨٢؛ الدر المنثور، (دار الفكر)، ج٢، ص٢٣١ - ٢٣٣. (نقلاً عن الحاكم، ابن مردويه، ابو نعيم في كتاب الدلائل، مسلم، الترمذي، ابن المنذر، البيهقي في كتاب السنن، وابن جرير)، تاريخ يعقوبي، ج٢، ص٧١؛ ابو سعيد واعظ الخركوشي، شرف النبي، ص٢٦٢؛ القاضي البيضاوي، انوار التنزيل، (طبعة قديمة من القطع الرحلي)، ص٧٤؛ نور الأبصار، ص١١١؛ مناقب علي بن ابي طالب، ابن مردويه، تدوين وترتيب ومقدمة: عبد الرزاق حرز الدين، ص٢٢٦. الا ان اكثر ما ورد هذا الخبر مفصلاً ومبسوطاً في كتاب المرحوم السيد بن طاووس الاقبال بالاعمال الحسنة فيما يعمل مرة في السنة، ج٢، ص٣١٠ - ٣٤٨.

ورغم كل هذه الروايات التي نصت على حضور اهل البيت في المباهلة، عمد بعض المؤرخين - انطلاقاً من ميول متعصبة - إلى التلاعب بروايات المباهلة وتحريفها حسب ما تشتهي أنفسهم، فحذفوا منها اشياء و اضافوا إليها أشياء اخرى. نذكر من هؤلاء: البلاذري، وبان كثير، والشعي. فهؤلاء حذفوا اسم علي من حديث المباهلة. (راجع: فتوح البلدان، ص٧٥؛ البداية والنهاية، ج٥، ص٥٤؛ الدر المنثور، ج٢، ص٢٣٢). ورشح الحلبي وزيني دحلان كلاً من عائشة وحفصة للمباهلة، ونقلاً عن عمر انه قال: قال رسول الله (ص) لو لاعتهم لكنت آخذ بيد علي والحسن والحسين وفاطمة وعائشة وحفصة...>. (السيرة الحلبية، ج٣، ص٢٣٦؛ السيرة النبوية والآثار الحمديّة، ج٢، ص١٤٤ - ١٤٥) ونقل السيوطي عن ابن عساكر ان النبي دعا للمباهلة بأبي بكر وولده، وبعمرو وولده، وبعثمان وولده وبعلي وولده!! (الدر المنثور، ج٢، ص٣٣٣).

حجة الوداع ورحلة الرسول^١ ٣٠١

فقد نقل مسلم — المحدث الكبير من أهل السنة — عن سعد بن أبي وقاص انه قال: لما نزلت هذه الآية: {قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ} دعا رسول الله^١ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال اللهم هؤلاء أهلي^١. وقال الزمخشري بعد نقل واقعة المباهلة ورواية عائشة: <ذلك أكد في الدلالة على ثقته بحاله واستيقانه بصدقه>^٢. وقال القاضي البيضاوي بعد نقل المباهلة: <وهو دليل على نبوته وفضل من أتى بهم من أهل بيته>^٣.

وكتب السيد بن طاووس في كتاب سعد السعود ما يلي: <رأيت في كتاب تفسير ما نزل من القرآن في النبي (ص) وأهل بيته، تأليف محمد بن العباس بن مروان انه روى خبر المباهلة من احد وخمسين طريقاً عن سماء من الصحابة وغيرهم>^٤. ولا بد من التنبيه في ختام هذا البحث بأن هناك اختلاف في الآراء حول تاريخ السنة والشهر واليوم الذي وقعت فيه حادثة المباهلة^٥. ونظراً إلى ان المجال لا يتسع هنا لمناقشة هذه القضية، فقد اقتفينا فيها أثر كتاب السير الذي جعلوا هذه الحادثة ضمن احداث السنة العاشرة للهجرة.

ان مؤشرات الوضع والتحرير في هذه الروايات على قدر من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى الكشف عنها، ولكن نشر مجرد اشارة فقط إلى ان كلمة <نساءنا> لو كانت تشمل نساء النبي ايضاً، فلماذا وكيف خصصت الأهلية لحضور المباهلة باثنتين منهما فقط (وهما بنتا الخليفين)؟!

١ - صحيح مسلم، بشرح النووي، ج ١٥، ص ١٧٦.

٢ - تفسير الكشاف، ج ١، ص ١٩٣.

٣ - انوار التنزيل، طبعة قديمة، الرحلي، ص ٧٤.

٤ - المجلسي، بحار الانوار، ج ٢١، ص ٣٥٠.

٥ - للاطلاع على مزيد من التفاصيل في هذا المجال، راجع: مكاتيب الرسول، ج ١، ص ١٧٩ وفروغ ابديت، الطبعة ٢، ص ٤٤١ - ٤٤٥.

حادثة الغدير تعريف بخليفة الرسول

عند العودة من حجة الوداع، وفي يوم الثامن عشر من ذي الحجة، نزلت على رسول الله ﷺ — عندما كان في <غدير خم>* التي تبعد ثلاثة أميال عن الجحفة — الآية الشريفة {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ} ١ أمر رسول الله ﷺ بتوقف تلك القافلة التي كان فيها مائة الف من الحجاج، في ارض جرداء قاحلة وفي شدة حرارة الصيف؛ وبعد ان صلى فيهم الظهر، صعد على مرتفع وخطب فيهم؛ وأشار في خطبته أولاً إلى قرب انقضاء أجله، ثم لفت انظار المسلمين إلى دعوته مستفهماً منهم هل انه بلغ رسالته، فأيد المسلمون واكدوا انه قد بلغ وأرشد ودعا إلى ربه. ثم أوصى المسلمين بعد ذلك بالكتاب والعتره (الثقلين) داعياً إياهم إلى التمسك بهما لكي لا يضلوا من بعده. ثم أضاف: ان اللطيف الخبير أنبأني بأنهما لن يفترقا إلى يوم القيامة. وهذا ما يفرض على المسلمين ان لا يسبقوهما ولا يتخلفوا عنهما.

ثم أخذ بيد علي بن ابي طالب × مبيّناً للمسلمين بأنه سيكون خليفة المسلمين في المستقبل وقال:

ان الله مولاي، وانا مولى كل مؤمن ومؤمنة؛ ألا من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار.

وفي هذه الاثناء نزلت الآية الشريفة: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...} ٢ معلنة اكمال الدين واتمام نعمة الهداية بتعيين علي × خليفة لرسول الله ﷺ. ثم اخذ اصحاب النبي

* - غدير خم موضع بين مكة والمدينة وآخر موضع تفرق عنده قوافل مصر والعراق والمدينة.

١ - سورة المائدة (٥)، الآية ٦٧.

٢ - سورة المائدة (٥)، الآية ٣.

يهنئون علياً بهذا المنصب^١.

كانت هذه لحظة عابرة لواقعة الغدير التي لها من الشهرة ما يغنيها عن شرحها وتفصيلها؛ وذلك لأن كبار العلماء والباحثين المسلمين قد أشبعوها بحثاً في مختلف جوانبها، وخاصة المرحوم العلامة الأميني الذي بحث في كتابه القيم — الغدير — كل جوانب هذه الواقعة المهمة سواء من حيث السند أو من حيث الدلالة. ولذا فنحن نكتفي هنا بالإشارة إلى عدة أمور ضرورية، ونجيب عن بعض الأسئلة المهمة:

١ — تمثل حادثة الغدير أهم وثيقة تثبت ولاية علي بن أبي طالب، وآخرها (من حيث الترتيب الزمني؛ ولكنها ليست الوثيقة الوحيدة الدالة على هذا المعنى؛ إذ كما لاحظنا في هذا الكتاب — وفي ضوء أهمية موضوع القيادة في مصير الأمة — أن رسول الله^١ قد طرح ولاية علي بالتزامن مع رسالته منذ السنوات الأولى لبعثته (في قضية انذار عشيرته الأقربين)، ثم كان بعد ذلك يذكرها في كل مناسبة (مثل غزوة تبوك).

وقرأنا أيضاً في ما يخص إلهية منصب خلافة الرسول، بأن رسول الله^١ قد بين في السنوات الأولى لبداية دعوته العلنية — أثناء عرضه الإسلام على القبائل — وفي سياق ردّه على اقتراح تقدّم به إليه رئيس قبيلة بني عامر بن صعصعة: <إن الأمر لله يضعه حيث يشاء>.

ولو أننا نظرنا بعين الإنصاف إلى مواقف رسول الله^١ عبر السنين في ما يخص موضوع الخلافة، وتأكيد على شخصية معينة؛ وكذا لو أخذنا بنظر الاعتبار السوابق المشرفة لأصحاب النبي^١ وما كان لكل واحد منهم من وزن علمي، وإثارة، وبذل، وتضحية، ولياقة، وكفاءة؛ واعتبرنا هذه القيم معياراً للخلافة، لتوصلنا إلى نتيجة مفادها أن علي بن أبي طالب × كانت له مكانة فذة في هذا المضمار. لأن رسول الله^١ كان يؤكد على تسليط الضوء عليه بكل وضوح، ويشير في كل مناسبة بنحو معين على تقدّمه وأفضليته؛ ولم يكن أي من أصحاب رسول الله^١ يضاهي علياً × في تلك القيم والمعايير التي ذكرناها.

٢ — كما سبقنا الإشارة بأنّه ليس هناك ثمة شك أو شبهة في شهرة بل تواتر حديث

١ - العلامة الأميني، الغدير في الكتاب والسنة والأدب (بيروت: دار الكتب العربية)، ج ١، ص ١٠ - ١١.

٣٠٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

الغدير، وهناك ثلّة من علماء اهل السنّة يعترفون بهذا الأمر.
وكما اثبت العلامة الأميني في كتابه الغدير بأنّ هذه الواقعة التاريخية المهمة نقلها مائة وعشرة من الصحابة، واربعة وثمانون من التابعين، وأوردها ثلاثمائة وستون من علماء ومحدثو أهل السنّة في كتبهم، واعترف جماعة منهم بصحة سندها^١، وقلّما تحظى حادثة تاريخية من الحوادث المهمة في تاريخ الإسلام بمثل هذه الشهرة والاعتبار السندي.
اكثر من نقلوا حادثة الغدير هم المحدثون طبعاً؛ ويبدو انّهم قد خضعت للرقابة من ناحية المؤرخين (لأسباب ودوافع لا تخفى على ذوي الفضل والتحقيق). فمن بين المؤرخين ذكرها اليعقوبي بإيجاز من بعد حجة الوداع^٢، ولم يذكر الطبري هذه الحادثة في تاريخه الذي دأب فيه على شرح الحوادث بالتفصيل، ولكنه ألّف كتاباً مستقلاً في اثبات الغدير اسمه كتاب الولاية^٣ وكان هذا الكتاب موجوداً حتى القرن الثامن، وقد ذكره كل من

١ - الغدير، ج ١، ص ١٤ - ١٥١.

٢ - وخرج صلى الله عليه وآله ليلاً منصرفاً من المدينة فصار إلى موضع بالقرب من المحفة يقال له <غدير خُم> لثمانية عشر ليلة من ذي الحجة وقام خطيباً وأخذ بيد علي بن ابي طالب عليه السلام فقال: أَلَسْتُ اولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فمن كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. (ج ٢، ص ١٠٢).
وأورد المسعودي هذه الواقعة (خلافًا للمشهور) بعد عودة النبي من الحديبية، وكتب ما يلي: <... وفي منصرفه عن الحديبية قال لأمر المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه بغدير خُم: من كنت مولاه فعليّ مولاه وذلك في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة...> التنبيه والأشراف (القاهرة: دار الصاوي للطباعة والنشر والتأليف)، ص ٢٢١.

وأشار في كتابه مروج الذهب إلى الفضائل الممتازة لعلي (ع) وأورد حديث الولاية بإيجاز كالآتي: <الاشياء التي استحق بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله الفضل هي: السبق إلى الإيمان، والمجرة، والنصرة لرسول الله صلى الله عليه وآله، والقرى منه، والقناعة وبذل النفس له، والعلم بالكتاب والتنزيل، والجهاد في سبيل الله، والورع، والزهد، والقضاء، والحكم، والفقه، والعلم، وكل ذلك لعلي عليه السلام منه النصيب الأوفر، والخط الأكبر، إلى ما ينفرد به من قول رسول الله صلى الله عليه وآله حين آخى بين أصحابه: <أنت أخي> وهو صلى الله عليه وآله وسلم لا ضدّ له ولا ندّ. وقوله صلوات الله عليه: <أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي> وقوله عليه الصلاة والسلام: <من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه...> مروج الذهب، (بيروت: دار الأندلس، الطبعة ١، ١٩٦٥)، تحقيق يوسف اسعد داغر، ج ٢، ص ٤٢٥.

٣ - ابن شهر آشوب، معالم العلماء (النجف: المطبعة الحيدرية، ١٣٨٠هـ-)، ص ١٠٦؛ ابن طائوس الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف (قم: مطبعة الخيام، ١٤٠٠هـ-)، ابن بطريق، عمدة عيون صحاح الأخبار، تحقيق مالك الحمودي وإبراهيم البهادري

حجة الوداع ورحلة الرسول^١ ٣٠٥

النجاشي^١ (م ٥٤٥هـ.)، والشيخ الطوسي^٢ (٣٨٥ - ٤٦٠هـ) وبيّنوا طريقهم إليه.

وأورد ابن كثير (م ٧٧٤هـ) أيضاً حادثة الغدير بعد حجة الوداع وقال:

«وقد اعتنى بأمر هذا الحديث ابو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ فجمع فيه مجلدين أورد فيهما طرقه وألفاظه...»^٣ ثم نقل عدداً من روايات الطبري حول الغدير.

وكتب في موضع آخر ما يلي: «وقد رأيت له كتاباً جمع فيه

أحاديث غدير خم في مجلدين ضخمين»^٤ وكتب ابن شهر آشوب (م

٥٨٨هـ) ما يلي: له (الطبري) كتاب غدير خم وشرح أمره وسمّاه كتاب الولاية^٥.

وقال ابن طاووس في سياق احصاء رواة حادثة الغدير: «وقد روى الحديث في ذلك محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ من خمس وسبعين طريقاً وأفرد له كتاباً سمّاه حديث الولاية»^٦.

وكتب يحيى بن الحسن المعروف بابن البطريق (٥٢٣ - ٦٠٠هـ) ما يلي: «وقد

(قم: ١٤١٢هـ)، ج ١، ص ١٥٧.

ورد اسم هذا الكتاب تحت عناوين ومسميات أخرى أيضاً، مثل: كتاب الفضائل، وحديث الولاية، وكتاب غدير خم. ويبدو ان بعض هذه العناوين اتخذها علماء الكتب انطلاقةً من محتوى الكتاب، ويُحتمل ان يكون البعض الآخر منها اسماً لقسم خاص من الكتاب مما كان قد استُنسخ على حدة، كما سيأتي في الهامش التالي حيث ذكره النجاشي تحت عنوان: الرد على الحرقوصية؛ وكان الحرقوص بن زهير أحد قادة الخوارج، ولعل المراد من هذه التسمية وصف المخالفين لولاية علي (ع) بالنواصب والخوارج.

١ - محمد بن جرير ابو جعفر الطبري عامي، له كتاب الردّ على الحرقوصية ذكر طرق خبر يوم الغدير، أخبرنا القاضي ابو اسحاق ابراهيم بن مخلد قال حدّثنا أبي قال حدّثنا محمد بن جرير بكتابه <الردّ على الحرقوصية>. (النجاشي، فهرست مصنّفي الشيعة، قم: مكتبة الداوري، ص ٢٢٥). وذكر السيد بن طاووس في كتاب الاقبال، ج ٢، ص ٢٣٩ بهذا الاسم أيضاً.

٢ - محمد بن جرير الطبري، ابو جعفر صاحب التاريخ، عامي المذهب له كتاب غدير خم وشرح أمره بصفته. أخبرنا به احمد بن عبدون عن الدوري عن ابن كامل عنه (الطوسي، الفهرست، مشهد: جامعة مشهد، ١٣٥١ هـ. ش) ص ٢٨١.

٣ - البداية والنهاية، ج ٥، ص ٢٠٨. تجدر الإشارة إلى ان ابن كثير قد نقل حادثة الغدير ولكنه طعن في دلالتها على ولاية علي (ع). وهذا ما سنبجته لاحقاً.

٤ - المصدر السابق، ج ١١، ص ١٤٧. وقد اورد ذلك ضمن حوادث عام ٣١٠هـ وهي سنة وفاة الطبري.

٥ - معالم العلماء، ص ١٠٦.

٦ - الطرائف، ج ١، ص ١٤٢.

٣٠٦..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

ذكر محمد بن جرير الطبري، صاحب التاريخ خبر يوم
الغدير وطرقه من خمسة وسبعين طريقاً وأفرد له كتاباً
سمّاه كتاب الولاية^١.

وقد قدّم هؤلاء المحققين والمؤرخين الذين ذكرناهم شرحاً اجمالياً لطبيعة كتاب الولاية
للطبري بينما اكتفى البعض منهم — كما فعل ابن كثير — بنقل عدد من رواياته.
والقاضي النعمان المغربي المصري (ابو حنيفة النعمان بن محمد التميمي، م ٣٦٣هـ) هو
الوحيد الذي نقل ما يربو على خمس وسبعين رواية من روايات الطبري في فضائل علي[×]
في كتاب شرح الاخبار في فضائل الائمة الاطهار. وبذلك نقل ما ذكره الطبري إلى الآتين
بعده^٢. وقال في وصفه: <وهو كتاب لطيف بسط فيه ذكر فضائل
علي عليه السلام>^٣.

وأضاف القاضي النعمان يقول بعد بيان دوافع الطبري لتأليف هذا الكتاب^٤:
<ثم جاء أيضاً في هذا الكتاب باب أفرد فيه
الروايات الثابتة التي جاءت من
رسول الله^١
بأنه قال — قبل حجة الوداع وبعدها —: من كنت مولاه

١ - عمدة عيون صحاح الأخبار، ج ١، ص ١٥٧.

٢ - طبع هذا الكتاب في عام ١٤١١هـ. من قبل مؤسسة النشر الاسلامي في قم في ثلاثة مجلدات، وقد نقل في المجلد الاول منه
- ابتداءً من ص ١٣٠ فما بعدها - روايات الطبري.

٣ - المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٠.

٤ - المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٠، وكان دافعه إلى تأليف الكتاب انه قد سمع بأن بعض الشيوخ ببغداد كذب غدير خم،
وقال: ان علي بن ابي طالب كان باليمن في الوقت الذي كان فيه رسول الله (ص) بغدير خم.

وبلغ الطبري ذلك فابتدأ بالكلام في فضائل علي بن ابي طالب عليه السلام وذكر طريق غدير خم. (شرح الاخبار، ج ١،
ص ١٣٠؛ ياقوت الحموي، معجم الادباء، ج ١٨، ص ٨٤ - ٨٥). وبناءً على ما ذكره الحافظ ابن عساكر، وشمس الدين محمد
الذهبي بأن الشخص المذكور كان ابو بكر بن ابي داود [سليمان بن الاشعث] السجستاني [مؤلف كتاب السنن]. (تاريخ مدينة
دمشق، تحقيق علي شيري، بيروت: دار الفكر، الطبعة ١، ١٤١٨هـ، ج ٥٢، ص ١٩٧ - ١٩٨؛ تاريخ الاسلام، حوادث سنة
٣١٠، ص ٢١٣؛ تذكرة الحفاظ، دار احياء التراث العربي، ج ٢، ص ٧١٣).

ابو بكر بن ابي داود متهم ببغض علي بن ابي طالب (تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٩، ص ٨٧؛ ميزان الاعتدال، ج ٢، ص ٤٣٤؛ تاريخ
بغداد، ج ٩، ص ٤٦٧ - ٤٦٨).

حجة الوداع ورحلة الرسول^١ ٣٠٧

فعلني مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله؛ وكذلك قال: علي أمير المؤمنين، علي أخي، علي وزير، علي وصي، علي خليفتي على أمي من بعدي، علي أولى الناس بالناس من بعدي، وغير ذلك مما يوجب له مقامه من بعده، وتسليم الأمة له ذلك، وان لا يتقدم عليه أحد منها، ولا يتأمر عليه^٢.

٤- الشبهة الوحيدة الجديرة بالذكر التي طرحت في هذا المجال هي التشكيك في مفاد هذا الحديث، وهي شبهة أثارها علماء من أهل السنة مثل الفخر الرازي، والقاضي عضد الدين الأيوبي. فهؤلاء قد اقروا أصل القضية ولكنهم فسروا كلمة <المولى> التي استخدمها رسول الله^٣ بشأن علي^٤ والتي يعني الولاية الإلهية، والامامة، فسروها بمعنى الحب والناصر وما شابه ذلك، وادعوا بأن هذه الحادثة لا تدل على ولاية علي، وإنما أعلن النبي^٥ في تلك الخطبة لزوم محبة علي^٦؛ وقالوا بأن مفعول (مولى) لا تأتي في اللغة بمعنى أفعل (أولى)، وعلى هذا فإن المولى في كلام الرسول بمعنى الحب والصديق^٧.

وقد أثبت العلامة الأميني عدم صحة هذا البحث من خلال بحث علمي دقيق استدلل فيه بشواهد قرآنية وحديثية ولغوية كثيرة، واستدل على ذلك أيضاً بأقوال كبار الأدباء وعلماء اللغة، وبيّن بأن كلمة المولى شائعة ومستخدمة في كل من الميادين الثلاثة بمعنى الأولى. ومن الأمثلة على ذلك أن كلمة المولى في الآيات التالية لا تفيد — بحكم السياق والجوانب الأخرى — إلا معنى الولي، والمتصدي للأمر، والمفوض في الأمر:

{فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا
مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}^٨
{وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ

١ - شرح الأخبار، ص ١٣٤ - ١٣٥. وللإطلاع على مزيد من المعلومات حول كتاب الولاية، راجع: باره هاي بر جاي مانده

(القصاصات المتبقية من) كتاب فضائل علي بن أبي طالب، رسول جعفریان، مجلة ميقات حج، العدد ٣٤.

٢ - الغدير، ج ١، ص ٣٥٠، ٣٥٤، ٣٥٦.

٣ - سورة الحديد (٥٧)، الآية ١٥.

٣٠٨..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

النَّصِيرُ^١.

{ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ^٢.

{بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ^٣.

{قَدْ لَنَ يُصِيبُنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا^٤.
{يَدْعُو لَمَنْ ضُرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَيْتِ الْمَوْلَى وَلِبَيْتِ الْعَشِيرِ^٥.

وقد فسّر المفسّرون كلمة المولى في هذه الآيات بهذا المعنى.

وجاء أيضاً في الحديث: <إيما امرأة نكحت بغير إذن مولاهها فنكاحها باطل^٦>. وفسّر الفقهاء والمحدثون كلمة المولى في هذا الحديث بمتولي أمر المرأة.

وقد اورد العلامة الاميني سبعة وعشرين معنىً محتملاً لكلمة المولى، وان احدها في خطبة الرسول يستلزم معنى الكذب، وهناك معنى آخر يستلزم الكفر، والبعض الآخر غير ممكن، والبعض الآخر لغو، ولا فائدة فيه، أو سخيّف، والمعنى الوحيد الذي يمكن ارادته منها هو معنى <أولى بالشيء^٧>.

١ - سورة الحج (٢٢)، الآية ٧٨.

٢ - سورة محمد (٤٧)، الآية ١١.

٣ - سورة آل عمران (٣)، الآية ١٥٠.

٤ - سورة التوبة (٩)، الآية ٥١.

٥ - سورة الحج (٢٢)، الآية ١٣.

٦ - ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، الاقتصاد الهادي إلى طريق الرشاد >طهران: مكتبة جامع تشهل ستون (الاربعون عموداً)، ١٤٠٠هـ، ص ٢١٧ نقلاً عن مسند احمد، ج ٦، ص ٤٤؛ ابن البطريق، عمدة عيون صحاح الأخبار، ج ١، ص ١٥٩؛ ابن حزم، ابو محمد علي بن احمد، المحلى، تحقيق احمد محمد شاكر، (بيروت: دار الآفاق الحديثة)، ج ٩، ص ٤٧٤، المسألة ١٨٣٨.

٧ - الغدير، ج ١، ص ٣٦٧ - ٣٧٠.

حجة الوداع ورحلة الرسول^١ ٣٠٩

ثم اورد العلامة الأميني كلمات واستدلالات لاربعة عشر من ابرز محدثي علماء أهل السنة ممن قالوا بأن معنى المولى في خطبة الغدير هو الأول بالشيء، ومنهم شمس الدين ابو المظفر سبط بن الجوزي الحنفي (٥١١ هـ - ٦٥٤ هـ) الذي قال:

قد اجمع الناس على ان قصة الغدير كانت في مرتجع رسول الله^١ من حجة الوداع، في الثامن عشر من ذي الحجة بحضور جمع غفير من الصحابة يبلغ عددهم مائة وعشرين ألفاً، وقال رسول الله من كنت مولاه فعلي مولاه.

ثم ذكر المعاني المحتملة لكلمة المولى وناقش تسعة معان منها، مؤكداً صحة المعنى العاشر منها وهو معنى <الأولى بالشيء>، ويستدل على ذلك بالآية ١٥ من سورة الحديد معتبراً ان كلمة المولى نص صريح في اثبات امامة علي^٢ وقبول طاعته^٣. ثم نقل اشعاراً من شعراء ذلك العصر منهم حسان بن ثابت الذي كان حاضراً في الغدير، الذين فهموا كلمة المولى بمعنى الإمام وبيّنوا معناها في اشعارهم.

شواهد وقرائن

هناك مجموعة من الشواهد والقرائن المتصلة والمنفصلة في الخطبة تؤيد المعنى الذي سبق ذكره، وتبيّن ان القضية كانت أبعد من اعلان المحبة لعلي^٢، نذكر منها:

أ — ليس من المعقول ان يصدر أمر بايقاف قافلة مؤلفة من مائة الف نفر في ذلك الجو الحار، من اجل الاعلان عن أمر محبة علي^٢؛ وذلك لأن الأخوة بين المسلمين ووجوب محبة اهل الايمان لاسيما محبة شخصية بارزة مثل علي^٢، ليست مما يخفى على الناس بحيث تتطلب الاعلان عنها من قبل الرسول^١.

ب — تدل مقدّمة الخطبة على نوع من تنبؤ الرسول^١ بقرب وفاته، وهي تتناسب وتترابط مع قضية استخلافه وليس مع محبته.

١ - ... فتعيّن الوجه العاشر وهو <الأولى> ومعناه من كنت اولى به من نفسه فعليّ اولى به... فعلم أنّ جميع الناس راجعة إلى الوجه العاشر، ودلّ عليه أيضاً قوله صلى الله عليه وآله: الستّ اولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهذا نصّ صريح في اثبات امامته وقبول طاعته... <تذكرة الخواص، (النحف: المكتبة الحيدرية، ١٣٨٣ هـ)، ص ٣٠ - ٣٣>.

٣١٠..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

ج — استخدم الرسول أولاً تعبير أولى من النفس في ما يخص ذاته، ثم وصف علياً بالأولى؛ وهذا الاقتران يمثل دلالة واضحة على انه كان بصدد اثبات مقام لعلي (وهو ولاية أمر المسلمين) وهذا المقام يملكه الرسول نفسه*.

د — تهنئة المسلمين لعلي × بعد خطبة الرسول^١ بصفته مولى المؤمنين، وهذا يتناسب مع الولاية فقط.

هـ — اعلان اكمال الدين واتمام النعمة من الله تعالى لا يتناسب ابداً مع موضوع المحبة والنصرة.

و— كان حسان بن ثابت شاعر رسول الله والاديب والخبير بكلام العرب آنذاك، قد شهد الغدير في ذلك اليوم؛ وعندما استأذن من رسول الله صاغ خطبته في كلام منظوم من الشعر، واستخدم فيها كلمة <امام> و<هادي> بدلاً من كلمة مولى:

فقال له قم يا علي فاني رضيتك من بعدي اماماً وهادياً

وكتب أمير المؤمنين × ضمن اشعار ارسلها إلى معاوية، ما يلي:

واوجب لي ولايته عليكم رسول الله يوم غدير خم^١

٤— ربط ابن كثير بين حادثة الغدير ومسير علي × إلى اليمن قبل حجة الوداع، مدعياً بأنه قد عارض تصرف أصحابه في الغنائم قبل قدومها على رسول الله^١ فضايقوا من عدله^٢.

*— طبقاً لرواية نقلها احمد بن حنبل (في المسند، ج ١، ص ١١٠)، وابن الاثير (في اسد الغابة، ج ٤، ص ٢٨) ان رسول الله (ص) قال: الست اولى بالمؤمنين من انفسهم وازواجي امهاتهم، من الواضح تماماً ان امومة ازواج النبي للمسلمين وفقاً للآية السادسة من سورة الاحزاب من الاحكام الخاصة به بمناسبة نبوته، والاتيان بها هنا إلى جانب اولويته بالمؤمنين من انفسهم، يدل بوضوح على ان الرسول كان يريد طرح مقام نبوته، ثم الاعلان عن نظيرها؛ أي الولاية لعلي، واثباتها.

تجدر الإشارة إلى ان ابن كثير الذي كانت له ميوله الخاصة، نقل الحديث المذكور ووصفه بأنه ضعيف وغريب من غير الاتيان بأي توضيح او دليل على ذلك! (البداية والنهاية، ج ٥، ص ٢١١) في حين ان راوية الاول - وهو عبد الرحمن بن ابي ليلى - موثق من قبل علماء اهل السنة. ونُقل هذا الحديث من عدة طرق اخرى أيضاً. (راجع: الغدير، ص ١٧٧ - ١٧٨).

١ - للاطلاع على مزيد من التفصيل حول هذه القرائن والشواهد، راجع: الغدير، ج ١، ص ٣٧٠ - ٣٨٥؛ بيشوائي از نظر اسلام، جعفر سبحاني، ص ٢٣٤ - ٢٣٨.

٢ - للاطلاع على مجريات هذه القضية، راجع: الواقدي، المغازي، ج ٣، ص ١٠٨١؛ البداية والنهاية، ج ٥، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

حجة الوداع ورحلة الرسول^١ ٣١١

لذلك بيّن رسول الله في الغدير فضل علي بن ابي طالب وامانته وعدالته وقربه إليه ما أزاح به ما كان في نفوس كثير من الناس منه...^١.

ولكن هذا التوجيه لا يقوم على اساس صحيح؛ وذلك لأن النبي قد ردّ في ما يتعلق بمسير علي إلى اليمن، على شكوى من رافقوه في هذا المسير (قبل الحج) وقال لهم: يا ايها الناس لا تشكروا علياً فوالله انه لأحشن في ذات الله أو في سبيل الله [من أن يُشكى]^٢. وانزاحت تلك القضية من نفوس من كانت في نفوسهم اشياء عليه بعدما ألقى رسول الله تلك الكلمة القاطعة، ولم يعد ثمة ما يبرر اعادة طرح قضية حصلت لثلاثمائة شخص^٣ وانتهت في حينها، على حشد من مائة ألف نفر!

٥- قال بعضهم: لو كان النبي محمد^٤ قد نصب علياً^٥ للامامة في الغدير، لما خالفه أصحابه من بعده ولما تجاهلوا كلامه الصريح والمؤكد؛ لأن اصحابه كانوا مؤمنين صالحين وضعوا في سبيل الإسلام بأموالهم وانفسهم. وان كانت مثل هذه الحادثة قد وقعت فمن المستبعد ان يخالفوها، خاصة وان رحلة الرسول قد جاءت بعد مدّة قصيرة (حوالي سبعين يوماً) بعد الغدير، وهذا يعني انها لم تكن قد نُسيّت بعد.

وللرد على هذه الشبهة ينبغي الالتفات إلى انه يتبيّن عند تسليط الضوء على حوادث عهد رسول الله بأنه على الرغم من المراتب المعنوية للأفراد (بشكل عام) الا ان عصيان اوامره لم يكن بالشيء الجديد وانما كانت له سابقة بينهم، اذ كانت هناك مؤشرات على

١ - ... فبيّن فيها فضل علي بن ابي طالب وبراءة عرضه مما كان تكلم فيه بعض من كان معه بأرض اليمن، بسبب ما كان صدر منه اليهم من المعدلة التي ظنّها بعضهم جوراً وتضييقاً وبخلاً، والصواب كان معه... وذكر من فضل علي وامانته وعدله وقربه اليه ما أزاح به ما كان في نفوس كثير من الناس منه... (البداية والنهاية، ج ٥، ص ٢٠٨).

٢ - تاريخ الامم والملوك، ج ٣، ص ١٦٨؛ نهاية الإرب في فنون الأدب، ج ٢، ص ٣٢٩؛ البداية والنهاية، ج ٥، ص ٢٠٩؛ راجع: ترجمة الإمام علي عليه السلام من تاريخ مدينة دمشق، تأليف الحافظ ابن عساكر، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي (بيروت: دار المعارف للمطبوعات، ١٣٩٥هـ-)، ج ١، ص ٣٨٦.

٣ - ذكر المؤرخون وكتاب السير ان عدد افراد الجيش الذي كانت تحت إمرة علي (ع) في مسيره إلى اليمن كان ثلاثمائة شخص. راجع: الواقدي، المغازي، ج ٣، ص ١٠١٩؛ الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ١٦٩.

٣١٢..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

عدم الصفاء عند بعض المسلمين يومذاك مما كان يؤدّي بهم إلى عدم إطاعة امر الله ورسوله في كل زمان ومكان؛ وإذا كانت اوامر الرسول تتعارض مع رغبتهم الشخصية وميولهم القبلية او افكارهم السياسية كانوا يحاولون — بنوع من الرأي الذاتي والاجتهاد غير المبرر — ثنيه عن قراره، او التهاون في تنفيذ الامر، او كانوا يعترضون عليه أحياناً؛ وهناك امثلة واضحة على هذا النوع من المواقف التي حصلت عند ابرام صلح الحديبية، والخروج من الاحرام في حجة الوداع، ومسير جيش اسامة، وقضية الدواة والقلم في الأيام الاخيرة من حياة النبي^١.

وقد جمع العلامة السيد شرف الدين هذه المواقف في كتاب قيّم وهو كتاب النص والاجتهاد.

اضافة إلى ذلك هناك عدد من آيات القرآن الكريم تؤكد على لزوم الامتثال لأمر الرسول^١ واطاعته وتعتبر ذلك من مستلزمات الايمان، وتحذّر المسلمين من مغبة معصية أمر الرسول^١ او التقدّم عليه، وينبغي ان لا يتوقعوا ان يطيعهم الرسول! وتدل هذه الآيات — التي نعرض في ما يلي امثلة منها — على ان مثل هذه المخالفات كانت موجودة:

{... فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}^١.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}^٢.

{وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ}^٣.

{وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ

١ - سورة النور (٢٤)، الآية ٦٣.

٢ - سورة الحجرات (٤٩)، الآية ١.

٣ - سورة الحجرات (٤٩)، الآية ٧.

وَرَسُولُهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا^١.

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا^٢.}

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ^٣.}

وفضلاً عن كل ذلك، فقد بذل رسول الله^١ كثيراً من الجهود وتحمل مشقات لا حصر لها للقضاء على النظام القبلي المقيت وما تصاحبه من ظواهر وافرازات كالتعصب القبلي، والتنافس القبلي، الذي كان سبباً للكثير من المآسي والويلات للناس في العصر الجاهلي، ولكن ما من شك في ان رواسب الثقافة القبلية قد بقيت كامنة في نفوس عدد من المسلمين (كالنار تحت الرماد) وكانت تطفو على السطح احياناً، مثلما حصل بين الأوس والخزرج في اعقاب وفاة الرسول مباشرة، إذ سارعوا إلى احياء الميول القبلية وقالوا: نحن الامراء وانتم الوزراء، وقالوا أيضاً: منا امير ومنهم امير، في حين ان تعاليم الإسلام قد ازلت الحدود القبلية مثل <انا> و<نحن>، وغدا الكل يتحدث بصيغة <نحن> وأصبح الجميع اخوة في الدين {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}.

وعلى هذا الأساس فمن المقبول جداً على احسن الاحوال ان يشعر بعض الناشطين السياسيين القرشيين (كما كان الحال في عهد الدعوة في مكة) بالتنافس مع بني هاشم، ويضعون تلك المعايير بنظر الاعتبار فيمنعهم ذلك من تحمل خلافة رجل من بني هاشم!

٦- وردت في كتب التفسير والحديث احتمالات اخرى أيضاً في شأن نزول الآية الثالثة، والآية السابعة والستين من سورة المائدة؛ ولكن هناك وثائق وشواهد كثيرة تثبت ان

١ - سورة الاحزاب (٣٣)، الآية ٣٦.

٢ - سورة النساء (٤)، الآيات ٦٤ - ٦٥.

٣ - سورة الانفال (٨)، الآية ٢٠.

٤ - ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة (قم: منشورات الشريف الرضي)، ص ٢٤ - ٢٥.

٣١٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي

كلا الآيتين نزلتا في غدير خم^١.

ويدل محتوى الآيتين أيضاً على انهما نزلتا لأمر مهم مثل قيادة الأمة من بعد الرسول^٢، وهما لا تنسجمان ولا تتسقان مع حوادث اخرى مما ذكرها البعض؛ نذكر مثلاً ان الآية الثالثة أكدت على اربعة امور تنسجم مع قضية الإمامة فقط:

أ — يأس الكفار من هزيمة الدين الإسلامي، حيث كانوا يتصورون بأن الإسلام قائم بشخص النبي^٣، وسيطوى بساط الدين بعد وفاته.

ولكنهم يؤسوا بعد تعيين رجل مقتدر وعادل ومؤهل مثل علي^٤ لخلافة النبي^٥ حيث بات من المؤكد ان مسيرة الإسلام سوف تستمر.

ب — التكامل النهائي للإسلام؛ لأن هذا الدين لا يبلغ مرحلة التكامل النهائي من غير تعيين خليفة للرسول؛ أي بغير استمرار القيادة.

ج — اتمام نعمة الهداية باستمرار قيادة الأمة.

د — اعلان الإسلام ديناً نهائياً من قبل الله تعالى من خلال اكتمال منهجه^٦.

جيش اسامة

قرأنا سابقاً بأنه في السنة الثامنة للهجرة حيث وقعت معركة مؤتة، كان أحد القادة الثلاثة الذين عينهم الرسول للجيش الإسلامي هو زيد بن حارثة. وقد هزم الجيش الإسلامي في حربه مع الروم واستشهد القادة الثلاثة وعدد آخر من جنود الإسلام.

وفي السنة التاسعة أيضاً جهّز رسول الله جيشاً وسار به إلى تبوك، ولكن لم تقع معركة بين الجانبين. وكانت تلك العملية في حدود فرضية او مناورة عسكرية ناجحة.

وفي ضوء هذه المعطيات والسوابق، كان الموقف العدائي لامبراطورية الروم وقوّتها العسكرية تثير قلق النبي على الدوام، وبقي يفكر على الدوام بمواجهة الروم؛ ولذلك فقد

١ - للاطلاع على مزيد من المعلومات في هذا المجال، راجع: الغدير، ج١، ص٢١٤، ٢٤٧.

٢ - للاطلاع على مزيد من التفاصيل في هذا الصدد، وبخصوص وجود فاصلة بين الآيتين موضوع البحث من سورة المائدة، وان صدر وذيل الآية الثالثة يتناولان احكام اللحوم الحُرمة وهو امر لا صلة له بقضية الولاية، راجع: تفسير نمونه، ج٤، ص٢٦٣ - ٢٧١.

جهز — بعد عودته من حجة الوداع ودخوله المدينة — جيشاً بقيادة اسامة بن زيد بن حارثة وأمره بالمسير إلى أُبَيٍّ* (موضع شهادة أبيه) ومقاتلة الروم هناك، ودفع رسول الله^١ الراية لأسامة^١ وأصدر له التعليمات والأوامر العسكرية اللازمة؛ فعسكر اسامة في **«الجرف»*** بانتظار أن يجتمع إليه بقية الجيش^٢، وكان ضمن هذا الجيش رؤساء المهاجرين والانصار ومنهم ابو بكر، وعمر، وابو عبيدة الجراح، وسعد بن ابي وقاص^٣، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، والزبير، وأُسَيْدُ بن حُصَيْرٍ، وبشير بن سعد^٤، و (ابو الاعور) سعيد بن زيد^٥، وقتادة بن النعمان، وسلمة بن أسلم^٦

كان النبي عندما أمر بخروج الجيش، معافى وليس فيه مرض، ولكنه أُصيب في اليوم التالي بحمى ومرض انتهى بوفاته، واثناء ما كان النبي طريح فراش المرض تناهت اليه الأخبار بأن البعض يعترض على قيادة اسامة بسبب صغر سنّه، وان الجيش لم يخرج من المدينة بعد لهذا السبب؛ فخرج رسول الله^١ إلى المسجد رغم ما كان به من مرضٍ وأذى،

* - أُبَيٌّ على وزن دُنْيَا، ناحية في بلاد سوريا بين عسقلان والرملة قرب مؤتة (الحلي، السيرة الحلبية (بيروت: دار المعرفة)، ج٣، ص٢٢٧).

١ - كان سن اسامة يومذاك ١٧ أو ١٨ أو ١٩ سنة. ولم يذكر أي مصدر تاريخي ان عمره كان اكثر من ٢٠ سنة.

* - الجُرف موضع على بعد ثلاثة اميال من المدينة باتجاه الشام.

٢ - ابن سعد، الطبقات الكبرى (بيروت: دارصادر)، ج٢، ص١٩٠؛ الشيخ عبد القادر بدران، تهذيب تاريخ دمشق، تأليف الحافظ ابن عساكر (بيروت: دار احياء التراث العربي، ١٤٠٧هـ-)، ج١، ص١٢١؛ زيني دحلان، السيرة النبوية والآثار المحمدية، ج٢، ص١٣٨.

٣ - ابن سعد، مصدر سابق، ص١٩٠؛ الحلي، السيرة الحلبية (بيروت: دار المعرفة)، ج٣، ص٢٢٧؛ زيني دحلان، السيرة النبوية والآثار المحمدية، ج٢، ص١٣٨.

٤ - ابن ابي الحديد، شرح نَحْجِ البلاغة، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار الكتب العربية، ج٦، ص٥٢، نقلاً عن سقيفة ابو بكر احمد بن عبد العزيز الجوهري.

٥ - ابن سعد، مصدر سابق، ص١٩٠؛ الشيخ عبد القادر بدران، تهذيب تاريخ دمشق، تأليف الحافظ ابن عساكر (بيروت: دار احياء التراث العربي، ١٤٠٧هـ-)، ج١، ص١٢١.

٦ - ابن سعد، مصدر سابق، ص١٩٠؛ تقي الدين احمد بن علي المقرئ، امتاع الأسماع، تحقيق محمد عبد الحميد النميسي (بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة ١، ص١٤٢٠هـ-)، ج٢، ص١٢٤؛ تهذيب تاريخ دمشق، ج١، ص١٢١.

٣١٦..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبيؐ

وخطب بالناس وحثهم على السير في جيش أسامة، وقال:

ايها الناس فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري اسامة؟! ولئن طعنتم في امارته فلقد طعنتم في اماره ابيه من قبله؛ وائم الله ان كان لخليقاً بالامارة وان ابنه من بعده لخليق بالامارة^١.

واشتد المرض على رسول اللهؐ في الأيام الاخيرة من عمره فكان يُغمى عليه مرّة، ويفيق مرّة، وعندما أفاق في احد المرات سأل عن جيش اسامة. فقيل له انه يتأهب للمسير. فقال: جهّزوا جيش اسامة لعن الله من تخلف عنه^٢.

ورغم كل هذه التأكيدات من النبيؐ على بعث جيش اسامة طوال الاربعة عشر يوماً التي مرض فيها^٣، الا ان البعض ظل يتعلل ويماطل، فادّى ذلك إلى عدم حركة الجيش إلى ان توفي رسول اللهؐ.

وكما أوضحنا سابقاً عند شرح حادثة غدير خم، يُعتبر هذا الموقف من الشواهد الواضحة على عصيان بعض المسلمين للاوامر الصريحة لرسول اللهؐ.

الغاية السامية للرسولؐ

١ - ابن سعد، مصدر سابق، المقرئ، ج٢، ص١٢٤؛ زيني دحلان، مصدر سابق، الشيخ عبد القادر بدران، مصدر سابق؛ الحلبي، مصدر سابق، ص٢٢٨. وجاء نص كلام رسول الله (ص) حسب رواية البخاري ومسلم كالآتي: ان تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إماره ابيه من قبل، وأيم الله ان كان لخليقاً للإمارة وإن كان لمن أحب الناس إليّ وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده. >صحيح البخاري، تحقيق الشيخ قاسم الشماخي الرفاعي (بيروت: دار القلم، ١٤٠٧هـ.)، ج٦، ص٣٢٦؛ المغازي، الباب ٢٠٣، الحديث ٩؛ صحيح مسلم، بشرح الإمام النووي، (قم: دار الفكر، ١٤٠١هـ.)، ج١٥؛ فضائل الصحابة، ص١٩٥.

٢ - محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (قم: منشورات الشريف الرضي)، ص٢٩، نقل الشهرستاني لعن رسول الله لهذه الجماعة مرسلاً، ولكن استناداً إلى ما نقله ابن أبي الحديد فان أبا بكر بن عبد العزيز الجوهرى نقل في كتاب السقيفة هذا اللعن مسنداً عن عبد الله بن عبد الرحمن بأن رسول الله (ص) قال عدّة مرّات: انفذوا بعث اسامة، لعن الله من تخلف عنه. (شرح نهج البلاغة، ج٦، ص٥٢).

٣ - ابن واضح، تاريخ يعقوبي (النجف: المكتبة الحيدرية، ١٣٨٤هـ.)، ج٢، ص١٧٨.

حجة الوداع ورحلة الرسول^١ ٣١٧

هناك عدّة ملاحظات جديرة بالاهتمام في ما يخص سعي الرسول^١ وحرصه على بعث جيش اسامة، ولا بأس بلفت الانظار اليها في ما يلي:

١— عند تجهيز هذا الجيش الإسلامي جعل قيادته لشاب لم يبلغ العشرين من عمره، في حين ان هذا الجيش قد أعدّ لمحاربة اقوى عدو وبهدف الهجوم على موضع حساس وبعيد عن عاصمة الحكم الإسلامي.

٢— في هذا الجيش جُعل تحت قيادة اسامة رجال وشيوخ كان بعضهم من قادوا الحروب وخاضوا المعارك، ومنهم من كانوا رؤساء قبائل أو من كبار اصحاب رسول الله^١ ممن كانوا يرون لأنفسهم مكانة رفيعة ومنزلة عليا ويعدّون انفسهم لتسلّم منصب أرفع من منصب هذا القائد الشاب.

٣— على الرغم من ان رسول الله^١ كان يعلم بقرب نهاية عمره (وهو ما أشار إليه في مطلع خطبة الغدير) وكانت غيوم الفتنة تحيّم على ربوع الامة الإسلامية، بيد انه بعث جيش الإسلام إلى ارض قصيّة، وارسل كبار المهاجرين والانصار برفقة هذا الجيش؛ وفي ضوء التدبير وبُعد النظر والسياسة الالهية للرسول^١ يتّضح بانه ليس هناك من شك في ان الاقدام على مثل هذا الأمر الخطير كان لأجل هدف مهم يهون في ازائه تحمل مثل هذه المصاعب والاحطار.

ويمكن ان نستخلص من خلال تمحيص هذه الملاحظات بأن رسول الله^١ كان يهدف إلى تحقيق غايتين أساسيتين، فضلاً عن الهدف العسكري المتمثل — بمواجهة الروم ودرء خطرهم؛ وهاتين الغايتين الأساسيتين هما:

أ — الغاية التي كان يرمي اليها الرسول^١ من وراء تعيين اسامة لقيادة الجيش هي لفت انظار المسلمين عملياً إلى ان الشيء المهم في قضية الرئاسة والقيادة هو الكفاءة؛ وصغر السن لا يقلل من كفاءة أحد، كما ان كبر السن ليس دليلاً على الكفاءة؛ ولهذا السبب قال الرسول في سياق ردّه على مطاعن المعترضين: <ان زيدا كان خليفاً بالامارة، وان ابنه من بعده لخليق بالامارة>.

لقد اكد قائد الإسلام العظيم بهذا البيان القاطع والصريح أهلية أسامة للقيادة معرباً عن

٣١٨..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

مخالفته للأفكار الباطلة التي اثارها البعض ظناً منهم بان عنصري السن والنسب دخيلين في احراز مثل هذا المنصب. وهل كان يرمي من وراء اصراره على قيادة اسامة سوى تمهيد الأرضية عملياً لاستخلاف علي[×]، واجهاض الاعتراضات التي كان من المتوقع ان يثيرها البعض ويتخذون من قضية السن ذريعة للطعن في عدم كفاءة وأهلية علي[×] للتصدي لمنصب الخلافة؟

ب — كان هدف الرسول ان يكون المنافسون السياسيون لعلي[×] ممن كانوا يطمعون في الخلافة بعيدون عن المدينة اثناء وفاته؛ ولهذا السبب كان قادة المهاجرين والانصار ضمن ذلك الجيش، بحيث يتسنى لعلي[×] السيطرة على زمام الامور في غيابهم لكي يجد المعارضون انفسهم أمام أمر واقع، وعندما يعودون من الغزو تكون امور الخلافة قد استتبّت لعلي^١. ومن هنا يمكن ان يفهم السبب الذي جعل البعض يتعلل ويسوّف في الاستجابة لمهمة اسامة — رغم اصرار الرسول وتأكيده على ذلك — وبذلك حالوا دون حركة الجيش إلى ان توفي الرسول!

الوصية التي لم تكتب

في يوم الخميس (قبل وفاة الرسول بأربعة أيام) بينما كان طريح فراش المرض قال: <ائتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً>. فقال بعض من كان عنده ان نبي الله قد غلبه الوجدع وانه ليهجر! وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله.

فاختلف القوم واختصموا، فمنهم من يقول: قاربوا إليه يكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول: ألا ناتييك بما طلبت؟ قال: <أو بعد ماذا؟ دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه. قوموا عني>.

ان ما جاء آنفاً عبارة عن ملخص لما نقله المحدثون وكتاب السير ضمن حوادث الأيام

١ - يُستدلّ من النقد غير الوجيه الذي اورده ابن ابي الحديد (م ٦٥٦هـ) في كتابه (شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ١٦١) على ان

هذا التحليل الشيعي كان معروفاً عند المؤرخين منذ القدم.

الاحيرة من حياة النبي^١.

ورغم أن هذه الحادثة قد وردت في بعض المصادر بشيء من الحذف والتحريف، أو حُذف منها اسم قائل ذلك الكلام المهين بحق النبي^١ أو نُقل كلامه بالمضمون، أو دافع عنه واثُمت له الاعذار، لكن مجموع الشواهد يدل على أن هذا العمل الذي أقدم عليه النبي^١ يمثل حلقة من سلسلة اجراءات اتخذها تمهيداً لخلافة علي^خ، وللحيلولة دون وقوع حالة الفوضى والاضطراب التي سيعيشها المسلمون بعد وفاته بشأن القيادة؛ وإذا كان البعض قد حال دون كتابة الوصية بشكل أو آخر فإن سبب ذلك يُعزى إلى أنهم قد ادركوا ما كان سيقع.

وقد اعرب عبد الله بن عباس عن اسفه لما وقع يومذاك مشيراً إلى واقعة ذلك اليوم بالقول: الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله^١ وبين كتابه، حين قال رسول الله: **«اِئْتُونِي بِالْكَتِفِ وَالِدَوَاةِ اَكْتُبْ لَكُمْ كِتَاباً لَا تَضْلُوا بَعْدَهُ اَبْدًا، فَقَالُوا: اِنَّمَا يَهْجُر رَسُولُ اللَّهِ^١»**^٢.

وبما أن هذه القضية مشهورة، بل من المسلّمات في تاريخ الإسلام — وقد نقلها القدماء والمعاصرون، وبخثوها بما فيه الكفاية — فإننا نكتفي هنا بهذا المقدار، ونحيل القارئ إلى مصادر أخرى للاطلاع على ما أُورد بشأنها من انتقادات وتحليل، إضافة إلى ما احتلّق لها من الاعذار غير المبررة، وما جاء من ردود على بعض الملاحظات والتساؤلات التي أثّرت

١ - على سبيل المثال، راجع: صحيح البخاري، تحقيق الشيخ قاسم الشماخي الرفاعي؛ (بيروت: دار القلم، الطبعة ١، ١٤٠٧)، ج ١، كتاب العلم، باب كتابة العلم (الباب ٨٢)، ج ١١٢، وج ٦؛ المغازي، الباب ١٩٩، ص ٣١٧ - ٣١٨؛ صحيح مسلم، بشرح الامام النووي، ج ١١، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصى فيه، ص ٨٩، الطبقات الكبرى، (بيروت: دار الصادر)، ج ٢، ص ٢٤٢، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، نقلاً عن أبي بكر الجوهري في كتاب السقيفة.

٢ - لما اشتد بالنبي صلى الله عليه وآله وجهه قال ائتوني بكتاب اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده. قال عمر: إن النبي صلى الله عليه وآله غلبه الوجع، وعندنا كتاب الله حسبنا. فاختلفوا وكثر اللغظ؛ قال (ص) قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع. فخرج ابن عباس يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين كتابه. (ص) حيح البخاري، ج ١، ص ١٢٠؛ راجع: الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٢٤٤).

في هذا المضمار^١.

وفاة رسول الله^١

وبعد ثلاثة وعشرين سنة قضاها رسول الله في الدعوة والجهاد وإبلاغ رسالة ربّه، وبعدما عاش تقلّبات ومنعطفات حادّة على طريق أداء رسالته الكبرى، انتقل أخيراً الى الدار الباقية في يوم الاثنين الثامن والعشرين من شهر صفر من سنة احدى عشرة من الهجرة^٢، بعد اربعة عشر يوماً من المرض^٣، ودفن في حجرته التي بناها الى جوار مسجده. وبعد توسيع المسجد لاحقاً من قبل بعض الخلفاء صار مرقده الشريف في القسم الشرقي داخل المسجد.

وعلى الرغم من تحسين الوضع المالي لعموم المسلمين وللنبي الله^١ بعد بضعة سنوات من الهجرة، حيث كانت <الاموال الخالصة> وعائدات اخرى توضع تحت تصرفه، ومع ان نفوذه المعنوي وقدرته الظاهرية ازدادت كثيراً، غير ان حياته الشخصية لم تتبدل عمّا كانت عليه في السابق، وبقي يعيش حياة بسيطة جداً في تلك الحجرة نفسها الى جانب المسجد.

فهو لم يكنز ثروة ولا كانت له دار مثلما كان لسائر الناس، وكان فراشه من آدم

١ - الطوائف في معرفة مذاهب الطوائف، علي بن موسى بن طاووس، (قم: مطبعة الخيام)، ج٢، ص٤٣١ - ٤٣٥؛ النص والاحتشاد، السيد عبد الحسين شرف الدين الموسوي، (بيروت: دار النعمان، الطبعة ٣، ١٣٨٤هـ.)، ص١٦٢ - ١٧٧؛ جعفر سبحاني، فروغ ابدیت، (قم: دار نشر مكتب الاعلام الاسلامي، الطبعة ٥، ١٣٦٨ هـ. ش)، ج٢، ص٤٩٣ - ٥٠٠؛ حسن المصطفوي، الحقائق في تاريخ الاسلام والفتن والاحداث، ص١٢٩ - ١٣٥؛ يوسف غلامي، بس از غروب، (قم: مكتب نشر معارف، ج١، ١٣٨٠ هـ. ش)، ص٣٨ - ٥٣. محمد حسين هيكل، حياة محمد، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، الطبعة ٨، ١٩٦٣)، ص٥٠١؛ شرح الامام النووي على صحيح مسلم (المطبوع مع صحيح مسلم)، ج١١، ص٨٩ - ٩٣.

٢ - محمد باقر المجلسي، بحار الانوار، (طهران: دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٥هـ.)، ج٢٢، ص٥١٤، وهناك اقوال اخرى حول تاريخ وفاة النبي (ص) راجع: المصدر السابق، ص٥١٤ - ٥٢١؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٣، ص٢٧٢ - ٢٧٤؛ السيرة الحلبية، ج٣، ص٤٧٣.

٣ - ابن واضح، تاريخ يعقوبي (النحف: المكتبة الحيدرية، ١٣٨٤هـ.)، ج٢، ص١٧٨.

حشوه ليف^١.

وكان يصلي على حصير وكثيراً ما كان ينام عليه فتظهر خطوطه على جسمه^٢.
وفي الأيام الاخيرة من حياته كان هناك دينار من بيت المال كان قد بقي عند احد نسائه فأمر بتقسيمه على الفقراء^٣.
لقد عاش بمثل هذه البساطة وغادر الدنيا في مثل تلك الحجرة البسيطة، ولكنه خلّف وراءه يوم رحل ديناً عظيماً وكتاباً سماوياً وأمة موحّدة، ووضع أسس حضارة جديدة في تاريخ العالم.

نظرة شاملة الى المجتمع الإسلامي عند رحلة الرسول الله^١

في اعقاب هجرة النبي الله^١ الى المدينة واستقراره فيها، استفاد من اجواء الحرية والظروف الايجابية الاخرى وأرسى تدريجياً قواعد المجتمع الإسلامي، وأخذ يبحث المشاكل والعراقيل تدريجياً، وجعل للامة الإسلامية هوية دينية وسياسية مستقلة، وبلغ الرسالة الالهية بتمامها الى الناس. وعندما رحل كان قد ادى رسالته وحقق نجاحات باهرة وعظيمة، ولكن كانت هناك في المجتمع الإسلامي يومذاك مجموعة من القضايا والتيارات الجديدة بالتأمل، نشير الى أهمها في ما يلي:

١ — كما سبقت الاشارة فان الرسول قد استطاع ان يوحد في ظل تعاليم الإسلام القبائل العربية المختلفة والمتناثرة التي كانت تعيش على الدوام في حالة صراع وتناحر، وجعلها تعيش رباطاً مشتركاً يقوم على اساس الايمان والعقيدة والاخوة الدينية؛ وخلق من الافراد والاقوام المتفرقين بالأمس امة واحدة، وأقام — من خلال الاستعانة بأولئك الافراد — حكومة إلهية تولّى قيادتها بنفسه، وجعل من المدينة المنورة عاصمة لها؛ وفي ظل هذه الحكومة كانت تدار الامور العرفية والقضايا التي لم ينزل فيها نص إلهي خاص،

١ - الحلبي، السيرة الحلبية، ج٣، ص٤٥٤.

٢ - الحلبي، مصدر سابق.

٣ - ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٢، ص٢٣٧ - ٢٣٩.

٣٢٢..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبيؐ

بآراء واستشارة المسلمين، وكانت حرية الرأي والنقد متوفرة للجميع وكانت تلك المرة الاولى التي يعيشها فيها العرب في ظل الإسلام مثل هذه الوحدة والقوة والحياة المعنوية؛ ولكن استمرار هذا النجاح كان يتطلب وجود قيادة كفوءة ومقتدرة تقود المجتمع الإسلامي بعد الرسول مثلما كان يقودها هو استناداً الى نظام الامة والامامة على الصعيدين المعنوي والسياسي.

٢— عند وفاة الرسول اللهؐ كانت عبادة الأصنام قد اجتثت تقريباً من كل ارجاء جزيرة العرب، وعلى الرغم من عدم حصول أية فتوحات خارج جزيرة العرب، لكن الدعوة العالمية التي كان رسول الله قد بدأها أوصلت رسالة الإسلام الى أسماع قادة العالم يومذاك؛ بيد ان الكثير ممن أسلموا في اواخر عمر الرسول — في جزيرة العرب وخاصة بعد فتح مكة وغزوة تبوك — اقتصر اسلامهم على حد التظاهر بالإسلام وعلان الاستسلام للحكومة الإسلامية، ولم يكن قد دخل الإسلام في قلوبهم، ولم تتوفر لرسول الله حينذاك فرصة ارسال المبلّغين والدعاة اليهم لغرس الايمان والإسلام في نفوسهم؛ والكثير منهم لم يروا الرسول مباشرة، وانما التقاه رؤساءهم وقادتهم فقط؛ ولذلك كان ارتدادهم عن الدين شيئاً متوقعاً. بمجرد ان يشعرو بضعف قوة الإسلام. وهذه المؤشرات كانت تستلزم أيضاً استمرار القيادة الإسلامية لكي تتواصل الدعوة الثقافية التي كان يقوم بها الرسول، ولكي تكتمل هدايتهم وتطورهم معنوياً من خلال تبين وشرح تعاليم الإسلام وانجاز مهمّة الدعوة والتبليغ.

٣— بموت عبد الله بن أبي، قائد المنافقين، في السنة التاسعة من الهجرة، أخذت هذه الفرقة الخائنة والخطيرة تفقد نظمها وتماسكها؛ ولكن مع ذلك فقد كان افراد هذه الفرقة يعيشون في المدينة وما جاورها، وكانوا يترّبصون ويتربّصون الفرصة المناسبة لكي يوجهوا ضربتهم الى الإسلام وأهله.

وبالاضافة الى المنافقين الذين كانوا يعتبرون بمثابة خطر داخلي، كان هناك خطران خارجيان يهددان الحكومة الإسلامية الفتية، وهما: امبراطورية الفرس وامبراطورية الروم، حيث كانت جميع الشواهد والقرائن تؤكد عداؤهما للإسلام وموقفهما السليبي منه. ولم

حجة الوداع ورحلة الرسول^١ ٣٢٣

تكن هذه الاخطار الثلاثة بالشيء الهين الذي لا يثير مشاعر قلق النبي الله^١ ، ولا يدفعه الى اتخاذ الاجراءات والتدابير الكفيلة بافشال مخططاتهم. ثم ان هذه القضية تكشف عن مدى خطورة الموقف وتحتّم ضرورة اتحاد المسلمين تحت راية زعامة قويّة.

٤— كما سبقت الاشارة، كانت الحياة الاجتماعية لسكان جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام تقوم على أساس النظام القبلي، وكان النظام القبلي مبنياً بدوره على روابط النسب والقربى. ومن الطبيعي ان الافرازات الاجتماعية التي تتمخض مثل هذا النظام، كالتعصّب القبلي الأعمى، والتفاخر القبلي، والحروب القبلية، والتأثر القبلي كانت سبباً لخلق الكثير من المشاكل والمعضلات لهم.

وقد تمكّن رسول الله بعد جهد جهيد ومشقّة ومتاعب، وبفضل تعاليم الإسلام الداعية الى الوحدة والتكاتف، واستناداً الى كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، ان يحطّم ذلك النظام وينسج بدلاً من رابطة النسب، أواصر الايمان المشترك، واستطاع القضاء على افرازات النظام القبلي الى حدّ بعيد؛ وكان هذا من الانجازات والمعطيات البالغة الأهمية للإسلام والقرآن ورسالة النبي الله^١ ؛ الا ان الرواسب الثقافية لهذا النظام بقيت بحكم رسوخها وعمق جذورها في اذهان قسم من الناس — كما يشهد التاريخ بذلك — وكانت الريح التي تبعثها حادثة بسيطة أحياناً، كفيلة بازاحة الرماد عن تلك النار، فيكشّر التفكير القبلي عن انيابه. ولكن رسول الله^١ كان يقف بوجه امثال هذه الامور بوعي ويقضه ولا يدعها تتحول الى ازمة. وهذا المعنى يدلُّ على مدى حساسية الظروف آنذاك وهشاشة وحدة المسلمين التي لم تتحقق الا بشق الأنفس؛ واوضح شاهد على ذلك ما برز بعد وفاة الرسول مباشرة من ميول قبلية بين جماعتين كبيرتين من المسلمين.

كانت هذه المواجهات تفرض مسؤولية اعظم على عاتق الشخصيات البارزة والمؤثرة في الساحة السياسية الإسلامية، وتضعهم على محك خطير لتكشف عن مدى استعداد للتضحية في سبيل صيانة تلك الوحدة، وتميّزه عن المتمسّكين بالثقافة الجاهلية.

٥— بعد هجرة الرسول الله^١ الى المدينة كان هو المتصدّي لشؤون الزعامة الدينية والزعامة السياسية على حد سواء، فكان يؤدّي هاتين الوظيفتين سوية. فكان المسلمون

٣٢٤..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي

يستمعون الى خطبه، ويتلقون كلمات الوحي من بين شفثيه، ويصلون الجماعة بامامته، وأحبوه وانجذبوا إليه بقوة حتى انهم كانوا يتبركون بقطرات ماء وضوئه، وهؤلاء الناس أنفسهم كانوا يسارعون الى الحروب والغزوات امثالاً لأمره فيقتلون ويقتلون، ويعينون ولاية على المدن بأمره، ويفاوضون المعارضين السياسيين نيابة عنه. ولهذا السبب لم يكن يكفي ان يتصدى خليفة الرسول — بعد وفاته — للقيادة السياسية للمجتمع فحسب، بل كان ينبغي ان يكون الخليفة من بعده قادراً على التصدي للشؤون الدينية للناس فضلاً عن القيادة السياسية، أي ان يكون قادراً من حيث الاطلاع والوعي الواسع بالعلوم والمعارف الإسلامية، على ملء الفراغ الذي نتج عن وفاة رسول الله ﷺ .

الفهرس

٦	كلمة المجمع
٨	تمهيد
١٠	المقدمة
١٣	الباب الاول: بحوث تمهيدية
١٧	الفصل الاول: جزيرة العرب .. موقعها الجغرافي، والوضع الاجتماعي والحضاري
١٨	تقسيمات جزيرة العرب
١٩	تقسيمها على أساس التضاريس الطبيعية (الجنوب والشمال)
١٩	وضع جنوب جزيرة العرب (اليمن)
٢١	حضارة زاهرة في جنوب جزيرة العرب
٢٣	انهيار سد مأرب
٢٥	تأثير افول حضارات الجنوب على اوضاع شبه جزيرة العرب
٢٥	وضع شمال جزيرة العرب (الحجاز)
٢٧	البدو
٢٩	النظام القبلي
٢٩	رابطة الدم
٣٠	رئاسة القبيلة
٣١	التعصب القبلي
٣٢	الاثارات القبلية
٣٣	التنافس والمآثر القبلية
٣٤	أهمية الانساب
٣٦	الحروب القبلية
٣٨	الزهب والقتل
٤٠	الأشهر الحرم
٤١	المرأة في المجتمع العربي
٤٢	مأساة المرأة
٤٧	الفصل الثاني: صفات وخصائص العرب
٤٧	الصفات المتناقضة
٤٧	منطلقات الفضائل عند العرب

٣٢٦..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي ١

٤٨	الجهل والاساطير
٥٠	حظ العرب من العلم والفن
٥٠	مجتمع أمي
٥٠	الشعر
٥١	العرب والمدنات المجاورة
٥٣	ضعف العرب في مقابل الفرس والروم
٥٤	مفاخر وهمية
٥٥	العصر الجاهلي
٥٩	الفصل الثالث: الأديان والمذاهب في شبه الجزيرة العربية واطرافها
٥٩	الموحدون
٦١	المسيحية
٦١	المسيحية في اليمن
٦٣	المسيحية في الحيرة
٦٤	الديانة اليهودية
٦٥	اليهود في اليمن
٦٥	الصابئة
٦٦	ديانة ماني
٦٨	عبادة الكواكب
٦٩	عبادة الجن والملائكة
٧١	نشوء مدينة مكة
٧١	بقايا ديانة ابراهيم (الحنيفية)
٧٢	ظهور عبادة الأصنام بين العرب
٧٤	هل كان عبدة الاصنام يؤمنون بالله؟
٧٧	الوضع الديني المضطرب
٧٩	التحول الأساسي في ظل ظهور الإسلام
٨٠	تطور ومكانة مدينة مكة
٨١	أ - الموقع التجاري
٨٣	ب - وجود الكعبة
٨٤	تجارة وسدانة قريش
٨٦	سلطة ونفوذ قريش

٨٩..... الباب الثاني: محمد ١ من ولادته الى مبعثه

٩١	الفصل الأول: نسبه ١
٩١	اجداده ١
٩٣	شخصية عبد المطلب
٩٤	سلالة التوحيد
٩٧	الفصل الثاني: طفولته وصبا ١
٩٧	ولادته ١
٩٩	عهد الطفولة والرضاعة
١٠١	وفاة والدته وتكفل عبد المطلب له
١٠٢	وفاة عبد المطلب ورعاية ابو طالب له
١٠٢	سفره الى الشام ونبوءة الراهب
١٠٤	تحريف التاريخ من قبل المسيحيين
١٠٩	الفصل الثالث محمد ١ في شبابه

الفهرس ٣٢٧

١٠٩	حلف الفضول
١١١	سفره الثاني الى الشام
١١٢	زواجه بخديجة
١١٣	نصب الحجر الاسود
١١٥	علي x في مدرسة الرسول ^١

الباب الثالث: من البعثة الى الهجرة ١١٩

١٢١	الفصل الاول: البعثة والدعوة
١٢١	ارهاصات الرسالة
١٢٣	بداية الرسالة
١٢٤	خبر غير صحيح عن ظهور الوحي
١٢٥	نقد ودراسة
١٢٩	الدعوة السرية
١٣٠	أول من أسلم من النساء ومن الرجال
١٣١	الدلة على اسبقية علي
١٣٤	الجماعات السبقة في دخول الإسلام
١٣٤	أ - الشباب
١٣٦	ب - المحرومون والمظلومون
١٣٨	دعوة عشيرته
١٤١	الفصل الثاني: الدعوة العلنية وبدء المعارضة
١٤١	بداية الدعوة العلنية
١٤٢	محاولات قريش
١٤٣	اعلان حماية ابي طالب
١٤٣	اسباب ودوافع معارضة قريش
١٤٤	١- الخشية من انهيار النظام الاجتماعي
١٤٥	٢- المخاوف الاقتصادية
١٤٧	٣- الخوف من القوى المجاورة
١٤٨	٤- التنافس والحسد القبلي
١٥١	الفصل الثالث: تداعيات معارضة قريش والإجراءات التي اتخذتها
١٥١	ايذاء المسلمين وتعذيبهم
١٥٢	الهجرة الى الحبشة
١٥٥	ولادة فاطمة الزهراء عليها السلام
١٥٥	الاسراء والمعراج
١٥٦	تقويم روايات المعراج
١٥٧	الحصار الاقتصادي والاجتماعي ضد بني هاشم
١٦٠	وفاة خديجة وابي طالب
١٦١	دور خديجة
١٦١	دور ابي طالب
١٦٢	ايمان ابي طالب
١٦٣	دفاعه عن الرسول ^١
١٦٥	زوجات الرسول
١٦٦	١- أم حبيبة
١٦٧	٢- أم سلمة
١٦٨	٣- زينب بنت جحش

٣٢٨ تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي^١

١٧١	جذابة القرآن
١٧٢	اتهامه بالسحر
١٧٣	سفره الى الطائف للدعوة
١٧٥	هل استجار الرسول بأحد
١٧٦	دعوته القبائل العربية الى الإسلام
١٧٩	الباب الرابع: من الهجرة الى الدعوة العالمية
١٨١	الفصل الاول: الهجرة الى يثرب
١٨١	عوامل انتشار الإسلام في يثرب
١٨٣	أول جماعة اسلمت في يثرب
١٨٣	بيعة العقبة الاولى
١٨٤	بيعة العقبة الثانية
١٨٥	بداية الهجرة الى يثرب
١٨٦	مؤامرة لقتل الرسول ^١
١٨٧	هجرة الرسول ^١
١٨٧	التضحية الكبرى
١٨٩	وصول الرسول الى قبا
١٩٠	وصول الرسول الى يثرب
١٩١	بداية التاريخ الهجري
١٩٥	الفصل الثاني: الاعمال الاساسية للرسول في المدينة
١٩٥	بناء المسجد
١٩٦	اصحاب الصفة
١٩٨	وثيقة المدينة
١٩٩	المؤاخاة بين المهاجرين والانصار
٢٠١	معاهدة عدم اعتداء مع ثلاث قبائل يهودية
٢٠٢	المنافقون
٢٠٥	الفصل الثالث: مؤامرات اليهود
٢٠٥	مخالفات اليهود
٢٠٧	دوافع مخالفة اليهود
٢٠٩	تبديل القبلة
٢١٣	الفصل الرابع: تشكيل القوى القتالية الإسلامية
٢١٣	المعارك
٢١٤	المناورات العسكرية
٢١٥	اهداف الرسول من المناورات العسكرية
٢١٦	تهديد طريق تجارة قريش الى الشام
٢١٨	سرية عبد الله بن جحش
٢١٩	معركة بدر
٢٢٢	عوامل انتصار المسلمين
٢٢٥	معطيات ونتائج انتصار الجيش الإسلامي
٢٢٧	نقض معاهدة بني القينقاع
٢٢٨	زواج علي ^١ من فاطمة ^١
٢٢٩	معركة احد
٢٣٣	انتصار المسلمين في الجولة الاولى من الحرب
٢٣٤	انتصار المشركين

الفهرس ٣٢٩

٢٣٧	نتائج الهزيمة في معركة احد
٢٣٩	الهجوم الفاشل لبني أسد:
٢٣٩	حادثة الرجيع:
٢٤١	غزوة بني النضير
٢٤٤	معركة الخندق (الاحزاب)
٢٤٧	غدر بني قريظة
٢٤٨	عوامل فشل جيش الاحزاب
٢٤٨	١- الاختلاف بين بني قريظة وجيش الاحزاب
٢٤٩	٢- قتل عمرو بن عبد ود
٢٥٠	خرج الإسلام كله الى الشرك كله
٢٥١	٣- الامداد الغيبي
٢٥٢	غزوة بني قريظة
٢٥٣	نقد وتحليل
٢٥٦	غزوة بني المصطلق
٢٥٧	حج العمرة
٢٥٨	بيعة الرضوان
٢٥٨	صلح الحديبية (الفتح المبين)
٢٦٠	نبوءة الرسول
٢٦٠	نتائج صلح الحديبية

الباب الخامس: من الدعوة العالمية الى وفاة الرسول ٢٦٣

٢٦٥	الفصل الاول: الدعوة العالمية
٢٦٥	الرسالة العالمية للرسول
٢٦٦	بداية الدعوة العالمية
٢٦٧	معركة خيبر
٢٧٢	مصير يهود خيبر
٢٧٢	فدك
٢٧٣	الفصل الثاني: انتشار الإسلام
٢٧٣	معركة مؤتة
٢٧٥	فتح مكة
٢٧٦	فريش تنتقض العهد
٢٧٩	العفو العام
٢٨٠	نتائج فتح مكة
٢٨١	معركة حنين *
٢٨٣	هزيمة المسلمين في الجولة الاولى
٢٨٤	النصر الظافر في الجولة الاخيرة
٢٨٥	غزوة تبوك *
٢٨٧	استخلاف علي في المدينة
٢٩٠	وعورة الطريق
٢٩١	معاهدات الرسول مع رؤساء القبائل
٢٩١	نتائج غزوة تبوك
٢٩٢	انتشار الإسلام في جزيرة العرب
٢٩٣	البراءة من المشركين
٢٩٤	مبعوث الرسول
٢٩٤	اعلان البراءة وانذار الرسول ١

٣٣٠..... تاريخ الإسلام من الجاهلية الى رحلة النبي ﷺ

٢٩٥	المباهلة مع وفد نصارى نجران *
٢٩٩	الفصل الثالث: حجة الوداع ورحلة الرسول ﷺ
٢٩٩	حجة الوداع
٣٠١	خطبة الرسول التاريخية
٣٠١	فضيلة كبرى
٣٠٤	حادثة الغدير تعريف بخليفة الرسول
٣١١	شواهد وقرائن
٣١٦	جيش اسامة
٣١٨	جهزوا جيش اسامة لعن الله من تخلف عنه
٣١٨	الغاية السامية للرسول ﷺ
٣٢٠	الوصية التي لم تكتب
٣٢٢	وفاة رسول الله ﷺ
٣٢٣	نظرة شاملة الى المجتمع الإسلامي عند رحلة الرسول الله ﷺ

٣٢٧..... الفهرس